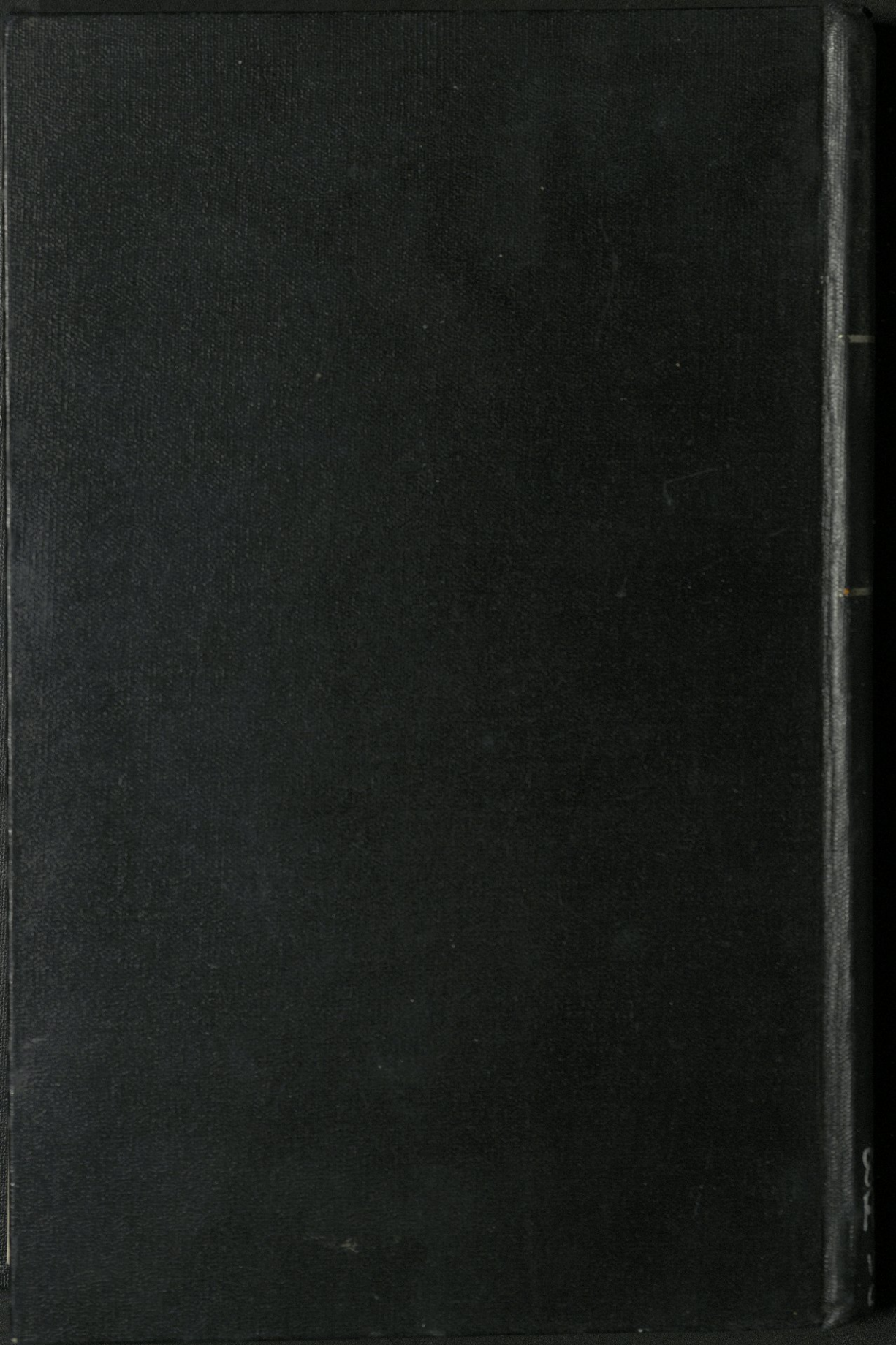
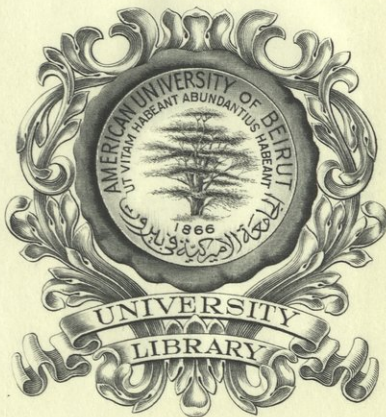
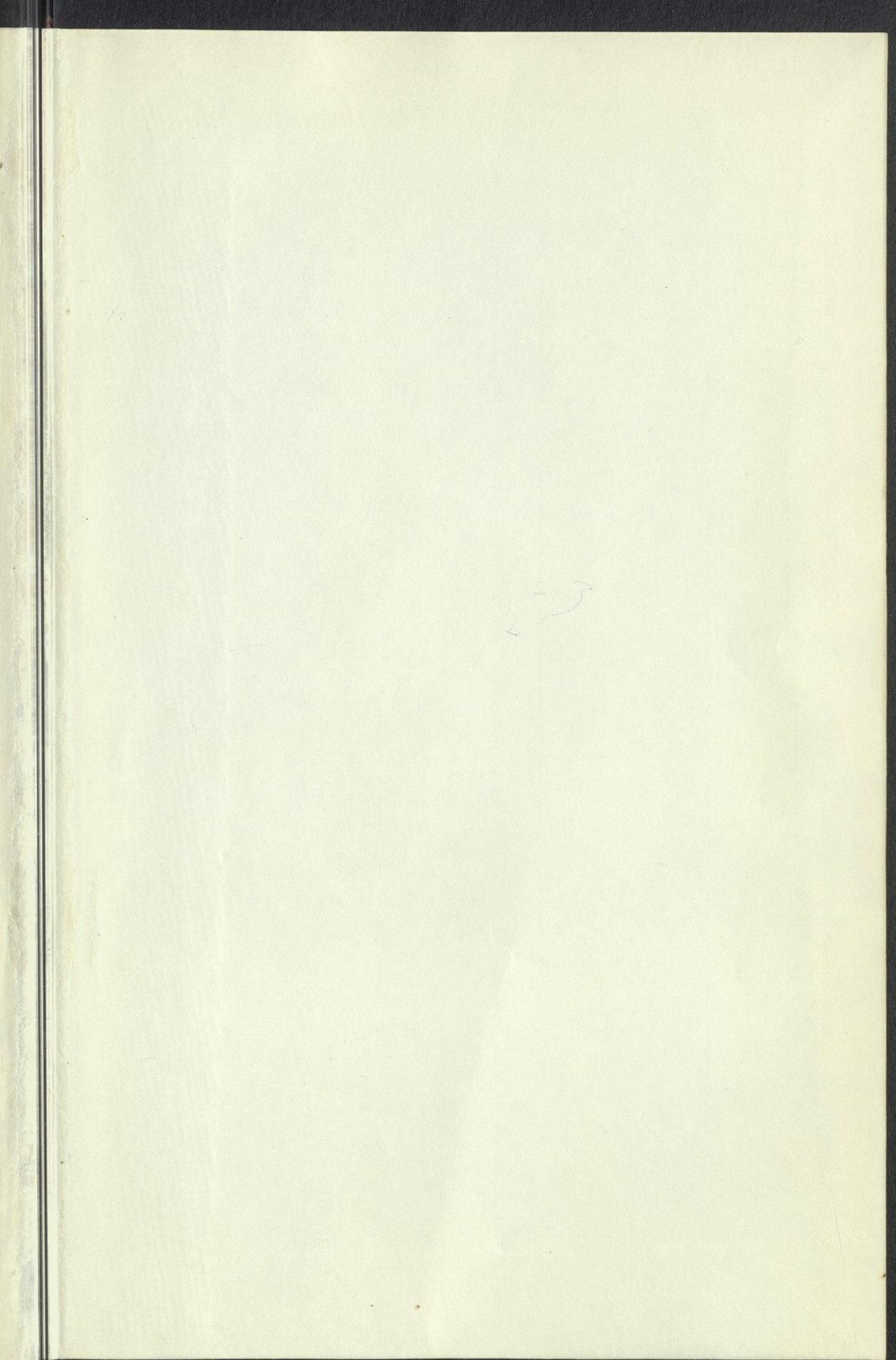




AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT







جزء الثاني من التكملة والشرح

في القلعة

هذا كتاب من التكملة والشرح
لكتاب في القلعة
من تأليف

الشيخ

مفتي دارق الرازي

الجزء الثاني

(الطبعة الأولى)

57203

مكتبة دارالكتاب والحكمة

الطبعة الأولى - 1345 هـ

Exchange

Part 1

بجته التأليف والترجمة والنشر

82
P138wA
V.2

عليه من

فتح القلعة

لجنة التأليف والترجمة والنشر

دو حتم

« بيان كانه تنزيل من التنزيل »

« أوقبس من نور الذكر الحكيم »

سعد زغلول

كتبه

892.78

R138wA

V.2
C.1

مصطفى صادق الرافعي

الجزء الثاني

[الطبعة الأولى]

57283

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٣٦ - ١٣٥٥ هـ

Exchange - Cat. Jan. 1938

كتاب

كتاب

كتاب

كتاب

كتاب

كتاب

الاشراق الالهى

وفلسفة الاسلام

كما تطلع الشمسُ بأنوارها فتُفجّرُ ينبوعَ الضوء المسمّى النهار ، يولدُ النبيُّ فيوجدُ في الإنسانية ينبوعَ النور المسمّى بالدين . وليس النهار إلا نقطة الحياة تحقّقُ أعمالها ، وليس الدينُ إلا نقطة النفس تحقّقُ فضائلها . والشمسُ خلقها الله حاملاً طابَعَهُ الإلهيَّ ، في عملها المادة تُحوّلُ به وتغيّرُ ؛ والنبيُّ يرسله الله حاملاً مثلَ ذلك الطابَعِ في عمله الروح تترقّى فيه وتسمو .

وَرَعَشَاتُ الضوء من الشمس هي قصة الهداية للكون في كلامٍ من النور ، وأَشْعَةُ الوحي في النبي هي قصة الهداية لإنسانِ الكون في نورٍ من الكلام . والعاملُ الإلهيُّ العظيم يعملُ في نظام النفس والأرضِ بأداتين متشابهتين : أجرامِ النورِ من الشموس والكواكب ، وأجرامِ العقل من الرُّسُل والأنبياء . فليس النبيُّ إنساناً من العظاء يُقرأُ تاريخُهُ بالفكر معه المنطق ، ومع المنطق الشك ، ثم يُدرّسُ بكل ذلك على أصول الطبيعة البشرية العامة ؛ ولكنه إنسانٌ نجميٌّ يُقرأُ بمثلِ « التلسكوب » في الدقة ، معه العلم ، ومع العلم الإيمان ؛ ثم يُدرّسُ بكل ذلك على أصول طبيعته النورانية وحدها .

والحياة تُنشئُ علمَ التاريخ ، ولكن هذه الطريقة في درس الأنبياء (صلواتُ الله عليهم) ، تجعلُ التاريخَ هو يُنشئُ علمَ الحياة ؛ فإنما النبيُّ إشراقٌ إلهيٌّ على الإنسانية ، يَقوّمُها في فلكِها الأخلاقي ، ويجذبُها إلى السكّال في نظامٍ هو بعينه صورةُ لقانونِ الجاذبية في الكواكب .

ويجيء النبي فتجىء الحقيقة الإلهية معه في مثل بلاغة الفن البياني ، لتكون أقوى أثراً ، وأيسر فهماً ، وأبدع تمثيلاً ، وليس عليها خلاف من الحس . وهذا هو الأسلوب الذي يجعل إنساناً واحداً فنَّ الناس جميعاً ، كما تكون البلاغة فنَّ لغةٍ بأكملها ؛ هو الشخصُ المفسِّر إذا تعسَّف الناسُ الحياةَ لا يدرون أين يؤمُّون منها ، ولا كيف يتهدَّون فيها ، فتضطرب الملايين من البشرية اضطرابها فيما تنقبضُ عنه وتتهالكُ فيه من أطماع الدنيا ؛ ثم يُخلَقُ رجلٌ واحدٌ ليكون هو التفسير لما مضى وما يأتي ، فنظهُرُ به حقائقُ الآدابِ العالية في قالب من الإنسانِ العاملِ المرئي ، أبلغ مما تظهرُ في قصة متكلمة مروية .

وما الشهادة للنبوَّة إلا أن تكون نفسُ النبي أبلغ نفوس قومه ، حتى لهو في طباعه وشمائله طبيعة قائمة وحدها ، كأنها الوضعُ النفساني الدقيق الذي ينصبُّ لتصحيح الوضعِ المغلوطِ للبشرية في عالم المادة وتنازع البقاء . وكأن الحقيقة السامية في هذا النبي تُنادي الناس : أن قابِلُوا على هذا الأصلِ وصَحِّحُوا ما اعتري أنفسكم من غلطِ الحياة وتحريفِ الإنسانية .

ومن ثم فنبيُّ البشرية كلُّها من بُعث بالدين أعمالاً مفصَّلة على النفس أدق تفصيل وأوفاه بمصلحتها ، فهو يُعطى الحياة في كل عصرٍ عقلها العملي الثابت المستقر تنظَّم به أحوال النفس على ميِّزة وبصيرة ، ويَدْعُ للحياة عقلها العلمي المتجدد المتغير تنظَّم به أحوال الطبيعة على قصْدٍ وهُدًى ؛ وهذه هي حقيقة الإسلام في أخص معانيه ، لا يُغنى عنه في ذلك دين آخر ، ولا يؤدِّي تأديته في هذه الحاجة أدب ولا علم ولا فلسفة ، كأنما هو نبعٌ في الأرض لمعانى النور ، بإزاء الشمسِ نبعِ النورِ في السماء .

وكلُّ ذلك تراه في نفسِ محمد (صلى الله عليه وسلم) ؛ فهي في مجموعها أبلغ

الأنفس قاطبة ، لا يمكن أن تعرف الأرض أكلَ منها ؛ ولو اجتمعت فضائل
الحكماء والفلاسفة والمتألمين وجُعِلَتْ في نِصَابٍ واحد — ما بلغت أن يحىء
منها مثلُ نفسه (صلى الله عليه وسلم) . ولكأنما خرجت هذه النفس من صيغة
كصيغة الدرّة في محاربتها ، أو تركيب كتركيب الماس في منجمه ، أو صفة
كصفة الذهب في عرقه . وهى النفس الاجتماعية الكبرى ، من أن تدبرتها
رأيتها على الإنسانية كالشمس في الأفق الأعلى تنبسط وتضحى .

وتلك هى الشهادة له (صلى الله عليه وسلم) بأنه خاتم الأنبياء ، وأن دينه هو
دين الإنسانية الأخير ؛ فهذا الدين فى مجموعه إن هو إلا صورة تلك النفس
العظيمة فى مجموعها : صلابته بمقدار الحق الإنسانى الثابت ، لا بمقدار الإنسان
المتغير الذى يكون عند سبب جبلاً صلباً يَشْمَخُ ، وعند سبب آخر ماء
عذباً يجرى .

وهو دين يعلو بالقوة ويدعو إليها ، ويريد إخضاع الدنيا وحكم العالم ،
ويستفرغ همه فى ذلك ، لا لإعزاز الأقوى وإذلال الأضعف ، ولكن للارتفاع
بالأضعف إلى الأقوى ؛ وفرق ما بين شريعته وشرائع القوة ، أن هذه إنما هى
قوة سيادة الطبيعة وتحكمها ، أما هو فقوة سيادة الفضيلة وتغلبها ؛ وتلك تعمل
للتفريق ، وهو يعمل للمساواة ؛ وسيادة الطبيعة وعملها للتفريق هما أساس
العبودية ، وغلبة الفضيلة وعملها للمساواة هما أعظم وسائل الحرية .

ومن هنا كان طبيعياً فى الإسلام ما جاء به من أنه لا فضيلة إلا وهو
يطبع عليها صورة الجنة بنعيمها الخالد ، ولا رذيلة إلا وهو يضع عليها صورة
النار الأبدية وقودها الناس والحجارة ؛ فلا تنظر العين المسلمة إلى أسباب الحياة
نظرة الفكر المنازع : يحرص على ما يكون له ، ويشتره إلى ما ليس له ، ويمكر
الحيلة ، ويدع وسائل الخداع ، ويزيد بكل ذلك فى تعقيد الدنيا — بل نظرة

القلب المسالم : يَخْلَعُ الدنيا وَيَسْخُو بِكُلِّ مَضْنُونٍ فِيهَا ، فيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ؛ ويعْرِفُ الإنسانيةَ وَيُطْمَعُ فِي غَايَاتِهَا العُلْيَا ، فيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ؛ وَيُدْرِكُ أَنَّ الحَلَالَ وَإِنْ حَلَّ فَوْرَاهُ حِسَابُهُ ، وَأَنَّ الحَرَامَ وَإِنْ غَرَّ لَيْسَ إِلَّا تَعَلُّلٌ سَاعَةٌ ذَاهِبَةٌ ثُمَّ مِنْ وَرَائِهِ عِقَابُ الأَبَدِ .

ويُخْرِجُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ يَكُونَ أَكْبَرُ أَغْضَاضِ الإسلامِ هُوَ أَنَّ يَجْعَلَ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى قَانُونََ وجودِ الإنسانِ عَلَى الأرضِ ، فَمَنْ أَىَّ عِظْفِيَةٍ التَفَتَ هَذَا الإنسانُ وَجَدَ عَلَى يَمْنَتِهِ يَمْنَتَهُ وَيَسْرَتِهِ مَلَائِكِينَ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ يَكْتُمَانِ أَعْمَالَهُ بِخَيْرِهَا وَشَرِّهَا ، فَهُوَ كَأَلْتَمَهُمُ الْمُسْتَرَابُ بِهِ فِي سِيَاسَةِ النَفْسِ : لَا يَمْشِي خُطْوَةً إِلَّا بَيْنَ جَاسُوسَيْنِ يَحْصِيَانِ عَلَيْهِ حَتَّى أَسْبَابَ النِّيَّةِ ، وَيَجْمَعَانِ مِنْهُ حَتَّى نَزَوَاتِ السَّكِيدِ ، وَيَتَرَجِّمَانِ عَنْهُ حَتَّى مَعَانِيَ النِّظَرِ .

وَإِذَا قَامَتِ هَذِهِ الْحِكْمَةُ الْمَلَائِكِيَّةُ وَتَقَرَّرَتْ فِي اعْتِبَارِ النَفْسِ ، قَامَ مِنْهَا عَلَى النَفْسِ شَرْعٌ نَافِذٌ هُوَ قَانُونُ الإرَادَةِ المُمَيَّزَةِ ، تُرِيدُ الحَسَنَاتِ وَتَعْمَلُ لَهَا ، وَتَخْشَى السَّيِّئَاتِ وَتَنْفَرُ مِنْهَا ، فَإِذَا مَعَانَى الجَسَدِ يَحْكُمُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، لَا لِنَتْحَقِيقِ الحُكُومَةِ وَالسُّلْطَةِ ، وَلَكِنْ لِنَتْحَقِيقِ الخَيْرِ وَالْمَصْلَحَةِ ؛ وَإِذَا نَوَامِيسُ الطَّبِيعَةِ المَجْنُونَةِ فِي هَذَا الحَيَوَانِ ، قَدْ نَهَضَتْ إِلَى جَانِبِهَا نَوَامِيسُ الإرَادَةِ الحَكِيمَةِ فِي الإنسانِ ، وَإِذَا كُلُّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ فِي النَفْسِ هِيَ مِنْ صَاحِبِهَا مَادَّةٌ تُهَمُّ عِنْدَ قَاضِيهَا فِي مُحْكَمَتِهَا ، وَإِذَا كُلُّ مَا فِي الإنسانِ وَمَا حَوْلَ الإنسانِ ، لَا يَرَادُ مِنْهُ إِلَّا سَلَامُ النَفْسِ فِي عَاقِبَتِهَا ؛ وَإِذَا مَعْنَى السَّلَامِ هُوَ المَعْنَى الغَالِبُ المُنْتَصِرُ فِي الإنسانيةِ فِي دُنْيَاهَا .

وَكُلُّ أَعْمَالِ الإسلامِ وَأَخْلَاقِهِ وَأَدَابِهِ ، فَتِلْكَ هِيَ غَايَتُهَا ، وَهَذِهِ هِيَ فِلَسَفَتُهَا ؛ لَا يَقَرُّرُهَا لِلإنْسَانِيَّةِ حَسَبُ ، بَلْ يَغْرِسُهَا فِي الْوَرَاثَةِ غَرْسًا بِالاعْتِيَادِ وَالرَّانِ الدَّائِمِ ، لَتَكُونَ عِلْمًا وَعَمَلًا ، فَتَمَكِّنَ لِسَلَامِ النَفْسِ بَيْنَ الْأَسْلِحَةِ الْمُسَدَّدَةِ إِلَيْهَا مِنْ

ضَرُورَاتِ الْحَيَاةِ ، فِي أَيْدِي الْأَعْدَاءِ الْمُتَأَلِّبَةِ عَلَيْهَا مِنْ شَهَوَاتِ الْغَرِيزَةِ .
فَلَيْسَ بِعَمِّ السَّلَامِ إِلَّا إِذَا عَمَّ هَذَا الدِّينُ بِأَخْلَاقِهِ فَشَمَلَ الْأَرْضَ أَوْ أَكْثَرَهَا ؛
فَإِنْ قَانُونُ الْعَالَمِ حِينَئِذٍ يُصْبِحُ مَنْزَعًا مِنْ طَبِيعَةِ التَّرَاحُمِ ، فَإِذَا انْتَسَخَ بِهِ قَانُونُ
التَّنَازُعِ الطَّبِيعِيِّ ، وَإِذَا كَسَرَ مِنْ شَرِّتِهِ ؛ وَيُولَدُ الْمَوْلُودُ يَوْمئِذٍ وَتُولَدُ مَعَهُ
الْأَخْلَاقُ الْإِنْسَانِيَّةُ .

تَقْرِيرُ مَعْنَى الدَّوَامِ لِكُلِّ أَعْمَالِ النَّفْسِ حَتَّى مِثْقَالِ الذَّرَّةِ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ،
وَضَبْطُ ذَلِكَ بِرِيَاضَةٍ عَمَلِيَّةٍ دَائِمَةٍ مَفْرُوضَةٍ عَلَى النَّاسِ جَمِيعًا — هَذَا هُوَ أُسَاسُ
الْعَقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ؛ وَلَا صِلَاحَ لِلْإِنْسَانِيَّةِ بغيرِهِ يَرْدُّهَا إِلَى سَبِيلِ قَصْدِهَا ، فَإِنْ
مِنْ ذَلِكَ تَكُونُ الصِّفَةُ الْعَقْلِيَّةُ الَّتِي تَغْلِبُ عَلَى الْجَمْعِ ، وَتُجَانِسُ بَيْنَ أَفْرَادِهِ ،
فَتُوجِّهُ الْإِنْسَانِيَّةَ كُلَّهَا نَحْوَ الْمُمْكِنِ مِنْ كَمَالِهَا ، وَلَا تَزَالُ تُوَجِّهُهَا نَحْوَ مَا هُوَ أَعْلَى ،
وَتَحْكُمُ فَاسِدَهَا بِصَالِحِهَا ، وَتَأْخُذُ عَاصِيَهَا بِمِطْيَعِهَا ، وَتَجْعَلُ الشَّرْفَ الْإِنْسَانِيَّ غَرَضَهَا
الْأَوَّلَ ، لِأَنَّ اللَّهَ الْحَقَّ غَرَضُهَا الْآخِرَ ؛ فَيُصْبِحُ الْمَرْءُ — وَهَذَا دِينُهُ — كَمَا
تَقْدُمُ بِهِ الْعَمْرُ كَمَلٌ فِيهِ اثْنَانُ : الْإِنْسَانُ ، وَالشَّرِيعَةُ . وَلَا يَعُودُ طَالِبُ السَّعَادَةِ
النَّفْسِيَّةِ فِي الدُّنْيَا كَالْمُجَنُّونِ يَجْرِي وَرَاءَ ظِلِّهِ لِيُمْسِكَه ؛ فَلَا يَدْرِكُ فِي الْآخِرِ شَيْئًا
غَيْرَ مَعْرِفَتِهِ أَنَّهُ كَانَ فِي عَمَلٍ بَاطِلٍ وَسَعَى ضَائِعٍ .

وَالْإِسْلَامُ يَحْرِصُ أَشَدَّ الْحَرَصِ وَأَبْلَغَهُ عَلَى تَقْرِيرِ ذَلِكَ الْمَعْنَى الْإِلَهِيِّ الْعَظِيمِ ،
لَا بِالْمَنْطِقِ ، وَلَكِنْ بِالْعَمَلِ ؛ ثُمَّ فِي النَّفْسِ وَعَوَاطِفِهَا ، لَا فِي الْعَقْلِ وَآرَائِهِ ؛ ثُمَّ عَلَى
وَجْهِ التَّعْمِيمِ ، دُونَ الْإِسْتِثْنَاءِ وَالْخُصُوصِ ؛ وَذَلِكَ هُوَ سِرُّ مَشَقَّتِهِ عَلَى النَّفْسِ بِمَا
يُفَرِّضُهُ عَلَيْهَا ؛ فَإِنْ فَالَسَفْتُهُ أَنَّ هَذِهِ النَّفْسَ هِيَ أُسَاسُ الْعَالَمِ ، وَأَنَّ النِّظَامَ الْخَلْقِيَّ هُوَ
أُسَاسُ النَّفْسِ ، وَأَنَّ الْعَمَلَ الدَّائِمَ هُوَ أُسَاسُ النِّظَامِ ، وَأَنَّ رُوحَ الْعَمَلِ الدَّائِمِ
تَكُونُ فِيهِ يَشَقُّ بَعْضُ الْمَشَقَّةِ وَلَا يَبْلُغُ الْعُسْرَ وَالْحَرَجَ ، كَمَا تَكُونُ فِيهِ يَسْهُلُ
بَعْضُ السَّهُولَةِ وَلَا يَبْلُغُ الْكَسَلَ وَالْإِهْمَالَ .

وللنفس وجهان : ما تُعْلِنُ ، وما تُسِرُّ ؛ ولا صدق لإعلانها حتى يصدق ضميرُها ، ولا صلاح لجهرِها حتى يصلح السرُّ فيها ، ولا يكون الإنسان الاجتماعي فاضلاً بمشهده حتى يكون كذلك بغيبه .

وللعالم كذلك وجهان : حاضرُه الذي يمر فيه ، وآتيه الذي يمتدُّ له ؛ ولا يُفْلِحُ حاضرُه منقطعٌ لا يُورَثُ ما بعده كما ورث ما قبله ، وما حاضرُ الإنسانية إلا جزء من عمل الناس في استمرار فضائلهم باقيةً نامية .

وللنظام أيضاً وجهان : نظامُ الرغبة على الطاعة والاطمئنان لها ، ونظامُ الرغبة على الخشية والنفرة منها . ولا يستقيم شأنُ ليس أساسه الطاعة في النفس ، ولا يستمر نظامٌ عليه خلافٌ من فكر العامل به .

وللعمل الدائم طريقتان : إحداها طريقةُ الجادِّ يعمل للعاقبة يستيقظها ، فلا يجدُّ مما يشقُّ عليه إلا لذةَ المغالبة للنصر : كلُّ مرارة من قبيله هي حلاوة فيه من بعد ، ولا يعرف للمحنة يُتلى بها إلا معناها الحقيقي وهو إيقاظ نفسه ، فيصبح الصبرُ عنده كصبر الحب على أشياء ممن يحبه ؛ صبرٌ فيه من السحر ما يكسو الحرمان في بعض الأحيان خيال الاستمتاع ، ويُدِّيقُ النفس في العجز عن بعض أغراضها — لذة كلذة إدراكه .

تلك هي فلسفةُ الإسلام ؛ لا قِوامَ للأمر فيها ولا مساكٌ له إلا بتقرير معنى الدوام لكل أعمال النفس ، ووضع طابعِ الجنة على أعمالِ الجنة ، وطابعِ النار على أعمالِ النار — وحيطة كل فرد من الناس حيطةً رياضيةً عمليةً بين الساعة والساعة ، بل بين الدقيقة والدقيقة ، بما يكف من أعمال جسمه وحواسه ، ثم أعمال قلبه ونيتِه — وتَعْظِيمُ الشخصية الروحية دون الشخصية المادية ، فلا يحاول كلُّ إنسان أن يجعل بطنه في حجم مملكة أو مدينة أو قرية ، بما ينتقص من

حقوق غيره ؛ بل تتسع ذاتية كل فرد بما يجب له على المجتمع من الواجبات الإنسانية ؛ وبهذا لا بغيره تتعين مقاييس الأخلاق في الأرض : بالمصلحة لا باللذة ؛ فلا يقع الخطأ ولا التزوير ، وتنحل المشكلة الاجتماعية ، ما دامت الحياة لا تجد من أهلها كل ساعة عقداً فيها .

والاستيلاء بذلك المعنى على العقل والعاطفة هو وحده الطريقة لإنشاء طبيعة الخير في الناس على نسقها الطبيعي ، كما أنه هو وحده الطريقة لتطهير التاريخ الإنساني من أوبائه الاقتصادية ، التي جعلته كأنما هو تاريخ الأسنان والأضراس ، وتركت الناس يهدم بعضهم بعضاً ، كما يهدم الجار حائط جاره ليوسع بيته .

وأساس العمل في الإسلام إخضاع الحياة للعقيدة ، فتجعلها العقيدة أقوى من الحاجة ؛ فيكون الفقير مُعْذِماً ويتعفف ، ويكون الغني مُوْبِراً ويتصدق ، ويكون الشره طامعاً ويُمْسِكُ ، ويكون القوي قادراً ويُحْجِمُ ، وكما قال العرب في تحقيق ناموس الأنفة والحمية وغلبته على الناموس الاقتصادي : « تجوع الحرة ولا تأكل بشديها . »

تريد الإنسانية امتداداً غير امتدادها التجاري في الأرض ، وتحتاج إلى معنى يقود إنسانها غير الحيوان الذي فيه ؛ وإذا قاد الغراب قوماً فإنما هو — كما قال شاعرنا — يمرُّ بهم على جيف الكلاب ... والإنسانية اليوم في مثل ليل حَوْشِيٍّ مظلمٍ اختلط بعضه في بعض ، وليست معاني الإسلام إلا الإشراق الإلهي على هذه الكثافة المادية المتراكمة ، وإذا رُفِعَ المصباح لم تجد الظلام إلا وراء الحدود التي تنتهي إليها أشعته .

وقد علمنا من طبيعة النفس أن إنسانية الفرد لا تعظم وتسمو وتتخيل وتفرح وفرحها الصادق وتخزن حزنها السامي — إلا أن تعيش في محبوب ؛ فإنسانية

العالم لا تكونُ مثلَ ذلك إلا إذا عاشت في نبيِّها الطبيعي ، نبيِّ أخلاقها الصحيحة وآدابها العالية ونظامها الدقيق ؛ وأين تجد هذا الحبوبَ الأعظم إلا في محمد ودين محمد ؟

وعجيبٌ أن يجهلَ المسلمون حكمةَ ذكر النبيِّ العظيم خمسَ مرات في الأذان كل يوم ، يُنادى باسمه الشريف ملء الجو ؛ ثم حكمةَ ذكره في كل صلاة من الفريضة والسنة والنافلة ، يُهْمَسُ باسمه الكريم ملء النفس ! وهل الحكمةُ من ذلك إلا الفرضُ عليهم ألا ينقطعوا من نبيِّهم ولا يوماً واحداً من التاريخ ، ولا جزءاً واحداً من اليوم ؛ فيمتدُّ الزمنُ مهما امتدَّ والإسلامُ كأنه على أوَّلِهِ ، وكأنه في يومه لا في دهرٍ بعيد ؛ والمسلمُ كأنه مع نبيِّه بين يديه تبعته روحُ الرسالة ، ويسطع في نفسه إشراقُ النبوة ، فيكونُ دائماً في أمره كالمسلم الأول الذي غيَّر وجهَ الأرض ؛ ويظهر هذا المسلمُ الأولُ بأخلاقه وفضائله وحميَّته في كل بقعة من الدنيا مكانَ إنسانٍ هذه البقعة ، لا كما نرى اليوم ؛ فإن كلَّ أرضٍ إسلامية يكادُ لا يظهر فيها إلا إنسانها التاريخيُّ بجهره وخرافاته وما وَرِثَ من القَدَم ؛ فهنا المسلم الفرعوني ، وفي ناحية المسلم الوثني ، وفي بلدٍ المسلم الجوسي ، وفي جهة المسلم المعطل ... وما يُريدُ الإسلامُ إلا نفسَ المسلم الإنساني .

أيها المسلم !

لا تنقطعْ من نبيك العظيم ، وعشْ فيه أبداً ، واجعله مثلك الأعلى ؛ وحين تذكره في كل وقت فكُنْ كأنك بين يديه ؛ كن دائماً كالمسلم الأول ؛ كن دائماً ابنَ المعجزة .

حقيقة المسلم

لا يعرف التاريخ غيرَ محمدٍ (صلى الله عليه وسلم) رجلاً أفرغَ الله وجوده في الوجودِ الإنسانيَّ كله ؛ كما تنصبُّ المادَّةُ في المادة ، لتمرَّجَ بها ، فتحوَّلُها ، فتُحدِثُ منها الجديد ، فإذا الإنسانيةُ تتحوَّلُ به وتمو ، وإذا هو (صلى الله عليه وسلم) وجودٌ سارٍ فيها فما تبرح هذه الإنسانيةُ تمو به وتتحوَّل .

كان المعنى الآدميُّ في هذه الإنسانيةِ كأنما وهَنَ من طول الدهر عليه ، يَتَحَيَّفُ ويمحوه ويتعاورُهُ بالشرِّ والمنكر ؛ فابتعثَ الله تاريخَ العقلِ بآدمٍ جديدٍ بدأت به الدنيا في تطوُّرها الأعلى من حيث يرتفعُ الإنسانُ على ذاته ، كما بدأت من حيث يُوجَدُ الإنسانُ في ذاته ؛ فكانت الإنسانيةُ دهرَها بين اثنين : أحدهما فتَحَ لها طريقَ المجيء من الجنة ، والثاني فتَحَ لها طريقَ العودة إليها : كان في آدم سرٌّ وجودِ الإنسانية ، وكان في محمدٍ سرٌّ كمالها .

ولهذا سُمِّيَ الدينُ (بالإسلام) ؛ لأنه إسلامُ النفسِ إلى واجبها ، أى إلى الحقيقة من الحياة الاجتماعية ؛ كأن المسلمَ ينكرُ ذاته فيُسَلِّمُها إلى الإنسانية تُصَرِّفُها وتَعْمَلُها في كمالها ومعاليها ؛ فلا حظَّ له هو من نفسه يسكها على شهواته ومنافعِهِ ، ولكنَّ للإنسانية بها الحظُّ .

وما الإسلامُ في جملته إلا هذا المبدأ : مبدأ إنكار الذات و (إسلامها) طائِعَةً على المَنَشِطِ والمَكْرَهِ لفروضها وواجباتها ؛ وكلما نكصتْ إلى منزِعِها الحيوانيِّ ، أسلمها صاحبُها إلى وازِعِها الإلهيِّ ؛ وهو أبداً يروضُها على هذه الحركةِ

ما دام حيًّا ؛ فينتزعها كلَّ يوم من أوهام دنياها ، ليضعها ما بين يَدَي حقيقتها الإلهية : يروضُها على ذلك كل يوم وليلة خمسَ مرَّاتٍ مُسماةٍ في اللغة خمسَ صلوات ، لا يكون الإسلام إسلاماً بغيرها ؛ فلا غرو كانت الصلاة بهذا المعنى كما وصفها النبي (صلى الله عليه وسلم) هي عماد الدين .

بين ساعاتٍ وساعاتٍ في كلِّ مطلع شمس من حياة المسلم صلاة ، أي إسلام النفس إلى الإرادة الاجتماعية الشاملة^(١) القائمة على الطاعة للفرض الإلهي ، وإنكارُ لمعانها الذاتية الفانية التي هي مادة الشرِّ في الأرض ، وإقرارها لحظَّاتٍ في حَيِّزٍ أخير المحض البعيد عن الدنيا وشهواتها وآثامها ومنكراتها . ومعنى ذلك كله تحقيقُ المسلم لوجود روحه ؛ إذ كانت أعمالُ الدنيا في جملةِ طُرُقًا تتشتَّت فيها الأرواحُ وتتبعثر ، حتى تَضِلَّ روحُ الأخ عن روح أخيه فتسكرها ولا تعرفها !

وهذا الوجودُ الروحيُّ هو مبعثُ الحالة العقلية التي جاء الإسلام ليهدي الإنسانية إليها : حالة السلام الروحاني الذي يجعل حربَ الدنيا المهلكة حرباً في خارج النفس لا في داخلها ، ويجعل ثروة الإنسان مُقدَّرة بما يعامل الله والإنسانية عليه ؛ فلا يكون ذهبُه وفِضَّتُه ما كتبت عليه الدول : « ضُربَ في مملكة كذا » ، ولكن ما يراه هو قد كُتِبَ عليه : « صُنِعَ في مملكة نفسي » ؛ ومن ثمَّ لا يكون وجوده الاجتماعيُّ للأخذ حَسَبُ ، بل للعطاء أيضاً ؛ فإنَّ قانونَ المال هو الجمع ، أما قانونُ العمل فهو البذل .

بالانصراف إلى الصلاة وجمعِ النيةِ عليها ، يستشعر المسلمُ أنه قد حطَّم

(١) هذه هي حكمة صلاة الجماعة والحث عليها وكونها أفضل من غيرها وأن الثواب الأكبر فيها وحدها .

الحدود الأرضية المحيطة بنفسه من الزمان والمكان ، وخرج منها إلى روحانية لا يحُدُّ فيها إلا بالله وحده .

وبالقيام في الصلاة ، يحقق المسلم لذاته معنى إفراغ الفكر السامى على الجسم كله ، ليمتزج بجلال الكون ووقاره ، كأنه كأنى منتصب مع الكائنات يسبح بحمده .

وبالتولى شطر القبلة في سمتها الذى لا يتغير على اختلاف أوضاع الأرض ، يعرف المسلم حقيقة الرمز للمركز الثابت في روحانية الحياة ؛ فيحمل قلبه معنى الاطمئنان والاستقرار على جاذبية الدنيا وقلقها .

وبالركوع والسجود بين يدي الله ، يشعر المسلم نفسه معنى السمو والرفعة على كل ما عدا الخالق من وجود الكون .

وبالجلوس في الصلاة وقراءة التحيات الطيبات ، يكون المسلم جالساً فوق الدنيا يحمد الله ويسلم على نبيه وملائكته ويشهد ويدعو .

وبالتسليم الذى يخرج به من الصلاة ، يقبل المسلم على الدنيا وأهلها إقبالاً جديداً : من جهتي السلام والرحمة .

هي لحظات من الحياة كل يوم في غير أشياء هذه الدنيا ؛ لجمع الشهوات وتقييمها بين وقت وآخر بسلاسلها وأغلاها من حركات الصلاة ، ولتزيق الفناء خمس مرات كل يوم عن النفس ؛ فيرى المسلم من ورائه حقيقة الخلود ، فتشعر الروح أنها تنمو وتتسع .

هي خمس صلوات ، وهي كذلك خمس مرات يفرغ فيها القلب مما امتلأ به من الدنيا ، فما أدق وأبدع وأصدق قوله (صلى الله عليه وسلم) : « جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاة » (١) .

(١) كان محمد (صلى الله عليه وسلم) يستبطن الصلاة وقد جاء وقتها ، من شدة =

لم يكن الإسلام في حقيقته إلا إبداعاً للصيغة العملية التي تنتظم الإنسانية فيها ؛ ولهذا كانت آدابه كلها حراساً على القلب المؤمن ، كأنها ملائكة من المعاني ؛ وكان الإسلام بها عملاً إصلاحياً وقع به التطور في عالم الغريزة ، فنقله إلى عالم الخلق ، ثم ارتقى بالخلق إلى الحق ، ثم سما بالحق إلى الخير العام ؛ فهو سمو فوق الحياة بثلاث طبقات ، وتدرج إلى السكال في ثلاث منازل ، وابتعاد عن الأوهام بمسافة ثلاث حقائق .

وبتلك الأعمال والآداب كانت الدنيا المسلمة التي أسسها النبي (صلى الله عليه وسلم) دنيا أسامت طبيعتها ، فأصبحت على ما أراد المسلمون لا ما أرادت هي ؛ وكأنها قائمة بنواميس من أهلها ، لا على أهلها ؛ وكان الظاهر أن الإسلام يغزو الأمم بالعرب ويفتحها ، ولكن الحقيقة العجيبة أن إقايماً من الدنيا كان يحارب سائر أقاليم الأرض بالطبيعة الأخلاقية الجديدة لهذا الدين .

وكان الله تعالى ألقى في رمال الجزيرة روح البحر ، وبعثها بعثه الإلهي لأمره ، فكان النبي (صلى الله عليه وسلم) هو نقطة المد التي يفور البحر منها ، وكان المسلمون أمواجه التي غسلت بها الدنيا ...

لهذا سمع المسلمون الأولون كلام الله (تعالى) في كتابه ، وكلام رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، لا كما يسمعون القول ، ولكن كما يتلقون الحكم النافذ المقضي ؛ ولم يجدوا فيه البلاغة وحدها ، بل روعة أمر السماء في بلاغة ؛ واتصلوا بينهم ، ثم بعضهم ببعض ، لا كما يتصل إنسان بإنسان ، بل كما تتصل الأمواج بقوة المد ، ثم كما يمد بعضها بعضاً في قوة واحدة .

وحققوا في كاله (صلى الله عليه وسلم) وجودهم النفسي ؛ فكانوا من زخارف

== شوقه إليها فيقول : « أرحنا بها يا بلال » ولا أفصح ولا أدق في تصوير نفسيته (صلى الله عليه وسلم) وأشواق روحه العالية من قوله : أرحنا بها . فهذا كمال الاتصال بينه وبين خالقه .

الحياة وباطلها في موضع الحقيقة الذي يرى فيه الشيء لا شيء .

ورأوا في إرادته (صلى الله عليه وسلم) النقطة الثابتة فيما يتضارب من خيالات النفس ؛ فكانوا أكبر علماء الأخلاق على الأرض ، لا من كتب ولا علم ولا فلسفة ، بل من قلب نبهم وحده .

وعرفوا به (صلى الله عليه وسلم) تمام الرجولة ؛ ومتى تمت هذه الرجولة تمامها في إنسان ، رجعت له الطفولة في رُوحه ، وامتلك تلك الطبيعة التي لا يملكها إلا أعظم الفلاسفة والحكماء ، فأصبح كأنما يعيش في الحياة إلى الجنة بخطوات مُسددة لا تزيغ ولا تنحرف ، فلا شر ولا رذيلة ؛ ودنياه هي الدنيا كلها بشمسها وقمرها ، يملكها وإن لم يملك منها شيئاً ، ما دامت في قلبه طبيعة السرور ، فلا فقر ولا غنى مما يشعر الناس بمعانيه ، بل كل ما أمكن فهو غنى كامل ، إذ لم تعد القوة في المادة تزيد بزيادتها وتنقص بنقصها ، بل القوة في الروح التي تتصرف بطبيعة الوجود ، وتدفع قوى الجسم بمثل دوافع الطفولة النامية المتغلبة ، حتى لتجعل من النور والهواء ما يؤتدّم به مع الخبز القفار ، كما يؤتدّم باللحم وأطياب الأطعمة ^(١) .

وبذلك لا تتسلط ضرورة على الجسم — كالجوع والفقر والألم ونحوها — إلا كان تسلطها كأنه أمرٌ من قوة في الوجود إلى قوة في هذا الجسم : أن تظهر لتعمل عملها المعجز في إبطال هذه الضرورة . وهذا الجنس من الناس كالأزهار على أغصانها الخضراء ؛ لو قالت شيئاً لقالت : إن ثروتي في الحياة هي الحياة

(١) عن ابن عباس قال : دخل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوم فتح مكة على (أم هانئ) وكان جائعاً ، فقال لها : « أعندك طعام آكله ؟ » فقالت : « إن عندي لكسراً يابسة ، وإنني لأستحي أن أقدمها إليك » فقال : « هاميا ! » ، فكسرها في ماء ، وجاءته بلج ، فقال : « ما من إدام ؟ » فقالت : « ما عندي إلا شيء من خل . » فقال : « هاميه ! » فلما جاءت به صبه على طعامه فأكل منه ، ثم حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « نعم الإدام الخل يا أم هانئ ، لا يقفر بيت فيه خل » اهـ .

نفسها ، فليس لى فقرٌ ولا غنى ، بل طبيعةٌ أو لا طبيعة .

ولقد كان المسلم يُضرب بالسيف فى سبيل الله ، فتَقَعُ ضرباتُ السيوفِ على جسمه فتمزقه ؛ فما يحسُّها إلا كأنها قبْلُ أصدقاء من الملائكة يلقونه ويعانقونه !

وكان يُبتلى فى نفسه وماله ، فلا يشعر فى ذلك أنه المرزأ المبتلى يُعرف فيه الحزنُ والانسكار ، بل تظهر فيه الإنسانية المنتصرة كما يظهر التاريخُ الظافرُ فى بطله العظيم أُصيبَ فى كلِّ موضعٍ من جسمه بجراح ، فهى جراحٌ وتشويهٌ وألم ، وهى شهادةُ النصر !

ولم تكن أثقالُ المسلم من دنياء أثقالاً على نفسه ، بل كانت له أسبابُ قوةٍ وسمو ؛ كالنسرِ الخلقِ لطبقاتِ الجوِّ العليا ، يحملُ دائماً من أجل هذه الطبقات ثقلَ جناحيه العظيمين .

وكانت الحقيقةُ التى جعلها النبىُّ (صلى الله عليه وسلم) مثَلهم الأعلى ، وأقرّها فى أنفسهم بجميع أخلاقه وأعماله — أن الفضائل كلها واجبةٌ على كل مسلم لنفسه ، إذ أنها واجبةٌ بكل مسلم على غيره ؛ فلا تكونُ فى الأمة إلا إرادةٌ واحدة متعاونة ، تجعلُ المسلم وما هو إلا روحُ أمته تعمل به أعمالها هى لا أعماله وحدها .

المسلمُ إنسانٌ ممتدُّ بمنافعه فى معناه الاجتماعى حول أمته كلها ، لا إنسانٌ ضيقٌ مجتمعٌ حول نفسه بهذه المنافع ؛ وهو من غيره فى صدقِ المعاملة الاجتماعية كالتاجر من التاجر : تقول الأمانةُ لكليهما : لا قيمة لميزانك إلا أن يُصدِّقه ميزان أخيك .

ولن يكونَ الإسلامُ صحيحاً تاماً حتى يجعلَ حامله مثلاً من نبيِّه فى أخلاق

الله ؛ فما هو بشخص يضبط طبيعته : يَقهَرها مرةً ويَقهَرها مَراراً ؛ ولكن طبيعته
تضبط شخصها فهي قانون وجوده .
لا يضطرب من شيء ، وكيف يضطرب ومعها الاستقرار ؟
لا يخاف من شيء ، وكيف يخاف ومعها الطمأنينة ؟
لا يخشى مخلوقاً ، وكيف يخشى ومعها الله ؟
أيها الأسد ، هل أنت بجملك إلا في طبيعة مخلبك وأنيابك . . . ؟

وحي الهجرة

إن التاريخ ليتكلم بلغةٍ أوسع من الفاظه إذا قرأ من يقرؤه على أنه بعض
نواميس الوجود ، صوّرت فيها النفس الإنسانية كيف اعتوّرت أغراضها ،
وكيف مدّت في نسّتها ، وكيف تغلّغت في مسالكها ، وما تأتّى لها فجّرت به
مجرّها ، وما دفعها فأنحدرت منه إلى مقارّها ؛ فهو ليس بكلام تستقبله تقرأ
فيه ، ولكنه أحوال من الوجود تعترضها فتغيّر عليك حسّك بالهامها وأحلامها ،
وتتناولها من ناحية فتتناولك من الأخرى ؛ فإذا الكلمة من ورائها معنى ، من
ورائه طبيعة ، من ورائها سبب وحكمة ؛ وإذا كلُّ حادثة فيها إنسانيتها وإلهيتها
معاً ، وإذا الوجود في ذهنك كالساعة ترسم لك حدّ الثانية لمخاطرتين ، وحدّ
الدقيقة من عدد محدود من الثواني ، ثم حدّ الساعة إلى حدّ اليوم ؛ وإذا البيان
في نفسك من كل هذه الحواشي ، وإذا التاريخ فيما تقرأه مُفَنّن في ظاهره وباطنه ،
يفي عليك من الفاظه ومعانيه بظلال هي صلتك أنت أيها الحيّ الموجود بأسرار
ما كان موجوداً من قبل .

كذلك قرأت بالأمس تاريخ الهجرة النبوية في كتاب أبي جعفر الطبري
لأكتب عنه هذه الكلمة ، فلم أكن — علم الله — في كتاب ولا في حكاية ،
بل في عالم انبثق في نفسي مخلوقاً تاماً بأهله ، وحوادث أهله ، وأسرار أهله
جميعاً ؛ كما يرى الحب حبيبته : لا يكون الجميل في محل إلا امتلاً مكانه بعاشقه ،
فهو مكان من النفس والدنيا ، لا من الدنيا وحدها ، وفيه الحياة كما هي في
الوجود بمظهر المادة ، وكما هي في الحب بمظهر الروح .

وتلك حالة من القراءة بالروح والكتابة بالروح ، متى أنت سموت إليها
رأيت فيها غير المعنى يُخرج معنى ، ومن لا شيء تُخلق أشياء ، لأنك منها
اتصلت بأسرار نفسك ، ومن نفسك اتصلت بأسرار فوقها ؛ فيصبح التاريخ
معك فن الوجود الإنساني على الوجه الذي أفضت به الحكمة إلى الحياة لتستمر
بالنفس الإنسانية ، لا فن علم الناس على الوجه الذي أفضت به الحوادث مما بين
الحياة والموت .

نشأ النبي (صلى الله عليه وسلم) في مكة ، واستنبيء على رأس الأربعين من
سنه ، وغبر ثلاث عشرة سنة يدعو إلى الله قبل أن يهاجر إلى المدينة ؛ فلم يكن
في الإسلام أول بدايته إلا رجل وامرأة و غلام : أما الرجل فهو هو (صلى الله
عليه وسلم) ، وأما المرأة فزوجه خديجة ، وأما الغلام فعلي ابن عمه أبي طالب .
ثم كان أول النمو في الإسلام بحجر وعبد : أما الحجر فأبو بكر ، وأما العبد
فبلال ، ثم اتسق النمو قليلاً قليلاً ببطاء الموم في سيرها ، وصبر الحر في تجلده ؛
وكان التاريخ واقف لا يتحرك ، ضيق لا يتسع ، جامد لا ينمو ؛ وكان النبي
(صلى الله عليه وسلم) أخو الشمس : يطلع كلاهما وحده كل يوم . حتى إذا كانت
الهجرة من بعد فانتقل الرسول إلى المدينة ، بدأت الدنيا تتقلقل ، كأنما مرَّ

بقدمه على مركزها خَرَّ كها ؛ وكانت خطواته في هجرته تَخَطُّ في الأرض ، ومعانيها تَخَطُّ في التاريخ ؛ وكانت المسافة بين مكة والمدينة ، ومعناها بين المشرق والمغرب .

لقد كان في مكة يَعْرِضُ الإسلام على العرب كما يَعْرِضُ الذهب على المتوحشين : يَرُونَهُ بَرِيقاً وشُعاعاً ثم لا قيمة له ، وما بهم حاجة إليه ، وهو حاجة بني آدم إلا المتوحشين ؛ وكانوا في المحادة والخالفَةِ الحقاء ، والبلوغ بدعوته مبلغ الأوهام والأساطير — كما يكون المريض بذات صدره مع الذي يدعوه في ليلة قَارَّةٍ إلى مداواة جسمه بأشعة الكواكب ؛ وكانت مكة هذه صخرًا جغرافيًا يتحطم ولا يلين ، وكأن الشيطان نفسه وضع هذا الصخر في مجرى الزمن ليصدَّ به التاريخ الإسلامي عن الدنيا وأهلها .

وأوْذَى رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) ، وكُذِّبَ وأُهين ، ورَجَفَ به الوادى يخطو فيه على زلازل تتقلب ، ونابذه قومه وتذامروا فيه ، وحضَّ بعضهم بعضاً عليه ، وانصَفَقَ عنه عامة الناس وتركوه إلا من حَفِظَ الله منهم ؛ فأصيب كبيراً باليُتيم من قومه ، كما أُصيب صغيراً باليُتيم من أبويه .

وكان لا يسمع بقادمٍ يُقدِّم من العرب له اسمٌ وشرفٌ ، إلا تصدَّى له فدعاه إلى الله وعرض نفسه عليه ؛ ومع ذلك بقيت الدعوة تلوح وتختفي كما يَشُقُّ البرق من سحابةٍ على السماء : ليس إلا أن يُرى ثم لا شيء بعد أن يُرى !

فهذا تاريخٌ ما قبل الهجرة في جملة معناه ، غير أني لم أقرأه تاريخاً ، بل قرأت فيه فصلاً رائعاً من حكمة إلهية ، وضعه الله كالمقدمة لتاريخ الإسلام في الأرض ؛ مقدمة من الحوادث والأيام تحيا وتمرُّ في نَسَقِ الرواية الإلهية المنظوية على رموزها وأسرارها ، وتظهر فيها رحمة الله تعملُ بقسوة ، وحكمة الله

تَجَلَّى في غموض ؛ فلو أنت حققت النظرة لرأيت تاريخ الإسلام يتأله في هذه الحقبة ، بحيث لا تقرأه النفس المؤمنة إلا خاشعة كأنها تصلى ، ولا تدبره إلا خاضعة كأنها تتعبد .

بدأ الإسلام في رجل وامرأة و غلام ، ثم زاد حرًا وعبدًا ؛ أليست هذه الجنس هي كل أطوار البشرية في وجودها ، مخلوقة في الإنسانية والطبيعة ، ومصنوعة في السياسة والاجتماع ؟ فها هنا مطلع القصيدة ، وأول الرمز في شعر التاريخ .

ولبث النبي (صلى الله عليه وسلم) ثلاث عشرة سنة لا يبغيه قومه إلا شرا ، على أنه دائم يطلب ثم لا يجد ، ويعرض ثم لا يقبل منه ، ويخفق ثم لا يعتريه اليأس ، ويجهد ثم لا يتخونه الملل ، ويستمر ماضيا لا يتحرف ، ومعتزما لا يتحول ؛ أليست هذه هي أسمی معاني التربية الإنسانية أظهرها الله كلها في نبيه ، فعمل بها وثبت عليها ، وكانت ثلاث عشرة سنة في هذا المعنى كعمر طفل وُلِدَ ونشأ وأحكم تهذيبه بالحوادث ، حتى تسلمته الرجولة الكاملة بمعانيها من الطفولة الكاملة بوسائلها ؟

أفليس هذا فصلا فلسفيا دقيقا يعلم المساهين كيف يجب أن ينشأ المسلم : غناه في قلبه ، وقوته في إيمانه ، وموضعه في الحياة موضع النافع قبل المنتفع ، والمصلح قبل المقلد ؛ وفي نفسه من قوة الحياة ما يموت به في هذه النفس أكثر ما في الأرض والناس من شهوات ومطامع ؟

ثم أليست تلك العوامل الأخلاقية هي التي أُلقيت في منبع التاريخ الإسلامي ليُعَبَّ منها تياره ؛ فتدفعه في مجراه بين الأمم ، وتجعل من أخص الخصاص الإسلامية في هذه الدنيا — الثبات على الخطوة المتقدمة وإن لم تتقدم ، وعلى الحق وإن لم يتحقق ؛ والتبرؤ من الأثرة وإن شحت عليها النفس ،

واحتقار الضعف وإن حكّم وتسَلَّط ، ومقاومة الباطل وإن ساد وغلب ، وحمل الناس على محض الخير وإن ردّوا بالشر ، والعمل للعمل وإن لم يأت بشيء ، والواجب للواجب وإن لم يكن فيه كبير فائدة ، وبقاء الرجل رجلاً وإن حطّمه كلُّ ما حوله ؟

ثم هي هي البرهانات القائمة للدهر قيام المنارة في الساحل — على نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) : تثبت ببرهان الفلسفة وعلوم النفس أنه رُوحٌ وغاياتها المحتومة بالقدر ، لا جسمٌ ووسائله المتعلّبة بالطبيعة ؛ ولو كان رجلاً ابتعثته نفسه ، لتمجّل الحيل لسياسته ، ولأحدث طمعاً من كل مطمع ، ولركد مع الحوادث وهب ، ولما استمر طوال هذه المدة لا يتجه وهو فردٌ إلا اتجاه الإنسانية كلّها كأنما هو هي .

ولو هو كان رجل الملك أو رجل السياسة ، لاستقام والتوى ، ولأدرك ما يبتغي في سنوات قليلة ، ولأوجد الحوادث يتعاق عليها ، ولما أفلت ما كان موجوداً منه يتعلّق به ، ولما انتزع نفسه من محله في قومه وكان واسطةً فيهم ، ولا ترك عوامل الزمن تبعده وهي كانت تدنيه .

قالوا : إن عمه أبا طالب بعث إليه حين كنهه قريش فقال له : يا ابن أخي ، إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا ، فأبقي علي وعلى نفسك ، ولا تحمّاني من الأمر ما لا أطيق . فظن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قد بدا لعمه فيه بداء^(١) ، وأنه خاذله ومُسْلِمُهُ ، وأنه قد ضعّف عن نصرته والقيام معه ، فقال : يا عمّاه ، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك فيه ما تركته . ثم استعبر (صلى الله عليه وسلم) فبكى ! يادموع النبوة ! لقد أثبت أن النفس العظيمة لن تنعزى عن شيء منها

(١) أي نشأ له رأى جديد فيه ، وهذا كما يقولون : رجع عن رأيه .

بشيء من غيرها كائنًا ما كان ، لا من ذهب الأرض وفضتها ، ولا من ذهب السماء وفضتها إذا وُضِعَت الشمس في يد والقمر في الأخرى .

وكلُّ حوادث المدة قبل الهجرة على طولها ليست إلا دليلَ ذلك الزمن على أنه زمنُ نبيٍّ ، لا زمنُ ملكٍ أو سياسيٍّ أو زعيمٍ ؛ ودليل الحقيقة على أن هذا اليقينَ الثابتَ ليس يقينَ الإنسان الاجتماعيِّ من جهة قوته ، بل يقينَ الإنسان الإلهيِّ من جهة قلبه ؛ ودليل الحكمة على أن هذا الدينَ ليس من العقائد الموضوعية التي تنشرها عدوى النفس للنفس ؛ فهاهو ذا لا يبلغُ أهله في ثلاث عشرة سنةً أكثرَ مما تبلغُ أسرةٌ تتوالد في هذه الحِقبة ؛ ودليل الإنسانية على أنه وحى الله بإيجاد الإخاء العالميِّ والوحدة الإنسانية . أفلم يكن خروجه عن موطنه هو تحقُّقه في العالم ؟

ثلاث عشرة سنة ، كانت ثلاثة عشر دليلاً تثبت أن النبي (صلى الله عليه وسلم) ليس رجلَ ملك ، ولا سياسةٍ ، ولا زعامةٍ ؛ ولو كان واحداً من هؤلاء لأدرك في قليل ؛ وليس مبتدعٌ شريعةٍ من نفسه ، وإلا لما غُيِّرَ في قومه وكأنه لم يجدْهم وهم حوله ؛ وليس صاحبُ فكرةٍ تعملُ أساليبُ النفس في انتشارها ؛ ولو كانتْ لملهم على تحضُّبها ومزُوجها ؛ وليس رجلاً متعلقاً بالمصادفات الاجتماعية ، ولو هو كان لجعل إيمانَ يومٍ كُفِّرَ يومٌ ؛ وليس مُصلِحَ عشيرةٍ يهتَبُ منها على قَدَر ما تقبل منه سياسةٌ ومخادعة ، ولا رجلَ وطنه تكون غايته أن يشمخ في أرضه شموخَ جبلٍ فيها ، دون أن يحاول ما بلغ إليه من إطلاله على الدنيا إطلالَ السماء على الأرض ؛ ولا رجلَ حاضرٍ إذ كان واثقاً دائماً أن معه الغدَ وآتيه ، وإن أدبر عنه اليومُ وذاهبه ؛ ولا رجلَ طبيعته البشرية يلتمسُ لها ما يلتمسُ الجائعُ لبطنه ، ولا رجلَ شخصيته يستهوى بها ويسحر ، ولا رجلَ بطشه يغلبُ به ويتسلَّط ، ولا رجلَ الأرض في الأرض ، ولكن رجلَ السماء في الأرض .

هذه هي حكمة الله في تدبيره لنبيه قبل الهجرة : قبض عنه أطراف الزمن ،
وحصره من ثلاث عشرة سنة في مثل سنة واحدة ، لا تصدرُ به الأمورُ مصادرها
كي تثبت أنها لا تصدر به ؛ ولا تستحق به الحقيقة لتدل على أنها ليست من
قوته وعمله .

وكان (صلى الله عليه وسلم) على ذلك — وهو في حدود نفسه وضيق
مكانه — يتسع في الزمن من حيث لا يرى ذلك أحدٌ ولا يعلمه ، وكأما كانت
شمسُ اليوم الذي سينتصر فيه — قبل أن تشرق على الدنيا بثلاث عشرة
سنة — مشرقة في قلبه (صلى الله عليه وسلم) .

والفصل من السنة لا يقدمه الناس ولا يؤخرونه ، لأنه من سير الكون
كله ؛ والسحابة لا يشعلون برقها بالمصابيح ، ومع النبي من مثل ذلك برهان الله
على رسالته ، إلى أن نزل قوله تعالى : « وقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ
الدينُ كُلُّهُ لِلَّهِ » فخلَّ الفصل ، وانطلقت الصاعقة ، وكانت الهجرة .

تلك هي المقدمة الإلهية للتاريخ ، وكان طبعياً أن يطرد التاريخ بعدها ،
حتى قال الرشيدُ للسحابة وقد مرت به : أمطري حيث شئتِ فسيأتيني خراجك !

فلسفة قصة

ماتت خديجة زوج النبي (صلى الله عليه وسلم) ومات عمه أبو طالب في عام واحد، في السنة العاشرة من النبوة، فعظمت المصيبة فيهما عليه، إذ كان عمه هذا يمنعه من أذى قريش، ويقوم بدوره فلا يخلصون إليه بمكرهه؛ وكان أبو طالب من قريش كالعقيدة السياسية: هي بطبيعتها قوة نافذة على قوة القبيلة؛ فمن ثم كان هو وحده المشكلة النفسية المعقدة التي تعمل قريش جاهدة في حلها، وقامت المعركة الإسلامية الأولى بين إرادتهم وإرادته، وهم أمة تحكمهم الكلمة الاجتماعية التي تسير عنهم في القبائل؛ وتاريخهم ما يقال في الأسنة من معاني المدح والذم، فيخشون المقالة أكثر مما يخشون الغارة، وقد لا يبالون بالقتلى والجرحى منهم، ولكنهم يبالون بالكلمات الجروحة.

فكان من لطيف صنْع الله للإسلام، وعجيب تدبيره في حماية نبيه (صلى الله عليه وسلم) — وضع هذه القوة النفسية في أول تاريخ النبوة، تشتغل بها سخافات قريش، وتكون عملاً لفرغهم الرُّوحى، وتُشيرُ فيهم الإشكال السياسي الذي يعطل قانونهم الوحشي إلى أن يتم عمل الأسباب الخفية التي تكسر هذا القانون؛ فإن المصنَع الإلهي لا يخرج أعماله التامة العظيمة إلا من أجزاء دقيقة.

أما خديجة زوج النبي (صلى الله عليه وسلم)، فكانت في هذه المحنة قلباً مع قلبه العظيم، وكانت لنفسه كقول (نعم) للكلمة الصادقة التي يقول لها كلُّ الناس (لا)؛ وما زالت المرأة الكاملة المحبوبة المحبة هي التي تُعطى الرجل ما نقص من معاني الحياة، وتلد له المسرات من عواطفها كما تلد من أحشائها،

فالجودُ يعملُ بها عملين عظيمين : أحدهما زيادةُ الحياةِ في الأجسام ، والآخرُ إتمامُ نقصِها في المعاني .

وبموت أبى طالب وخديجة ، أُفردَ النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) بجسمه وقلبه ، ليتجردَ من الحالة التي يغلبُ فيها الحسُّ ، إلى الحالة التي تغلبُ فيها الإرادة ، ثم ليخرجَ من أيام الاستقرار في أرضه ، إلى الأيام المتحركة به في هجرته ؛ ثم لينتهي بذلك إلى غاية قوميتِهِ الصغيرة المحدودة ، فيتصلَ من ذلك بأولِ عالميتِهِ الكبرى . وأراد الله تعالى أن يبدأ هذا الجليلُ العظيمُ من أسمى خلال الجلال والعظمة ، ليكون أولُ أمرِهِ شهادةً بكلمة ؛ فكانت الحسنَةُ فيه بشهادة السيئة من قومه ؛ فحلمَهُ بشهادة رُغوتهم ، وأناته بدليل طيشهم ، وحكمته ببرهان سفاهتهم ؛ وبذلك ظهر الروحانيُّ روحانيًّا في المادة .

قالوا : فنالتَ منه قريش ، ووصلوا من أذاهُ إلى مالم يكونوا يصلون إليه في حياة عمه ، حتى نثرَ بعضُهم الترابَ على رأسه ، كأنما يعلمونه أنه أهونُ عليهم من أن يكونَ حرًّا ، فضلاً عن أن يكونَ عزيزاً ، فضلاً عن أن يكونَ نبياً ؛ قالوا : فدخل رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) بيته والترابُ على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته تغسلُ عنه الترابَ وهي تبكي !

كانت تبكي إذ لا تعلم أن هذا الترابَ على رأس النبي العظيم هو سُذوذُ الحياة الأرضيةِ الدنيئة ، في مقابلةِ إنسانِها الشاذِّ المنفرد . هذه القُبْضَةُ من الترابِ الأرضيِّ قبْضةٌ سَفِيهةٌ ، تحاولُ ردَّ الممالكِ الإسلاميةِ العظيمةِ أن تنشأَ نشأتها وتعملَ عملها في التاريخ ؛ فهي في مقدارها وسخافتها ومحاولتها ، كعقل قُرَيْشٍ حينئذٍ في مقداره وسخافته ومحاولته .

أما النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) فقال لبنته : « يا بنية لا تبكي ، فإن الله مانعٌ

أَبَاكَ . « حَسِبْتَ ذَلِكَ هَوَانًا وَضِيعَةً ، فَأَعْلَمَهَا أَنْ قَبْضَةً مِنَ التَّرَابِ لَا تَطْمُرُ النَّجْمَ ،
وَأَنَّ هَذِهِ الْحَشْوَةُ التَّرَابِيَّةُ لَا تُسَمَّى مَعْرَكَةً أَثَارَتَهَا الْخَلِيلُ خِجَاءً بِنَتِيجَةٍ ، وَأَنَّ
سَاعَةً مِنَ الْحَزَنِ فِي يَوْمٍ ، لَا يُحْكَمُ بِهَا عَلَى الزَّمَنِ كُلِّهِ ، وَأَنَّ هَذِهِ النَّزْوَةُ الَّتِي
تَحْرَكَتِ الْآنَ هِيَ حَقُّ الْغِبَاوَةِ : قُوَّتُهَا نَهَايَتُهَا .

« يَا بَنِيَّةُ لَا تَبْكِي فَإِنَّ اللَّهَ مَانِعُ أَبَاكَ . » أَيْ لَيْسَ لِلنَّبِيِّ كِبَرِيَاءُ يَنَالُهَا
النَّاسُ أَوْ يَغْضُضُونَ عَنْهَا فَيَأْتِي الدَّمْعُ مُتَرَجِّمًا عَنِ الْمَعْنَى الْإِنْسَانِيَّةِ النَّاَقِصِ مُثْبِتًا أَنَّهُ
تَاَقِصٌ ؛ إِنَّمَا هِيَ النَّبَوَّةُ : قَانُونُهَا غَيْرُ مَا عَاتَدَتِ النَّفْسُ مِنْ أَفْرَاحٍ وَأَحْزَانٍ ، وَهِيَ
النَّبَوَّةُ : تَجْعَلُ الْمُخْتَارَ لَهَا غَيْرَ مُحْدُودٍ بِجَسَدِهِ الضَّعِيفِ ، بَلْ حُدُودُهُ الْحَقَائِقُ الَّتِي فِيهَا
قُوَّتُهَا ؛ فَهُوَ فِي مَنَعَةِ الْوَاقِعِ الَّذِي لَا بَدَّ أَنْ يَقَعَ ، فَلَوْ أَمَكُنَ أَنْ يُحْذَفَ يَوْمٌ مِنَ
الزَّمَنِ أَوْ يُؤَخَّرَ عَنْ وَقْتِهِ ، أَمَكُنَ أَنْ يُؤَخَّرَ النَّبِيُّ أَوْ يُحْذَفَ .

« يَا بَنِيَّةُ لَا تَبْكِي فَإِنَّ اللَّهَ مَانِعُ أَبَاكَ . » لَا وَاللَّهِ مَا يَقُولُ هَذِهِ السَّكْمَةُ إِلَّا
نَبِيٌّ وَسِعَ التَّارِيخُ فِي نَفْسِهِ الْكَبِيرَةِ قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ هَذَا التَّارِيخُ فِي الدُّنْيَا ؛ فَكَلِمَتُهُ
هِيَ الْإِيمَانُ وَالثَّقَةُ إِذْ يَتَكَلَّمُ عَنْ مَوْجُودٍ .

تَرَابٌ يَنْثُرُهُ سَفِيهُهُ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ ! وَيَحْكُ يَا حَقَّارَةَ الْمَادَّةِ ؛ إِنْ ارْتِفَاعَكَ
لَعْنَةُ ، إِنْ ارْتِفَاعَكَ لَعْنَةُ .

قَالُوا : وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَحْدَهُ إِلَى الطَّائِفِ ، يَلْتَمِسُ
مِنْ ثَقِيفِ النَّصْرِ وَالْمَنْعَةِ لَهُ مِنْ قَوْمِهِ ؛ فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى الطَّائِفِ عَمَدَ إِلَى نَفَرٍ مِنْ
ثَقِيفٍ هُمْ يَوْمُئِذٍ سَادَتُهُمْ وَأَشْرَافُهُمْ ، فَجَاسَ إِلَيْهِمْ فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ وَكَلَّمَهُمْ بِمَا جَاءَهُمْ
لَهُ مِنْ نُصْرَتِهِ وَالْقِيَامِ مَعَهُ فِي الْإِسْلَامِ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ مِنْ قَوْمِهِ ؛ فَلَمْ يَفْعَلُوا وَأَغْرَوْا
بِهِ سُقْمَاءَهُمْ وَعَبِيدَهُمْ يَسْبُونَهُ وَيَصِيحُونَ بِهِ ، حَتَّى اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ وَأَلْجَأُوهُ إِلَى

حائط^(١) لُعْبَةِ بنِ ربيعة وشَيْعَةَ بنِ ربيعة وهما فيه . ورجع عنه من سفهاء ثَقِيفٍ من كان يتبعه ، فعمد (صلى الله عليه وسلم) إلى ظل حُبْلَةٍ من عِنَبٍ فْجَسَ فيه ، وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما لقي من السفهاء .

فلما اطمأنَّ (صلى الله عليه وسلم) في مجلسه قال : « اللهمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي ، وَقِلَّةَ حِيلَتِي ، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ ؛ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعِفِينَ وَأَنْتَ رَبِّي ، إِلَى مَنْ تَكَلَّنِي ؛ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي ، أَوْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَكَتْهُ أَمْرِي ؛ إِنْ لَمْ يَكُنْ بَكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أَبَالِي ، وَلَكِنْ عَافَيْتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي . أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، مِنْ أَنْ يَنْزِلَ بِي غَضَبُكَ ، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ ! »

أَلَا مَا أَكْمَلَ هَذِهِ الْإِنْسَانِيَّةَ الَّتِي تُثَبَّتُ أَنْ قُوَّةَ الْخَلْقِ هِيَ دَرَجَةُ أَرْفَعُ مِنَ الْخَلْقِ نَفْسِهِ ؛ فَهَذَا فَنُّ الصَّبْرِ لَا الصَّبْرُ فَقَطْ ، وَفَنُّ الْحِلْمِ لَا الْحِلْمُ وَحْدَهُ . قُوَّةُ الْخَلْقِ هِيَ الَّتِي تَجْعَلُ الرَّجُلَ الْعَظِيمَ ثَابِتًا فِي مَرْكَزِ تَارِيخِهِ لَا مُتَقَلِّلاً فِي تَوَارِيخِ النَّاسِ ، مُحَدِّدًا بَعْظَائِمَ شَخْصِيَّتِهِ الْخَالِدَةِ لَا بِتَصَالِحِ شَخْصِيَّةِ الْفَانِي ، نَازِرًا فِي الْحَيَاةِ إِلَى الْوَضْعِ الثَّابِتِ لِلْحَقِيقَةِ لَا إِلَى الْوَضْعِ الْمُتَغَيِّرِ لِلْمَنْفَعَةِ .

وَمَا كَانَ أَوْلَئِكَ الْأَشْرَافُ وَسَفَهَاؤُهُمْ وَعَبِيدُهُمْ إِلَّا مَعَانِي الظَّالِمِ ، وَالشَّرِّ ، وَالضَّعْفِ ، تَقُولُ لِلنَّبِيِّ الْعَظِيمِ الَّذِي جَاءَ يَحْجُوها وَيُدِيلُ مِنْهَا : إِنَّا أَشْيَاءُ ثَابِتَةٌ فِي الْبَشَرِيَّةِ .

لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ الْأَشْرَافُ وَالسَّفَهَاءُ وَالْعَبِيدُ ، بَلْ كَانُوا مِنْهُمْ الْعَسْفُ ،

(١) الحائط : البستان ، وجمعه حوائط .

والرِّق ، والطَّيْش ؛ تَسَخَّرَ ثلاثُها من نبي العدل ، والحرية ، والعقل ؛ فما تَسَخَّرَ
إِلَّا مِنْ نَفْسِهَا .

صغائرُ الحياة قد أحاطت بمجدِ الحياة ، لتُثَبِّتَ الصغائرُ أَنَّها الصغائرُ ،
وليُثَبِّتَ المجدُ أَنَّهُ المجدُ .

كان الفريقان هما الفكرتين المتعاديَتين أبدأً على الأرض : إحداهما عِشْ
لنَّا كُلَّ وَتَسْتَمْتِعْ وإن أَهْلَكْتَ ؛ والأخرى عِشْ لتَعْمَلْ وتَنْفَعِ النَّاسَ
وإن هَلَكْتَ .

كانت الأقدارُ تُبادى هذا الروحَ الواسعَ بذلك الروحَ الضيقَ ، لينطلقَ
الواسعُ مِنْ مكانه ويستقبلَ الدنيا التي عليه أن يُنشِئَها . فأولئك الأشرافُ
والسفهاءُ والعبيدُ إن هم إِلَّا الضيقُ ، والركودُ ، وذلُّ العيشِ ؛ حولَ السَّعةِ
الروحيةِ ، والسموِّ ، وطهارةِ الحياة .

وقف المعنى السماويُّ بين معاني الأرض ؛ ولكنَّ نورَ الشمسِ ينبسطُ على
الترابِ فلا يُغْفِرُهُ الترابُ ، وما هو بنورٍ يضيءُ أَكْثَرَ مما هو قوَّةُ تعملُ
بالعناصرِ التي مِنْ طبيعتها أن تحوِّلَ ، في العناصرِ التي مِنْ شأنِها أن تتحوِّلَ .

وكان بين النبي (صلى الله عليه وسلم) وبين أولئك المستهزئين قوَّةُ أخرى ،
هي القدرةُ التي تعملُ بهذا النبي للعالمِ كُلِّهِ ، وبهذه القدرة لم ينظر النبي إلى قريشٍ
وصَوَّلَهم عليه إِلَّا كما ينظر إلى شيءٍ انقضى ، فكان الوجودُ الذي يُحيطُ به غيرَ
موجودٍ ، وكانت حقيقةُ الزمنِ الآتِي تجعلُ الزمنَ الحاضرَ بلا حقيقة .

وإلى هذه القدرة توجَّهَ النبي (صلى الله عليه وسلم) بذلك الدعاءَ البليغَ الخالدَ ،
يشكو أَنَّهُ إنسانٌ فيه الضعفُ وقلةُ الحيلةُ ، فينطقُ الإنسانيُّ فيه بالشَّطْرِ الأولِ
مِنَ الدعاءِ يذكرُ انفرادَهُ وآثَارَ انفرادِهِ ، ويتوجَّعُ لما بينه وبين إنسانيةِ قومه ؛
ثم ينطقُ الروحانيُّ فيه بعد ذلك إلى آخر الدعاءِ متوجَّهاً إلى مصدرِهِ الإلهيِّ قائلاً

أول ما يقول : إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي .
 واعمرى لو نطقت الشمس تدعو الله لما خرجت عن هذا المعنى ولا زادت
 على قوله : « أعود بنور وجهك » ؛ تلتبس من مصدر النور الأزلى حياطة
 وجودها الكامل .

ولقد هزئوا من قبل بالمسيح (عليه السلام) فقال للساخرين منه : ليس نبى
 بلا كرامة إلا فى وطنه وفى بيته . وبهذا رد عليهم رد من انسلخ منهم ، وقال
 لهم قول من ليس له حكم فيهم ، وأخذهم بالشرعة الأدبية لا العملية ؛ إذ كان
 (عليه السلام) كالحكمة الطائفة ليست لكل قلب ولا لكل عقل ، ولكنها إن
 أعد لها ؛ وشريعته أكثرها فى التعبير وأقلها فى العمل ، ولم تجيء بالقوة العاملة
 فلم يكن بد من أن تضع الموعظة فى مكان السيف ، وأن تكون قائمة على النهى
 أكثر مما هى قائمة على الأمر ، وأن تكون كشمس الشتاء الجميلة : لا تغلى
 بها الأرض ، وإنما عملها أن تمهد هذه الأرض لفصل آخر .

أما نبينا (صلى الله عليه وسلم) فلم يحب المستهزئين ، إذ كانت القوة الكامنة
 فى بلاد العرب كلها كامنة فيه ، وكان صدره العظيم يحمل للدين كلمة جديدة
 لا تقبل الدنيا أن تعامله عليها إلا بطريقتها الخريبة ؛ فلم يرد رد الشاعر الذى
 يريد من الكلمة معناها البليغ ، ولكنه سكت سكوت المشترع الذى لا يريد
 من الكلمة إلا عملها حين يتكلم ؛ وكان فى سكوته كلام كثير فى فلسفة الإرادة
 والحرية والتطور ، وأن لا بد أن يتحول القوم ، وأن لا بد أن يتفطر هذا الشجر
 الأجرد عن ورق جديد أخضر ينمو بالحياة .

لم يتسخط ولم يقل شيئاً ، وكان كالصانع الذى لا يرد على خطأ الآلة بسخط
 ولا يأس ، بل بإرسال يده فى إصلاحها .

قالوا : ورأى ابنا ربيعة ، عْتَبَةُ وَشَيْبَةُ ما لقي النبي (صلى الله عليه وسلم) من السفهاء ، فتحركت له رَحْمَتُهُمَا ، فدَعَوْا غلاماً لهما نصرانياً يقال له عَدَّاس ، فقللا له : خذ قِطْفاً من هذا العنب وضعه في ذلك الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يا كُلُّ منه . ففعل عَدَّاس ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ؛ فلما وضع يده قال : « بسم الله . » ثم أكل ؛ فنظر عَدَّاس إلى وجهه ثم قال : والله إن هذا لكلامٌ ما يقوله أهل هذه البلدة . فقال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : ومن أهلِ أيِّ البلادِ أنت يا عَدَّاسُ وما دينُك ؟

قال : أنا نصراني وأنا رجلٌ من أهل نَيْنَوَى . فقال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ قال : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ قال (صلى الله عليه وسلم) : ذاك أخي : كان نبياً وأنا نبي . فأكبَّ عَدَّاس على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقبل رأسه ويديه ورجليه .

يا عجباً لرموز القدر في هذه القصة ! لقد أسرع الخير والكرامة والإجلالُ فأقبلتْ تعتذر عن الشر والسفاهة والطيش ، وجاءت القُبَلاتُ بعد كلمات العداوة .

وكان ابناربيعة من ألد أعداء الإسلام ، ومن مشوا إلى أبي طالب عم النبي (صلى الله عليه وسلم) من أشرف قريش يسألونه أن يكفَّ عنهم أو يُخَلِّيَ بينهم وبينه ، أو يُنازِلوه وإياه حتى يهلك أحدُ الفريقين ، فانقلبت الغريزة الوحشية إلى معناها الإنساني الذي جاء به الدين ، لأن المستقبل الديني للفكر لا للغريزة . وجاءت النصرانية تعانق الإسلام وتُعزِّه ، إذ الدين الصحيح من الدين

الصحيح كالأخ من أخيه ، غير أن نسب الإخوة الدم ونسب الأديان العقل ..
ثم أتم القدر رمزه في هذه القصة ، بقطف العنب سائغاً عذباً مملوءاً حلاوة ؛
فباسم الله كان قطف العنب رمزاً لهذا العقنود الإسلامى العظيم الذى امتلاً حباً
كل حبة فيه مملكة .

فوق الأدمية

الإسراء والمعراج

من أعجب ما اتفق لى أنى فرغت من تسويد هذا المقال ثم أردت نقله ،
فتعسّر على وصُرِفَتْ عنه بألم شديد اعترانى ، ونالنى منه ثقلٌ فى الدماغ ؛ ثم
كشفه الله بعد يوم فراجعت الكتابة ، فإذا قلمى ينبعث بهذه الكلمات :
كيف يستوْطِئ المسلمون العجز ، وفى أول دينهم تسخير الطبيعة ؟
كيف يستمهدون الراحة ، وفى صدر تاريخهم عمل المعجزة الكبرى ؟
كيف يَرَكْنُون إلى الجهل ، وأول أمرهم آخر غايات العلم ؟
كيف لا يحملون النور للعالم ، ونيّهم هو الكائن النورانى الأعظم ؟

قصة الإسراء والمعراج هى من خصائص نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) ، هذا
النجم الإنسانى العظيم ؛ وهو النور المتجسّد لهداية العالم فى حيرة ظلماته النفسية ؛
فإن سماء الإنسان تظلم وتضىء من داخله بأغراضه ومعانيه . والله (تعالى) قد خلق
للعالم الأرضى شمساً واحدة تنيره وتحميه وتتقلب عليه بلبلة ونهاره ، بيد أنه ترك

الكل إنسان أن يصنع لنفسه شمس قلبه وغمائمها وسحابها وما تسفر به وما تظلم فيه . ولهذا سُمي القرآن نوراً لعمل آدابه في النفس ، ووُصف المؤمنون بأنهم « يسعون نورهم بين أيديهم وبأيمنهم » ، وكان أثر الإيمان والتقوى في تعبِير القرآن الكريم أن يجعل الله للمؤمنين نوراً يمشون به .

وقد حار المفسرون في حكمة ذكر « الليل » في آية « الإسراء » من قوله تعالى : « سُبحانَ الذي أُسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنُريه من آياتنا . » فإن السُرى في لغة العرب لا يكون إلا ليلاً .

والحكمة هي الإشارة إلى أن القصة قصة (النجم) الإنساني العظيم الذي تحول من إنسانيته إلى نوره السماوي في هذه المعجزة ، ويتم هذه العجيبة أن آيات « المعراج » لم تجيء إلا في سورة : « والنجم » .

وعلى تأويل أن ذكر (الليل) إشارة إلى قصة النجم ، تكون الآية برهان نفسها ، وتكون في نَسَقها قد جاءت معجزة من المعجزات البيمانية ؛ فإذا قيل أن نجماً دار في السماء ، أو قطع ما تقطعه النجوم من المسافات التي تُعجز الحساب ، فهل في ذلك من عجيب ؟ وهل فيه شك أو نظر أو تردد ؟ وهل هو إلا من بعض ما يُسبح الله بذكره ؟ وهل يكون إلا آية اتصت بالآيات التي نراها اتصال الوجود ببعضه ببعض ؟

وأنا ما يكاد ينقضي عجب من قوله تعالى : « لنُريه من آياتنا . » مع أن الألفاظ كما ترى مكشوفة واضحة ، يُحِيل إليك أن ليس وراءها شيء ، ووراءها السرُّ الأكبر ؛ فإنها بهذه العبارة نصَّ على إشراف النبي (صلى الله عليه وسلم) فوق الزمان والمكان يرى بغير حجاب الحواسِّ مما مرَّجعه إلى قدرة الله لا قدرة نفسه ؛ بخلاف ما لو كانت العبارة : (ليرى من آياتنا) فإن هذا يجعله لنفسه

في حدود قوتها وحواسها وزمانها ومكانها ، فيضطرب الكلام ، ويتطرق إليه الاعتراض ولا تكون ثم معجزة .

وتحويل فعل (الرؤية) من صيغة إلى صيغة كما رأيت ، هو بعينه إشارة إلى تحويل الرأى من شكل إلى شكل كما ستعرفه ، وهذه معجزة أخرى يسجد لها العقل ؛ فتبارك الله منزل هذا الكلام !

وإذا كان (صلى الله عليه وسلم) نجيماً إنسانياً في نوره ، فإن يأتي هذا إلا من غلبة روحانيته على مادته ؛ وإذا غلبت روحانيته كانت قواه النفسية مهيأة في الدنيا لمثل حالتها في الأخرى ؛ فهو في هذه المعجزة أشبه بالهواء المتحرك .
فقل الآن : أيعترض على الهواء إذا ارتفع بأنه لم يرتفع في طيارة ... ؟

ومن ثم كان الإنسان إذا سما درجة واحدة في ثبات قواه الروحية ، سما بها درجات فوق الدنيا وما فيها ، وسُخِرَتْ له المعاني التي تُسَخَّرُ غيره من الناس ، ونشأت له نواميس أخلاقية غير النواميس التي تتسلط بها الأهواء . ومتى وُجد الشيء من الأشياء كانت طبائع وجوده هي نواميسه ؛ فالنار مثلاً إذا هي تضرمت أوجدت الإحراق فيما يحترق ، فإن وُضع فيها مالا يحترق أبطل نواميسها وغلب عليها .

وكل معجزة تحدث فهذا هو سبيلها في إيجاد النواميس الخاصة بها وإبطال النواميس المألوفة ، وهذا يقال : إنها خرقت العادة . ومن النور نور لا يشف له غير الهواء ، ومنه أشعة (رونجن) التي تشف لها الجدران والحجب ؛ فهذه معجزة في ذلك .

والنبي لا يكون نبياً حتى يكون في إنسانه إنسان آخر بنواميس تجعله أقرب إلى الملائكة في روحانيته ، وما ينزل إنسانه الظاهر من الإنسان الباطن

فيه إلا منزلة من يتلقى ممن يُعطى ؛ فذاك الباطنُ هو للحقائق التي لا تحملها الدنيا ، وهذا الظاهرُ لما يمكن أن يبلغ إليه السكّالُ في المثل الإنسانيّ الأعلى ، ولولا ذلك الباطنُ ما استطاع نبي من الأنبياء أن يحملَ همومَ أمةٍ كاملة لا تُضنيه ولا تغيّره ولا تُعجزه .

لحقيقة النبوة أنها قوة من الوجود في إنسانٍ مختارٍ جاءت تُصلّح الوجود الإنسانيّ به لتُقرّر في هذه الحيوانية المهدّبة مثلاً الأعلى ، بدلالاتها على طريقها النفسيّ مع طريقها الطبيعي ؛ فيكون مع الانحطاط الرقيّ ، ومع النقص السكّال ، ومع حكم الغريزة التحكّم في الغريزة ، ومع الظلمة المادية الإشراق الروحاني . وما المعجزاتُ إلا شأنُ تلك القوة الباطنة لا شأنُ إنسانها الظاهر . ومن الذي ينكر أن قوى الوجود هي في نفسها إعجازٌ للعقل البشريّ ؟ وهل ينكر اليوم أحدُ شأنِ هذه القوة في (الراديو) حين مسته فجعات الكلمة التي تُرسلُ بين الشرق والغرب ، كالكلمة بين اثنين يتحدثان في مجلس واحد ؟

ونحن نرى معجزاتِ التنويم المغناطيسي وما يُبصره النائم وما يسمعه ، وما ينكشفُ له مما وراء الزمانِ والمكان ؛ وليس التنويمُ شيئاً إلا تسليطَ الذاتِ الباطنة بقواها الروحية العجيبة ، على الذاتِ الظاهرة المقيّدة بحواسّها المحدودة ، فتطغى عليها ، فتُصبحُ الحواسُّ مطلقةً شائعةً في الوجود بمقدار ما فيها من قواه لا بمقدار ما فيها من قوة شخصها .

وعلى نحوٍ من ذلك يتصلُّ الرجلُ الروحانيُّ بذاته الباطنة ، فيوقعُ شخصه الظاهرَ في الاستهواء ، فينكشفُ له الوجودُ ، ويُبصرُ ما يقع على البعد ، ويرى ما هو آتٍ قبل أن يأتي ؛ وما الكونُ في هذه الحالة إلا كالمعشوق يقول لعاشقه الذي وقع في قلبه الحب : قد آتيتك نوراً تنظرُ به جمالي .

وفى علماء عصرنا من يفكر في الصعود إلى القمر ، وفيهم من يعمل للمخاطبة مع الأفلاك ، وفيهم من تقع له العجائب في استحضار الأرواح وتسخيرها ؛ وكل ذلك أول البرهان السكوني الذي سيُلزِمُ العلم فيضطره في يومٍ ما إلى الإقرار بصحة الإسراء والمعراج . .

ونحن قبل أن نُبدِ رأيَنا في القصة نلُمُ بها الإمامة موجزة ؛ فقد اختلفت فيها الأحاديثُ ووقع فيها تحليط كثير ، فجاءت فنوناً وأنواعاً من طُرُقٍ شتى ، حتى جمعها بعضهم في جزأين ^(١) ، وما تحتل كل ذلك ولا بعضه ، ولكن روح الرواية في ذلك الزمن كانت كروح الصحافة في هذا العصر : متى فارت فوَّرها استحدثت من كل عبارة عبارة أخرى ، وعلى هذه الطريقة تخرج من العبارتين عبارة ثالثة ، فيكون الأصلُ معنى واحداً وإذا هو يمدُّ من يمينه ويساره .

ولا يرون بذلك بأساً ؛ فإنهم يشُدُّون به الرأى ، ويضاعفون منه اليقين ، ويزيدون ضوءاً في نور المعنى ، وما داموا قد أثبتوا الأصل واستيقنوه ، فلا حَرَجَ أن يؤيد القولُ بعضُه بعضاً ، باجتهادٍ في عبارة ، واستنباطٍ من أخرى ، وزيادة في الثالثة مما هو بسبيلٍ منها ، على نحو ما نرى من فن الرواية القصصية ؛ إذ تعدد الأساليبُ والعباراتُ مختلفةٌ متنوعة ، وليس تحتها إلا حقيقةٌ واحدة لا تختلف . والقصصُ الدينيُّ في هذه اللغة العربية فنٌ كاملٌ قائمٌ بنفسه ، لا يُبدعُ العقلُ والخيالُ والعاطفةُ أقوى منه ولا أعجب ولا أغرب .

هذا في متن القصة ، أما في واقعها فقد اختلفوا اختلافاً آخر : هل كان الإسراء والمعراج يقظةً أو مناماً ؟ وبالروح وحدها ، أو بالروح والجسم معاً ؟ وإنما ذكرنا هذا الخلاف لأنه الدليلُ القاطع على أن النبي (صلى الله عليه وسلم) لم يُخبر بشيء من ذلك ، فلم يعيِّن لهم وجهاً من هذه الأوجه . والحكمة في ذلك

(١) قال الذهبي : إن الحافظ عبد الغنى جمع أحاديث الإسراء في جزأين .

أن عقولهم لم تكن تحتمل الإدراك العلمى الذى أساسه ما عُرِفَ اليوم من أمر الكهرباء والأثير . . .

والخلاصة التى تتأدى من القصة : أنه (صلى الله عليه وسلم) كان مضطجعا ، فأناه جبريل ، فأخرجه من المسجد ، فأركبه البراق ، فأتى بيت المقدس ، ثم دخل المسجد فصلى فيه ، ثم عرج به إلى السموات ، فاستفتحها جبريل واحدة واحدة ، فرأى فيها من آيات ربه ، واجتمع بالأنبياء (صلوات الله عليهم) ، وصعد فى سماء بعد سماء إلى سِدْرَةِ المنتهى ، فغشيها من أمر الله ما غشيها ، فرأى (صلى الله عليه وسلم) مظهرَ الجمال الأزلى ، ثم زجَّ به فى النور فأوحى الله إليه ما أوحى .

أما وَشَى القصة وطرأها فبابٌ عجيبٌ من الرموز الفلسفية الإنسانية التى يُرمزُ بها إلى تجسيد الأعمال فى هذه الحياة : تكونُ تعباً وتقعُ فائدة ، أو تلتَمَسُ منفعةٌ وشهوةٌ وتقعُ مُضَرَّةٌ وحماقة ، ثم تَفْنَى من هذه وتلك الصُّورُ الزمنية التى توهمها أصحابها ، وتخلدُ الصورُ الأبدية التى جاءت بها حقائقها .

ومن هذه الرموز البديعة قوله : فجاءنى جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن ، فأخذتُ اللبن ، فقال جبريل : أخذتَ الفِطْرَةَ . وأنه مرَّ على قوم يزرعون ويحصدون فى كل يوم ، كلما حصدوا عاد كما كان ؛ فسأل ما هذا ؟ قال جبريل : هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله ، تُضَاعَفُ لهم الحسنَةُ سبعةً ضعْف . ثم أتى على قوم تُرَضِّخُ رءوسهم بالصخر ، كلما رُضِّخَتْ عادت كما كانت ولا يُفْتَرَّ عنهم من ذلك شىء ؛ فقال ما هذا ؟ قال جبريل : هؤلاء الذين تتثاقل رءوسهم عن الصلاة . ثم أتى على قوم بين أيديهم لحمٌ نَضِيجٌ فى قِدْرِ ، ولحمٌ آخرٌ نى فى قِدْرِ خبيث ، فجعلوا يأكلون من النيئ الخبيث ويدعون النضيج ؛ فقال ما هؤلاء ؟ قال جبريل : هذا الرجل تكون عنده المرأة الحلال الطيبُ فيأتى امرأة خبيثة ،

والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً فتأتى رجلاً خبيثاً . ثم أتى على رجل قد جمع حُرمة عظيمة لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال هذا الرجل تكون عليه أماناتُ الناس لا يقدر على أدائها وهو يريد أن يحمل عليها . ثم رأى نساءً معلقاتٍ بشديهن ؛ فسأل ، فقال جبريل : هؤلاء اللاتي أدخلن على الرجال من ليس من أولادهم .

ونحن على الرأي الذي عليه جمهورُ العلماء : من أن الإسراء والمعراج كانا بالجسم والروح معاً على التأويل الذي سنبينه ؛ ويثبت ذلك قوله تعالى في سورة (النجم) : « إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى . » فلا يكون البصرُ يزيفُ ويطنى إلا في الجسم ، ولا ينتفى عنه ذلك إلا وهو في الجسم . ولم يتنبه أحد من المفسرين إلى المعنى المعجز العجيب في قوله : (وما طغى) ؛ فذلك نصٌّ على أنه كان يرى بجسم قد تحول عن الطبيعة الآدمية المحدودة فليس فيه منها شيء ؛ إذ لا يكون طغيانُ البصر إلا من تسلط الخيال عليه بأهواء الجسم التي لا يستقيم بها حكم على حقيقته ، فما زاغ البصرُ بكونه مقيد الحاسة ، ولا طغى بكونه مُطلق الخيال ، بل كان كما يريه الله من آياته ، أي كان حقيقةً كونيةً في غير حالتها الأرضية الناقصة .

والذين قالوا إن الإسراء والمعراج كانا رؤيا رآها النبي (صلى الله عليه وسلم) ؛ احتجوا لذلك بقوله تعالى : « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنةً للناس . » وقد خلط المفسرون في هذا أيضاً ، وإنما كان التعبير بلفظ « الرؤيا » — وهي التي تكونُ مناماً — لنفي تأثير الحواس على الرأي ، وإثبات أن الطبيعة الآدمية بجملتها كانت فيه كالنائمة عن حياتها الأرضية بحقائقها وأخيلتها معاً ، فليس نائماً كالنائم ، ولا مستيقظاً كالمتيقظ .

وفي أساس القصة جبريلُ والبراقُ ؛ وهما القوةُ الملائكية والقوةُ الطبيعيةُ ،
أو الروحُ الملائكي والروحُ الطبيعي ؛ ولم يوصف البراق بأنه دابة إلا رمزاً ،
إذ لا يأتي للعرب أن يفهموا ما يراد منه ؛ وعندنا أنه سُمِّيَ البراق من البرق ،
وما البرقُ إلا الكهربائية ، وهذا هو المراد منه ؛ فتلك قوةٌ كهربائيةٌ متى
نَبَضَتْ جمعتُ أولَ العالمِ بآخره ؛ وهذه هي الحكمة في أن آيةَ الإسراء لم تذكر
أنه كان محمولاً على شيء ، إذا لم يكن محمولاً إلا على روح الأثير .

وما دامت القوةُ الملائكيةُ والقوةُ الطبيعيةُ قد سُخِّرَتَا له (صلى الله عليه وسلم) ،
فلا معنى لأن يكونَ ذلك للروح وحدها دون الجسم ، بل اجتماعهما معاً في
القصة دليلٌ على أن سرَّ المعجزة إنما كان في تيسير ملاءمة جسمه الشريف
لهاتين الحالتين ؛ فيتحولُ في صورة كونية ملائكية بين سرِّ الملك وسرِّ الطبيعة ،
وحينئذ لا تجرى عليه أحكامُ الحواسِّ ولا أحكامُ المادة .

ومن الممكن أن تتحولَ الأجسام إلى حالتها الأثيرية في بعض الأحوال
الخارقة ، وبهذا يعللُ طيُّ الأرض لبعض الروحانيين ، وتعللُ خوارق كثيرةٌ
مما يحدثُ في استحضار الأرواح لهذا العهد ، ومما يأتيه فقراء الهند ، ومما كان
يصنعه «هوديني» الأمريكي : إذ كانوا يغالونه بالسلاسل والقيود ثم يرونه طليقاً ؛
ويحبسونه في السجون المحصنة يقوم عليها الحراس وتُمسكُ فيها الأبواب والجران
ثم يجدونه في بعض الفنادق .

وليس للعقل أن ينكر شيئاً من هذا ونحوه ، فإن تركيبَ الطبيعة ردُّ عليه ،
ونقصه هو ردُّ على نفسه ، والمستحيلُ على الأعمى هو أيسر الممكّنات على البصير .
فأنت ترى أن ذكرَ البراق والملك في أساسِ قصة الإسراء والمعراج هو
صلة القصة بالمعجزة ، وهو عينه صلتها بالبرهان العلمي ؛ ولو لم يكونا فيها لما كان
لها تفسير .

✓ والقصة بعد ذلك تثبت أن هذا الوجود يرقُ وينكشفُ ويستضيءُ كلما
سما الإنسان بروحه ، ويغلُظُ ويتكاثفُ ويتجسَّبُ كلما نزل بها ، وهي من ناحية
النبي (صلى الله عليه وسلم) قصةٌ تصِفُه بمظهره الكونيِّ في عظَمته الخالدة كما
رأى ذاته الكاملة في ملكوت الله ، ومن ناحية كل مسلم من أتباعه هي
كالدرس في أن يكون لقلب المؤمن معراجٌ سماويٌّ فوق هذه الدنيا ، ليشهدَ
ببصيرته أنوارَ الحق ، وجمالَ الخير ، وتجسَّدَ الأعمال الإنسانية في صورها الخالدة ؛
فيكونُ بتدبُّره القصةَ كأنما يصعدُ إلى السماء وينزل ؛ فيستريحُ إلى الحقائق
الأساسية لهذه الحياة ، فيدفع عن نفسه بذلك تعقُّدَ الأخيلة الذي هو أساسُ
البلاء على الروح .

ومتى استنار القلبُ كان حيًّا في صاحبه ، وكان حيًّا في الوجود كُلِّه . ومتى
سَلِمَتِ الحياةُ من تعقيد الخيال الفاسدِ لم يكن بين الإنسان وبين الله إلا حياةٌ
هي الحق والخير ، ولم يكن بينه وبين الناس إلا حياةٌ هي الرحمة والحب .

الانسانية العليا

من أوصاف النبي (صلى الله عليه وسلم) : أنه كان متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ، طويل السكوت ، لا يتكلم في غير حاجة ، ليس بالجافي ولا المهين ، يُعظم النعمة وإن دقت لا يذم منها شيئاً ، ولا تغضب الدنيا ولا ما كان لها ، فإذا تعدى الحق لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له ، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ؛ وكان خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه ، لا يحسب جلسه أن أحداً أكرم عليه منه ، ولا يطوي عن أحد من الناس بشره ، قد وسع الناس بسطه وخلقه ، فصار لهم أباً ، وصاروا عنده في الحق سواء ؛ يحسن الحسن ويقويه ، ويقبح القبيح ويؤهيه ، معتدل الأمر غير مختلِف ؛ وكان أشد الناس حياء ، لا يثبت بصره في وجه أحد ، له نور يعلوه كأن الشمس تجري في وجهه ، لا يؤيس راحية ، ولا يخيب عافية ، ومن سأله حاجة لم يردّه إلا بها أو بميسور من القول ؛ أجود الناس بالخير ^(١) .

صلى الله وسلم على صاحب هذه الصفات التي لا يجد الكمال الإنساني مذهباً عنها ولا عن شيء منها ، ولا يجد النقص البشري مَسَاغاً إليها ولا إلى شيء منها ؛ ففيها المعنى التام للانسانية ، كما أن فيها المعنى التام للحق ، ومن اجتماع هذين يكون فيها المعنى التام للإيمان .

(١) جمعنا هذه الأوصاف من روايات مختلفة ، وجعلناها كالحديث الواحد .

هي صفاتُ إنسانِها العظيم ، وقد اجتمعت له لتأخذ عنه الحياةُ إنسانيتها العالية ؛ فهي بذلك من برهانات نبوته ورسالته .

ولو جمعت كلَّ أوصافه (صلى الله عليه وسلم) ، ونظمتها بعضها إلى بعض ، واعتبرتها بأسرارها العلمية — لرأيت منها كونا معنويا دقيقا قائما بهذا الإنسان الأعظم ، كما يقوم هذا الكون الكبير بسننه وأصول الحكمة فيه ، ولأيقنت أن هذا النبي الكريم إن هو إلا مُعْجَمٌ نفسى حتى ألفته الحكمة الإلهية بعلم من عليها ، وقوة من قوتها ، لتتخرج به الأمة التي تبدعُ العالمَ إبداعا جديداً ، وتُنشئه النشأة المحفوظة له في أطوار كاله .

ولن ترى في الإنسانية أسمى من اجتماع هذه الصفات بعضها إلى بعض ؛ وإنى لأكاد كلما تأملتُها أحسبُ هذا السمو قضاءً وقدرًا بإنسانٍ على الإنسانية كلها . وهي دليلٌ على أنه الإنسانُ الذي خُلِقَ للدنيا لا لنفسه ؛ فهو لا ينفو بما يكونُ له على الناس من الحق ، ولكن بما يكونُ للناس عليه من الواجبات ، كأنما هو حقيقةٌ كونيةٌ تعيشُ عيشها ، فما تكونُ في الوجود إلا لتقرر وجودها هي ، ولا تنتهى حين تنتهى بذاتها إلا لتبدأ معانيها في غيرها ، فهو (صلى الله عليه وسلم) إنسانٌ غرسَ في التاريخ غرساً ليكونَ حداً لزمنٍ وأولاً لزمنٍ بعده ، وما كانت حياته تلك إلا طريقةَ غرسه ، وهو أبداً قائمٌ في مكانه الاجتماعى ، إذ كان الزمنُ كلما تقدم زاد في إثباته ، وقد أصبح في الدنيا كأنه جهةٌ من الجهات لا إنسانٌ من الناس ، فان يتغير أو يُمَحَى إلا إذا تغير أو مُحِيَ المشرق والمغرب .

ونحن حين نقرأ تلك الصفات وما فاضت به كتبُ الشئال من أمثالها ، لا نقرأها أوصافاً ولا حلية ، بل نراها صفحةً إلهيةً مصنفةً أبدع تصنيف وأدقّه ، ومن وراء تأليفها تفسيرٌ طويلٌ لا يتهدى الفكرُ البشرى لأحسن منه ولا أصح .

ولا أكمل ؛ فقد اجتمعت تلك الصفات في إنسانها اجتماع الأجزاء في المسئلة الرياضية : لا ينبغي أن تزيد أو تنقص ، إذ كان في مجموعها ما وجد له مجموعها . ويكاد الارتباط بين أجزاء هذه المسئلة يكون هو بعينه صورة الارتباط بين أجزاء تلك الصفات الشريفة ؛ فإن كل جزء منها موضوع وضعا لا يتم الكل إلا به ، حتى لا موضع فيها لقلّة أو كثرة ؛ وهذا معنى قوله (صلى الله عليه وسلم) : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » ، وأنت إذا دقت في هذا الحديث أدركت من معنائه أن هناك طبيعة أخلاقية مفردة تجري على قانونها الذي وضعه الله لها وأحكمها به .

وأعجب ما يدهشنا من مجموع صفاته (صلى الله عليه وسلم) أن فيها دليلاً بيّناً على أنه مخلوق خلقه متميزة بنفسها ، كخلق القلب الإنساني : نظامه حياته وحياته نظامه ، وكأنما اعترته حالة نفسية كالتي تعترى القلب في استشعار الخطر فتخرجّه من طبيعته إلى أقوى منها ، فلا يزال يمدّ أعضاء الجسم بمدد لا ينفد من القوة والصبر ، يجعل الحياة فيها على أضعافها كأنها حياة كانت مخبوءة وظهرت بغتة ؛ وفي هذه الحالة تتجه غرائز النفس كلها إلى جهة واحدة كأنها مقدرة بميزان ، مضبوطة بقياس ؛ فترجع على تناقضها واختلافها متعاونة يؤازر بعضها بعضاً ، وكان قانونها الطبيعي أن تتجاذب وتتساقط وتفسر الواحدة منها عمل الأخرى ، فيجىء بها الشيء وضده معاً : كالصدق والكذب ، والطمع والقناعة ، والشهوات الثائرة والخمود الساكن ، إلى آخر ما تعدّ من هذه الغرائز ؛ ولكنها في استشعار الخطر تكون كالأشبهاء لا كالأضداد ، فيشد بعضها بعضاً ، ويتم النقيض منها نقيضه ، وتجرى كلها في قانون واحد : هو الدفاع بأجزائها عن مجموعها ؛ فترى النازع منها وإنه لمستقر في أشد من القيد ، وكأن فيه غير طبيعته .

وهل يُنبئك مجموع صفاته (صلى الله عليه وسلم) إلا أنه يعيشُ معيشة القلب إذا اختلف ما حوله وُجَّاتَه بَغَّتاتُ الوجود فتَجَاوَزُ أن يكونَ منبعاً للحياة إلى أن يكونَ حافظاً للحياة في منبعاها ؟

وتلك الحالة — كما مرَّ بك — تجعلُ وجودَ الإنسان هو وجودَ إرادته وعقله ، لا وجودَ شهواته وغرائزه ؛ وكذلك عاش نبينا (صلى الله عليه وسلم) ؛ فهو مدَّةَ حياته في وجودِ إرادته لا غيرها ، حتى ليس عليه سبيلٌ لغميزةٍ أو لآئمةٍ ، كأنه خُلِقَ تشدُّه نيةً مستيقظة قد نهَّها ما ينبه النفس من الغرر والخطر . ولعلَّ هذا الشعور في نفسه (صلى الله عليه وسلم) هو التفسيرُ لقوله : « نيةُ المؤمنِ خيرٌ من عمله . » إلى أحاديثٍ كثيرةٍ مما يجري في معنى هذه الكلمة الجامعة ؛ يريد بها : أن نيةَ المؤمن لا تنطوي إلا على الخير الكامل ، فهو — ما دامت نيته على صلاحها وسرُّه على إخلاصه — لا يعدُّ اليسيرَ من الشرِّ يسيراً ، ولا يرى الكثيرَ من الخير كثيرًا ؛ فالأصلُ القائمُ في تلك النيةِ المؤمنةِ ألاَّ يبدأ الشرُّ كي لا يوجد ، والألَّا ينتهى الخيرُ كي لا يفنى ؛ فالمؤمنُ من ذلك على الخير والكمال أبداً ، في حين أن عمله بطبيعته الإنسانية يتناولُ الخيرَ والشرَّ جميعاً ، ثم لا يكونُ إلا عملاً إنسانياً على نقصٍ واضطرابٍ والتواء .

وقد لا يستطيعُ المؤمنُ أن يأتيَ الخيرَ في بعض أحواله ، ولكنه يستطيع دائماً أن ينوِّيه ويرغبَ فيه ويعزِّمَ عليه ، ليحقِّقَ ضميره الطيبَ في كل ما يهيمُ به ؛ ويحصِرَ أفكاره في قانونِ نيته المؤمنة . وهذا هو الأساسُ في علم الأخلاق ، لا أساسٌ من دونه .

والنيةُ من بعدُ هي حارسُ العمل ؛ فكلُّ إنسانٍ يستطيعُ أن يُدعِنَ وأن يأتيَ ، ومن ثم تكونُ هذه النيةُ ردًّا ومدافعةً من ناحية ، واستجابةً ومُطابَعةً من الناحية الأخرى ؛ فهي على الحقيقة متى صُلِّحتْ كانت استقلالاً تاماً

للإرادة ، وكانت مع ذلك ضابطاً لهذه الإرادة على حالٍ واحدة هي التي ينتظم بها قانونُ المبدأ السامى .

ثم إنه لا ضابطٌ لصحة العمل واستقامته إلا النيةُ الصحيحةُ المستقيمة ؛
فالتزويرُ والتلبيسُ كلاهما سهلٌ ميسورٌ في الأعمال ، ولكنهما مستحيلان في
النية إذا خلصت .

وهي كذلك ضابطٌ للفضائل تُوجّه القلوبَ على اختلافها وتفاوتها اتجاهاً
واحداً لا يختلف ؛ فيكونُ طريقُ ما بين الإنسانِ والإنسان ، من ناحية الطريقِ
ما بين الإنسانِ وبين الله .

وأشواقُ الروح بطبيعتها لا تنتهى ، فيعارضها الجسمُ بجعلِ حاجاته غيرَ
منتهية ؛ يحاول أن يطمسَ بهذه على تلك ، وأن يغلبَ الحيوانيةَ على الروحانية ،
فإذا كانت النيةُ مستيقظةً كفّته وأماتت أكثرَ نزعاته ، ووضعت لكل حاجةٍ
حداً ونهايةً ؛ وبذلك ترجع النيةُ إلى أن تكونَ قوةً في النفس يخرجُ بها الإنسانُ
عن كثيرٍ مما يحُدُّه من جسمه ، ليخرجَ بذلك عن كثيرٍ مما يحُدُّه من معانى
الأرض ...

وهي بعدَ هذا كله تحملُ الإنسانَ أن ينظرَ إلى واجبه كأنه رقيبٌ حى في
قلبه ، لا يرأيه ولا يُجامله ، ولا يُخدع من تأويل ، ولا يُغرَّ بفلسفةٍ ولا تزيين ،
ولا يسكتُه ما تُسَوِّلُ النفس ، ولا يزالُ دائماً يقولُ للإنسان في قلبه : إن الخطأ
أكبرُ الخطأ أن تنظمَ الحياةَ من حولك وتتركَ الفوضىَ في قلبك .

وجملَةُ القول في معانى النية أنها قوةٌ تجعلُ باطنَ الجسمِ مُتساوياً مع ظاهره ،
فتتعاونُ الغرائزُ المختلفةُ في النفس تعاوناً سهلاً طبيعياً مطّرداً ، كما تتعاونُ أعضاء
الجسم على اختلافها في اطرادٍ وسهولةٍ وطبيعة .

وكل صفات النبي (صلى الله عليه وسلم) — مما ذكرناه وما لم نذكره — متى اعتبرت بذلك الأصل الذي بيّناه انتظمها جميعاً ، فجاء بعضها تماماً على بعض في نسق رياضي عجيب ، وظهرت حكمته كل منها واضحة مكشوفة ، ورأيتها في مجموعها تصف لك عمرًا هندسيًا دقيقًا قد بلغ الغاية من السكال والروعة والدقة ، لا يعدّ جزء منه جزءاً ، بل كله أجزاؤه ، وأجزاؤه كله ؛ كالوضع الهندسي : إما أن يكون بكّله ، وإما ألا تكون فيه الهندسة كلّها .

وليس مجموع تلك الصفات في معناه إلا صنعة الإنسان صنعة جديدة تخرجه موجوداً من ذات نفسه ، وتكسر القالب الأرضي الذي صُب فيه وتفرغه في مثل قالب الكون ، فإذا هو غير هذا الإنسان الضيق المنحصر في جسمه ودواعي جسمه ، فلا تخضعه المادة ، ولا يؤتى من سوء نظره لنفسه ، ولا تغره الدنيا ، ولا يمسكه الزمان ؛ إذ كانت هذه هي صفات المستعبد بأهوائه لا الحرّ فيها ، والخاضع بنفسه لا المستقل بها ، والمقبور في إنسانيته لا الحي فوق إنسانيته ؛ ومثل هذا المستعبد الخاضع المقبور لا وجود له إلا في حكم حواسه ، فعمله ما يعيش به لا ما يعيش من أجله ؛ ويتصل بكل شيء اتصالاً مبتوراً ينتهي في هوى من أهواء الحيوان الذي فيه .

ومن المقابلة العجيبة أن يكون في الإنسان الاجتماعي حيوان ، تقابله الحكمة في الحيوان الأليف بإنسان ، وحكمهما واحد ومنطقهما لا يختلف . فلو أنك سألت حيوان الأعصاب عن صاحبه الإنسان لقال لك : هو غلّتي ومزّعتي . ولو سألت كلباً عن حبه صاحبه ومبلغ هذا الحب في نفسه لما زاد في جوابه على أنه يحبه حبّ اللقمة والعظمة . . .

ومتى كان الإنسان في حكم حواسه لم تعد الأشياء عنده كما هي في نفسها بمعانيها الطبيعية المحدودة ، وانقلبت كما هي في وهمه بمعانٍ متفاوتة مضطربة ،

فلا يشعرُ المرءُ بائتلافِ الوجودِ وتعاونِهِ ، ولكن باختلافِهِ وتناقضِهِ ، فمن ثَمَّ لا تكونُ أسبابُ اللذةِ إلا من أسبابِ الألمِ ، ويدخلُ في كلِّ حبٍّ بغضٌ ، وفي كلِّ رغبةٍ طَمَعٌ ، وفي كلِّ خيرٍ شرٌّ ، وفي كلِّ صريحٍ خبيءٌ ، وهلمَّ جرا ؛ إذ لا بدُّ من هذا كله متى غلبَ الفاني على الباقي ، ولا بدُّ من كلِّ هذا في تمثيلِ روايةِ الخواصِّ الخادعةِ التي أساسُها التغيُّرُ والتقلُّبُ ، حتى لكانَ النفسَ إنما تعيشُ بها في ظاهرٍ من الحياة لا في الحياةِ نفسها .

وهذا الخِدَاعُ جاعِلٌ كلَّ شيءٍ من أشياءِ النفسِ لا يبدأ إلا لينتهى ، ثم لا ينتهى إلا ليبدأ ؛ فما تزالُ هذه النفسُ طامعةً فيما لا تناله ، ولا يزالُ من ذلك مصدرٌ لآلامِها الحسَّيةِ ؛ ثم إذا هي نالت منالَها سَمِمَتْ ، فلا يزالُ من ذلك مصدرٌ آخرٌ لآلامِها المعنويةِ . ولن يجيءَ الصحيحُ من غيرِ الصحيحِ ؛ فالكونُ كله ليس إلا كَذِباً في النفسِ الكاذبةِ بمجاسمِها .

ولذا كانَ أخَصُّ أوصافِهِ (صلى الله عليه وسلم) راجعاً إلى خروجه من سلطانِ نفسه ، فلا يغضبُ لها ، ولا يُطْلَقُها من الدنيا فيما تَذمُّهُ أو تمدِّحُهُ ، ولا يحبُّ فيها ، ولا يُغْضُ من أجلِها ، ولا يُهاوِنُها ، ولا يَسْتَلِينُ لها في ما كلٌّ ولا ملبسَ ، ولا يأخذُها إلا من ناحيةِ الإيمانِ باللهِ والإيمانِ بالإنسانيةِ ؛ فأفراحُها أحزانُها ، وآمالُها أشواقُها ، وأملاكُها أعمالُها ، وحسابُها في طبيعتها ، وحوادثُها من العقلِ لا من الخواصِ ، وعظمتُها إثباتُ ذاتِها في غيرها ، لا إثباتُ غيرها في ذاتِها ؛ وغايتها في الباقي لا الزائلِ ، وفي الخالدِ لا الفاني . وما دام الحاضرُ متحركاً فهو طارىءٌ عابرٌ أوشكُ أمورِ الدنيا زوالاً ، والعملُ له على مقداره في قلةِ أثَرِهِ وهوانِ أمرِهِ ، والاهتمامُ أبداً بما وراءَهُ لا به .

فأولُ النفسِ النيةُ العاملةُ لآخرتها ، وآخرُ النفسِ ما تودِّي إليه أعمالُ هذه النيةِ ؛ فليس في إنسانِ الدنيا إلا إنسانُ العالمِ الآخرِ ؛ وبهذا يُقدَّرُ صمتهُ وكلامُهُ ،

وحركته وسكونه ، وما يأتي وما يدع ، وما يحب وما يكره ، إذ كلُّ شيء منه على ذلك الاعتبار إنما هو صورة الحقيقة العاملة فيه .
وجماع الأمر ألا يكون مستقبل الإنسان علامة استهزاء بجانب ماضيه ، ولا علامة استفهام ، ولا علامة إنكار .

وتدلُّ صفاتُ النبي (صلى الله عليه وسلم) باجتماعها وتساوقها على حقيقة عظمى لم يتنبه إليها أحد ؛ وهي أن جميع خصائصه النفسية مُرَهَفَةٌ متيقظة ، وهذا مما يندُر وقوعه وإمكانه ؛ فإن الرجل من الناس لا يكون حياً بالحياة ، ولكنَّ جوانب كثيرة من نفسه قد طاح بها الموت ، أو هي مريضة وذلك أول الموت ؛ أو غافلة وذلك شبه الموت ؛ أما الحى العظيم فهو الذى يحيا بأكثر خصائص نفسه ، وأما الحى الأعظم فهو الذى يحيا بجميع خصائصها ، تملؤه الحياة فيملاً الحياة ، ويمتدُّ السرُّ فيه ليريه حقائق الأشياء ويهديه ويدلّه ، فيكون بنفسه رؤية للناس وهداية ودلالة ؛ ومثلُ هذا يعظم ثم يعظم حتى ليرى الفرق بينه وبين غيره كالفرق بين نور لبس اللحم والدم ، وبين تراب لبس الدم واللحم . وذلك لا يكاد يتفق إلا فى مراتب أعلاها الامتياز فى النبوة ، ثم تدنو إلى النبوة ؛ ثم تنزل إلى الامتياز فى الحكمة ؛ ثم تهبط إلى عبقرية الشعر . فأكبر الشعراء قاطبة كالنبي فى معناه إلا أنه نبي صغير ، وإلا أنه فى حدود قلبه .

وهذه القوى الثلاث هى التى أبدعتها الحكمة الإلهية لتحويل الحياة والسمو بها ؛ فالشاعر يستوحى الجمال إذا تألّه الجمال فى قلبه ، والحكيم يستوحى الحقيقة إذا تألّمت فى نفسه ، والنبي يستوحى الألوهية نفسها .

« كان (صلى الله عليه وسلم) متواصل الإحزان » ولكنها أحزان النبوة تتكسو الحياة فرح النفس الكبيرة ؛ وهو فرحٌ كله حزن وتأمل ، وفكرة وخشوع ، وظُهُرٌ وفُضيلة ؛ وما فرحٌ أعظم الشعراء بطرب الوجود وجمال الموجودات إلا شئ قليلٌ من حزن النبي .

« وكان دائماً الفكرة ليست له راحة » إذ هو مكلفٌ أن يصنع الإنسان الجديد وينتج الآدمية فيه . وفكرة النبي هي معيشتُه بنفسه مع الحقائق العليا ، إذ لا يرى أكثرها تعيش في الناس ، وهي الفردية واستقلالها وسموها ؛ لأنها إطاقَةُ النفس الكبيرة لوحدها ، بخلاف الأنفس الضعيفة التي لا تطيقها ، فدأبها أبداً أن تبحث عما تستعيد له ، أو تنسى ذاتها فيه ، أو تستريحُ إليه من ذاتها . ومضى كانت النفس فارغةً كان تفكيرها مضاعفةً لفراغها ، فهي تفرُّ منه إلى ما يليها عنه ؛ ولكنَّ العظيم يعيش في امتلاء نفسه ؛ وعالمه الداخلي تسميه اللغة أحياناً : الفكرة ؛ وتسميه أحياناً : الصمت .

« وكان (صلى الله عليه وسلم) طويل السكوت لا يتكلم في غير حاجة » ، ومن الصمت أنواع : فنوعٌ يكون طريقةً من طرق الفهم بين المرء وبين أسرار ما يحيط به ؛ ونوعٌ يغشى الإنسان العظيم ليكون علامةً على رهبة السر الذي في نفسه العظيمة ؛ ونوعٌ ثالثٌ يكون في صاحبه طريقةً من طرق الحكم على صمت الناس وكلامهم ؛ ونوع رابعٌ هو كالفصل بين أعمال الجسد وبين الروح في ساعة أعمالها ؛ ونوع خامسٌ يكون صمتاً على دويٍّ تحته يشبه نوماً ساكناً على أحلامٍ جميلة تتحرك .

على هذا النمط يجب أن تفسر كلُّ أوصافه (صلى الله عليه وسلم) ؛ فهي بمجموعها طابعٌ إلهيٌّ على حياته الشريفة ، يُثبتُ للعالم بكلِّ برهانات العلم والفلسفة أنه الإنسان الأفضل ، وأنه الأقدر ، وأنه الأقوى .

ع ر

سـمـو الفقر

في المصلح الاجتماعي الأعظم

كان النبي (صلى الله عليه وسلم) على ما يصفُ التاريخُ من الفقر والقلة ، ولكنه كان بطبيعته فوق الاستغناء ، فهو فقيرٌ لا يجوزُ أن يوصفَ بالفقر ، ولا تناله المعاني النفسية التي تلو بعرضٍ من الدنيا وتنزلُ بعرضٍ ، فما كانت به خلة تُحدثُ هدمًا في الحياة فيُرثَمها المال ، ولا كان يتحركُ في سعيٍ يُنفقُ فيه من نفسه الكبيرة ليجمعَ من الدنيا ، ولا كان يتقلبُ بين البعيد والقريب من طمعٍ أدرك أو طمعٍ أخفق ، ولا نظر لنفسه في الحسبة والتدبير لتدبر معيشته فيحتلبها ذهبًا أو فضة ، ولا استقرَّ في قلبه العظيم ما يجعلُ للدينار معنى الدينار ولا للدرهم معنى الدرهم ؛ فإن المعنى الحى لهذا المال هو إظهار النفس رابيةً متجسمةً في صورة تكبر على قدر من السعة والغنى ؛ والمعنى الحى للفقر من المال هو إبراز النفس ضئيلةً منزويةً في صورة تصغر على قدر من الضيق والعُسرة . إن فقره (صلى الله عليه وسلم) كان من أنه يتسعُ في الكونِ لا في المال ، فهو فقيرٌ يعدُّ من معجزاته الكبرى التي لم يتنبه إليها أحدٌ إلى الآن ، وهو خاصُّ به ومن أين تدبرته رأيتُه في حقيقته معجزةً تواضعتُ وغيَّرتُ اسمها ؛ معجزة فيها الحقائق النفسية والاجتماعية الكبرى ، وقد سبقتُ زمنها بأربعة عشر قرنًا ، وهي اليوم تُثبتُ بالبرهان معنى قوله (صلى الله عليه وسلم) في صفة نفسه : « إنما أنا رَحمةٌ مُهْدَاة . »

نحن في عصرٍ تكادُ الفضيلةُ الإنسانيةُ فيه تَلَحُّقُ بالألفاظِ التاريخية التي

تدل على ما كان قديماً... بل عادت كلمة من كلمات الشعر تراود لتحريك
النسيم اللغوي الراكد في الخيال ، كما تقول : السحاب الأزرق ، والفجر
الأبيض ، والشفق الأحمر ، والتطّاريف الوردية على ذيل الشمس . وأصبح
الناس ينظرون أكثرهم إلى أكثرهم بأعين فيها معنى وحشّي لو لمس لضرب
أو طعن أو ذبح .

✓ وعملت المدنية أعمالها فلم تزد على أن أخرجت الشكل الشعري لإنسانها
الفني متهافتاً ترفاً ، ونعمة ، واقتنائاً بين ذلك ، من أيسر الحلال إلى الفظيع
المتفاحش في الإباحة ؛ فكأنما وضعت المدنية عقلاً في وحش ، فجاء وقد زاعت
فيه الطبيعة من ناحيتين ؛ ثم قابلته بالشكل الوحشّي لإنسانها الفقير ، فكأنما
نزعت عقلاً من إنسان ، فجاء وقد ضلّت فيه الطبيعة من ناحيتين ؛ وكان مع
الأول سرف الهوى بالطبيعة ، وكان مع الثاني بالطبيعة سرف الحماقة .

✓ وقد أصبح من تهكم الحياة بأهلها أن يكون الفقير فقيراً وهو يعلم أن
صناعته في المدنية عمل الغني للأغنياء... وأن يكون الغني غنياً وهو يعلم أن
عمله في المدنية هو صنعة الفقر لضميره !

✓ وخرجت من هذا وذاك مسائل جديدة في فلسفة المعاشية الإنسانية التي
يسمونها « الاجتماع » ؛ فسؤال اسمه « الاشتراكية » ، يسأل القوة أن تجعل
صاحب المال من ماله كالمرأة المطلقة من رجلها... وسؤال اسمه « الشيوعية » ،
يطلب من القوة أن تسلط على كل حي ما يجعله في قواه كصاحب الدار سلطان
عليه الطغيان فانقلبت داره سجنه ، فهو يتألم من معنى نعمته بمعنى شقائه ،
ويكون أغبط له أن روح السجن ليست شيئاً غير روح البيت ؛ وسؤال اسمه
« العدمية »^(١) ، يأمر القوة أن تجعل الإنسان كالحيوان المستويع فيما يجده من

(١) الفوضوية وما هو في معناها من طيش النزعة الإنسانية

طبيب وخبيث : لا يبالي ذمًا ولا عارًا ، وليس إلا أنه يعيش ليوت أكلاً ونومًا ...
هذا إلى أسئلة كثيرة لو ذهبنا نعدّها ونصّفها لطال بنا القول ، وكلّهما عاملة
على نزع الشعور العقليّ من الحياة لتظهر أسخف ممّا هي ، وأقبح ممّا كانت ؛ حتى
أصبحت الشمس تطلّع تمحو ليلًا عن المادة وتُلقي ليلًا على النفس ، في حين
أن الدين والإنسانية لا يعملان غير بثّ هذا النور العقليّ في الأشياء والمعاني
لتظهر الحياة مضيئةً ملتعةً ، فتصبح أوضح ممّا هي في نفسها ، وأجمل ممّا
هي في الطبيعة .

في مثل هذه النزعات المتقاتلة التي صعدت بالفلسفة ونزلت ، وجعات من
العلم في صدر الإنسانية ملء سماء من الغيوم بسوادها ورعدها وصواعقها ، وتركت
العالم يضحّ خبيجه المزعج في قلب كلّ حيّ حتى لتدأغ الهموم إلى قلوب الناس
إذاعة الأصوات إلى أسماعهم في « الراديو » ... في مثل هذا البلاء الماحق
تتلقّت الإنسانية إلى التاريخ تسأله درسًا من الكمال الإنسانيّ القديم تطبّ منه
✓ لهذه الحماقات الجديدة ، ولو علمت لعلمت أن درس هذا العصر في علاج مشاكلكه
الإنسانية هو « محمد » (صلى الله عليه وسلم) ، الذي إن يبالغ أحد في وصفه
الاجتماعيّ ما بلغ هو في قوله : « إنما أنا رحمة مهدّاة . »

هذا المصلح الاجتماعيّ الأعظم يُلقى فقره اليوم درسًا على الدنيا العلمية
الفلسفية ، لا من كتاب ولا فكر ، ولكن بأخلاقه وعمله وسيرته ؛ إذ ليس ✓
المصلح من فكر وكتب ، ووعظ وخطب ، ولكنّه الحىّ العظيم الذى تلتسمه
الفكر العظيمة لتحيا فيه ، وتجعل له عمرًا ذهنيًا يكون مُصرّفًا على حكماها ،
فيكون تاريخه ووصفه هو وصف هذه الفكرة وتاريخها .

وما كان محمد (صلى الله عليه وسلم) إلا عمرًا ذهنيًا محضًا ، تمرّ فيه المعاني

الآلهية لتظهر للناس إلهية مفسرة . وكل حياته (صلى الله عليه وسلم) دروس مفننة مختلفة المعاني ، ولكنها في مجلتها تخاطب الإنسان على الدهر بهذه الجملة : أيها الحى ، إذا كانت الحياة هنا فلا تكن أنت هناك : أى إذا كانت الحياة فى الحقيقة فلا تكن أنت فى الكذب ، وإذا كانت الحياة فى الرجولة البصيرة فلا تكن أنت فى الطفولة النزقة ، فإن الرجل يعرف ويدرك ، فهو بذلك وراء الحقيقى ؛ ولكن الطفل يجهل ولا يعرف الدنيا إلا بعينيه ، فهو وراء الوهم ، ومن ثم طيشه ونزقه ، وإثاره كل عاجل وإن قل ، وعمله أن تكون حياته النفسية الضئيلة فى مثل توثب أعضاء جسمه ، حتى كأنه أبداً يلعب بظاهره وباطنه معاً ...

أيها الحى ، إذا كانت الحياة هنا فلا تكن أنت هناك : أى الحياة فى ذاتك الداخلية وقانون كمالها ، فإذا استطعت أن تخرج للأرض معنى سماوياً من ذاتك فهذا هو الجديد دائماً فى الإنسانية ، وأنت بذلك عائش فى القريب القريب من الروح ، وأنت به شئ إلهى ؛ وإذا لم تستطع وعشت فى ديك وأعصابك فهذا هو القديم دائماً فى الحيوانية ، وأنت بذلك عائش فى البعيد البعيد من النفس ، وأنت به شئ أرضى كالحجر والتراب .

هنا : أى فى الإرادة التى فىك وحدك . ولا هناك : أى فى الخيال الذى هو فى كل شئ . وهنا ، فى أخلاقك وفضائلك التى لا تدفعك إلى طريق من طرق الحياة إلا إذا كان هو بعيته طريقاً من طرق الهداية والحكمة ؛ وليس هناك ، فى أموالك ومعايشك التى تجعلك كاللص مندفعاً إلى كل طريق متى كان هو بعيته طريقاً إلى نهبة أو سرقة . هنا ، فى الروح ، إذ تشعر الروح أنها موجودة ، ثم تعمل لتثبت أنها شاعرة بوجودها ، ماضية إلى مصيرها ، منتهية بجسدها إلى الموت الإنسانى على سنة النفس الخالدة ؛ وليس هناك فى الحس ، إذ

$$55 \times 980 - T = 55 \times 98$$

$$T = 55 \times 98 (10 - 1) = 53 -$$

$$= 55 \times 98 \times 9$$

$$\begin{array}{r} 9.1 \\ 00 \\ \hline 290 \\ 290 \\ \hline 0490 \end{array}$$

يتعلق الحسُّ بما يتقلَّب على الجسم ، فهو مهتاجٌ لشعوره بوشكٍ فنائه فلا يحدثُ إلا الألم إن نال أو لم ينل ، وهو منتهٍ بجسمه إلى الموتِ الحيوانيِّ بين آكلٍ وما كُولٍ على سنَّة الطبيعة الفانية .

أيها الحى ، إذا كانت الحياة هنا فلا تكن أنت هناك .

إن الحكيم الذى ينظر إلى ما وراء الأشياء فيتعرفُ أسرارها ، لا تكونُ له حياةٌ الذى يتعلقُ بظاهرها ولا أخلاقه ولا نظرته ؛ هذا الأخير هو فى نفسه شىء من الأشياء له مظهرُ المادة وخداعها عن الحقيقة ؛ وذلك الأول هو نفسه سرٌّ من الأسرار له روعةُ السرِّ وكشفه عن الحقيقة . ولهذا كان فى حياة الأنبياء والحكماء ما لا يطيقه الناسُ ولا يضبطونه إذا تكلفوه ، بل ينخرقُ عليهم فيكونُ منه العجزُ الغلطُ ، ويحدثُ من الغلط الزللُ .

ونظرةُ نبينا (صلى الله عليه وسلم) إلى هذا الوجوه نظرةٌ شاملةٌ مدركةٌ لحقيقة اللانهاية ، فيرى بداية كل شىء مادىٍّ هى نهايته فى التو واللحظة ، فلا وجودَ له إلا عارضاً ماراً ، فهو فى اعتباره موجودٌ غيرُ موجود ، مبتدئٌ منتهٍ معاً ؛ وبذلك تبطلُ عنده الأشياءُ الماديةُ وتأثيرها ، فلا تتصلُ بنفسه العاليةِ إلا من أضعفِ جهاتها ، ويجدُ لها الناسُ فى حياتهم الشجرةَ والفرعَ والثمرةَ ، وما لها عنده هو جذرٌ ولا فرع ؛ وبهذا لم يفتنه شىء ولم يتعلق به شىء . وكانت الدنيا تطولُ الناسَ وتتقاصرُ عنه ، وكانت منقطعةُ النماءِ وهو ذاهبٌ فى نموِّ الروحى ، وكأما هو صورةٌ أخرى من آدمَ (عليه السلام) ؛ فكلاهما لَمَسَ بنفسه الحياةَ جديدةً خاليةً مما جمع فيها الزمنُ وأهله من طمعٍ وشرِّه ، وجاء آدمُ ليعطى الأرضَ ناسها من صلبه ، وجاء محمدٌ ليعطى الناسَ قوانينهم من فضائله ؛ فآدمُ بشخصه هو دنيا بعثت لتتسع ، ومحمدُ بشخصه هو دنيا بعثت لتتنظم .

وماذا يُفهم من الفلسفة الأخلاقية النبوية العظيمة ؟ يُفهم منها أن الشهوات خلقت مع الإنسان تتحكم فيه ، لينقلب بها إنساناً يتحكم فيها ؛ وأن الإنسان الصحيح الذى لم تزوره الدنيا يجب أن يكون ذا روح يمتدّ فيفيض عن غايات جسمه إلى ما هو أعلى فأعلى حتى يُصبح في حكم النور وانطلاقه وحرية ، ولا ينكمش فيحصره جسمه في غاياته وضروراته فيرتدّ إلى ما هو أسفل أسفل حتى يعود في حكم التراب وأسرّه وعبوديته . فالقصر وما إليه ، والزهد وما هو بسبيل منه ، والانصراف عن الشهوات والرذائل — كل ذلك إن هو إلا تراجع النفس العالية إلى ذاتها النورانية حالاً بعد حال ، وشيئاً بعد شيء ، لتضىء على المادة فتكشف حقائقها الصريحة فلا تباليها ولا تقيم لها وزناً . فبينما الناس يروّف الأموال والشهوات مادة حياة وعمل وشعور ، تراها هي مادة بحث ومعرفة واعتبار ليس غير ؛ وبهذا تكون النفس العظيمة في الدنيا كأستاذ المعلم : تدخل المادة إلى معمله وهي مادة وفكرة ، وتخرج منه وهي حقيقة ومعرفة ، وعلى أى أحوالها فهي إنما تحسّ في ذلك العمل بأصابع علمية دقيقة ليس فيها الجمع ولا الحرص ، ولكن فيها الذهن والفكر ؛ وليس لها طبيعة الرغبة والغفلة ، ولكن طبيعة الانتباه والتحرّز ، وليست في أسر المادة ، ولكن المادة في أسرهما ما شاءت .

ولا يسمّى فقره (صلى الله عليه وسلم) زهداً كما يظن الضعفاء ممن يتعلّقون على ظاهر التاريخ ولا يحققون أصوله النفسية ؛ وأكثرهم يقرأ التاريخ النبوى بأرواح مظلمة تريهم ما ترى العين إذا ما اختلط الظلام ولبس الأشياء قترات مجمّلة لا تفصيل لها ، مُفرّغة لا تبين فيها ؛ وما بها من ذلك شيء ، غير أنها تراءى في بقية من البصر لا تغمرها .

وهل الزهد إلا أن تطرد الجسم عنك وهو معك ، وتنصرف عنه وهو بك

متعلق ؟ فتلك سخريةٌ ومُثَلَّةٌ ، وهى فى رأى تشويهٌ للجسم بروحه ، وقد تنعكسُ فتكون من تشويه الروح بجسمها ؛ فليس يعلم إلا الله وحده : أذاك تفسيرٌ لإنسانية الزاهد بالنور ، أم هو تفسيرٌ بالتراب . . .

ولقد كان (صلى الله عليه وسلم) يملك المالَ ويَحْدُهُ ، وكان أجودَ به من الريح المرسلة ، ولكنه لا يدعُه يتناسلُ عنده ، ولا يتركه يَنْبُتُ فى عمله ، وإنما كان عمله ترجمةً لإحساسه الروحى ؛ فهو رسولٌ تعليمى ، قلبه العظيمُ فى القوانين الكثيرة من واجباته ، وهو يريد إثباتَ وحدةِ الإنسانية ، وأن هذا الإنسان مع المادة الصامته العمياء مادةٌ مفكرةٌ مميزة ، وأن الدينَ قوةٌ روحية يلقى بها المؤمنُ أحوالَ الحياة فلا يثبت بإزائها شئٌ على شئئته ، إذ الروحُ خلودٌ وبقاء ، والمادةُ فناءٌ وتحوُّل ، ومن ثم تخضع الحوادثُ للروح المؤمنة وتغير معها ، فإن لم تخضع لم تُخضعها ، وإن لم تتغير لا تتغير الروحُ بها ؛ وأساسُ الإيمان أن ما ينتهى لا ينبغى أن يتصرفَ بما لا ينتهى .

وما قيمة العقيدة إلا بصدقها فى الحياة ، وأكثرُ ما يصنع هذا المالُ : إما الكذبُ الصُّراحُ فى الحياة ، وإما شبهة الكذب ؛ ولهذا نثره النبى (صلى الله عليه وسلم) عن التعلق به ، وزاده بعداً منه أنه نبى الإنسانية ومثلها الأعلى ، خيانه الشريفُ ليست كما ترى فى الناس : إيجاداً لحلِّ مسائل الفرد وتعقيداً لمسائل غيره ، ولا توسعاً من ناحيةٍ وتضييقاً من الناحية الأخرى ، ولا جمعاً من هنا ومنعاً من هناك ؛ بل كانت حياته بعد الرسالة منصرفَةً إلى إقرار التوازن فى الإنسانية ، وتعليم الجميع على تفاوتهم واختلاف مراتبهم كيف يكون لهم عقلٌ واحد من الكون ؛ وبهذا العقل الكونى السليم ترى المؤمن إذا عرَّضَ له الشئ من الدنيا يَفْتَنُهُ أو يَصْرِفُهُ عن واجبه الإنسانى — أبتَ نفسه العظيمة إلا أن ترتفع بطبيعتها ، فإذا هو فى قانون السمو ، وإذا المادة فى قانون الثقل ؛ فيرتفع وتهكوى ، ويصبح الذهبُ — وإنه ذهبٌ — وليس فيه عند المؤمن إلا روحُ التراب .

سمو الفقر

في المصلح الاجتماعي الأعظم

٢

قالت عائشة (رضي الله عنها) : لم يمتلئ جوفُ النبي (صلى الله عليه وسلم) شبعاً قطّ ، وإنه كان في أهله لا يسألهم طعاماً ولا يتشبهاه ؛ إن أطعموه أكل ، وما أطعموه قَبِل ، وما سقوه شَرِب .

وقالت : ما شَبِعَ آلُ محمدٍ من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قبض رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) .

وعنها : كنا آلُ محمد نمكثُ شهراً ما نَسْتَوْقِدُ بنار ، إن هو إلا التمرُ والماء .
وقالت : ما رَفَعَ رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) قطّ غداءً لعشاء ، ولا عشاءً لغداء ، ولا اتَّخَذَ من شيء زوجين ؛ لا قيصين ، ولا رداءين ، ولا إزارين ، ولا زوجين من النعال .

ويروى عنها ، قالت : تُوِّفَى رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) وليس عندي شيءٌ يأكله ذو كَبِدٍ ، إلا شَطْرُ شعيرٍ في رَفٍّ لِي .

وقالت : تُوِّفَى رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) وِدْرَعُهُ مرهونةٌ عند يهودي في ثلاثين صاعاً من شعير .

وعن ابن عباس : كان رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) يَبِيتُ الليالي المتتابعةَ وأهله طاوياً لا يجدون عشاءً ، وإنما كان خبزهم الشعير .

وعن الحسن ، قال : خطب رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) فقال :

« والله ما أمسى في آل محمد صاعٌ من طعام ، وإنها لتسعةُ آيات ! » والله ما قالها استقلالاً ، ولكن أراد أن تتأسى به أمتُه .

وعن ابنِ مُجِير ، قال : أصاب النبيَّ (صلى الله عليه وسلم) جُوعٌ يوماً ، فعمدَ إلى حَجَرٍ فوضَعَه على بطنه ، ثم قال : « أَلَا رُبَّ نَفْسٍ طاعِمَةٍ ناعِمَةٍ في الدنيا ، جائِعَةٌ عاريةٌ يومَ القيامةِ ؛ أَلَا رُبَّ مُكْرِمٍ نَفْسَه وهو مُهِينٌ لها ؛ أَلَا رُبَّ مُهِينٍ نَفْسَه وهو مُكْرِمٌ لها » .

وخَيْرَ (صلى الله عليه وسلم) أن يكونَ له مثلُ « أُخِذْ » ذهباً فقال : « لا يارب ؛ أجوعُ يوماً فأدعوك ، وأشبعُ يوماً فأحمدك ! »
وكان يقول في دعائه ويُسَكِّرُ منه : « اللهم أَحْيِنِي مِسْكِيناً ، وَأَمِتْنِي مِسْكِيناً ، واحشُرْنِي في زُمرَةِ المساكين . »

هذا هو سيدُ الأُمّةِ ، يُمَسِّكُهُ في الحياة نبيّاً عظيماً ما يُخْرِجُ غَيْرَه منها ذليلاً ^ر محتقراً ، وكأنما أشرق صفاء نفسه على تراب الأرض فردّه أشعة نور ، على حين يُلقِي الناسُ على هذا التراب من ظلام أنفسهم فلا يَبْقَى تراباً بل يرجعُ ظلاماً ، فكأنهم إذ يمشون عليه يَطْمُئِنُّونَ الجَهْلَ بِخَوْفِهِ وَرَوْعَتِهِ ؛ ثم لا يستقر ظلاماً بل يرجعُ آلاماً ، فكأنهم يَنْبُتُونَ على المرض لا على الحياة ؛ ثم لا يثبتُ آلاماً بل يتحوَّلُ فَوْزَةً وتَوْثِيباً تكونُ منه نِزَوَاتُ الحقِّ والجنونِ في النفس .

هؤلاء الذين تعيش أنفسهم في التراب ، ويتمرغون بأخلاقهم فيه ، ينقلبون على الحياة من صنْعِ التراب ناساً دُوداً كطبع الدُود لا يقع في شيء إلا أفسده أوقدّره ؛ أو قوماً سُوساً كطبع السُوس لا ينالُ شيئاً إلا نَحَرَه أو عابه ، فهم يوقِعُونَ الخللَ في نظام أنفسهم ، فإذا هي طائشةٌ تُخَيِّلُ لهم كأنما اختلَّت نوااميسُ الدنيا ، وكأن الله قبضَهُم وبسطَ غيرَهُم ، وشغلَهُم وفرَّغَ من عذابهم ، وابتلاهم

على مُسْكَةِ الرِّزْقِ ^(١) بالشهوة المسعورة التي لا تتحقق ، فضرَبَهم بالمجاهدة التي لا تنقطع ؛ وأنعم على غيرهم في بَسْطَةِ الرِّزْقِ بالشجرة المسحورة التي لا تَقْطَعُ منها ثمرة إلا نبت غيرها في مكانها .

إن ما وصفناه من فقر النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وأنه لم يكن له عَتِيدٌ حَاضِرٌ ، وأنه لم يجعل نفسه في همّ المال ، ولا جعلته نفسه في همّ الفقر ، وأنه لقي الحياة حاملاً لا محمولاً ، واستقرَّ فيها هادئاً لا مضطرباً — كل ذلك إنما يثبت للدينيا أنه خُلِقَ وَبُعِثَ وعاش ليكونَ درساً عملياً في حل المشكلات الاجتماعية ، يعلم الناس أنها لا تتعَدُّ بطبيعتها ، ولكن بطبائعهم فيها ؛ ولا تستمرُّ بقوتها ، ولكن بإمدادِ قواهم لها ؛ ولا تَغْلِبُ بصَوْلَتها ، ولكن بجَزَعِهم منها ؛ ولا تُعْضِلُ من ذاتِ نفسها ، ولكن من سوء أثرِهم عليها وسوءِ نظرهم لأنفسهم ولها .

فإذا قرأتَ الأحاديثَ التي أسلفناها فلا تقرأها زهداً وتَقَلُّلاً ، ولا فقراً وجُوعاً ، ولا اختلالاً وحاجةً ، كما تُترجمها نفسك أو تُحسِّسها ضرورتك ؛ بل انظر فيها واعتبرها بنفسه هو (صلى الله عليه وسلم) ، ثم اقرأها شريعةً اجتماعيةً مُفَصَّلةً على طبيعة النفس ، قائمةً على أن تأخذ نفسُ الإنسان من قُوَى الدنيا عناصرها الحيوية ، لتُعْطِيَ الحياةَ من ذلك قوةَ عناصرها .

والحياةُ العاملةُ غيرُ الحياةِ الوادعة ، ها ذكرُ وأنثى ؛ فأما الأولى فهي ما وصفنا وحكيها ، وأما الثانيةُ فهي تَغَلُّلُ النعمة ، وإطلاقُ قانونِ التناسلِ في المالِ يَمْنِي بَعْضُهُ بَعْضاً ، وَيَنْبُتُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ، ثُمَّ إِقَامَةُ الْحَيَاةِ عَلَى الزِينَةِ وَمُقَوِّمَاتِهَا ، وَقِيَامُ الزِينَةِ عَلَى الْخُدَاعِ وَطِبَائِعِهِ ، فَيُقْبَلُ الْمَرْءُ مِنْ دُنْيَاهُ عَلَى مَا هُوَ جَدِيرٌ أَنْ يَصْرِفَهُ عَنْهَا ، وَيَحِبُّ مِنْهَا مَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَبَاغِضَهُ فِيهَا . وَكُلُّ

(١) مسكة الرزق : ضد بسطة الرزق ، أى الضيق والسعة .

ما رأيتَ وعلمتَ في رجلٍ قُوَّتُهُ القُوَّةُ فهو هناك ؛ وكل ما غلمتَ ورأيتَ في أنثى قُوَّتُهَا الضعفُ فهو هنا .

فالسوادُ الذي تراه في فقره (صلى الله عليه وسلم) هو السوادُ الحى ؛ سوادُ الليلِ حولَ الروحِ النَّجمِيَّةِ الساطعة ؛ وذلك الترابُ هو الترابُ الحى ؛ ترابُ الزرع تحت النضرة والخضرة ؛ وتلك الحاجةُ الجسمِيَّةُ هي الحاجةُ الحية الدافعةُ إلى حرية النفس ؛ وذلك الإقلالُ من فهم الالذة هو الإقلالُ الحى الذي يزيد قوة فهم الجمالِ في السماء والأرض وما بينهما ؛ وذلك الضيقُ في حيزِ المتاعِ للحاسة هو الضيقُ الحى الذي يُوسِّعُ حيزَ المتاعِ للروح . وبالجملة فذلك النقصُ من المادة لم يكن إلا لنفى النقص عن الفضيلة ، وذلك الاحتقارُ للعَرَضِ الفانى الزائل هو المعنى الآخرُ لتقديس الخالدِ الباقي .

فليس هناك خُبْرُ الشعير ، ولا الجوعُ ، ولا رهنُ الدرع عند اليهودى . كلا ، كلا ، بل هناك حقيقة نفسية عقلية ، ثابتة متَّزِنة ، قائمة بعناصرها السامية : من اليقين والعقل والحكمة ، إلى الرفق والحلم والتواضع ، تحبُّرُ هذه الدنيا العلمية الفلسفية المفكَّرة أن ذلك النبىِّ العظيم هو الرجلُ الاجتماعى النَّامُ بأخلاقه وفضائله ، وهو الذى بُعثَ لتنقيح غريزة تنازع البقاء ، وكسْرِ هذه الحيوانية ، وقَمْعِ نزواتها ، وإماتة دواعيها ، والسموِّ بخواطرها ؛ فهو بنفسه صورة الكمال الذى بُعثَ لتحقيقه وإثباتِ أنه الممكنُ لا الممتنع ، والحقائقُ لا الخيالى .

ليس هناك دِرْعٌ مرهونةٌ في ثلاثين صاعا ، ولا الفقرُ ، ولا خبْرُ الشعير . كلا ، كلا ، بل هناك تقريرُ أن النصرَ في معركة الحياة لا يأتى من المال والثراء والمتاع ، ولكن من المعاناة والشدة والصبر ؛ وأن التقدمَ الإنسانى لا يباع ببيعاً ، ولا يؤخذ هَوْنًا ؛ بل هو انتزاعٌ من الحوادث بالأخلاق التى تغلب على الأزْمامات

ولا تتغلب الأزماتُ عليها ، وأن هذا المالَ وهذه الشهوات — في حقائق الحياة ومصايرها — ككنوزِ الأحلام : لا تكونُ كنوزاً إلا في مواضعها من أرضِ الغفلة والنوم ، فلا لذة منها إلا بمقدارٍ خفيفٍ من هذه الغفلة . وليس إلا الأحقُّ أو الخذولُ أو الضائعُ هو الذى يقطع العمرَ نائماً أبداً ليظلَّ مالِكاً أبداً لهذه الكنوز . . . وهو يعلم أنه لا بد مستيقظ ، وأنه متى انتبه في آخرته لم يجد منها شيئاً « ووجد الله عنده فوفاه حسابه » .

كلا ، كلا ، ليس هناك فقرٌ ولا جوعٌ وما إليهما ، بل هناك وُضعٌ هذه الحقيقة : ينبغي أن تجدَ نفسك ، وموضعَ نفسك ، وإيمانَ نفسك ، وعزَّةَ نفسك . فإذا أدركتَ ذلك ورفعتَ نفسك إلى موضعها الحق ، وأقررتها فيه ، وحبتها عليه ، وحددتها بالإنسانية من ناحيةٍ وبالله من الناحية المتقابلة — رأيتَ إذن أن قيمتك الصحيحة في أن تكونَ وسيلةً تُعطى وتعملُ لتُعطى ، لا غايةً تأخذُ وتعملُ لتأخذ ، ومهما ضيقَ عليك فإنما أنت كالشجرة الطيبة تأخذُ تراباً وتصنعُ حلاوة .

وما قطَّ نبتت شجرةٌ في مكانها لتأكلَ وتشربَ وتحتزنَ السمادَ والترابَ وتحصنهما وتمنعهما عن غيرها ، ولو قد فعلت ذلك شجرةٌ لكان هلاكها فيما تفعل ، إذ تحاولُ أن تضاعفَ فائدتها من قانونِ العالم ، فيكون طمعها سريعاً في إفساد الصلة بينهما ، فلا يجدُ القانونُ فيها نظامه ، ومن ثم لا تجدُ في القانون نظامها ، فيهلكها الذى كان يُحييها ، وتستعبدُ لحظِّ نفسها ، فيفقدُها ذلك حرية الحياة التى كانت لها فى نفسها .

يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : « إن المؤمن بكل خيرٍ على كل حال ، إن نفسه تُنزَعُ من بين جنبيه وهو يحمدُ الله عزَّ وجلَّ . » فهذا هو اسمى قانونٍ

اجتماعي يمكن أن تظفر به الإنسانية ، وما يأتي لها ذلك إلا إذا أصبحت تلك المعاني التي أومأنا إليها شعوراً اجتماعياً عاماً ، مقررّاً في النفس ، قائماً فيها على إيمان راسخ بأن الفرد هو صورة المجتمع لا صورة نفسه وحدها ، وأن الناس كحب القمح في السنبلة ، ليس لجميعه إلا قانون واحد ، فوضع كل حبة من السنبلة هو ثروتها ، علت أو سفلت ، وكثرت ما تأخذ أو قلّت ؛ وإذا كان أساس الحياة في الحبة منها أن تجد قوامها وكفايتها من مادة الأرض ، فتمام الحياة فيها أن يغمرها النور من حولها ، وأن يستمرّ النور من حولها يغمرها .

فالحبة من السنبلة بكل خير على كل حال ، وإنها لتنزّع وما بها أنها نزع ، ولكنها أدت ما تؤدّي ، وانقطعت من قانون لتتصل بقانون غيره ، وما اغتنّت ولا افتقرت ، ولا أكرت ولا أخفت ؛ بل حققت موضعها ، فإنها ما نبئت لتبقى ، وما نمت إلا لينقطع نماؤها . وكذلك المؤمن الصحيح الإيمان ، الصادق النظر في الحياة : هو أبدأ في قانون آخرته ، فهو أبدأ في عمل ضميره .

والناس في هذه الحياة كحشد عظيم يتدفق من مضيق بين جبلين ينفذ إلى الفضاء ؛ فإذا هم أدركوا جميعاً أنهم مفضون إلى هذه النهاية مرّوا آمنين وكان في يمينهم السلامة ، وفي صبرهم الوقاية ، وفي نظامهم التوفيق ، وفي تعاونهم الحياة ؛ فهم بكل خير على كل حال ، ما دام هذا قانون جميعهم ؛ فأيمّا رجل شدّ منهم فاضطرب فطاش ، هلك وأهلك من حوله ، ومن عكس منهم موضعه ونكص على عقبيه ، هلك من حوله وهلك . والموت أشقى الموت هنا في هذا المضيق بين الجبلين — اعتبار الحاضر حاضراً فقط ، والضجر منه ، وجعل كل إنسان نفسه غاية . والحياة هنا الحياة — اعتبار الحاضر بما وراءه ، والصبر على شدته ، وجعل الإنسان نفسه وسيلة .

فذلك معنى خبز الشعير ، والقلة والضيق ، ورهن الدرع عند يهودى من سيّد الخلق وأكملهم ، ومن لو شاء لمشى على أرض من الذهب . فهو (صلى الله عليه وسلم) يعلم الإنسانية أن الرجل العظيم النفس لا يكون فى الحياة إلا ضيقاً نازلاً على نفسه .

ومن معانى ذلك الفقر العظيم أن خبز الشعير هو رمز من رموز الحياة على التحلل من خلق الأثرة ، والبراءة من هوى الترف ؛ ورهن الدرع رمز آخر على التخلص من الكبرياء والطمع ؛ والعسرة رمز ثالث على مجاهدة الملل الحى الذى يفسد الحياة كما يفسد بعض النبات النبات . ومجموع هذه الرموز رمز بحاله على وجوب الإيقاظ النفسى للأمة العريضة التى تقود أنفسها بمقاساة الشدائد ومجاهدة الطباع ، لتكون فى كل فرد مادة الجيش ، وليصلح هذا الجيش قائداً للإنسانية .

على أنه (صلى الله عليه وسلم) حث على طلب اليسار ، والتغلب من الأعمال الشريفة بالغلة والمال ، فقال : « إنك إن تدع عيالك أغنياء ، خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس . » ورأى عبداً قد انقطع للعبادة حتى أكلت نفسه جسمه ، ووصفوا له من زهده وعبادته ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : « من يعوله ؟ » قالوا : كلنا نعوله . فقال : « كلكم خير منه ! .. » إلى أحاديث كثيرة مروية ، هى تمام القانون الأدبى الاجتماعى فى الدنيا ، تثبت أن الحى إن هو إلا عمل الحى .

ولكن حين يكون سيد الأمة وصاحب شريعتها رجلاً فقيراً ، عاملاً مجاهداً ، يكدح لعيشه ، ويمجوع يوماً ويشبع يوماً ، فلم يقلب يده فى تِلَادٍ من المال يرثه ، ولم يجمعهما على طريف منه يؤرثه — فذلك هو ما بيناه وشرحناه ، وذلك كالأمر نافذاً لا رخصة فيه ، على ألا يتخذ الغنى من الفقير عبداً اجتماعياً

لفقر هذا ولما ل ذلك ؛ بل هي المساواة النفسية لا غيرها وإن اختلفت طبقات الاجتماع . والأكرم هو الأتقى لله بمعنى التقوى ، والأقوم بالواجب على معنى الواجب ، والأكفاً للإنسانية في معاني الإنسانية .

فقر ذلك السيد الأعظم ليس فقراً ، بل هو كما رأيت : ضبط السلطة الكائنة في طبيعة التملك ، لقيام التعاون الإنساني على أساسه العملي ؛ هو المحاجة العادلة بين المصالح الاقتصادية الطاغية : يمنع أن تأكل مصلحة مصلحة فتهلك بها ، ويوجب أن تلد المصلحة مصلحة لتحيا بها .

والنبي الفقير العظيم هو في التاريخ من وراء كل هذه المعاني ، كالقاضي الجالس وراء مواد القانون . صلى الله عليه وسلم .

درس من النبوة

قالوا : إنه لما نصر الله (تعالى) رسوله ورد عنه الأحزاب وفتح عليه قريظة والنضير^(١) ، ظن أزواجه (صلى الله عليه وسلم) أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم ؛ وكن تسع نسوة : عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وسودة ، وأم سلمة ، وصفية ، وميمونة ، وزينب ، وجويرة ؛ ففقدن حوله وقان : يا رسول الله ، بنات كسرى وقيصر في الحلى والحلل ، والإماء والخول ، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق ... وآلمن قلبه بمطالبتن له بتوسعة الحال ، وأن يعاملن بما تعامل به الملوك وأبناء الدنيا أزواجهم ؛ فأمره الله (تعالى) أن يتلو عليهن ما نزل

(١) هما حيان من أحياء اليهود بالمدينة ، وكان ذلك في أواخر سنة خمس للهجرة .

في أمرهن من تخييرهن في فراقه ، وذلك قوله تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك : إن كنتم ترذُن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعنَكنَّ وأسرَّحُكنَّ سراحًا جميلًا ^(١) ؛ وإن كنتم ترذُن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعدَّ للمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أجرًا عظيمًا . »

قالوا : وبدأ (صلى الله عليه وسلم) بعائشة — وهي أحَبُّهنَّ إليه — فقال لها : « إني ذاكرُكُ لك أمرًا ما أحبُّ أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك . » قالت : ما هو ؟ فتلا عليها الآية . قالت : أفيكِ أستاذمرُ أبوي ؟ بل اختارُ الله تعالى ورسوله .

ثم تتابَعْنَ كلُّهنَّ على ذلك ، فسمَّاهنَّ الله « أمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ » ، تعظيمًا لحقهنَّ ، وتأكيدًا لحرمتهنَّ ، وتفضيلًا لهنَّ على سائرِ النساء .

هذه هي القصة كما تُقرأ في التاريخ وكما ظهرت في الزمان والمكان ، فلنقرأها نحن كما هي في معاني الحكمة ، وكما ظهرت في الإنسانية العالية ؛ فسنجدُ لها غورًا بعيدًا ، ونعرفُ فيها دلالةً سامية ، وتبينُ تحميماً فلسفياً دقيقاً للأوهام والحقائق .

وهي قبل كل هذا ومع كل هذا تنطوى على حكمة رائعة لم يتنبه لها أحد ، ومن أجلها ذُكرتُ في القرآن الكريم ، لتكونَ نصًّا تاريخيًا قاطعاً يَدْفَعُ به التاريخُ عن هذا النبي العظيم في أمرٍ من أمرِ العقل والغيرة ، فإن جملة المبشرين في زمننا هذا ، وكثيراً من أهل الزَّيغ والإلحاد ، وطائفةٌ من قصَّار النظر في التحقيق — يزعمون أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) إنما استكثرَ من النساء

(١) السراح : الطلاق ، ومتعة الطلاق ما تعطاه المطلقة — وهو — يختلف حسب

السعة والإقتار .

لأهواء نفسية محضة وشهوات كالشهوات ؛ ويتطرقون من هذا الزعم إلى الشبهة ، ومن الشبهة إلى سوء الظن ، ومن سوء الظن إلى قبح الرأي ؛ وكلهم غبيٌّ جاهل ؛ فلو كان الأمر على ذلك أو على قريبٍ منه أو نحوٍ من قريبه ، لما كانت هذه القصة التي أساسها نفي الزينة وتجريدُ نسانه جميعاً منها ، وتصحيحُ النيةِ بينه وبينهن على حياةٍ لا تحيا فيها معاني المرأة ، وتحتَ جوٍّ لا يكونُ أبداً جوُّ الزهر . . . وأمره من قِبَلِ ربِّه أن يخيرهنَّ جميعاً بين سراحهن فيكنَّ كالنساء ويجدنَ ما شئنَ من دنيا المرأة ، وبين إمساكِهن فلا يكنَّ معه إلا في طبيعةٍ أخرى تبدأ من حيث تنتهى الدنيا وزينتها .

فالقصةُ نفسها ردٌّ على زعم الشهوات ، إذ ليست هذه لغةُ الشهوة ، ولا سياسةُ معانيها ، ولا أسلوبُ غضبها أو رضاها . وما ههنا تمليقٌ ، ولا إطرارٌ ، ولا نُعومةٌ ، ولا حرصٌ على لذة ، ولا تعبيرٌ بلغة الحاسة ؛ والقصةُ بعدُ مكشوفةٌ صريحةٌ ليس فيها معنى ولا شبهةٌ معنى من حرارة القلب ، ولا أثرٌ ولا بقيةٌ أثرٍ من ميل النفس ، ولا حرفٌ أو صوتٌ حرفٍ من لغة الدم . وهى على منطقٍ آخرٍ غيرِ المنطقِ الذى تُستأَلُّ به المرأة ، فلم تقتصر على نفي الدنيا وزينة الدنيا عنهن ، بل نفَتِ الأملَ فى ذلك أيضاً إلى آخر الدهر ، وأماتت معناه فى نفوسهن ، بقصرِ الإرادةِ منهن على هذه الثلاثة : الله فى أمره ونهيه ، والرسولُ فى شِدائده ومُكابِدته ، والدارُ الآخرةُ فى تكاليفها ومَسَكِرِها . فليس هنا ظرفٌ ، ولا رقةٌ ، ولا عاطفةٌ ، ولا سياسةٌ لطبيعة المرأة ، ولا اعتبارٌ لمزاجها ، ولا زُفْنى لأنوثتها ؛ ثم هو تخييرٌ صريحٌ بين ضدين لا تتلَوْنُ بينهما حالةٌ تكونُ منهما معاً ، ثم هو عامٌّ لجميع زوجاته لا يستثنى منهن واحدةً ولا أكثر .

والحريصُ على المرأة والاستمتاعِ بها لا يأتى بشئ من هذا ، بل يخاطبُ فى المرأة خيالها أولَ ما يخاطبُ ، ويُشبعُه مبالغةً وتأكيداً ، ويُوسِّعُه رجاءً وأملاً ،

و يقربُ له الزمنَ البعيدَ ، حتى لو كان في أول الليل وكان الخلافُ على الوقت ،
لحقَّ له أن الظهرَ بعد ساعة ...

وبرهانٌ آخرُ ؛ وهو أن النبي (صلى الله عليه وسلم) لم يتزوَّج نساءه
لمتاعٍ مما يمتنع الخيالُ به ، فلو كان وضعُ الأمرِ على ذلك لما استقام ذلك
إلا بالزينة وبالفنِّ الناعم في الثوب والحلية والتشكُّل كما نرى في الطبيعة الفنية ،
فإن الممثلة لا تمثل الرواية إلا في المسرح المهيأ بمناظره وجوّه ... وقد كان
نساؤه (صلى الله عليه وسلم) أعرفَ به ؛ وها هو ذا ينفي الزينة عنهم ويخيرهن
الطلاق إذا أصررن عليها . فهل ترى في هذا صورةً فكرياً من أفكار الشهوة ؟
وهل ترى إلا الكمالَ المحض ؟ وهل كانت متابعَةُ الزوجات التسعِ إلا تسعةَ
برهاناتٍ على هذا الكمال ؟

وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) يُلقي بهذه القصة درساً مستفيضاً في
فلسفة الخيال وسوء أثره ، على المرأة في أنوثتها ، وعلى الرجل في رجولته ؛ وأن
ذلك تعقيدٌ في الشهوات يقابله تعقيدٌ في الطبع ، وكذبٌ في الحقيقة ينشأ عنه
كذبٌ في الخلق ، وأنه صرفُ المرأة إلى حياة الأحلام والأمانى والطيش
والبطَرِ والفراغ ، وتعويدُها عاداتٍ تُفسد عاطفتها ، وتُضيف إليها التصنع فتضعفُ
قوتها النفسية القائمة على إبداع الجمال من حقيقتها لا من مظهرها ، وتحقيقِ الفائدة
من عملها لا من شكلها .

وكل محاسن المرأة هي خيالٌ متخيَّل ولا حقيقةً لشيء منها في الطبيعة ،
وإنما حقيقتها في العين الناضرة إليها ؛ فلا تكونُ امرأةً فاتنةً إلا للمفتون بها ليس
غير . ولو ردت الطبيعةُ على من يُشبِّبُ بامرأة جميلة فيقول لها : هذه محاسنك

وهذه فتنتك وهذا سحرك وهذا وهذا ؛ لقالت له الطبيعة : بل هذه كلها شهواتك أنت^(١) . . .

وبهذا يختلف الجمال عند فقد النظر ؛ فلا يفتن الأعمى جمال الصورة ولا سحر الشكل ولا فرأه المنظر ، وإنما يفتنه صوت المرأة وبجسستها ورائحتها .
فلا حقيقة في المرأة إلا المرأة نفسها ؛ ولو أخذت كل أنثى على حقيقتها هذه لما فسد رجل ولا شقيت امرأة ، ولا تنظمت حياة كل زوجين بأسبابها التي فيها . وذلك هو المثل المضروب في القصة .

يريد النبي (صلى الله عليه وسلم) ليعلم أمته أن حيف الغريزة على العقل إفساد لهذا العقل ، وأنه متى أخذت المرأة لحظ الغريزة واختيارها ، كانت حياتها استجابةً لجنون الرجل ، وملأتها معاني التزويد والتصنع ؛ فيوشك أن ينقلها هذا عن طبيعتها السامية التي أكثرها في الحرمان والإيثار والصبر والاحتمال ، ويردّها إلى أضداد هذه الصفات ، فيقوم أمرها بعد على الأثرة والمصلحة والتفادي والضجر والتبرّم والإلحاح والإزعاج ، ويضعف معنى السلب الراسخ في نفسها من أصل الفطرة ؛ فيتبدّل حيائها ، وفي الحياء ردّها عن أشياء ؛ ويقلّ إخلاصها ، وفي الإخلاص ردّها لها عن أشياء أخرى ؛ ويكثر طمعها ، وفي قناعتها محاجة بينها وبين الشر .

وبهذا ونحوه يفسد ما بين الرجل والمرأة المتصنّعة ؛ فإذا كثرت المتصنّعات لا يكون من النساء مشاً كل فقط ، بل تكون من حلول المشاكل معهن مشاً كل أخرى . . .

ولباب هذه القصة أن النبي (صلى الله عليه وسلم) يجعل نفسه في الزواج

(١) بسطنا هذا المعنى في كثير مما كتبناه ، وخاصة في كتاب : (السحاب الأحمر)

المثل الشعبي الأكل كما هو دأبه في كل صفاته الشريفة ، فهو يريد أن تكون زوجاته جميعاً كنساء فقراء المسلمين ، ليكونَ منهن المثل الأعلى للمرأة المؤمنة العاملة الشريفة التي تبرعُ البراعة كُلِّها في الصبر والمجاهدة والإخلاص والعفة والصراحة والقناعة ، فلا تكونُ المرأةُ زينةً تَطْلُبُ زينةً لَتَمَّ بها في الخيال ، ولكن إنسانيةً تطلبُ كمالها الإنساني لتتمَّ به في الواقع .

وهذه الزينة التي تتصنع بها المرأة تكاد تكون صورة المكر والخداع والتعقُّد ، وكلما أسرفت في هذه أسرفت في تلك ، بل الزينة لوجه المرأة وجسمها سلاحٌ من أسلحة المعاني : كالأظافر والمخالب والأنياب ، غير أن هذه لوحشية الطبيعية الحية المفترسة ، وتلك لوحشية الغريزة الحية التي تريد أن تفترس . ولا تنكر المرأة نفسها أن الزينة على جسمها ثروة طويلة تقول وتقول وتقول ...

وإنما يكونُ أساسُ الكمال الإنساني ، في الإنسان العامل المجاهد : لا يحضُرُ نفسه في شيء يسمَّى متاعاً أو زينة ، ولا يقدرُ نفسه بما يجمع لها أو بما يجمع حولها ، ولا يعتدُّ ما يكون من ذلك إلا كالتعبير من عمل الشهوات عن الشهوات . ونبيُّنا (صلى الله عليه وسلم) هو الغاية في هذا . دخل عليه مرة عمر بن الخطاب ، فإذا هو على حصيرٍ وعليه إزاره وليس عليه غيره ، وإذا الحصير قد أثر في جنبه . قال عمر : وإذا أنا بقبضةٍ من شعير نحو الصاع ، وإذا إهابٌ معلق^(١) ، فابتدرت عيناى ، فقال : ما يُبكيك يا ابن الخطاب ؟ قال عمر : يا نبي الله ، ومالي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك ، وهذه خزائنك لا أرى فيها إلا ما أرى ، وذلك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار وأنت نبي الله وصفوته وهذه خزائنك^(٢) ؟

(١) كيس من جلد كان يتخذه العرب وعاء .

(٢) الروايات من مثل هذا كثيرة عنه (صلى الله عليه وسلم) ، وقد بسطنا فلسفة

هذه المعاني في مقال (سمو الفقر) .

وجاء مرة من سفرٍ فدخل على ابنته فاطمة (رضى الله عنها) فرأى على بابها سِتْرًا وفي يديها قُلْبَيْنِ من فضة^(١) ، فرجع ؛ فدخل عليها أبو رافع وهي تبكي ، فأخبرته برجوع أبيها ، فسأله في ذلك فقال (صلى الله عليه وسلم) : من أجل الستر والسَّوارين .

فلما أخبرها أبو رافع هتكت الست^(٢) ، ونزعت السوارين فأرسلت بهما بلالاً إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) وقالت : قد تصدقتُ به ، فضعه حيث ترى . فقال لبلال : اذهب فبعه وادفعه إلى أهلِ الصَّفَّةِ^(٣) . فباع القليلين بدرهمين ونصف (نحو ثلاثة عشر قرشاً) وتصدق به عليهم .

يا بنتَ النبي العظيم ! وأنت أيضاً لا يرضى لك أبوك حلية بدرهمين ونصف وإن في المسلمين فقراء لا يملكون مثلها .

أى رجلٍ شَعْبِيٍّ على الأرض كحُمَيدٍ (صلى الله عليه وسلم) ، فيه للأمة كلها غريزة الأب ، وفيه على كل أحواله اليقين الذى لا يتحوّل ، وفيه الطبيعة التامة التى يكون بها الحقيقى هو الحقيقى .

يا بنتَ النبي العظيم ! إن زينة بدرهمين ونصف ، لا تكون زينةً فى رأى الحق إذا أمكن أن تكون صدقة بدرهمين ونصف ؛ إن فيها حينئذ معنى غير معناها ؛ فيها حق النفس غالباً على حق الجماعة ؛ وفيها الإيمان بالمنفعة حاكماً على الإيمان بالخير ؛ وفيها ما ليس بضرورى قد جار على ما هو الضرورى ؛ وفيها

(١) القلب (بالضم) : سوار من الفضة غير ملوى ، هو الذى يقال له اليوم : (الغويشة) وهو خفيف .

(٢) أى مزقته ؛ وكذلك رأى مرة سترًا على باب عائشة (رضى الله عنها) فهتكه وقال : كلما رأيته ذكرت الدنيا . أرسلنى به إلى آل فلان .

(٣) الصفة : الغرفة ، وأهل الصفة : هم فقراء المهاجرين ومن لم يكن له منهم منزل يسكنه ؛ فكانوا يأوون إلى موضع مظلل في مسجد المدينة يسكنونه .

خطأ من الكمال إن صحَّ في حساب الحلال والحرام لم يصحَّ في حساب الثواب والرحمة .

تعالوا أيها الاشتراكيون فاعرفوا نبيكم الأعظم ؛ إن مذهبكم ما لم تُخَيِّه فضائل الإسلام وشرائعه — إن مذهبكم لكالشجرة الذابلة تعلّقون عليها الأثمار تشدّونها بالخيط ... كلَّ يومٍ تحلّون ، وكلَّ يومٍ تربطون ، ولا ثمرة في الطبيعة .

ليست قصة التخيير هذه مسألةً من مسائل الغنى والفقر في معاني المادة ، ولكنها مسألة من مسائل الكمال والنقص في معاني الروح ؛ فهي صريحة في أن النبي (صلى الله عليه وسلم) أستاذ الإنسانية كلّها ؛ واجبه أن يكون فضيلة حية في كل حياة ، وأن يكون عزاء في كل فقر ، وأن يكون تهديفاً في كل غنى ، ومن ثم فهو في شخصه وسيرته القانون الأدبي للجميع .

وكأنه (صلى الله عليه وسلم) يريد ليعلم الأمة بهذه القصة أن الجماعات لا تصلح بالقوانين والشرائع والأمر والنهي ، ولكن بعمل عظمائها في الأمر والنهي ؛ وأن الحاكم على الناس لا ينبغي أن يحكم إلا إذا كاف في نفسه وطبيعته يحسُّ فتنة الدنيا إحساس المتسلط لا الخاضع ، ليكون أول استقلاله استقلالاً داخله .

فليس ذلك فقراً ولا زهداً كما ترى في ظاهر القصة ، ولكنها جرأة النفس العظمى في تقرير حقائقها العملية .

وتنتهي القصة في عبارة القرآن الكريم بتسمية زوجاته (صلى الله عليه وسلم) : « أمّهات المؤمنين » بعد أن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة ؛ وعلماء

التفسير يقولون : إن الله (تعالى) كافأهن بهذه التسمية ؛ وليس ذلك بشيء ولا فيه كبير معنى ، وإنما تُشعر هذه التسمية بمعنى دقيق هو آية من آيات الإعجاز ؛ فإن الزوجة الكاملة لا تكمل في الحياة ولا تكمل الحياة بها إلا إذا كان وصفها مع رجلها كوصف الأم : ترى ابنها بالقلب ومعانيه ، لا بالغريرة وحظوظها ؛ فكل حياة حينئذ ممكنة السعادة لهذه الزوجة ، وكل شقاء محتمل بصبر ، وكل جهاد فيه لذته الطبيعية ، إذ يقوم البيت على الحب الذي هو الحب الخالص لا المنفعة ، وتكون زينة الحياة وجود الحى نفسه لا وجود المادة ، وتبنى النفس على الوفاء الطبيعى كوفاء الأم ، وذلك خلق لا يعسر عليه فى سبيل حقيقته أن يتغلب على الدنيا وزينتها .

وآخر ما نستخرج من القصة فى درس النبوة هذه الحكمة :
يحسب المؤمن إذا دخل داره أن يجد حقيقة نفسه الطيبة ، وإن لم يجد حقيقة
كسرى ولا قيصر .

شهر للشـورة...

فلسفة الصيام

لم أقرأ لأحدٍ قولاً شافياً في فلسفة الصوم وحكمته ؛ أما منفعته للجسم ، وأنه نوعٌ من الطبِّ له ، وبابٌ من السياسة في تديره ؛ فقد فرغ الأطباء من تحقيق القول في ذلك ؛ وكأن أيام هذا الشهر المبارك إن هي إلا ثلاثون حبةً تؤخذ في كل سنة مرةً لتقوية المعدة وتصفية الدم وحياطة أنسجة الجسم ؛ ولكننا الآن لسنا بصددٍ من هذا ، وإنما نستوحى تلك الحقيقة الإسلامية الكبرى التي شرعت هذا الشرع لسياسة الحقائق الأرضية الصغيرة ، عاملةً على استمرار الفكرة الإنسانية فيها ، كي لا تتبدل النفس على تغيرِ الحوادث وتبدلها ، ولكيلا تجهل الدنيا معاني الترفع إذا أتت على هذه الدنيا معاني التزيق .

من معجزات القرآن الكريم أنه يدّخرُ في الألفاظ المعروفة في كل زمنٍ ، حقائق غيرَ معروفةٍ لكل زمن ، فيجلبها لوقتها حين يَضِجُ الرمانُ العلمى في متآهته وحيرته ، فيشغبُ على التاريخ وأهله مُستخفاً بالأديان ، ويذهبُ يتتبعُ الحقائق ، ويستقصي في فنون المعرفة ، ليستخلص من بين كفرٍ وإيمانٍ ديناً طبيعياً سائغاً ، يتناول الحياة أول ما يتناولُ فيضبطها بأسرار العلم ، ويوجهها بالعلم إلى غايتها الصحيحة ، ويضاعف قواها بأساليبه الطبيعية ، ليحقق في إنسانية العالم هذه الشيئية المجهولة التي تتوهمها المذاهب الاجتماعية ولم يهتد إليها مذهبٌ منها ولا قاربها ؛ فما برحت سعادة الاجتماع كالتجربة العلمية بين أيدي علمائها : لم يحققوها ولم يماسوا منها ، وبقيت تلك المذاهب كعقارب الساعة

في دَوَرَتِهَا : تبدأ من حيثُ تبدأ ثم لا تنتهى إلا إلى حيثُ تبدأ

يضطربُ الاشتراكِيون في أوربا وقد عجزوا عجزَ مَنْ يحاول تغيير الإنسانِ بزيادةٍ ونقصٍ في أعصابه ؛ ولا يزال مذهبُهم في الدنيا مذهبَ كُتُب ورسائل ؛ ولو أنهم تدبَّروا حكمةَ الصوم في الإسلام ، لرأوا هذا الشهرَ نظاماً عملياً من أقوى وأبدع الأنظمة الاشتراكية الصحيحة ؛ فهذا الصوم فقرٌ إجباريٌّ تفرَّضه الشريعةُ على الناس فرضاً لمتساوَى الجميع في بواطنهم ، سواء منهم مَنْ مَلَكَ المليونَ من الدنانير ، وَمَنْ مَلَكَ القرشَ الواحد ، وَمَنْ لم يملك شيئاً ؛ كما يتساوَى الناسُ جميعاً في ذهابِ كبريائهم الإنسانية بالصلاة التي يفرضها الإسلامُ على كل مسلم ؛ وفي ذهابِ تفاوُّثهم الاجتماعيِّ بالحجِّ الذي يفرضه على من استطاع .

فقرٌ إجباريٌّ يراد به إشعارُ النفس الإنسانية بطريقةٍ عمليةٍ واضحةٍ كلِّ الوضوح ، أن الحياةَ الصحيحةَ وراء الحياة لا فيها ، وأنها إنما تكونُ على أتمها حين يتساوَى الناسُ في الشعور لا حين يختلفون ، وحين يتعاطفون بإحساسِ الأمل الواحد لا حين يتنازعون بإحساسِ الأهواء المتعددة .

ولو حققتْ رأيتَ الناسَ لا يختلفون في الإنسانية بعقولهم ، ولا بأنسابهم ، ولا بمراتبهم ، ولا بما ملكوا ؛ وإنما يختلفون ببطونهم وأحكامِ هذه البطون على العقلِ والعاطفة ؛ فمن البطنِ نكبةُ الإنسانية ، وهو العقلُ العمليُّ على الأرض ؛ وإذا اختلف البطنُ والدماغُ في ضرورةٍ ، مدَّ البطنُ مدَّه من قوَى لهضم فلم يُبق ولم يَذَر .

ومن ههنا يتناولُه الصوم بالتهذيب والتأديب والتدريب ، ويجعل الناسَ فيه سواءً : ليس لجميعهم إلا شعورٌ واحد وحسٌّ واحدٌ وطبيعةٌ واحدةٌ ؛ ويُحكِّم

الأمرَ فيحولُ بين هذا البطنِ وبين المادةِ ، ويبلغُ في إحكامِهِ فيهِسِكُ حَواشيهِ العصبيةَ في الجسمِ كُلِّهِ يَنْعُمُها تَغْذِيَتُها وَلَدَتَها حَتَّى نَفْثَةً مِنْ دَخِينَةٍ (١) .

وبهذا يَضَعُ الإنسانِيَّةُ كُلَّها في حالةٍ نفسيةٍ واحدةٍ تَتَلَبَّسُ بِها النفسُ في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها ، ويُطْلَقُ في هذه الإنسانِيَّةِ كُلَّها صوتَ الروحِ يُعَلِّمُ الرحمةَ ويدعو إليها ، فَيُشْبِعُ فيها بهذا الجوعِ فِكْرَةً مَعْيِنَةً هِيَ كُلُّ ما في مذهبِ الاشتراكيةِ من الحقِّ ، وهِيَ تلكَ الفِكْرَةُ الَّتِي يَكُونُ عنها مساواةُ الغنيِّ للفقيرِ من طبيعتهِ ، واطْمِئْنانُ الفقيرِ إلى الغنيِّ بطبيعتهِ ؛ ومن هذينِ : (الاطمِئنانِ والمساواةِ) ، يَكُونُ هدوءُ الحياةِ بهدوءِ النفسينِ اللتين هما السَّلبُ والإيجابُ في هذا الاجتماعِ الإنسانِي ؛ وإذا أَنْتِ نَزَعْتَ هذه الفِكْرَةَ من الاشتراكيةِ بَقِيَ هذا المذهبُ كُلُّهُ عَبَثًا مِنَ الْعَبَثِ في محاولةٍ جَعَلَ التاريخُ الإنسانِيَّ تاريخًا لا طبيعَةً لَهُ .

من قواعدِ النفسِ أَنَّ الرحمةَ تَنْشَأُ عَنِ الْأَلَمِ ، وهذا بعضُ السِّرِّ الاجتماعيِّ العظيمِ في الصومِ ، إِذْ يَبَالِغُ أَشَدَّ الْمَبَالِغَةِ ، وَيَدْقُقُ كُلَّ التَّدْقِيقِ ، فِي مَنَعِ الْغِذَاءِ وَشِبْهِ الْغِذَاءِ عَنِ الْبَطْنِ وَحَواشيهِ مَدَّةً آخِرُها آخِرُ الطاقةِ ؛ فهذه طَريقَةُ عمليةٍ لتربيةِ الرحمةِ فِي النفسِ ، وَلَا طَريقَةَ غَيْرُها إِلَّا النَكَبَاتُ وَالْكُوارِثُ ؛ فهما طَريقَتانِ كَمَا تَرى : مُبْصِرَةٌ وَعَمِيَاءُ ، وَخاصَّةٌ وَعامةٌ ، وَعَلَى نِظامٍ وَعَلَى فِجْأَةٍ . ومتى تَحَقَّقَتْ رَحْمَةُ الْجائِعِ الْغَنِيِّ لِلْجَائِعِ الْفَقِيرِ ، أَصْبَحَ لِلْكَلِمَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الدَّاخِلِيَّةِ سُلْطَانُها النافِذُ ، وَحَكَمُ الْوَازِعِ النَّفْسِيَّ عَلَى الْمَادَةِ ؛ فَيَسْمَعُ الْغَنِيُّ فِي ضَمِيرِهِ صَوْتَ الْفَقِيرِ يَقُولُ : « أَعْظَنِي . » ثُمَّ لَا يَسْمَعُ مِنْهُ طَلِبًا مِنَ الرَّجَاءِ ، بَلْ طَلِبًا مِنَ الْأَمْرِ لَا مَفْرَءَ مِنْ تَلْبِيَّتِهِ وَالاسْتِجَابَةِ لِمَعَانِيهِ ، كَمَا يُؤَامِسُ الْمُبْتَلَى مِنَ كَانِ فِي مِثْلِ بِلَانْهُ .

(١) الدخينة كلمة وضعناها للسيجارة ، وجمعها دخائن .

أية معجزة إصلاحية أعجب من هذه المعجزة الإسلامية التي تقضى أن يحذف من الإنسانية كلها تاريخ البطن ثلاثين يوماً في كل سنة ، ليحل في محله تاريخ النفس ^(١) ؟ وأنا مُستيقن أن هناك نسبة رياضية هي الحكمة في جعل هذا الصوم شهراً كاملاً من كل اثني عشر شهراً ، وأن هذه النسبة متحققة في أعمال النفس للجسم ، وأعمال الجسم للنفس ؛ كأنه الشهر الصحي الذي يفرضه الطب في كل سنة للراحة والاستجمام وتغيير المعيشة ، لإحداث الترميم العصبي في الجسم ؛ ولعل ذلك آت من العلاقة بين دورة الدم في الجسم الإنساني وبين القمر منذ يكون هلالاً إلى أن يدخل في المحاق ؛ إذ تنتفخ العروق وتربو في النصف الأول من الشهر ، كأنها في (مدّ) من نور القمر مادام هذا النور إلى زيادة ، ثم يراجعها (الجزر) في النصف الثاني حتى كأن للدم إضاءة وظلاماً . وإذا ثبت أن للقمر أثراً في الأمراض العصبية ، وفي مدّ الدم وجزره ^(٢) ، فهذا من أعجب الحكمة في أن يكون الصيام شهراً قمرياً دون غيره .

وفي ترائي الهلال ووجوب الصوم لرؤيته معنى دقيق آخر ، وهو — مع إثبات رؤية الهلال وإعلانها — إثبات الإرادة وإعلانها ، كأنما انبعث أول الشعاع السماوي في التنبيه الإنساني للعالم لفروض الرحمة والإنسانية والبر .

وهنا حكمة كبيرة من حكم الصوم ، وهي عمله في تربية الإرادة وتقويتها بهذا الأسلوب العملي ، الذي يُدرب الصائم على أن يمتنع باختياريته من شهواته ولذته حيوانيته ، ويبقيه مُصرّاً على الامتناع ، مُتهَيِّئاً له بعزمته ، صابراً عليه

(١) أفسد ضعف النفوس هذا المعنى ، فإحقيق الناس (تاريخ البطن) كما يحققونه في شهر رمضان ، وهم يعوضون البطن في الليل ما منعوه في النهار ، حتى جعلوا الصوم تغييراً لمواعيد الأكل ... ولكن الصوم على ذلك لم يجرهم فوائده .

(٢) قال الجاحظ في (الحيوان) : « ولزيادة القمر حتى يصير بديراً ، أثر بين في زيادة الدماء والأدمغة وجميع الرطوبات . »

بأخلاق الصبر ، مُزاولاً في كل ذلك أفضل طريقةٍ نفسيةٍ لا اكتساب الفكرة الثابتة ترسخُ لا تتغير ولا تتحول ، ولا تعدو عليها عوادي الغريزة .

وإدراك هذه القوة من الإرادة العملية منزلة اجتماعية سامية ، هي في الإنسانية فوق منزلة الذكاء والعلم ، ففي هذين تعرض الفكرة مازةً مُروّرها ، ولكنها في الإرادة تعرض لتستقرّ وتحقق . فانظر في أى قانون من القوانين ، وفي أية أمة من الأمم ، تجد ثلاثين يوماً من كل سنة قد فُرِضت فرضاً لتربية إرادة الشعب ومزاولته فـكرةً نفسيةً واحدةً بخصائصها ومُلاساتها حتى تستقرّ وترسخ وتعود جزءاً من عمل الإنسان ، لا خيالاً يمرُّ برأسه مرّاً .

أليست هذه هي إتاحة الفرصة العملية التي جعلوها أساساً في تكوين الإرادة ؟ وهل تبلغ الإرادة فيما تبلغ ، أعلى من منزلتها حين تجعل شهوات المرء مُدعنةً لفكره ، منقاداً للوازع النفسى فيه ، مُصرّفةً بالحسّ الدينى المسيطر على النفس ومشاعرها .

أما والله لو عمّ هذا الصوم الإسلامى أهل الأرض جميعاً ، لآل معناه أن يكون إجماعاً من الإنسانية كلها على إعلان الثورة شهراً كاملاً في السنة ، لتطهير العالم من رذائله وفساده ، وتحقّق الأثرة والبخل فيه ، وطرح المسئلة النفسية ليتدارسها أهل الأرض دراسةً عمليةً مدة هذا الشهر بطوله ، فيمببط كلُّ رجل وكلُّ امرأة إلى أعماق نفسه ومكامنها ، ليختبر في مصنع فكره معنى الحاجة ومعنى الفقر ، وليفهم في طبيعة جسمه — لا في الكتب — معانى الصبر والثبات والإرادة ، وليبلغ من ذلك وذلك درجات الإنسانية والمواساة والإحسان ؛ فيحقق بهذه وتلك معانى الأخاء والحرية والمساواة .

شهرٌ هو أيامٌ قلبيةٌ في الزمن ؛ متى أشرفت على الدنيا قال الزمن لأهله : هذه أيامٌ من أنفسكم لا من أيامى ، ومن طبيعتكم لا من طبعيتى . فيقبل العالم

كله على حالة نفسية بالغة السمو ، يتعهد فيها النفس رياضتها على معالى الأمور ومكارم الأخلاق ، ويفهم الحياة على وجه آخر غير وجهها الكالح ، ويراها كأنما أُجِيعَتْ من طعامها اليومي كما جاع هو ، وكأنما أُفْرِغَتْ من خسائسها وشهواتها كما فَرَّغَ هو ، وكأنما أُلْزِمَتْ معانى التقوى كما أُلْزِمَها هو . وما أجمل وأبدع أن تظهر الحياة فى العالم كله — ولو يوماً واحداً — حاملة فى يدها الشُّبْحَة . . . ! فكيف بها على ذلك شهراً من كل سنة ؟

إنها والله طريقة عملية لرسوخ فكرة الخير والحق فى النفس ؛ وتطهير الاجتماع من خسائس العقل المادى ؛ وردّ هذه الطبيعة الحيوانية المحكومة فى ظاهرها بالقوانين ، والحررة من القوانين فى باطنها — إلى قانون من باطنها نفسه يُظهرُ مشاعرَها ، ويسمو بإحساسها ، ويَصْرِفُها إلى معانى إنسانيتها ، ويَهْدُبُ من زياداتها ، ويحذف كثيراً من فضولها ، حتى يرجع بها إلى نحو من براءة الطفولة ، فيجعلها صافية مُشْرِقة بما يجتذبُ إليها من معانى الخير والصفاء والإشراق ؛ إذ كان من عمل الفكرة الثابتة فى النفس أن تدعو إليها ما يلائمها ويتصل بطبيعتها من الفكر الأخرى . والنفس فى هذا الشهر مُحْتَبَسَةٌ فى فكرة الخير وحدها ، فهى تبنى بناءها من ذلك ما استطاعت .

هذا على الحقيقة ليس شهراً من الأشهر ، بل هو فصلٌ نفسانى كفصول الطبيعة فى دوراتها ؛ ولهُوَ والله أشبه بفصل الشتاء فى حلوله على الدنيا بالجو الذى من طبيعته السُّحْبُ والغَيْثُ ، ومن عمله إمدادُ الحياة بوسائل لها ما بعدها إلى آخر السنة ، ومن رياضته أن يَكْسِبَها الصلابة والانكماش والخفة ، ومن غايته إعدادُ الطبيعة للتفتُّح عن جمال باطنها فى الربيع الذى يهله .

وعجيبٌ جداً أن هذا الشهر الذى يَدَّخِرُ فيه الجسمُ من قواه المعنوية فيودعها مَصْرِفَ روحانيته ، ليجد منها عند الشدائد مدد الصبر والثبات والعزم

والجلد والخشونة . — عجيبٌ جداً أن هذا الشهرَ الاقتصاديَّ هو من أيام السنة كفائدة ٨١ في المائة . . . فكأنه يسجَّلُ في أعصاب المؤمن حساب قوَّته ورجحه ، فله في كل سنة زيادة ٨١ من قوَّته المعنوية الروحانية .

وسحرُ العظام في هذه الدنيا إنما يكون في الأمة التي تعرف كيف تدخر هذه القوة وتوفرها لتستمدّها عند الحاجة ، وذلك هو سرُّ أسلافنا الأولين الذين كانوا يجدون على الفقر في دماءهم وأعصابهم ما تجد الجيوش العظمى اليوم في مخازن العتاد والأسلحة والذخيرة .

كلُّ ما ذكرته في هذا المقال من فلسفة الصوم ؛ فإنما استخرجته من هذه الآية الكريمة : « كُتِبَ عليكم الصيامُ كما كُتِبَ على الذين من قبلكم ، لعلكم تتقون » . وقد فهمها العلماء جميعاً على أنها معنى « التقوى » ، أما أنا فأولتها من « الاتقاء » ؛ فبالصوم يتقّى المرء على نفسه أن يكون كالحيوان الذي شريعته معدته ، وألا يعامل الدنيا إلا بمواد هذه الشريعة ؛ ويتقّى المجتمع على إنسانيته وطبيعته مثل ذلك ، فلا يكون إنسان مع إنسان كحمار مع إنسان ؛ يبيعه القوة كلها بالقليل من العلف .

وبالصوم يتقّى هذا وهذا ما بين يديه وما خلفه ، فإن ما بين يديه هو الحاضر من طباعه وأخلاقه ، وما خلفه هو الجيل الذي سيرت من هذه الطبائع والأخلاق ، فيعمل بنفسه في الحاضر ، ويعمل بالحاضر في الآتي ^(١) .

(١) يفسر القرآن بعضه بعضاً ، ومن معجزاته في هذا التأويل الذي استخرجناه أنه يؤيده بالآية الكريمة في سورة (يس) : « وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون . . . »
ويشير إلى هذا التأويل قول النبي (صلى الله عليه وسلم) : « إنما الصوم جنة =

وكلُّ ما شرحناه فهو اتقاء ضررٍ لجلبِ منفعة ، واتقاء رذيلةٍ لجلبِ فضيلة ؛
وبهذا التأويل تتوجه الآيةُ الكريمةُ جهةً فلسفيةً عاليةً ، لا يأتي البيانُ
ولا العلمُ ولا الفلسفةُ بأوجزَ ولا أكملَ من لفظها ؛ ويتوجهُ الصيامُ على أنه
شريعة اجتماعيةٌ إنسانيةٌ عامة ، يتقَي بها الاجتماعُ شرورَ نفسه ؛ ولن يتهدَّبَ
العالمُ إلا إذا كان له مع القوانين النافذةِ هذا القانونُ العام الذي اسمه الصومُ ،
ومعناه « قانونُ البطن »

ألا ما أعظمك يا شهرَ رمضان ! لو عرَفَكَ العالمُ حقَّ معرفتك لَسَمَّاكَ :
« مدرسة الثلاثين يوماً » .

= (يضم الجيم) فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل ، وإن أمرؤ قاتله أو شاعته فليقل :
إني صائم ، إني صائم .

والجنة الوقاية يتقَي بها الإنسان ، والمراد أن يعتقد الصائم أنه قد صام ليتقَي شر حيوانيته
وحواسه ، فقله : « إني صائم ، إني صائم » ؛ أي إني غائب عن الفحش والجهل والشر ؛
إني في نفسي ولست في حيوانيتي .

ثَبَاتُ الْأَخْلَاقِ

لو أننى سئلتُ أن أُجِلَ فلسفةَ الدينِ الإسلامىَّ كُلِّها فى لفظين ، قلتُ :
إنها ثباتُ الأخلاق . ولو سئِلَ أ كبرُ فلاسفةِ الدنيا أن يُوجِزَ علاجَ الإنسانيةِ
كُلَّه فى حرفين ، لما زاد على القول : إنه ثباتُ الأخلاق . ولو اجتمع كلُّ
علماء أوربا ليدرسوا المدنيةَ الأوربيةَ ويَحْصُرُوا ما يُعَوِّزُها فى كلمتين لقالوا :
ثباتُ الأخلاق . هذا يكلِّسُ المدنيةَ الحديثةَ دأباً يالط

فليس ينتظرُ العالمُ أنبياءَ ولا فلاسفةً ولا مصاحين ولا علماء يُبدعون له
بدعاً جديداً ؛ وإنما هو يترقب من يستطيع أن يفسرَ له الإسلامَ هذا التفسيرَ ،
ويثبتَ للدنيا أن كلَّ العبادات الإسلامية هي وسائلٌ عمليةٌ تمنع الأخلاقَ
الإنسانية أن تتبدَّلَ في الحَيِّ فيخلعَ منها ويلبسَ ، إذا تبدَّلت أحوالُ الحياة
فصعدت بانسانها أو نزلت ؛ وأن الإسلام يأتى على كل مسلم أن يكون إنساناً حالته
التي هو فيها من الثروة أو العلوم ، ومن الارتفاع أو الضعة ، ومن خمولِ المنزل
أو نباهتها ؛ ويوجبُ على كل مسلم أن يكون إنسانَ الدرجة التي انتهى إليها
الكونُ في سموه وكِماله ، وفي تقلُّبه على منازلِه بعد أن صُفِّى في شريعةٍ بعد
شريعة ، وتجربةٍ بعد تجربة ، وعلم بعد علم .

انتهت المدنيةُ إلى تبدُّل الأخلاق بتبدُّل أحوال الحياة ، فمن كان تقيًّا على الفقر والإملاق وحرَّمه الإعسارُ فنونَ اللذة ، ثم أيسرَ من بعدُ ؛ جازله أن يكونَ فاجرًا على الغنى ، وأن يتسمَّحَ لفُجوره على مدِّ ما يتطوَّحُ به المال ، وإن أصبحَ في كل دينارٍ من ماله شقاءُ نفسٍ إنسانيةٍ أو فسادُها .

ومن وُلد في بطن كُوخ ، أو على ظَهْرِ الطريق ، وجب أن يبقَ أرضاً إنسانية ؛ كأن الله (سبحانه) لم يَبْنِ من عظامه ولحمه وأعصابه إلا خَرِبَةً آدمية من غير هندسية ولا نظام ولا فن ... ثم يقابله مَنْ وُلد في القصر أو شبه القصر فله حكم آخر ، كأن الله (سبحانه) قد ركب من عظمه ودمه وتكوينه آيةً هندسية ، وأعجوبةً فنِّ ، وطُرْفَةً تدبير ، وشيئاً مع شيء ، وطبقةً على طبقة .

ولسكن الإسلام يقرر ثبات الخلق ويوجبهُ ويُنشئ النفسَ عليه ، ويجعله في حياطة المجتمع وحراسته ، لأن هناك حدوداً في الإنسانية تتميز بحدودٍ في الحياة ، ولا بد من الضبط في هذه وهذه ، حتى لا يكونَ وَضْعٌ إلا وراء تقدير ، ولا تقديرٌ إلا معه حكمة ، ولا حكمةٌ إلا فيها مصاحبة ؛ وحتى لا تَعَاوِ الحياة ولا تنزل إلا بمثل ما ترى من كِفَتَي ميزان شِدَّتَا في عَلاقَةٍ تجمعهما وتحرِّكهما معاً ، فهي بذاتها هي التي تنزل بالنازل لتدلَّ عليه ، وتَسِيلُ بالعالي لتبين عنه ؛ فالإسلام من المدنية هو مدنية هذه المدينة .

إنها لن تتغيرَ مادةُ العظم واللحم والدم في الإنسان فهي ثابتةٌ مقدَّرةٌ عليه ، ولن تتبدلَ الشَّيْنُ الإلهيُّ التي تُوجدُها وتُفنيها فهي مُصرِّفةٌ لها قاضيةٌ عليها ؛ وبين عمل هذه المادة وعمل قانونها فيها تكونُ أسرارُ التكوين ؛ وفي هذه الأسرارِ تجد تاريخَ الإنسانية كله ساجداً في الدم .

هي الغرائزُ تعمل في الإنسانية عملها الإلهي ، وهي محدَّدةٌ محكمةٌ على ما يكون من تعاديلها واختلافِ بينها ، وكأنها خلقت بمجموعها لمجموعها ؛ ومن ثمَّ يكون الخلق الصحيح في معناه قانوناً إلهياً على قوَّةِ كقوَّة الكون وضبطٍ كضبطه .

وبهذه القوة وهذا الضبط يستطيع الخلق أن يحوِّلَ المادة التي تعارضه إذا هو اشتدَّ وصلَّب ، ولكنه يتحولُ معها إذا هو لَانَ أو ضَعُف . فهو قدَرٌ إلا أنه

في طاعتك ، إذ هو قوة الفصل بين إنسانيتك وحيوانيتك ، كما أنه قوة المزج بينهما ، كما أنه قوة التعديل فيهما ، وقد سوَّغ القدرة على هذه الأحوال جميعاً ، ولولا أنه بهذه المثابة لعاش الإنسان طول التاريخ قبل التاريخ ، إذ لن يكون له حينئذ كَوْنٌ تَوَرَّخُ فضائله أو رذائله بمدح أو ذم .

فلا عبرة بمظهر الحياة في الفرد ، إذ الفرد مقيدٌ في ذاتِ نفسه بمجموع هو للمجموع وليس له وحده ؛ فإنك ترى الغرائز دائبةً في إيجاد هذا الفرد لنوعه بسُنَنِ من أعمالها ، ودائبةً كذلك في إهلاكه في النوع نفسه بسُنَنِ أخرى ؛ فليس قانونُ الفرد إلا أمراً عارضاً كما ترى ؛ وبهذا يمكن أن يتحول الفرد على أسباب مختلفة ، ثم تبقى الأخلاق التي بينه وبين المجموع ثابتةً على صورتها .
فالأخلاق على أنها في الأفراد ، هي في حقيقتها حُكْمُ المجتمع على أفرادها ؛ فقوامها بالاعتبار الاجتماعي لا غير .

وحين يقع الفسادُ في المُجْمَعِ عليه من آداب الناس ، ويلتوي ما كان مستقيماً ، وتشتبهُ العالِيَةُ والسافِلَةُ ، وتطرحُ المبالاةُ بالضمير الاجتماعي ، ويقومُ وزنُ الحكم في اجتماعهم على القبيح والمنكر ، وتجري العبرةُ فيما يعتبرونه بالذائل والحرَمات ، ولا يعجبُ الناسَ إلا ما يفسدُهم ، ويقع ذلك منهم بموقع القانون ويحلُّ في محل العادة ؛ فهناك لا مساكَ للخلقِ السليم على فرد ، ولا بد من تحوُّل الفرد في حقيقته ؛ إذ كان لا يجيُّ أبداً إلا مُتصدِّعاً في كل مظاهره الاجتماعية ، فأينما وقع من أعمال الناس جاء مكسوراً أو مثلوماً ، وكأنه منتقلٌ من عالمٍ إلى عالمٍ ثانٍ بغير نواويسٍ الأول .

وما شدَّ من هذه القاعدة إلا الأنبياء وأفراد من الحكماء ؛ فأما أولئك فهم قوة التحوُّل في تاريخ الإنسانية : لا يُبعثُ أحدٌهم إلا ليبيحَ به الهيئُج في التاريخ ،

وَيَتَطَرَّقُ بِهِ النَّاسُ إِلَى سُبُلٍ جَدِيدَةٍ كَأَنَّمَا تَطْرُدُهُمْ إِلَيْهَا الْعَوَاصِفُ وَالزَّلَازِلُ
وَالْبَرَائِكُنُ ، لَا شَرِيْعَتُهُ وَمِبَادئُهُ وَآدَابُهُ ؛ وَأَمَّا الْحُكْمَاءُ النَّاسِجُونَ فَهُمْ دَائِمًا فِي هَذِهِ
الْإِنْسَانِيَةِ أَمْكَنَةُ بَشَرِيَّةٍ مُحَصَّنَةٍ لِحِفْظِ كَنْوَزِهَا وَإِحْرَازِهَا فِي أَنْفُسِهِمْ ، فَلَهُمْ فِي
ذَاتِ أَنْفُسِهِمْ عِصْمَةٌ وَمَنْعَةٌ كَالْجِبَالِ فِي ذَاتِ الْأَرْضِ .

الْأَخْلَاقُ فِي رَأْيِي هِيَ الطَّرِيقَةُ لِنْتَظِيمِ الشَّخْصِيَّةِ الْفَرْدَةِ عَلَى مَقْتَضَى
الْوَاجِبَاتِ الْعَامَةِ ، فَالْإِصْلَاحُ فِيهَا إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ عَمَلِ هَذِهِ الْوَاجِبَاتِ ، أَى مِنْ
نَاحِيَةِ الْمَجْتَمَعِ وَالْقَائِمِينَ عَلَى حُكْمِهِ . وَعِنْدِي أَنَّ لِلشَّعْبِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ؛ فَبَاطِنُهُ هُوَ
الَّذِينَ يَحْكُمُ الْفَرْدَ ، وَظَاهِرُهُ هُوَ الْقَانُونُ الَّذِي يَحْكُمُ الْجَمْعَ ؛ وَلَنْ يَصْلُحَ لِلْبَاطِنِ
الْمُتَّصِلُ بِالْغَيْبِ إِلَّا ذَلِكَ الْحُكْمُ الدِّينِيُّ الْمُتَّصِلُ بِالْغَيْبِ مِثْلُهُ ؛ [وَمِنْ هُنَا تَبَيَّنَ
مَوَاضِعُ الْإِحْتِلَالِ فِي الْمَدَنِيَّةِ الْأُورُوبِيَّةِ الْجَدِيدَةِ ؛ فَهِيَ فِي ظَاهِرِ الشَّعْبِ دُونَ
بَاطِنِهِ ، وَالْفَرْدُ فَاسِدٌ بِهَا فِي ذَاتِ نَفْسِهِ إِذَا هُوَ تَحَالَ مِنْ الدِّينِ ، وَلَكِنَّهُ مَعَ
ذَلِكَ يَبْدُو صَالِحًا مُنْتَظِمًا فِي ظَاهِرِهِ الْاجْتِمَاعِيِّ بِالْقَوَانِينِ وَبِالْآدَابِ الْعَامَةِ الَّتِي
تَفْرُضُهَا الْقَوَانِينُ] ، فَلَا يَبْرَحُ هَازِنًا مِنَ الْأَخْلَاقِ سَاحِرًا بِهَا ؛ لِأَنَّهَا غَيْرُ ثَابِتَةٍ
فِيهِ ، ثُمَّ لَا تَكُونُ عِنْدَهُ أَخْلَاقًا يَعْتَدُّ بِهَا إِلَّا إِذَا دَرَّتْ بِهَا مَنَافِعُهُ ، وَإِلَّا فَهِيَ
ضَارَّةٌ إِذَا كَانَتْ مِنْهَا مَضَرَّةٌ ، وَهِيَ مُؤَلَّةٌ إِذَا حَالَتْ دُونَ اللِّذَاتِ . وَلَا يَنْفَكُ
هَذَا الْفَرْدُ يَتَحَوَّلُ لِأَنَّهُ مُطْلَقٌ فِي بَاطِنِهِ غَيْرُ مُقَيَّدٍ إِلَّا بِأَهْوَاءِهِ وَنَزَعَاتِهِ ، وَكَلَّمَا
الْفَضِيلَةُ وَالرِّذِيلَةُ مَعْدُومَتَانِ فِي لُغَةِ الْأَهْوَاءِ وَالنَّزَعَاتِ ؛ إِذِ الْغَايَةُ الْمَتَاعُ وَاللَّذَّةُ
وَالنَّجَاحُ ، وَلِيَكُنِ السَّبَبُ مَا هُوَ كَائِنٌ . . .

وَبِهَذَا فَلَنْ تَقُومَ الْقَوَانِينُ فِي أَوْرُبَا إِذَا فَنِيَ الْمُؤْمِنُونَ بِالْأَدْيَانِ فِيهَا أَوْ كَثُرَ هُمْ
الْمُلْحَدُونَ ، وَهُمْ الْيَوْمَ يُبْصِرُونَ بِأَعْيُنِهِمْ مَا فَعَلَتْ عَقْلِيَّةُ الْحَرْبِ الْعَظْمَى فِي طَوَائِفِ
مِنْهُمْ قَدْ خَرِبَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْ إِيْمَانِهَا فَتَحَوَّلُوا ذَلِكَ التَّحَوُّلَ الَّذِي أَوْمَأْنَا إِلَيْهِ ،
فَإِذَا أَعْصَابُهُمْ بَعْدَ الْحَرْبِ مَا تَزَالُ مُحَارِبَةً مُقَاتِلَةً تَرْمِي فِي كُلِّ شَيْءٍ رُوحَ الدَّمِ

والأشلاء والقبور والتعفن والبلل . . . وانتهت الحربُ بين أُممٍ وأُممٍ ، ولكنها بدأت بين أخلاقٍ وأخلاقٍ .

وقديماً حارب المسلمون ، وفتحوا العالم ، ودوخوا الأُمم ؛ فأثبتوا في كل أرضٍ هَدْيَ دينهم وقوةَ أخلاقهم الثابتة ، وكان من وراء أنفسهم في الحرب ما هو من ورائها في السَّلم ؛ وذلك بثباتِ باطنهم الذي لا يتحول ، ولا تستغفُهُ الحياةُ بنزقِها ، ولا تتسَفَّهُهُ المدينيَّاتُ فتحمله على الطيش .

ولو كانوا هم أهل هذه الحرب الأخيرة بكل ما قذفت به الدنيا ، لبقيت لهم العقليةُ المؤمنةُ القوية ، لأن كلَّ مسلمٍ فانما هو وعقليتهُ في سلطانِ باطنه الثابتِ القارِّ على حدودِ بَيِّنَةٍ مُحَصَّلَةٍ مقسومةٍ ، تحوطها وتمسكها أعمالُ الإيمان التي أحكمها الإسلامُ أشدَّ إحكامٍ بفرضها على النفوسِ منوعةً مكررةً : كالصلاة والصوم والزكاة ، لينع بها تغيراً ويُحدث بها تغيراً آخر ، ويجعلها كالحارسَةِ للإرادة ما تزال تمرُّ بها وتتعهدُها بين الساعة والساعة ^(١) .

إنما الظاهرُ والباطنُ كالموج والساحل ؛ فإذا جُنَّ الموجُ فلن يَضِرَّهُ ما بقى الساحلُ رَكيناً هادئاً مشدوداً بأعضاده في طبقات الأرض . أما إذا ماج الساحلُ . . . فذلك أسلوبٌ آخرٌ غير أسلوبِ البحار والأعاصير ؛ ولا جَرَمَ ألا يكونَ إلا خَسَفًا بالأرض والماء وما يتصلُ بهما .

في الكون أصلٌ لا يتغير ولا يتبدل ، هو قانونُ ضبطِ القوة وتصريفها وتوجيهها على مقتضى الحكمة . ويقابله في الإنسان قانونٌ مُثْلُهُ لا بد منه لضبط معاني الإنسان وتصريفها وتوجيهها على مقتضى الكمال . وكلُّ فروض الدين الإسلاميِّ وواجباته وآدابه ، إنْ هي إلا حركةُ هذا القانون في عمله ؛ فما تلك

(١) فصلنا هذا المعنى في كثير من مقالاتنا : كقالة (حقيقة المسلم) ، و (فلسفة الصوم)

إلا طُرُقُ ثابتة لخلق الحسِّ الأدبي ، وتثبيته بالتكرار ، وإدخاله في ناموس طبيعيٍّ بإجرائه في الأنفس تجرى العادة ، وجعله بكل ذلك قوةً في باطنها ، فتُسمَّى الواجبات والآداب فروضاً دينيةً ؛ وما هي في الواقع إلا عناصرُ تكوين النفس العالية ، وتكونُ أوامرَ وهي حقائق ^(١) .

ومن ذلك أرانا نحن الشرقيين نمتاز على الأوربيين بأننا أقربُ منهم إلى قوانين السكون ؛ ففي أنفسنا ضوابطٌ قويةٌ متينة إذا نحن أقررنا مدينتهم فيها — وهي بطبيعتها لا تقبلُ إلا محاسنَ هذه المدنية — سبقناهم وتركنا غبارَ أقدامنا في وجوههم ، وكنا الطبقةَ المصفاةَ التي يَنشُدونها في إنسانيتهم الراهنة ولا يجدونها ، ومتازُ عنهم من جهة أخرى بأننا لم نُنشئْ هذه المدنية ولم تنشئنا ، فليس حقاً علينا أن نأخذَ سيئاتها في حسناتها ، وحماقتها في حكمتها ، وتزويرها في حقيقتها ؛ وأن نُسِغَ منها الخلوة والمرّة ، والناخبة والفجّة ؛ وإنما نحن نُحصِّلُها ونقتبسها ونرتجعُ منها الرجعةَ الحسنة ؛ فلا نأخذُ إلا الشيءَ الصالح مَكَانَ الشيء قد كان دونه عندنا ونَدْعُ ما سوى ذلك ؛ ثم لا نأخذ ولا ندعُ إلا على الأصول الضابطة المحكّمة في أدياننا وآدابنا ؛ ولسنا مثلاًهم متصاين من حاضر مدينتهم بمثل ماضيهم ، بيدَ أن العجبَ الذي ما يفرغُ عَجَبِي منه ، أن الموسومين منا بالتجديد لا يحاولون أولَ وهلةٍ وآخرها إلا هدمَ تلك الضوابط التي هي كلُّ ما نمتازُ به ، والتي هي كذلك كلُّ ما تحتاج إليه أوربا لضبط مدينتها ؛ ويسمون ذلك تجديداً ، ولهوً بأن يسمى حماقةً وجهلاً أولى وأحق .

أقول ولا أبالي : إننا ابتلينا في نهضتنا هذه بقوم من المترجمين قد احترفوا النقل من لغات أوربا ، ولا عقلَ لهم إلا عقلُ ما ينقلونه ؛ فصنعتهم الترجمة من حيث

(١) هذا هو الذي ضل عنه مصطفى كمال ومن شايعوه ، ومن قلدوه ، ومن اتخذوا فيه ، ولو فهمه حق الفهم لجدد تركيا وجدد العالم الإسلامي كله ، ولكن الرجل غريب عن هذه المعاني قصير النظر ، فما زاد على أن جدد ثوباً وقبعة . . . !

يدرون أو لا يدرون صنعة تقليدٍ محضٍ ومُتَابَعَةٍ مُسْتَعْبَدَةٍ ، وأصبح عقلمهم — بحكم العادة والطبيعة — إذا فُكِّرَ انجذب إلى ذلك الأصل لا يخرج عليه ولا يتحول عنه . وإذا صح أن أعمالنا هي التي تعملنا — كما يقول بعض الحكماء — فهم بذلك خطرٌ أي خطر على الشعب وقوميته وذاتيته وخصائصه ، ويوشك إذا هو أطاعهم إلى كل ما يدعون إليه أن ... أن يترجموه إلى شعبٍ آخر ...

[إن أوربا ومدنيتها لا تساوى عندنا شيئاً إلا بمقدار ما نحقق فيها من اتساع الذاتية بعلومها وفنونها] ، فإنما الذاتية وحدها هي أساس قوتنا في النزاع العالمي بكل مظاهره أيها كان ؛ ولها وحدها ، وباعتبار منها دون سواها ، نأخذ ما نأخذه من مدنية أوربا ونهمل ما نهمل ؛ ولا يجوز أن نترك التثبّت في هذا ولا أن نتسامح في دقة الحاسبة عليه .

[فالحافظة على الضوابط الإنسانية القوية التي هي مظاهر الأديان فينا ، ثم إدخال الواجبات الاجتماعية الحديثة في هذه الضوابط لربطها بالعصر وحضارته ، ثم تنسيق مظهر الأمة على مقتضى هذه الواجبات والضوابط ، ثم العمل على اتحاد المشاعر وتمارّجها لتقويم هذا المظهر الشعبي في جملته بتقويم أجزائه — هذه هي الأركان الأربعة التي لا يقوم على غيرها بناء الشرق]

والإحاد والنزعات السافلة وتخانيث المدنية الأوروبية التي لا عمل لها إلا أن تظهر الخطر في أجمل أشكاله ... ، ثم الجهل بعلوم القوة الحديثة وبأصول التدبير وحيطة الاجتماع وما جرى هذا الجرى ، ثم التدليس على الأمة بآراء المقلّدين والزائفين والمستعمرين لمحقّ الإخلاق الشعبية القوية وما اتصل بذلك ، ثم التخاذل والشقاق وتدابر الطوائف وما كان بسبيلها — تلك هي المعاول الأربعة التي لا يهدم غيرها بناء الشرق .

فليكن دائماً شعارنا نحن الشرقيين هذه الكلمة : أخلاقنا قبل مدنيّتهم .

قلت لنفسي...

وقالت لي...^(١)

قلت لنفسي : ويحك يا نفس ! مالى أتحاملُ عليك ؛ فإذا وفيتِ بما فى
وُسْعِكَ أردتُ منك ما فوقه وكلفتُك أن تَسْعَى ؛ فلا أزال أُعْنِتُك من بعدِ كمال
فيا هو أ كملُ منه ، و بعدَ الحَسَنِ فيا هو الأَحْسَنُ ؛ وما أنفكُ أَجهدُك كَلِّماً
راجِعَكِ النشاط ، وأُضْنِيكَ كلما ثابَتَ القوَّةُ ؛ فإن تكن لكِ هُمومٌ فأنا أ كبرُها ،
وإذا ساوَرَتِكَ الأحزانُ فأ كثرُها مما أَجلبُ عليك .

أنتِ يا نفسُ سائرةٌ على النَّهْجِ ، وأنا أَعْتَسِفُ بكِ أريدُ الطيرَ أن لا السَّيرَ ،
وأبتغى عملَ الأعمارِ فى عُمرٍ ، وأُسْتَحِثُّكَ من كلِّ هَجْعَةٍ راحةٍ بفجرِ تعبٍ جديدٍ ،
وكأنى لكِ زَمَنٌ يُمَادُّ بعضُه بعضاً ، فما يبرحُ يَنْبَثِقُ عليكِ من ظلامٍ بنورٍ
ومن نورٍ بظلامٍ ؛ لِيُهَيِّئَ لكِ القوَّةَ التى تمتدُّ بكِ فى التاريخِ من بعدُ ، فتذهبين
حين تذهبين ويعيشُ قلبُك فى العالمِ سارياً بكلماتِ أفراحِهِ وأحزانِهِ .

وقالت لى النفس : أمّا أنا فأنى معك دأباً كالخبيبة الوفية لمن تُحبُّه : ترى
خضوعها أحياناً هو أحسنَ المقاومة ؛ وأمّا أنتِ فإذا لم تكن تتعبُ ولا تزالُ
تتعب فكيف تُرىنى أنكِ تتقدَّمُ ولا تزالُ تتقدَّمُ ؟

ليستِ دُنْيَاكَ يا صاحِبى ما تجده من غيرك ، بل ما تُوجِده بنفسك ؛ فإن لم
تَرَدْ شيئاً على الدنيا كنتِ أنتِ زائداً على الدنيا ؛ وإن لم تدعها أحسنَ مما

(١) كتبت فى ساعة خجِر ، من هذه الساعات الطارئة على الروح ، يخيل للمرء فيها أنه
هو وحده والعالم كله وحده ؛ ذاك فى وجود نفسه خاصة ، والآخر فى وجود الطبيعة كلها .

وجدتها فقد وجدتها وما وجدتك ؛ وفي نفسك أول حدود دُنياك وآخر حدودها .
وقد تكون دنيا بعض الناس حانوتا صغيراً ، ودُنيا الآخر كالقرية المملّمة^(١) ،
ودنيا بعضهم كالمدينة الكبيرة ؛ أما دنيا العظيم فقارةٌ بأكملها ، وإذا انفرد
امتدَّ في الدنيا فكان هو الدنيا .

والقوةُ يا صاحبي تقتضى بالتعب والمُعاناة ؛ فما عانيتَه اليوم حركةً من
جسمك ، ألفتته غداً في جسمك قوةً من قوَى اللحم والدم . وساعةُ الراحة
بعد أيامٍ من التعب ، هي في لذتها كأيامٍ من الراحة بعد تعب ساعة . وما أشبه
الحَيِّ في هذه الدنيا ووشكٍ انقطاعه منها ، بمن خُلِقَ ليعيش ثلاثةَ أيامٍ معدودةً
عليه ساعاتها ودقائقها وثوانها ؛ أفتراه يغفل فيقدِّرها ثلاثةَ أعوام ، ويذهب
يسرف فيها ضروباً من لهوه ولعبه ومجونه ، إلا إذا كان أحقَّ أحقَّ إلى
نهايةِ الحُمق ؟

اتعبْ تعبَكَ يا صاحبي ، ففي الناس تعبٌ مخلوقٌ من عمله ، فهو لينٌ هينٌ
مُسَوَّى تسويةً ؛ وفيهم تعبٌ خالقٌ عمله ، فهو جبارٌ متمردٌ له القهرُ والغلبةُ .
وأنتَ إنما تكيدُ لتسمو بروحك إلى همومِ الحقيقةِ العاليةِ ، وتسمو بجسمك
إلى مشقَّاتِ الرُّوحِ العظيمةِ ؛ فذلك يا صاحبي ليس تعباً في حفرِ الأرض ،
ولكنه تعبٌ في حفرِ الكنز .

اتعبْ يا صاحبي تعبَكَ ؛ فإنَّ عناءَ الروح هو عُمرُها ؛ فأعمالك عُمرُك
الرُّوحانيُّ ، كعُمرِ الجسم للجسم ؛ وأحدُ هذين عُمرُ ما يعيش ، والآخر عُمرُ
ما سيعيش .

قلتُ لنفسى : فقد ملئتُ أشياءً وتبرَّمتُ بأشياء . وإنَّ عملَ التغيرِ في

(١) أى الصغيرة تقوم بالدور القليلة المجتمعة .

الدنيا لَهُوَ هَدْمٌ لَهَا كَمَا بُنِيَتْ ، ثُمَّ بِنَاؤُهَا كَمَا هُدِمَتْ ؛ فَمَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا هُوَ قَائِمٌ فِي السَّاعَةِ الْوَاحِدَةِ بِصُورَتَيْنِ مَعًا ؛ وَكَمْ مِنْ صَدِيقٍ خَلَطَتْهُ بِالنَّفْسِ يَذْهَبُ فِيهَا ذَهَابَ الْمَاءِ فِي الْمَاءِ ، حَتَّى إِذَا مَرَّ يَوْمٌ ، أَوْ عَهْدٌ كَالْيَوْمِ ، رَأَيْتُ فِي مَكَانِهِ إِنْسَانًا خَيَالِيًّا كَمَسْئَلَةٍ مِنْ مَسَائِلِ النَّحَاةِ فِيهَا قَوْلَانِ . . . ! فَهُوَ يَحْتَمِلُ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ تَأْوِيلَ مَا أَظُنُّ بِهِ مِنْ خَيْرٍ ، وَمَا أَتَوَقَّعُ بِهِ مِنْ شَرٍّ ! وَكَمْ مِنْ اسْمٍ جَمِيلٍ إِذَا هَجَسَ فِي خَاطِرِي قُلْتُ : آه ، هَذَا الَّذِي كَانَ . . . !

أَمَّا وَاللَّهِ إِنْ ثِيَابَ النَّاسِ لَتَجْعَلُهُمْ أَكْثَرَ تَشَابُهًا فِي رَأْيِ النَّفْسِ ، مِمَّا تَجْعَلُهُمْ وَجُوهُهُمْ الَّتِي لَا تَخْتَلِفُ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ ؛ وَإِنِّي لِأَرَى الْعَالَمَ أحيانًا كَالْقِطَارِ السَّرِيعِ مُنْطَلِقًا بِرَكْبِهِ وَلَيْسَ فِيهِ مَنْ يَقُودُهُ ، وَأَرَى الْغَفْلَةَ الْمُفْرِطَةَ قَدْ بَلَغَتْ مِنْ هَذَا النَّاسِ مَبْلَغَ مَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ حَيٌّ فِي الْحَيَاةِ كَالْمَوْظَفِ تَحْتَ التَّجَرِبَةِ ، فَإِذَا قَضَى الْمُدَّةَ قِيلَ لَهُ : ابْدَأْ مِنَ الْآنَ . كَأَنَّهُ إِذَا عَاشَ يَتَعَلَّمُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ ، وَيَدْرِكُ مَا يَصْلُحُ وَمَا لَا يَصْلَحُ ، وَانْتَهَى مِنْ عَمَرِهِ إِلَى النِّهَايَةِ الْمَحْدُودَةِ — رَجَعَ مِنْ بَعْدِهَا يَعِيشُ مُنْتَظِمًا عَلَى اسْتَوَاءٍ وَاسْتِقَامَةٍ ، وَفِي إِدْرَاكِ وَتَمْيِيزٍ . مَعَ أَنَّ الْخِرَافَةَ نَفْسَهَا لَمْ تَقْبَلْ قَطُّ أَنْ يُعَدَّ مِنْهَا فِي أَوْهَامِ الْحَيَاةِ أَنَّ رَجُلًا بَلَغَ الثَّانِينَ أَوْ التَّمَعِينَ وَحَانَ أَجَلُهُ فَأَصْبَحُوا لَمْ يَجِدُوهُ مَيِّتًا فِي فِرَاشِهِ ؛ بَلْ وَجَدُوهُ مَوْلُودًا فِي فِرَاشِهِ . . . ! وَقَالَتْ لِيَ النَّفْسُ : وَأَنْتِ مَا شَأْنُكَ بِالنَّاسِ وَالْعَالَمِ ؟ يَا هَذَا لَيْسَ لِمَصْبَاحِ الطَّرِيقِ أَنْ يَقُولَ : « إِنْ الطَّرِيقَ مَظْلَمٌ . » إِنَّمَا قَوْلُهُ إِذَا أَرَادَ كَلَامًا أَنْ يَقُولَ : « هَإِنَذَا مُضَى . »

وَالْحَكِيمُ لَا يَصْجَرُ وَلَا يَضِيقُ وَلَا يَتَمَلَّلُ ، كَمَا أَنَّهُ لَا يَسْخَفُ وَلَا يَطِيشُ وَلَا يَسْتَرْسِلُ فِي كَذِبِ الْوَهْمِ ؛ فَإِنْ هَذَا كُلُّهُ أَثَرُ الْحَيَاةِ الْبَهِيمِيَّةِ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، لَا أَثَرُ الرُّوحِ الْقَوِيَّةِ فِي إِنْسَانِهَا . وَالْحَيَوَانُ هُوَ الَّذِي يَجُوعُ وَيَشْبَعُ لَا النَّفْسُ . وَبَيْنَ كُلِّ شَيْئَيْنِ مِمَّا يَعْتَوِرُ الْحَيَوَانِيَّةَ — كَالْخُلُقِ وَالْإِمْتَلَاءِ ، وَاللَّذَّةِ

والألم — تعمل قُوى الحيوان أشياءها الكثيرة التي تتسلط بها على النفس ،
لَتَحْطُهَا من مرتبةٍ مرتبةٍ إلى أن تجعلها كنفوس الحيوان ؛ ولهذا كان أولُ
الحكمة ضَبَطَ الأدوات الحيوانية في الجسم ، كما توضع اليدُ العالمةُ على مفاتيح
القِطار المنطلق يَتَسَعَّرُ مِرْجَلُهُ وَيَغْلِي .

اعمل يا صاحبي عملاً ؛ فإذا رأيت في العاملين من يَضْجَرُ فلا تضجر مثله ،
بل خذ اطمئنانه إلى اطمئنانك ، ودعه يخلو وتضاعف أنت .

إنه ليوشك أن يكون في الناس ناسٌ (كالبنوك) : هذه مُستودعاتُ المال
تحفظه وتُخرج منه وتُسَمَّرُهُ ، وتلك مستودعاتُ للفضائل تحفظها وتخرج منها
وتزيدها . وإفلاسُ رجلٍ من أهل المال ، هو إطلاقُ النكبةِ مُسدِّسها على
رجلٍ تقتله ؛ ولكن إفلاس (بنك) هو إطلاقُ النكبةِ مدفعها الكبير على
مدينةٍ تُدَعِّرُها .

قلت لنفسى : فما أشدَّ الألمَ في تحويل هذا الجسد إلى شَيْبِهِ رُوحٍ مع
الروح ! تلك هي المعجزة التي لا توجد في غير الأنبياء ، ولكنَّ العملَ لها يجعلها
كأنها موجودة . والأسدُ المحبوسُ محبوسةٌ فيه قُوَّتُهُ وطبَاعُهُ ؛ فإن زال الوجودُ
الحديديُّ من حوله أو وهنت ناحيةٌ منه ، انطلق الوحش . والرجل الفاضلُ
فاضلٌ ما دام في قَفْصِهِ الفكريِّ ، وهو ما دام في هذا القفص فعليه أن يكونَ
دائماً نموذجاً معروضاً للتنقيح المكين في النفس الإنسانية : تَصِيْبُهُ السيئةُ من
الناس لتختبر فيه الحسنة ، وتبلوه الخيانة لتجد الوفاء ، ويكرُّهُ البُغْضُ ليقابله
بالحب ، وتأتيه اللعنة لتجد المغفرة ؛ وله قلب لا يتعبُ فيبلغ منزلةً إلا ابتداءً
التعب ليبلغ منزلةً أعلى منها ، وله فكر كلما جهَدَ فأدرك حقيقةً كانت الحقيقةُ
أن يجهد فيدرك غيرها .

وقالت لى النفس : إن من فاق الناس بنفسه الكبيرة كانت عظمته في أن يفوق نفسه الكبيرة ؛ إن الشيء النهائي لا يوجد إلا في الصغار والشر ، أما الخير والكمال وعظام النفس والجمال الأسنى ، فهذه حقائق أزلية وجدت لنفسها : كالهواء يتنفسه كل الأحياء على هذه الأرض ولا ينتهى ، ولا يعرف أين ينتهى ؛ وكما ينبعث النور من الشمس والكواكب إلى هذه الأرض ، يشبه أن تكون تلك الصفات منبعثة إلى النفوس من أنوار الملائكة ، وبهذا كان أكبر الناس حظاً منها هم الأنبياء المتصلين بتلك الأنوار .

ومن رحمة الله أن جعل في كل النفوس الإنسانية أصلاً صغيراً يجمع فكرة الخير والكمال وعظام النفس والجمال الأسنى ، وقد تعظم فيه هذه الصفات كلها أو بعضها ، وقد تصغر فيه بعضها أو كلها : ألا وهو الحب .

لابد أن تمر كل حياة إنسانية في نوع من أنواع الحب ؛ من رقة النفس ورحمتها ، إلى هوى النفس وعشقها .

وإذا بلغ الحب أن يكون عشقاً ، وضع يده على المفاتيح العصبية للنفس ، وفتح للعظام والمعجزات أبوابها ؛ حتى إنه ليجعل الخرافة الفارغة معجزة دقيقة ، ويملاً الحياة بمعان لم تكن فيها من قبل ، ويصبح سر هذا الحب لا ينتهى ؛ إذ هو سر لا يدرك ولا يعرف .

اجهد جهدك يا صاحبي ، فما هو قفصك الفكرى ذلك الشعاع الذى يحبسك ، ولكنه صقل النفس لتتلقى الأنوار ، ولا بد للمرأة من ظاهر غير ظاهر الحجر لتكون به مرآة .

قلت لنفسى : فما أشده مضاً أعانيه ! إن امرى ليذهب فرطاً^(١) .

(١) أى مجاوزاً فيه عن الحد .

أكلما ابتغيت من الحياة مَرَحاً أَطْرَبُ له وأَهْتزَّ ، جاءتنى الحياةُ بفكرة أُسْتَكِدْتُ فيها وأدَّابُ ؟ أهذا السرورُ الذى لا يزال يقَعُ بين الناس هو الذى لا يكاد يقع لى ؟ وهل أنا شجرةٌ فى مَغْرَسِها : تنمو صاعدةً بفروعها ، ونازلةً بجذورها ، غير أنها لا تبرحُ مكانها ؟ أو أنا تمثالٌ على قاعدته : لا يتزعزعُ عنها إلا ساعةٌ لا يكون تمثالاً ، ولا يدعُها حتى تدعَه معالى العظمَةِ التى نُصِبَ لها ؟

وقالت لى النفس : ويحك ! لا تطلب فى كونك الصغير ما ليس فيه ؛ إن الناس لو ارتفعوا إلى السماء وتقاَّبوا فيها كما يَسِيحُ أهلُ قَارَةِ من الأرض فى قَارَةٍ غيرها ، وابتغَوْا أن يحملوا معهم مما هناك تذكراً صغيراً إلى الأرض — لوجدوا أصغرَ ما هنالك أ كبرَ من الأرض كلها ؛ فأنْتَ سائحٌ فى سماءات .
أنت كالنائم : له أن يرى وليس له أن يأخذ شيئاً مما يرى إلا وَصْفَه ، وحكمتَه ، والسرورَ بما التذَّ منه ، والألمَ بما توجَّعَ له .

إن تسكون فى الأرض شجرةً برجلين تذهبُ هنا وهُنا ، ولكن الشجرة ترسل أثمارها يتناقلها الناس ، وهى تُبدِعُ الثمارَ إبداعَ المؤلف العبقريِّ ما يؤلفه بأشدَّ الكدِّ وأعظمِ الجُهدِ ، مُطْلَقَةً ضميرها فى الفكرة الصغيرة ، تعقدها شيئاً شيئاً ، ثم تعود عليها بالزيادة ، ولا تزال كلَّ وقت تعود عليها حتى تستفرغَ أقصى القوة ؛ ثم يكونُ سرورها فى أن تهَبَ فائدتها ، لأنها لذلك وُجِدَتْ .

إن فى الشجرة طبيعةً صادقةً لا شهوةً مكذوبة ؛ فالحياةُ فيها على حقيقتها ، وأكثرُ ما تسكون الحياةُ فى الإنسان على مجازها ؛ وشرطُ المجاز الخيالُ والمبالغةُ والتلوين ؛ ولكن متى اختار الله رجلاً فأقرَّ فيه سرّاً من أسرار الطبيعة الصادقة ، ووهب له العاطفةَ القادرةَ التى تصنعُ ثمارها — فقد غرسه شجرةً فى منبتِها لا مفرَّ ولا ممدوحه ، وقد يُحْيِلُ له ضعفُ طبيعته البشرية أحياناً أن نَصْرَةَ المجد التى تعلوه وتتألقُ حوله كشعاع الكوكب ، هى تعبُهُ وضجره ،

أو أثرُ انخداله وألمه ومسكنته ؛ وهذا من شقاء العقل ؛ فإنه دائماً يضيف شيئاً إلى شيء ، ويخلط معنى بمعنى ، ولا يترك حقيقةً على ما هي ؛ كأن فيه ما في الطفل من غريزة التقليد ؛ والعقل لا يرى أمامه إلا الإلهية ، فهو يقلدها في مُدَاخَلَةِ الأشياء بعضها في بعض ، لايجاد الأسرار بعضها من بعض .
ومن ثمَّ كانت الحقيقة الصريحة الثابتة مدعاةً لهال العقل في الإنسان ، لا يكاد يُقيم عليها أو يتقيد بها ، فما نال شيئاً إلا ليطمع في غيره ، وما فاز بلذةٍ إلا ليزهد فيها ، وأجلُّ ما أحبه الإنسان أن يناله ، فإذا ناله وقع فيه معنى موته ، وبدأ في النفس عُمرًا آخر من حالةٍ أخرى ، أو مات ولم يبدأ ؛ فلا بدَّ لهذا الإنسان مع كل صوابٍ من جزءٍ من الخطأ ، فإن هو لم يجد خطأ في شيءٍ أنْتَفَكَ لنفسه^(١) الخطأ المضحك في شبه روايةٍ خيالية .

إنه لشعرٍ سخيْفٍ بالغِ السخافة أن يُتَخَيَّلَ الغريقُ مفكراً في صَيْدِ سَمَكَةٍ رآها . . . ولكنَّ هذا من أبلغِ البلاغة عند العقل الذي يبحث عن وهمٍ يضيفه إلى هذه الحقيقة ليضحك منها ، كما يبحث لنفسه أحياناً في أجملِ حقائق اللذة عن ألمٍ يتألم به ليعبَسَ فيه !

قلت لنفسى : فهل ينبغي لى أن أُحْرِقَ دُمى لأنى أفكّر ، وهل أظلُّ دائماً بهذا التفكير كالذى ينظر في وجهٍ حسناً بمنظار مكبّر : لا يريه ذلك الوجه المعشوق إلا ثقباً وتخريراً كأنه خشبةٌ تُرْعَت منها مساميرٌ غليظة . . . ! فلا يجد المسكين هذه الحقيقة إلا ليفقد ذلك الجمال ؟ وهل بُدُّ من الشبه بين بعض الناس وبين ما ارتصد له من عمل يحيا به ؛ فلا يكون الخوذيُّ خوذيّاً إلا لشبهه بين نفسه وبين الخيل والبغال والحمير . . . ؟

(١) : كذب واختراع ، ومنه حديث الإفك .

وقالت لى النفس : إن فأسَ الخطّاب لا تكونُ من أداة الطبيب ؛ فخذ لكل شىء أدواته ، وكن جاهلاً أحياناً ، ولكن مثلَ الجَهل الذى يَصْنَعُ لوجهِ الطفل بشاشته الدائمة ؛ فهذا الجَهلُ هو أكبر علمِ الشعور الدقيق المَرْهَف ، ولولاه لهلك الأنبياء والحكماء والشعراء غمّاً وكمداً ، ولكانوا فى هذا الوجود ، على هذه الأرض ، بين هذه الحقائق — كالذى قيّد وحُبِسَ فى رَهْجٍ تُشيرُه القَدَمُ والخُفُّ والحافر : لا يتنفّس إلا الغبارُ يُثار من حوله إلى أن يُقضى عليه .

اجهَلْ جهلك يا صاحبي فى هذه الشهوات الخسيسة ؛ فإنها العِلْمُ الخبيثُ الذى يُفسد الروح ، واعرفْ كيف تقول لرؤُوحك الطِفلةِ فى ملائكتيّتها حين تُساورُكَ الشهوات : هذا ليس لى ؛ هذا لا ينبغى لى .
إن الروحَ الكبيرة هى فى حقيقتها الطفلُ الملائكى .

وعِلْمُ خسائس الحياة يجعلُ للإنسان فى كل خسيسةٍ نفساً تتعلّقُ بها ، فيكونُ المسكينُ بينَ نفسين وثلاثٍ وأربع ، إلى ثلاثين وأربعين كلُّهن يتنازعنّه ، فيضيعُ بهذه الكثرة ، ويصبحُ بعضُه بلاءً على بعض ، وتَشغله الفُضُولُ ، فيعودُ لها كالمرَبلة لما أُلقيَ فيها ، ويُحقِّقُ فى نفسه الطبيعيةِ حِسُّ الفرحِ بجمال الطبيعة ، كما يُحقِّقُ فى المربلة معنى النظافةِ ومعنى الحِسِّ بها .

هذه الأنفسُ الخياليةُ فى هذا الإنسان المنكود ، هى الأرواحُ التى يَنفَخُها فى مصائبه ، فتجعلُها مصائبَ حيّةٍ تعيشُ فى وجوده وتعملُ فيه أعمالها ، ولولاهما لماتت فى نفسه مطامعٌ كثيرة ، فماتت له مصائبٌ كثيرة .

انظر بالروح الشاعرة ، ترَ الكونَ كلّهُ فى سمائه وأرضه انسجماً واحداً ليس فيه إلا الجمالُ والسحرُ وفتنةُ الطرب ؛ وانظر بالعقل العالم ، فإن ترى فى الكونِ كلّهُ إلا موادَّ علم الطبيعة والكيمياء .

ومَدَى الروحِ جمالُ الكونِ كلّهُ ؛ ومَدَى العقلِ قطعةٌ من حجر ، أو عظمّة

من حيوان ، أو نسيجة من نبات ، أو فلذة من معدن ، وما أشبهها .
اجْهَلْ جهلك يا صاحبي ؛ ففي كل حُسْنٍ غَزَلٌ بشرط ألا تكون العاشق
الطامع ، وإلا أَصَبْتَ في كل حسنٍ هَمًّا وَمَشْغَلَةً . . . !

قلتُ لنفسي : إلى الآن لم أَقُلْ لكِ ذلك المعنى الذى كتمته عنكِ .
وقالت لى النفس : وإلى الآن لم أَقُلْ لكِ إلا جوابَ ذلك الذى
كتمته عنى

الانتحار

حَدَّثَ الْمُسَيَّبُ بْنُ رَافِعٍ الْكُوفِيُّ قَالَ : بَيْنَا أَنَا يَوْمًا فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ ،
وَمَعِيَ سَعِيدُ بْنُ عُثْمَانَ ، وَمَجَاهِدٌ ، وَدَاوُدُ الْأَزْدِيُّ ، وَجَمَاعَةٌ — أَقْبَلَ فَتَى فُجَّاسٍ
قَرِيبًا مِنَّا ، وَكَانَ تَلَقَّاءَ وَجْهِي ؛ لَا أُمَدُّ نَظْرِي إِلَّا انْطَلَقَ فِي سَمْتِهِ وَوَقَفَ عَلَيْهِ ،
وَكُنَّا نَتَحَدَّثُ ، فَرَأَيْتُهُ يَتَسَمَّعُ إِلَى حَدِيثِنَا ؛ فَلَمَّا تَكَلَّمَ سَعِيدٌ — وَكَانَ خَافَتْ
الصَّوْتِ مِنْ عِلَّةٍ بِهِ ، وَكُنَّا نَسَمِّيهِ النَّمْلَةَ الصَّخَّابَةَ — رَأَيْتُ الْفَتَى يَتَزَحَّفُ قَلِيلًا
قَلِيلًا حَتَّى صَارَ مَحِيثٌ يَقَعُ فِي سَمَاعِهِ حَسِيسٌ نَمَلْتِنَا .

وَكَانَ سَعِيدٌ يَقُولُ : اجْتَرْتُ أَنَا وَالشَّعْبِيُّ ^(١) أَمْسَ بِعُمَرََانَ الْخَيْطَاطَ ، فَازَاحَهُ
الْشَّيْخُ فَقَالَ لَهُ : عِنْدَنَا حَبٌّ ^(٢) مَكْسُورٌ ، تَخِيْطُهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، إِنْ كَانَ عِنْدَكَ
خَيْطٌ مِنْ رِيحٍ ! فَقُلْتُ أَنَا : فَادْهَبْ فَنُفِئْنَا بِالْمَغْزَلِ الَّذِي يَغْزِلُ الْهَوَاءَ لِنَصْنَعَ
لَكَ الْخَيْطَ .

قَالَ : مَجَاهِدٌ : هَذَا لَيْسَ بِشَيْءٍ فِي تَنَادُرِ شَيْخِنَا وَمَا يَتَّفِقُ لَهُ ؛ أَخْبَرَنِي أَنَّ
رَجُلًا جَاءَهُ فِي مَسْئَلَةٍ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ الْبَيْتَ وَهُوَ جَالِسٌ مَعَ امْرَأَتِهِ ؛ فَقَالَ الرَّجُلُ :
أَيْسَكَ الشَّعْبِيُّ ... ؟ فَأَوْمَأَ الشَّيْخُ إِلَى امْرَأَتِهِ وَقَالَ : هَذِهِ ... !

قَالَ الْمُسَيَّبُ : وَضَحَكْنَا جَمِيعًا ، وَأَخَذَ نَظْرِي الْغَلَامَ فَإِذَا هُوَ نَاكِسٌ حَزَنًا

(١) هُوَ الْإِمَامُ الْعَظِيمُ (عَامِرُ بْنُ شَرَاهِيلَ الشَّعْبِيُّ) تَوَفَّى سَنَةَ ١٠٣ هـ لِلْهَجْرَةِ أَوْحَوْلَهَا .
عَنْ بَضْعٍ وَثَمَانِينَ سَنَةً ، وَكَانَ فِي عَصْرِهِ أَحَدُ الْعُلَمَاءِ الْأَرْبَعَةِ فِي الْإِسْلَامِ : سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ فِي
الْمَدِينَةِ (ذَكَرْنَاهُ فِي قِصَّةِ زَوَاجٍ) ، وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فِي الْبَصْرَةِ (ذَكَرْنَاهُ فِي قِصَّةِ : بِنْتِ
الصَّغِيرَةِ) ، وَمَكْحُولُ فِي الشَّامِ ، وَالشَّعْبِيُّ هَذَا فِي الْكُوفَةِ . وَكَانَ يُشَبِّهُ فِي زَمَانِهِ ابْنَ عَبَّاسٍ
فِي زَمَانِهِ .

(٢) الْحَبُّ (بِكْسَرِ الْحَاءِ) : هُوَ الزَّيْرُ ، يَسْتَقْطِرُ الْمَاءَ مِنْ أَسْفَلِهِ فَيُخْرِجُ صَافِيًا ، وَيُقَالُ
لِرَشْحِهِ : قَطَرُ حَبٍّ .

وهما ، وكأنه لا يسمع إلينا لسمع ، بل ليشغل نفسه عن شيء فيها ، فتوزع
خواطره ، فيتبدد اجتماعها على همه بصوت من هنا وصوت من هنا ، كما يفعل
الحزون في مغالبة الحزن ومُدافعتِه : يشغل عنه بصره وقلبه وسمعه جميعاً ،
فيكون الحزن فيه وكأنه بعيد منه .

فقلت في نفسي : أمر أمات الضحك في هذا الفتى وكسر حدته وشبابه .
ثم تحولت إليه وقلت : رأيته يا بني مقبلاً علينا كالمنصرف عنا ؛ فما بالك
لم تضحك وقد ضحكنا جميعاً ؟

قال : إليك عني يا هذا ؛ فأين مني الضحك وأنا على شفير القبر ، وروح
التراب مالي عيني في كل ما أرى ، وكأن حفرتي ابتلعت الدنيا التي أنا فيها
لتأخذني فيها ، وأنا الساعة ميت حتى ؛ رجل في الدنيا ورجل في الآخرة !
قلت : فأعلمني ما بك يا بني ؛ فلقد احتسبت ولداً لي كان في مثل سنك
وشبابك ولم أرزق غيره ، فقلبي بعده مريض به ، يتوسمه مفارقة لِداته ، متوهمًا
أن وجوههم تجتمع به بملامحه ؛ فأنا من ذلك أحبهم جميعاً وأطيل النظر إليهم والتأمل
في وجوههم ، ولست أرى أحداً منهم إلا كان له وقلبي حديث ! فإن رأيته
حزيناً مثلك تقطعت له من إشفائي ورحمة ، وطالعتني فتاة في مثل همه وحزنه
وانكساره ؛ فيعود قلبي كالعين التي غشاها الدمع ، تحمل أثر الحزن ومعناه
وسره ؛ فبثني ما تجدد يا بني ، فلعل لي سبباً إلى كشف ضرك أو إسعافك
بحاجتك ؛ ولعلك تكون قد حزنت من أمر قريب المتناول هيئ المحاولة ، لم
يجعله عندك كبيراً أنه كبير ، ولكن أنك أنت صغير .

قال الفتى : مهلاً يا عم ، فإن ما نزل بنا مما تنقطع عنده الحيلة ولا تنقاد فيه
الوسائل ، ولا علاج منه إلا بالموت يأخذنا ويأخذه !

قلت : يا بني ، هذه كلمة ما أحسب أحداً يقولها إلا من أخذ للقتل مجنانيته

ولم يعفُ أهلُ الدم ، فهل جنيتَ أوجني أبوك على أحد ؟
قال : إن الأمر قريبٌ من قريب ، فإنني تركتُ أبي الساعةَ مُجمِعاً على
إزهاقِ نفسه ، وقد أغلقَ عليه الدارَ واستوثقَ من الباب !
قال المسيّب : فكأنما لدغتنى حيةٌ بهذه الكلمة ، وأكبرتُ أن يكون
رجلٌ مسلمٌ يقتلُ نفسه ؛ فتناهضتُ ، ولكن الغلامَ أمسكَ بي وقال : إنه
لا يزال حياً ، وسيقتل نفسه متى أظلم الليلُ وهدأت الرّجُل .
قلت : الحمد لله ، إن في النور عقلاً ، ولكن ما الذي صار به إلى ما قلت ،
وكيف تركته لِقَدَرِهِ وجئت ؟

قال الفتى : إنه قال لي : يا ولدي ، ليس لك أبٌ بعدى ؛ فإن أردتَ
اللاحقَ بي فارجع مع الليل لتُسَلِّمَ أنفسنا ، وإن آثرتَ الحياةَ فارجع مع الصبح
لتُسَلِّمَنِي إلى غاسلي !

قلت : أفأمنُ أنت ألا يكونَ أبوك قد أخرجك عنه لأن عيْنِكَ تُمسِكُ
يده وتردّه عما يهْمُ به ، حتى إذا خلا وجهه منك أزهق نفسه ؟
قال : لم أدعْه حتى أقسمَ أن يحيا إلى الليل ، وحتى أقسمتُ أن أرجع
لأموتَ معه ؛ فإن لم تمسكه يمينه أمسكه انتظاري ، وقد فرغتِ الحياةُ منا فلم
يَبْقَ إلا أن نفرغَ منها ؛ ومن كان فيما كنا فيه ثم انحدر إلى ما انحدرنا إليه ،
لم يُرِ الناسَ من نفسه ضعةٌ ولا استكانةٌ ؛ وإنما خرجتُ لأسألَ هذا الإمامَ
(الشعبي) وجهها من الرأي فيمن يقتل نفسه إذا ضاقت عليه الدنيا ، ونزلتْ به
النازلاتُ ، وتعذّرَ القوتُ ، واشتدَّ الضرُّ ، وتدأّتْ به المسكنةُ إلى حَضِيضِهَا ،
وألجئُ إلى أحوالٍ دَقَّتْهُ دَقَّ الرَّحَى لما تدور عليه ، ولم يعدْ له إلا رأى واحد في
معنى الدنيا : هو أنه مكذوب مزوّر على الدنيا .

قلت : يا بني ، فإنني أراك أديباً ؛ فمن أبوك ؟

قال : هو فلان التاجر ، ظهر ظهورَ القمرِ ومُحِقَ محاقه ، وهو اليوم في أحلكِ الليالي وأشدّها انظماً ؛ جَهَدَه الفقر ، وياليته كان الفقر وحده ، بل انتهكتَه العِللُ ، وليتها لم تكن إلا العِللَ مع الفقر ، بل أخذ الموتُ امرأته فماتت هماً به وبى ، ولم يكن له غيرى وغيرُها ، وكان كلُّ من ثلاثتنا يحيا للآخرين ، فهذا ما كان يجعل كلاً منا لا يفرغُ إلا امتلاً ، ولما ذهبت الأثم ذهبت الحقيقةُ التى كنا نقاتل الأيام عنها ، وكانت هى وحدها تُرينا الحياةَ بمعناها إن جاءتنا الحياةُ فارغة من المعنى ، وكنا من أجلها نفهم الأيام على أنها مجاهدةُ البقاء ؛ أما الآن فالحياةُ عندنا قتلُ الحياة . . . !

قلت : يا بنى ، فإنك والله مع أدبك لحكيم ، وإنى لأنفسُك على الموت ؛ فكيف ردّتك حياةُ أمّك عن قتل نفسك ولا تردّك حياةُ أبيك ؟

قال : لو بقى أبى حياً لبقيت ، ولكن الدهر قد انتزع منه آخرَ ما كان يملك من أسبابِ القوّة ، حين أخذَ القلبَ الشفيق الذى كان يجعله يرتعد إذا فكّر فى الموت ؛ فهو الآن كالذى يحاربُ عن نفسه تلقاءِ عدوّ لا يرحمه ؛ إن عجز عن عدوّه فالرأى قتلُ نفسه ليستريحَ من تنكيلِ العدوِّ به .

قال المسيّب بنُ رافع : وأدركتُ أن الفتى يُريد من سؤالِ الشيخ تحلّةً يطمئنُ إليها أن يموتَ مسلماً إذا قتل نفسه كالمضطّرّ أو المُكرّه ؛ فأشفقتُ أن أكرِسَ نفسَه إذا أنا حدّثته أو أفتيته ؛ وقلت : هذا مريض يحتاج العلاجَ لا الفتيا ؛ وكان إمامنا (الشعبيُّ) حكيماً لِحناً فطناً ، سَفَر بين أمير المؤمنين (عبد الملك) وعاهلِ الروم ، فحسدنا العاهلُ أن يكونَ فينا مثله . وقات : لعل الله يُحدِث به أمراً . فأخذتُ بيد الفتى إليه ، ومشيتُ أكله وأرفّه عن نفسه . وقلت له : أما تدرى أنك حين فرغتَ من سرور الحياة فرغتَ من ضرورها

أيضا ، وأن الزاهد المنقطع في عُرْعرة الجبل ينظر من صَوْمَعته إلى الدنيا ، ليس بأحكم ولا أبصر ممن ينظر من آلامه إلى الدنيا ؟

يا بني : إن الزاهد يحسب أنه قد فرَّ من الرذائل إلى فضائله ، ولكن فراره من مجاهدة الرذيلة هو في نفسه رذيلة لكل فضائله . وماذا تكون العفة والأمانة والصدق والوفاء والبر والإحسان وغيرها ، إذا كانت فيمن انقطع في صحراء أو على رأس جبل ؟ أيزعم أحد أن الصدق فضيلة في إنسان ليس حوله إلا عشرة أحجار ؟ وإيم الله إن الخالي من مجاهدة الرذائل جميعاً ، لهو الخالي من الفضائل جميعاً !

يا بني : إن من الناس من يختارهم الله فيكونون قَمَح هذه الإنسانية : يَنْبُتُونَ وَيُحْصَدُونَ وَيُطْحَنُونَ وَيُعْجَنُونَ وَيُخْبَزُونَ ، ليكونوا غذاء الإنسانية في بعض فضائلها . وما أراك أنت وأباك إلا من المختارين ، كأن في أعراقكما دم نبي يُقْتَل أو يُصَلَّب !

قال المسيب : وانتهينا إلى دار الشعبي ، فطرقتُ الباب ، وجاء الشيخ ففتح لنا ، وسلّمنا وسلّم ، ثم بَدَرْتُ فَقُلْتُ : يا أبا عمرو ، إن أبا هذا كان من حاله كَيْت وكَيْت ، فترادفتُ عليه المصائب ، وتواتت النكبات ، وتواترت الأَسقام ... ثم اقتصصتُ ما قال ابنه حرفاً حرفاً ، ثم قلت : وإنه الآن مُوشِكُ أَنْ يَرْهَقَ نفسه وسيَتبعه ابنه هذا ؛ وقد (هداه الله إليك) فجاء يسألك : أيموت مسلماً من أُلْجى وأُكْرِه واضطراً واستِصْصاق واختلاً ، فتَحَسَّي سَمّاً فهلك ، أو تَوَجَّأً بمجديدة فَقَضَى ، أو ذَبَحَ نفسه بنِصْل فَخَفَّتْ ، أو حَزَّ في يده بسكين فما رقاً دمه حتى مات ، أو اختنق في حبلٍ ففاضت نفسه ، أو ترَدَّى من شاهق فطاح ... !

وأدرك الشيخ معنى قولي : (هداه الله إليك) ، ومعنى ما أكرّرتُ من

الألفاظ المترادفة على القتل وما استقصيت من وجوهه ؛ فَعَلِمَ أَنِّي لَمْ أَسْأَلْهُ الْفُتْيَا وَالنَّصَّ ، وَلَكِنِّي سَأَلْتُهُ الْحِكْمَةَ وَالسِّيَاسَةَ ؛ فَقَالَ : هَذَا وَاللَّهِ رَجُلٌ كَرِيمٌ ، أَخَذَتْهُ الْأُنْفَةُ وَعِزَّةُ النَّفْسِ ، وَمَا أَنَا السَّاعَةَ بِمَعْرُوفٍ عَنْ هَمِّهِ ، فَانْهَبْ نِكَلَمَهُ وَاللَّهِ الْمُسْتَعَانَ .

ومشيئنا ثلاثتنا ، فلما شارَفْنَا الدَّارَ قَالَ الْفَتَى : إِنَّهُ لَا يَفْتَحُ لِي إِذَا رَأَى كَمَا ، وَرَبَّمَا اسْتَفْزَرَ بِنَفْسِهِ فَازْهَقَهَا ، وَسَاسَوْرَ الْحَائِطَ وَأَتَدَلَّى ثُمَّ أَفْتَحَ لَكُمَا فَتَدْخُلَانِ وَأَنَا عِنْدَهُ .

ودخلنا ، فَإِذَا رَجُلٌ كَالْمَرِيضِ مِنْ غَيْرِ مَرَضٍ ، خَوَّارٌ مُسْلُوبُ الْقُوَّةِ ، انْزَعَجَ قَلْبُهُ إِلَى الْمَوْتِ وَمَا بِهِ جُرْأَةٌ ، وَإِلَى الْحَيَاةِ وَمَا بِهِ قُوَّةٌ ؛ وَصَغُرَ إِلَيْهِ نَفْسُهُ أَنَّهُمَا أَصْبَحَتْ فِي مَعَامَلَةِ النَّاسِ كَالدَّرْهِمِ الزَّائِفِ لَا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ ، وَثَابَرَ عَلَيْهِ دَاءُ الْحُزْنِ فَأَضْنَاهُ وَتَرَكَهُ رُوحًا تَتَقَعَّقُ فِي جِلْدِهَا ، فَهِيَ تَهْمُ فِي لَحْظَةٍ أَنْ تَتَّبَعَ وَتَنْدَاقَ . وَسَلَّمَ الشَّيْخُ وَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ عَلَى الرَّجُلِ ، ثُمَّ قَالَ : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ . »

فَقَطَعَ عَلَيْهِ الرَّجُلُ وَقَالَ كَالْحَنْقِ : أَيُّهَا الشَّيْخُ ، قَدْ صَبَرْنَا حَتَّى جَاءَ مَا لَا صَبْرَ عَلَيْهِ ؛ وَقَدْ خَلَوْنَا مِنْ مَعَانِي الْكَلَامِ كُلِّهِ ، فَمَا نَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا لَفْظَةً وَاحِدَةً نَمْلِكُ مَعْنَاهَا ، هِيَ أَنْ نَنْتَهِيَ !

وَمَدَّ الشَّيْخُ عَيْنَهُ فَرَأَى كُوَّةً مُسَدُودَةً فِي الْجِدَارِ ، فَقَالَ لِي : افْتَحْ هَذِهِ وَدَعْ الْهَوَاءَ يَتَكَلَّمُ مَعْنَى كَلَامِهِ . فَقَمْتُ إِلَيْهَا فَعَالَجْتُهَا حَتَّى فَتَحْتُهَا ، وَنَفَذَ مِنْهَا رُوحُ الدُّنْيَا ، وَقَالَ الشَّيْخُ لِلرَّجُلِ : أَصْغِرْ إِلَيَّ ، فَإِذَا أَنَا فَرَعْتُ مِنَ الْكَلَامِ فَشَأْنُكَ بِنَفْسِكَ :

أَعْلِمْتَ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَدِ مَرِضَ ، فَأَعْضَلَ مَرَضُهُ فَأَثْبَتَهُ عَلَى سِريره ثلاثين سنةً لَا يَتَحَرَّكُ ، وَطَوَّى فِيهِ الرَّجُلَ الَّذِي كَانَ حَيًّا وَنَشَرَ مِنْهُ الرَّجُلَ الَّذِي سَيَكُونُ مَيِّتًا ، فَبَقِيَ لَا حَيًّا وَلَا مَيِّتًا ثَلَاثِينَ سَنَةً . . . ؟

قال الرجل : وَفِي الدُّنْيَا مِنْ يَعْيشُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ ثَلَاثِينَ سَنَةً ؟

قال الشيخ : صَحَّحَ الْكَلَامَ وَاسْأَلُ : أَيَصْبِرُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ ثَلَاثِينَ سَنَةً وَلَا يَقُولُ : (جَاءَ مَا لَا صَبْرَ عَلَيْهِ) ! وَأَيُّ شَيْءٍ لَا صَبْرَ عَلَيْهِ عِنْدَ الرَّجُلِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّ الْبَلَاءَ مَا لُغِيَ غَيْرُ أَنَّهُ لَا يُوضَعُ فِي الْكَيْسِ بَلْ فِي الْجِسْمِ ؟

أَفْتَدْرِى مَنْ كَانَ الصَّابِرَ ثَلَاثِينَ سَنَةً عَلَى بَلَاءِ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ مُجْتَمِعِينَ فِي عِظَامٍ مُمَدَّدَةٍ عَلَى سِريرِهَا ؟ إِنَّهُ إِمَامُنَا (عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ الْخُزَاعِيُّ) ^(١) الَّذِي أَرْسَلَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يُفَقِّهُ أَهْلَ الْبَصْرَةِ ، وَتَوَلَّى قِضَاءَهَا ، وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ يَحْلِفُ بِاللَّهِ مَا قَدِمَهَا خَيْرٌ لَهُمْ مِنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ . وَلَقَدْ دَخَلْتُ عَلَيْهِ أَنَا وَأَخُوهُ (الْعَلَاءُ) ، فَرَأَيْنَاهُ مُثَبَّتًا عَلَى سِريرِ الْجَرِيدِ كَأَنَّمَا شَدَّ بِالْحَبَالِ وَمَا شَدَّ إِلَّا بِانْتِهَاكِ عَصِيهِ وَذَوْبَانِ لِحْمِهِ وَوَهْنِ عِظَامِهِ ؛ فَبَكَى أَخُوهُ ، فَقَالَ : لِمَ تَبْكِي ؟ قَالَ : لِأَنِّي أَرَاكَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ الْعَظِيمَةِ ! قَالَ لَا تَبْكِي ؛ فَإِنْ أَحَبَّهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَحَبَّهُ إِلَيَّ . ثُمَّ قَالَ : إِنْ هَذِهِ الْأَرْضُ تَحْمِلُ الْجِبَالَ فَلَا يَشْعُرُ مَوْضِعُ مِنْهَا بِالْجِبَلِ الْقَائِمِ عَلَيْهِ ، إِذَا كَانَ تَمَاسُكُ الْأَرْضِ كُلِّهَا قَدْ جَعَلَ لِكُلِّ مَوْضِعٍ مِنْهَا قُوَّةَ الْجَمِيعِ ، وَلَوْلَا هَذَا لَدَاكَ الْجِبَلُ مَوْضِعُهُ وَغَارَ بِهِ ؛ وَكَذَلِكَ يَحْمِلُ الْمُؤْمِنُ مِثْلَ الْجِبَالِ مِنَ الْبَلَاءِ عَلَى أَعْضَائِهِ لَا يَنْكَسِرُ لَهَا وَلَا يَتَهَدَّمُ ؛ إِذَا كَانَتْ قُوَّةُ رُوحِهِ قُوَّةً فِي كُلِّ مَوْضِعٍ ، فَالْبَلَاءُ مَحْمُولٌ عَلَى هِمَّةِ الرُّوحِ لَا عَلَى الْجِسْمِ ، وَهَذَا مَعْنَى الْخَبَرِ : « إِنْ الْمُؤْمِنُ بِكُلِّ خَيْرٍ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، إِنْ رُوحُهُ لُتْنَزِعَ مِنْ بَيْنِ جَنْبَيْهِ وَهُوَ يَحْمَدُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ! » ثُمَّ قَالَ : وَلَكِنْ ذَاكَ هُوَ الْمُؤْمِنُ ، فَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ فَكُنَّا قَالًا لَهُ : « امْتَحِنِّي ! »

وكيف تراك إذا كنت بطلاً من الأبطال مع قائد الجيش ، أما تقرض عليك شجاعتك أن تقول للقائد : « امتحني وارم بي حيث شئت ! » وإذا رمى بك فرجت مُنَحْنًا بالجراح ونالك البترُ والتشويه ، أتراها أوصافاً لمصائبك ، أم ثناءً على شجاعتك ؟

ثم قال : إذا لم يكن الإيمانُ بالله اطمئناناً في النفس على زلازلها وكوارثها ، لم يكن إيماناً ، بل هو دعوى بالفكر أو باللسان لا يعدوها ، كدعوى الجبان أنه بطل ، حتى إذا فجأه الرُّوعُ أحدثَ في ثيابه من الخوف . . . ومن ثم كان قتلُ المؤمن نفسه لبلاء أو مرض أو غيرها كفرًا بالله وتكذيباً لإيمانه ، وكان عمله هذا صورةً أخرى من طيش الجبان الذي أحدث في ثيابه !

والإيمانُ الصحيحُ هو بَشَاشَةُ الروح ، وإعطاءُ الله الرِّضى من القلب ، ثقة بوعده ورجاء لما عنده ، ومن هذين يكون الاطمئنان . وبالبشاشة والرضى والثقة والرجاء ، يصبح الإيمانُ عقلاً ثانياً مع العقل ؛ فإذا ابتلى المؤمنُ بما يذهب معه الصبرُ ويطيشُ له العقل ، وصار من أمره في مثل الجنون — برَزَ في هذه الحالة عقله الرُّوحانيُّ وتولى سياسةَ جسمه حتى يُفَيِّقَ العقلُ الأول . ويجيء الخوفُ من عذاب الله ونقمته في الآخرة ، فيَغمرُ به خوفَ النفس من الفقر أو المرض أو غيرها فيقتلُ أقواها الأضعف ، ويُخرجُ الأعزَّ منهما الأذل .

فالاطمئنانُ بالإيمان هو قتلُ الخوفِ الدُّنيويِّ بالتسليم والرضى ، أو تحويله عن معناه بجعل البلاء ثواباً وحسنات ، أو تجريده من أوهامه باعتبار الحياة سائرةً بكل ما فيها إلى الموت ؛ وهو بهذا عقلٌ روحانيٌّ له شأنٌ عظيم في تصريف الدنيا ، يترك النفسَ راضيةً مَرْضِيَّةً ، تقول لمصائبها وهي مطمئنة : نعم . وتقول لشهواتها وهي مطمئنة : لا .

وما الإنسان في هذا الكون ؟ وما خيره وشرُّه ؟ وما سخطه ورضاه ؟ إن

كلُّ ذلك إلا كما ترى قبضةً من التراب تتكبر وقد نسيت أنه سيأتي من
يكنسها . . . !

قال الشيخ : وانظر ، أما تُبتلى الشجرةُ الخضراءُ في بعض أوقاتها بمثل
ما يُبتلى به الإنسان ، غير أن لها عقلاً روحانياً مستقراً في داخلها يمسك الحياةَ
عليها ويتربصُ حالاً غير الحال ؛ ومهما يكن من أمرٍ ظاهرها وبلائه فالسعادةُ
كلُّها في داخلها ، ولها دائماً ربيعٌ على قدرها حتى في قرِّ الشتاء .

فالعقلُ الروحانيُّ الآتي من الإيمان ، لا عملَ له إلا أن ينشئَ للنفسِ غريزةً
متصرفّةً في كل غرائزها ، تُكَمِّلُ شيئاً وتنقص من شيء ، وتوجّه إلى ناحية
وتصرف عن ناحية ؛ وبهذه الغريزة تسمو الروح فتكون أكبر من مصائبها
وأكثر من لذاتها جميعاً .

وتلك الغريزة هي نفسها معنى الرضى بالقدر خيرٍ وشرِّه ، وهي تأتي
بالتأويل لكل هموم الدنيا ، فتضعُ في النكبات معاني شريفة تنزع منها شرّها
وأذاها للنفس ؛ وليست المصيبةُ شيئاً لولا تأدّي النفس بها . وإذا وقع التأويلُ
في معاني النكبات أصبحت تعمل عمل الفضائل ، وتغيّرت طبيعتها ، فيعود
الفقر باباً من الزهد ، والمرضُ نوعاً من الجهاد ، والخيبةُ طريقاً من الصبر ،
والحزنُ وجهاً من الرجاء ، وهلمّ جرا .

والنفسُ وحدها كنزٌ عظيم ، وفيها وحدها الفرحُ والابتهاجُ لا في غيرها ،
وما لذاتُ الدنيا إلا وسائلٌ لإثارة هذا الفرح وهذا الابتهاج ، فإن وُجد مع
الفقر بطلت عِزّةُ المال وأصبح حجراً من الحجر ؛ والبلبلُ يتغرّد بمجنّرته
الصغيرة ما لا تغنى فيه آلاتُ التطريب كلّها . وفي النفس حياةٌ ما حوّلها ، فإذا
قويت هذه النفس أذلت الدنيا ، وإذا ضعفت أذلّتها الدنيا !

قال المسيّب : ثم سكت الشيخ قليلاً ، وكنت أرى الرجل كأنما يغتسل بكلامه ، وقد أشرق وجهه وتَنَضَّرَ وانقلب إلى روحه التي كان منصرفاً عنها ، فعادت مصائبه تضغطُ روحاً لينّةً كما تضغط اليد على الماء ، وأيقن أن النكبة كلها هي أن ينظر الإنسان إلى الحياة بعين شهواته ، فيُنكَبَ أول ما ينكَبُ في صبره ويقينه .

ثم قال الشيخ ، ولقد رأيتُ بعيني رأسي معجزة (العقل الروحاني) وكيف يصنع : رأيت عروة بن الزبير^(١) وهو شيخ كبير ، عند الوليد بن عبد الملك ، وقد وقعت في رجله الأكلة ، فأشاروا عليه بقطعها لا تُفسد جسده كله ، فدُعِيَ له من يقطعها ، فلما جاء قال له : نسقيك الخمر حتى لا تجدها لها الماء . فقال عروة : لا أستعين بحرام الله على ما أرجو من عافية ! قال : فنسقيك المُرَقِد . فقال عروة : ما أحب أن أُسَلَبَ عضواً من أعضائي وأنا لا أجد ألم ذلك فأحتسبه ! ثم دخل رجال أنكرهم عروة ، فقال : ما هؤلاء ؟ قالوا : يُمسكونك ، فإن الألم ربما عَزَبَ معه الصبر . قال أرجو أن أكتفيكم ذلك من نفسي !

قال الشيخ : فانظر أيها الضعيف الذي يريد قتل نفسه كيف صنع عروة ، وكيف استقبل البلاء ، وكيف صبر وكيف احتمل . إنه انصرف بحسبه إلى النفس فانبسطت روحه عليه ، وأخذ يكبر ويهلل ليبقى مع روحه وحدها ، وخرج من دنيا ظاهره إلى دنيا باطنه ، وغمرت حواسه وأعصابه بالنور الإلهي من معنى التكبير والتهليل ، فقطع القاطع كعبه بالسكين وهو لا يلتفت ، حتى إذا بلغ العظم وضع عليها المنشار ونشرها وعروة في التكبير والتهليل ؛ ثم جرى بالزيت مغلياً في مغارف الحديد فَحَسِمَ به مكان القطع ، فغشى على عروة ساعة ثم أفاق وهو يمسح العرق عن وجهه ، ولم يُسمع منه في كل هذه الآلام الماحقة أنه

(١) توفي سنة ٩٣ للهجرة .

ولا آهةً ، ولم يقل قبلها ولا بعدها ولا بين ذلك : « جاء مالا صَبَرَ عليه ... ! »

قال المسيب : وأَرْهَفَ بأسُ الرجلِ الضعيفِ وقَوَى جأشُهُ ، وانبعثت فيه الروحُ إلى عُمرٍ جديدٍ ، ونشأ له اليقينُ من عقله الروحانيِّ ، وعرف أن مالا يمكن أن يدركَ ، يمكن أن يتركَ .

وجاء هذا العقل الروحاني فمرَّ بالمنشار على اليأس الذي كان في نفسه فقطعه ، فما راعنا إلا أن وثب الرجل قائماً يقول : الله أكبر من الدنيا ، الله أكبر من الدنيا !

ثم أكبَّ على يد الشيخ وهو يقول : صدقت ؛ « إن كلَّ ذلك إلا كما ترى قبضةً من التراب تتكبر ، وقد نسيَتْ أنه سيأتي من يكنسها ! »

ماذا يصنع الإنسان إذا غلط في مسألة من مسائل الدنيا إلا أن يتحرَّى الصواب ، ويجتهد في الرجوع إليه ، ويصبر على ما يناله في ذلك ؟ وماذا يصنع الإنسان إذا غلطت فيه مسألة ؟



الاتحار

٢

قال المسيب بن رافع : وقام الشعبي إلى الرجل فاعتنقه فراحا بما آل أمره إليه ، بعد إذ رأى النور يجري على لونه ويترقرق في ديباجته ؛ كأنما وقع الصلح بين وجهه وبين الحياة . ثم قال له : نعم أخو الإسلام أنت ، فاستعذ بالله من خذلانه ، فإنه ما خذلك إلا وضعت نفسك بإزاء الله تعارضه أو تجاريه في قدرته ، فيكلك إلى هذه النفس ، فتنتهي بك إلى العجز ، وينتهي العجز بك إلى السخط ؛ ومتى كنت عاجزا ساخطا ، محصورا في نفسك ؛ موكولا إلى قدرتك ، كنت كالأسد الجائع في القفر ، إذا ظن أن قوته تتناول خلق الفريسة ؛ فيدعو ذلك إلى نفسك اليأس والازعاج والكآبة ، وأمثالها من هذه المهلكات تقدح في قلبك الشك في الله ، وتثبت في روعك شر الحياة ، وتهدى إلى خاطرك حماقات العقل ، وتقرر عندك عجز الإرادة ؛ فتنتهي من كل ذلك ميتا قد أزهقتك نفسك قبل أن تزورها !

ولو كنت بدّل إيمانك بنفسك قد آمنت بالله حق الإيمان ، لسلطك الله على نفسك ولم يسلطها عليك ؛ فإذا رمتك المطامع بالحاجة التي لا تقدر عليها ، رميتها من نفسك بالاستغناء الذي تقدر عليه ؛ وإذا جاءتك الشهوات من ناحية الرغبة المقبلة ، جئتها من ناحية الزهد المنصرف ، وإذا ساورتك كبرياء الدنيا أذللتها بكبرياء الآخرة .

وبهذا تنقلب الأحزان والآلام ضروبا من فرح الفوز والانتصار على

النفس وشهواتها ، وكانت فنونا من الخذلان والهم ، وتعود موضع نخر ومباهاة ، وكانت أسباب خزي وانكسار . وعزيمة الإيمان إذا هي قويت حصرت البلاء في مقداره ، فإذا حصرته لم تزل تنقص من معانيه شيئاً شيئاً ، فإذا ضعفت هذه العزيمة جاء البلاء غامراً مُتَفَشِّياً يُجَاوِزُ مقداره بما يصحبه من الخوف والرَّوع ، فلا تزال معانيه تزيد شيئاً شيئاً بما فيه وبما ليس فيه .

وللإيمان ضوء في النفس ينير ما حولها ، فتراه على حقيقته الفانية وشيكاً أن يزول ؛ فإذا انطفأ هذا الضوء انطمست الأشياء ، فتوهها النفس أوهاماً مُتَبَايِنَةً على أحوالها المختلفة ؛ كما يرى الأعمى بوجهه : لا عينه مع الأشياء تكون في طبيعتها ، ولا أشيأوه عند عينه تكون في حقيقتها .

قال المسيب : وكانت الشمس قد طفأت المغيب ؛ فقال الإمام للرجل : قم فتوضاً وأسبغ الوضوء ، وسأعلمك أمراً تنفع به في دينك ودنياك : فإذا قمت إلى وضوءك فأيقن في نفسك واعزم في خاطرك على أن في هذا الماء سرّاً روحانياً من أسرار الغيب والحياة ، وأنه رمز للسماء عندك ، وأنت إنما تتطهر به من ظلمات نفسك التي امتدت على أطرافك ؛ ثم سم الله (تعالى) مُفِيضاً اسمه القادر الكريم على الماء وعلى نفسك معاً ، ثم تمثل أنك غسلت يديك مما فيهما ومما تتعاطاه بهما من أعمال الدنيا ، وأنت آخذ فيهما من السماء لوجهك وأعضائك ؛ وقرّر عند نفسك أن الوضوء ليس شيئاً إلا مسحاً سماوياً تُسبغها على كل أطرافك ، ليشعر بها جسمك وعقلك ؛ وأنت بهذه المسحة السماوية تستقبل الله في صلاتك سماوياً لا أرضياً .

فإذا أنت استشعرت هذا وعملت عليه وصار عادة لك ، فإن الوضوء حينئذ ينزل من النفس منزلة الدواء ، كلما اغتممت أو تكررته أو تسخطت

أَوْ غَشِيكَ حَزَنٌ أَوْ عَرَضَ لَكَ وَسْوَاسٌ ؛ فَمَا تَتَوَضَّأُ عَلَى تِلْكَ النِّيَّةِ إِلَّا غَسَلْتَ الْحَيَاةَ وَغَسَلْتَ السَّاعَةَ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا مِنَ الْحَيَاةِ ^(١) . وَتَرَى الْمَاءَ تَحْسِبُهُ هَدَوًاءً لَيْنًا لَيْنَ الرِّضَى ، وَإِذَا هُوَ يَنْسَابُ فِي شَعُورِكَ وَفِي أَحْوَالِكَ جَمِيعًا .

قَالَ الْمُسَيَّبُ : وَقْتُ أَنَا فَجَدَدْتُ وَضُوءِي عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ بِتِلْكَ النِّيَّةِ ؛ فَإِذَا أَنَا عِنْدَ نَفْسِي مُسْتَضِيٌّ بِرُوحٍ نَجْمِيَّةٍ لَهَا إِشْرَاقٌ وَسَنَاءٌ ، وَإِذَا الْوُضُوءُ فِي أَوْعَافِ مَعَانِيهِ هُوَ مَا عَلَّمْنَا مِنْ أَنَّهُ الطَّهَارَةُ وَالنِّظَافَةُ ، أَمَا فِي أَقْوَى مَعَانِيهِ فَهُوَ إِفَاضَةُ مِنَ السَّمَاءِ فِيهَا التَّقْدِيسُ وَالتَّزْكِيَةُ وَغَسْلُ الْوَقْتِ الْإِنْسَانِيِّ مِمَّا يَخَالِفُهُ كُلَّمَا مَرَّتْ سَاعَاتٌ ، وَابْتِدَآؤُهُ لِلرُّوحِ كَالنَّبَاتِ الْأَخْضَرِ نَاضِرًا مَطْلُولًا مِتْرَ طَبًا بِالْمَاءِ .

ثُمَّ صَلَّى بِنَا الشَّيْخُ ، وَأَمَرَنِي بِالْمَبِيتِ مَعَ الرَّجُلِ ، كَأَنَّمَا خَشِيَ الْبَدَوَاتِ أَنْ تَبْدُو لَهُ فَتَنْقُضَ عَزَمَهُ ، أَوْ هُوَ زَادَنِي عَلَيْهِ لَا غَيْرَ شَخْصَهُ وَأَبْدَلَ وَحْدَتَهُ الَّتِي كَانَ فِيهَا ، أَوْ كَأَنَّ الشَّيْخَ لَمْ يَأْمَنْ عَلَى الرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ إِنْسَانُهُ الرُّوحِيُّ قَدْ تَنَبَّهَ بِأَكْمَلِهِ فَوْضَعْنِي كَالْتَنْبِيهِ لَهُ .

وَجَاءَنَا الْعِشَاءُ مِنْ دَارِ الشَّيْخِ فَطَعَمْنَا ، ثُمَّ قَامَ الرَّجُلُ فَتَوَضَّأَ وَصَلَيْنَا الْعَتَمَةَ وَجَلَسْنَا نَتَحَدَّثُ ، فَاسْتَبَيَّاهُ نَبَأَهُ ، فَقَالَ : مَهْلًا . ثُمَّ نَهَضَ فَتَوَضَّأَ الثَّالِثَةَ وَقَالَ : تَاللَّهِ مَا أَعْرِفُ الْوُضُوءَ بَعْدَ الْيَوْمِ إِلَّا مَلَامَسَةً بَيْنَ السَّمَاءِ وَالنَّفْسِ ، وَمَا أَعْرِفُ وَقْتَهُ مِنَ الرُّوحِ إِلَّا كَسَاعَةِ الْفَجْرِ عَلَى النَّبَاتِ الْأَخْضَرِ .

قَالَ الْمُسَيَّبُ : وَأَصْبَحْنَا فَعَدَدْنَا عَلَى الْإِمَامِ ؛ ثُمَّ لَزِمَنِي الرَّجُلُ فِي بَعْضِ أُمُورِي ، ثُمَّ وَافَيْنَا الْمَسْجِدَ صَلَاةَ الْعَصْرِ لِحُضُورِ دَرَسِ الشَّيْخِ ؛ وَكَانَ النَّاسُ كَالْحَبِّ الْمُرْتَصِفِ عَلَى الْعُنُقُودِ ، لَا أَدْرِي مِنْ سَاقِهِمْ وَجَمْعِهِمْ ؛ كَأَنَّمَا عَلِمَتْ الْكَوْفَةُ أَنَّ رَجُلًا مُسْلِمًا كَفَرَ بِاللَّهِ كُفْرَةً صُلْعَاءً ، وَأَنَّهُ سَيَحْضُرُ دَرَسَ الشَّيْخِ

(١) هذه في رأينا حكمة تكرار الوضوء وتلك هي أسراره عندنا .

وسيحضر الشيخ من أجله ، فهبت الرياح الأربع تسوق أهلها إلى المسجد من أقطارها .

وجلس الشيخ مجلس الحديث فقال :
رَوَيْنَا أَنَّ رَجُلًا كَانَتْ بِهِ جِرَاحَةٌ ، فَاتَى قَرَنًا لَهُ فَأَخَذَ مِشْقَصًا ^(١) فَذَبَحَ
بِهِ نَفْسَهُ ؛ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) ، وَتَرَكَ جَنَازَتَهُ مَطْرُودَةً يَقْتَحِمُ
مَتَلَفَةَ الْآخِرَةِ كَمَا اقْتَحَمَتْ مَتَلَفَةَ الدُّنْيَا !

رَوَيْنَا فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) أَنَّهُ قَالَ : « الَّذِي يَخْنُقُ
نَفْسَهُ يَخْنُقُهَا فِي النَّارِ ، وَالَّذِي يَطْعُنُ نَفْسَهُ يَطْعُنُ نَفْسَهُ فِي النَّارِ ، وَالَّذِي يَقْتَحِمُ
يَقْتَحِمُ فِي النَّارِ ! »

رَوَيْنَا عَنْهُ (صلى الله عليه وسلم) : « مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عُدَّ بِهِ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ ! »

رَوَيْنَا عَنْهُ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ : « كَانَ رَجُلٌ بِهِ جِرَاحٌ فَقَتَلَ نَفْسَهُ ،
فَقَالَ اللَّهُ : بَدَّرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ فَخَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ! »

قَالَ الشَّعْبِيُّ : يَقُولُ اللَّهُ : « بَدَّرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ ... » أَيْ بَدَّرَنِي وَتَأَلَّاهُ
فَجَعَلَ نَفْسَهُ إِلَهَ نَفْسِهِ ، فَتَبَضَّهَا وَتَوَفَّاهَا ، فَكَانَ ظَالِمًا .

بَدَّرَنِي وَتَأَلَّاهُ فِي آخِرِ أَنْفَاسِهِ لِحُظَّةٍ يَنْقَلِبُ إِلَيْهِ ، فَكَانَ مَعَ ظُلْمِهِ
مَغْرُورًا أَحْمَقَ !

بَدَّرَنِي وَتَأَلَّاهُ حِينَ ضَاقَ ، فَهَوَّزَ نَفْسَهُ فِي الْمَوْتِ مِنْ عَجْزِهِ أَنْ يُمَسِّكَهَا فِي الْحَيَاةِ ،
فَكَانَ عَاجِزًا مَعَ ظُلْمِهِ وَغُرُورِهِ وَحُمَقِهِ !

بَدَّرَنِي وَتَأَلَّاهُ عَلَى جِهَلِهِ بِسَرِّ الْحَيَاةِ وَحِكْمَتِهَا ، فَلَمْ يَسْتَحْ هَذَا الْخُلُوقُ الظَّالِمُ
الْمَغْرُورُ فِي حَقِّهِ وَعَجْزُهُ وَجِهَلُهُ — لَمْ يَسْتَحْ أَنْ يُجِئَنِي فِي صُورَةِ إِلَهٍ !

(١) القرن (بفتحين) : جعبة الشباب . والمشقص : سهم فيه نصل عريض .

بَدَرْنِي وَتَأَلَّهَ ، فَطَبَعَ نَفْسَهُ طَابِعَهَا الْأَبْدَى مِنْ غَيٍّ وَتَمَرَّدَ وَسَفَاهَةً ، وَأَرْسَلَهَا إِلَى مَقْتُولَةٍ يَرُدُّهَا عَلَيَّ .

بَدَرْنِي وَتَأَلَّهَ كَأَنَّمَا يَقُولُ : إِنْ لَهُ نَصَفَ الْأَمْرِ وَلِي النِّصْفَ : أَنَا أَحْيَيْتُ وَهُوَ أَمَاتَ . . . !

بَدَرْنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ فَحَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ !

قَالَ الشَّعْبِيُّ : وَأَمَّا تَحْرِمُ الْجَنَّةَ عَلَى مَنْ يَقْتُلُ نَفْسَهُ ، إِذْ يَنْقَلِبُ إِلَى اللَّهِ وَعَلَى رُوحِهِ جَنَاحٌ يُدْهِمُ مَا تَفَارَقُهَا إِلَى الْأَبَدِ ؛ فَهُوَ هُنَاكَ جَيْفَةٌ مِنَ الْجَيْفِ مَسْمُومَةٌ أَبَدًا ، أَوْ مَخْنُوقَةٌ أَبَدًا ، أَوْ مَذْبُوحَةٌ أَبَدًا ، أَوْ مَهْشَمَةٌ أَبَدًا ، يَقُولُ اللَّهُ لَهُ : أَنْتَ بَدَرْتَنِي بِنَفْسِكَ ، وَجَرَيْتَ مَعِيَ فِي الْقَدَرِ مَجْرَى وَاحِدًا ، فَسْتَخْلِدُ نَفْسَكَ فِي الصُّورَةِ الَّتِي هِيَ مِنْ عَمَلِكَ ، وَمَا قَتَلْتَ إِلَّا حَسَنَاتِكَ .

قَالَ الشَّعْبِيُّ : وَلَوْ عَرَفَ قَاتِلُ نَفْسِهِ أَنَّهُ سَيَصْنَعُ مِنْ نَفْسِهِ جَيْفَةً أَبَدِيَّةً ، فَمَنْ ذَا الَّذِي يَعْرِفُ أَنَّهُ إِذَا فَعَلَ كَذَا وَكَذَا تَحَوَّلَ حِمَارًا وَبَقِيَ حِمَارًا ، فَيَرْضَى أَنْ يَتَحَوَّلَ وَيُسْرَعَ لِيَتَحَوَّلَ ؟

مِنْ ذَلِكَ نَظَرَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إِلَى جَنَازَةِ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي قَتَلَ نَفْسَهُ ، كَمَا يَنْظُرُ إِلَى ذَبَابَةٍ تَوَجَّهَتْ بِالسَّبِّ إِلَى الشَّمْسِ وَالْكَوَاكِبِ وَالْأَفْلَاقِ كُلِّهَا ، ثُمَّ جَاءَتْهُ تَقُولُ لَهُ : أَشْهَدُ لِي .

قَالَ الشَّيْخُ : وَمَنْ يَقْتُلُ الْإِنْسَانَ نَفْسَهُ ؟ أَمَّا إِنْ الْمَوْتَ آتٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَا مَقْصِرَ لِحَيٍّ عَنْهُ ، وَهُوَ الْخِيْبَةُ الْكُبْرَى تَلْقَى عَلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ ؛ فَمَا ضَرَرُ الْخِيْبَةِ الصَّغِيرَةِ فِي أَمْرِ مِنْ أُمُورِ الْحَيَاةِ ؟

إِنْ الْمَرءُ لَا يَقْتُلُ نَفْسَهُ مِنْ نَجَاحٍ بَلْ مِنْ خِيْبَةٍ ، فَإِنْ كَانَتْ الْخِيْبَةُ مِنْ مَالٍ فَهِيَ الْفَقْرُ أَوْ الْحَاجَةُ ، وَإِنْ كَانَتْ مِنْ عَافِيَةٍ فَهِيَ الْمَرَضُ أَوْ الْإِخْتِلَالُ ، وَإِنْ

كانت من عِزَّةٍ فهي الذلُّ أو البؤس ، وإن كانت مما سوى ذلك — كالنساء وغيرهن — فهي العجز عن الشهوة أو التخيلُ الفاسد .

وليس يخبِ الإنسانُ إلا خيبةَ عقلٍ أو إرادة ، وإلا فالفقرُ والحاجة ، والمرضُ والاختلال ، والذلُّ والبؤس ، والعجز عن الشهوة وفسادُ التخيل ، كل ذلك موجودٌ في الناس ، يحمله أهلُه راضين به صابرين عليه ، وهو الغبار النفسى لهذه الأرض على نفوس أهلها . ويا عجباً ! إن العُميان هم بالطبيعة أكثرُ الناس ضحكاً وابتساماً وعبثاً وسخريةً ، أفتريدون أن تخاطبكم الحياةُ بأفصح من ذلك ؟

ليست الخيبةُ هي الشر ، بل الشرُّ كله في العقل إذا تبدَّل فجعد على حالةٍ واحدة من الطمع الخائب ، أو في الإرادة إذا وهنت فبقيت متعلقة بما لم يوجد . أفلا ترون أنه حين لا يُبالى العقلُ ولا الإرادة لا يبقى للخيبة معنى ولا أثرٌ في النفس ، ولا يخبِ الإنسانُ حينئذٍ ، بل تخبِ الخيبةُ نفسها ؟

لهذا يأبى الإسلامُ على أهله الترفَّ العقليَّ والتخيلَ الفاسد ، ويشدُّ كلَّ الشدة في أمر الإرادة ، فلا يترخص في شيءٍ يتعلق بها ، ولا يزال يُنمى بأعمالٍ يومية تشدُّ منها لتكون رقيمةً على العقل حارسةً له ، فإن للعقل أمراضاً كثيرة يقيس فيها درجاتٍ من الطيش حتى يبلغ الجنون أحياناً ؛ فكانت الإرادة عقلاً للعقل ؛ هي لينه إذا تصلب ، وهي حركته إذا تبدَّل ، وهي حلمه إذا طاش ، وهي رضاه إذا سخط .

الإرادة شيء بين الروح والعقل ، فهي بين وجودين ؛ ولهذا يكون بها الإنسان بين وجودين أيضاً ، فيستطيع أن يعيش وهو في الدنيا كالمنفصل عنها ، إذ يكون في وجوده الأقوى وجود روحه ؛ وأكبرُ همه نجاحه في هذا الوجود . وهذا النجاح لا يأتي من المال ، ولا تحقُّقه العافية ، ولا تيسره الشهوات ،

ولا يُسَنِّيه التَّخِيلُ الفاسد ؛ ولا يكون من متاع الغرور ، ولا ملة عُمره خمسون سنة أو مائة سنة ؛ بل يأتي مما عُمره الخلود ومما هو باقٍ أبداً في معانيه من الخير والحق والصالح ؛ فههنا يُعين المرضُ بالصبر عليه ما لا تعين الصحة ، ويُفيد الفقرُ بحقائقه ما لا تفيد الثروة ؛ وههنا يكون العقل الإنسانيَ عاملاً أكثر مما هو متخيل ، وقانعاً أكثر مما هو طامع ؛ وههنا لا موضعُ لغلبة الشهوة ، ولا كبرياء النفس ، ولا حُبُّ الذات ؛ وهذه الثلاثُ هي جالبةُ الشقاء على الإنسان حتى في أحوال السعادة ، وبدونها يكون الإنسانُ هائئاً حتى في أحوال الشقاء .
بالإرادة المؤمنة القوية ينصرفُ ذكاءُ المؤمن إلى حقائقِ العالم وصلاحِ النفسِ بها ، وبغير هذه الإرادة ينصرف الذكاءُ إلى خيال الإنسان وفسادِ الإنسان . . .

وإذا انصرف الذكاءُ إلى حقائق الدنيا كان العقلُ سهلاً مرناً مطواعاً ، واستحال عليه أن يفهم فكرةَ قتل النفس أو يُقرَّها ، فإن هذه الفكرةَ الخبيثةَ لا تَسْتَطِرِقُ إلى العقل إلا إذا تجرَّ وانحصر في غرض واحدٍ قد خاب وخابت فيه الإرادةُ ففرغت الدنيا عنده .

ولو أن امرأاً تمَّ عزمُهُ على قتل نفسه ثم صابر الدنيا أياماً ، لا تَنسَح عزمه أو رُكَّ ؛ إذ يلين العقلُ في هذه المدة نوعاً ما ، ويجعلُ الصبرُ بينه وبين المصيبة مسافةً ما ، فتتغير حالة النفس هَوْناً ما ؛ فالصبرُ كالترُّوح بالهواء على العقل الذي يكاد يَخْتَنِق من احتباسه في معنى واحدٍ مُقْفَلٍ من جوانبه . ومثُلُ العقل في هذه الحال مثُلُ القائم في إعصارٍ لَفَّه بالتراب لَفًّا وسدَّ عليه مَنَافذَ الهواء ، وحبسه في هذا التراب الملتفَّ حَبْسَ الحشرة في جوف القَصْبَةِ ؛ فهو على اليقين أنها حالةٌ ساعيةٌ طارئةٌ في الزمن لا حالةُ الزمن ؛ وأن الهواء الذي جاء بهذا الهمِّ هو الذي يذهب بهذا الهمِّ .

وكما أن الأرض هي شيء غير هذا الإعصار النائر منها ، فالحياة كذلك هي أمرٌ آخرٌ غيرُ شقائها .

قال الإمام : وفي كتاب الله آيتان تدلان على أنه كتاب الدنيا كلها ، إذ وضع لهذه الدنيا مثالين : أحدهما المثال الروحي للفرد الكامل ، والآخر للمثال الروحي للجماعة الكاملة .

أما الآية الأولى فهي قوله تعالى : « لقد كان لكم في رسول الله أسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر » .
وأما الثانية فهي قوله تعالى : « محمدٌ رسولُ الله والذين معه أشِدَّاءُ على الكفارِ رحماءُ بينهم » .

ففي رجاء الله واليوم الآخر يتسامى الإنسان فوق هذه الحياة الفانية ، فتعمرُ همومها حوله ولا تصدمه ، إذ هي في الحقيقة تجري من تحته فكأن لا سلطان لها عليه ؛ وهذه الموم تجد في مثل هذه النفس قوًى بالغةً تصرّفها كيف شاءت ، فلا ينجى الهمُّ قوّةً تسحق ضعفاً ، بل قوة تمتحن قوّةً أخرى أو تُشيرها لتكون عملاً ظاهراً يقلده الناسُ وينتفعون منه بالأسوة الحسنة ، والأسوة وحدها هي علم الحياة .

وقد ترى الفقير من الناس تحسبه مسكيناً ، وهو في حقيقته أستاذ من أكبر الأساتيد يلقى على الناس دروسَ نفسه القوية .

وفي رجاء الله واليوم الآخر يبطل أكبرُ أسباب الشرِّ في الناس ، وهو نظرُ الإنسانِ لمن هو أحظى منه بفتنة الدنيا نظراً لا يبعث إلا الحقدَ والسخطَ ، فينظر المؤمن حينئذ إلى ما في الناس من الخير والصلاح والإيمان والحق والفضيلة ، وهذه بطبيعتها لا تبعث إلا السرور والغبطة . ومن جعلها في تفكيره أبطل أكثر

الدنيا من تفكيره ؛ وبها تسقط الفروق بين الناس عليهم ونازلهم ؛ كالرجل الفقير العالم إذا قدم على الغني العالم ؛ جمع بينهما الاتفاق العقلي وسقط ما عداه .
وفي رجاء الله واليوم الآخر يعيش الإنسان عُمره الطويل أو القصير كأنه في يومٍ يُصبح منه غادياً على الحشر والحساب ؛ فهو متصلٌ بالخلود غيرُ معنيٍّ إلا بأسبابه ؛ وبهذا تكون أمراضه وآلامه ومصائبه ليست مكاره من الدنيا ، بل هي تلك المكاره التي حُفَّت الجنة بها ؛ ولا يضره الحرمان لأنه قريب الزوال ، ولا يُغره المتاع لأنه قريب الزوال أيضاً .

وفي رجاء الله واليوم الآخر يسود الإنسان على نفسه ؛ ومن كان سيِّد نفسه كان سيِّد ما حوله يُصرِّفه بحكمه ، ومن كان عبيد نفسه صرَّفه بحكمه كلُّ ما حوله .

قال الشعبي : وأما المثال الروحي للجماعة الكاملة ، فهو في وصف المؤمنين بأنهم « رَحْماءٌ بينهم » فهذا هذا ، ما أحسبه يحتاج إلى بسْطٍ وبيان .

إن أكثر ما يضيق به الإنسان يكون من قِبَل من حوله ممن يُعائِشهم ويتصل بهم لا من قِبَل نفسه ، فإذا قام اجتماعُ أمةٍ على أنهم (رَحْماءٌ بينهم) تَقَرَّرت العظمة النفسية للجميع على السواء ؛ ومن كانوا كذلك لم يُحقِّروا الفقير بفقره ، ولم يُعظِّموا الغني لغناه ، وإنما يُحقِّرون ويعظِّمون لصفاتٍ ساميةٍ أو حقيرة . وبين هؤلاء يكون الفقيرُ الصابرُ أعظمَ قدراً من الغني الشاكر ، وإعظامُ الناس لفضيلة الفقير هو الذي يجعل فقره عند نفسه شيئاً ذا قيمة في الإنسانية .

ومتى تصححت آراء الجماعة في هذه المعاني المؤلمة للناس بطلَ ألمها واستحالت معانيها ، وصار لا يَبْلَى معنى من معاني الحياة في إنسانٍ إلا وضعَ إيمانه معنىً جديداً في مكانه ، وتصبح الفضيلة وحدها غاية النفس في الجميع ؛ وبذلك يصبر

الفرد على مصائبه ، لا بقوته وحده ، ولكن بجميع القوى التي حوله . أفلا ترون أن إعجاب الناس بالشجاعة وتعظيمهم صاحبها يضع في ألم السلاح لذة يحشها لحم الشجاع البطل ؟

قال المسيب بن رافع : فقام رجل من المجلس ، فقال . أيها الشيخ ، وإذا فسد الناس وغلظت قلوبهم ، وتقطعت بينهم الأسباب ، ولم يعودوا (رُحَمَاء بينهم) ، وشتموا بالفقير ، وتهزأوا بالمبتلى وطرحوه في أستمهم كما يطرح الشاعر في لسانه رجلاً يهجوهم لا يكف عنه — فما عسى أن يصنع المسكين حينئذ وكل شيء يدفعه إلى قتل نفسه ؟

وقال الشعبي : هاهنا الرجاء في الله واليوم الآخر ، وهو شعور لا يشتري بمال ، ولا يكتسب من أحد ، ولا يعسر على من أراده ؛ والفقير والمبتلى وغيرهما إنما يصنع كل منهم مثاله السامى ؛ فالصبر على هذا العنت هو صبر على إتمام المثال ، وإذا وقع ما يسوءك أو يحزنك فابحث فيه عن فكرته السامية ، فقلما يخلو منها ، بل قلما يجيء إلا بها ^(١) .

قال المسيب : فقام آخر فقال : وكيف يصنع امرؤ آلت أحوال الدنيا إلى ما يخيفه ، أو بلغه ألم مبلغه من قلبه فهم أن يقتل نفسه ؟

قال الشعبي : فليجمل الخوف خوفين : أحدهما خوفه عذاب الله خالداً مخلداً فيه أبداً ؛ فيذهب الأقوى بالأضعف . وإذا ابتلى فليضم إلى نفسه من هو أشد بلاء منه ؛ ليكون همه أحد همتين ، فيذهب الأثقل بالأخف .

إن الإنسان ونفسه في هذه الحياة كالذى أعطى طفلاً نزعاً طيباً عارماً متمرداً ليؤدبه ويحكم تربيته وتقويمه فيثبت بذلك أنه أستاذ ، فيعطى أجر صبره وعمله ، ثم يضيق الأستاذ بالطفل ساعة فيقتله . كذلك التأديب والتربية ؟

(١) في كتابنا (المساكين) كلام كثير في هذه المعاني .

الاتحار

٣

قال المسيّب بن رافع : وكان الإمام قد شغل خاطره بهذه القصة فأخذت تمدد مدّها في نفسه ، ومكنت له من معانيها بمقدار ما مكن لها في فهمه ، وتفتّق بها ذهنه عن أساليب عجيبة يتهيم بعضها من بعض كما يلد المعنى المعنى . فلما قال الرجلان مقالهما آنفاً وأجابهما بتلك الحكمة والموعظة الحسنة ، انقدح له من كلامهما وكلامه رأى فقال :

يا أهل الكوفة : أنشدكم الله والإسلام أيّما رجلٍ منكم ضاق بروحه يوماً فأراد إزهاقها إلا كشف لأهل المجلس نفسه وصدّقنا عن أمره ؛ ولا يجِدَنَّ في ذلك ثلماً ولا عاباً ، فإنما النكبة مذهبٌ من مذاهب القدر في التعليم ؛ وقد يكون ابتداء المصيبة في رجلٍ هو ابتداء الحكمة فيه لنفسه أو لغيره ؛ وما من حزينٍ إلا وهو يشعر في بعض ساعات حزنه أنه قد غيّبت فيه أمرارٌ لم تكن فيه ، وهذا من إبانة الحقيقة عن نفسها وموضعها كما لا لاً في سيفٍ بريّقه .

وعقلُ الهمِّ عقلٌ عظيمٌ ، فلو قد أريدَ استخراجُ علمٍ يعلمُهُ الناسُ من اللذات والنعم ؛ لكان من شرح هذا العلم من الخير والبغال والدواب ما لا يكون مثله ولا قرابته في العقلاء ، ولا تبلغه القوى الآدمية في أهلها ؛ بيد أنه لو أريد علمٌ من البؤس والألم والحاجة لما وُجد شرحُهُ إلا في الناس ، ثم لا يكون الخاصُّ منه إلا في الخاصة منهم .

وما بانَ أهلُ النعمة ولا غَمَرُوا المساكينَ في تطاولهم بأعناقهم إلا من أنهم

يَعْلُونَ أ كِتَافَ الشَّيَاطِينِ ؛ فالشيطانُ دَابَّةُ الْغَنَى الذي يَجْهَلُ الْحَقَّ عَلَيْهِ فِي غِنَاهُ وَيَحْسِبُ نَفْسَهُ مُخْلِىً لَشَهْوَاتِهِ وَنَعِيمِهِ ؛ كما هُوَ دَابَّةُ الْعَالَمِ الذي يَجْهَلُ الْحَقَّ عَلَيْهِ فِي عِلْمِهِ ، وَيَزْعُمُ نَفْسَهُ مُخْلِىً لِعَقْلِهِ أَوْ رَأْيِهِ ، وَمَا طَالَ الطَّوِيلُ بِذَلِكَ وَلَا عَنْ ذَلِكَ قَصَرَ الْقَصِيرِ ، وَهَلْ يَصُحُّ فِي الرَّأْيِ أَنْ يُقَالَ هَذَا أَطْوَلُ مِنْ هَذَا لِأَنَّ الْأَوَّلَ فَوْقَ السَّلَمِ وَالْآخِرَ فَوْقَ رَجْلَيْهِ . . . ؟

قال المَسِيَّبُ : فقام شيخٌ من أَقْصَى الْجُلُوسِ وَأَقْبَلَ يَتَخَطَّى الرِّقَابَ وَالنَّاسُ يَنْفَرُونَ لَهُ حَتَّى وَقَفَ بِإِزَاءِ الْإِمَامِ ؛ وَتَقَرَّسَتْهُ وَجَعَلَتْ عَيْنِي تَعْجُمُهُ ، فَإِذَا شَيْخٌ تَبْدُو طَلَاقَةً وَجْهَهُ شَبَابًا عَلَى وَجْهِهِ ، أَبْلَجُ الْغُرَّةِ مُتَهَالِّ عَلَيْهِ بِشَاشَةِ الْإِيمَانِ وَفِي أَسَارِيرِهِ أَثَرٌ مِنْ تَقْطِيبٍ قَدِيمٍ ، يَنْطِقُ هَذَا وَذَاكَ أَنَّ الرَّجُلَ فِيمَا أَتَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّهْرِ قَدْ كَانَ أَطْفًا الْمَصْبَاحِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَّةٌ ثُمَّ أَضَاءَهُ . وَعَجِبْتُ أَنْ يَكُونَ مِثْلُ هَذَا الشَّيْخِ قَدْ هَمَّ بِقَتْلِ نَفْسِهِ يَوْمًا ، وَأَنَا أَرَى بِعَيْنِي نَفْسَهُ هَذِهِ مُنْبَثِقَةً فِي الْحَيَاةِ انْبِثَاقَ النُّخْلَةِ السَّحْوِ .
وتكلم هذا الرجل فقال :

أَمَّا إِذْ نَاشَدْتَنَا اللَّهَ وَالْإِسْلَامَ وَمِيثَاقَ الْعِلْمِ وَوَحَى الْأَقْدَارِ فِي حَكْمَتِهَا ، فَإِنِّي مُحَدِّثُكَ بِخَبْرِي عَلَى وَصْفِهِ وَرَصْفِهِ : أَمَلَقْتُ مِنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً وَوَقَفْتُ بِي مِنَ الدَّهْرِ مَا كَانَ يَجْرِي ، وَأَصْبَحْتُ فِي مَزَاوِلَةِ الدُّنْيَا كَعَاصِرِ الْحَجَرِ يَرِيدُ أَنْ يَشْرَبَ مِنْهُ ، وَعَجَزْتُ يَدِي حَتَّى لَطْفَرْتُ دَجَاجَةً فِي نَبْشِهَا التُّرَابَ عَنْ الْحَبَّةِ وَالْحَشْمَةِ أَقْدَرُ مِنِّي ؛ وَطَرَقَتْنِي النَّوَائِبُ كَأَنَّمَا هِيَ تُسَاكِنُنِي فِي دَارِي ، وَأَكُنِّي الدَّهْرُ لِحْمًا وَرَمَانِي عِظَامًا ، فَمَا كَانَ يَقِفُ عَلَيَّ إِلَّا كَلَابُ الطَّرِيقِ ؛ وَلِي يَوْمٌ مِنْذُ امْرَأَةٍ أَعْقَبْتُ مِنْهَا طِفْلًا وَيَلْزُمُنِي حَقُّهُمَا وَلَا أَسْتَطِيعُهُ ؛ وَكَانَ بَيْنَنَا حُبٌّ فَوْقَ الْمَعَاشِرَةِ وَالْآلِفَةِ قَدْ تَرَكْنِي مِنْ امْرَأَتِي هَذِهِ كَالشَّاعِرِ الْغَزَلِ مِنْ صَاحِبَتِهِ ، غَيْرَ أَنَّ الشَّعْرَ فِي دُمِي لَا فِي لِسَانِي .

فلما نهكتني المصائبُ وتناولتني من قريب ومن بعيد ؛ قات المرأة ذات يوم
وقد شجبت وانكسر وجهها وتقبض من هزاله : وأيم الله يا فلانة لو جاز أن
يؤكل لحم الآدمي لذبحت نفسي لنا كلى وتدرى على الصبي . ولقد هممت أن
أركب رأسي وأذهب على وجهي لتفقداني فتفقد شؤمي عليكما ؛ ولكن ردني
قلبي ، وهو حبسني في هذه الدنيا الصغيرة التي بينكما ، فليس لي من الأرض
مشرق ولا مغرب إلا أنت وهذا الصبي . ولست أدري والله ما نضع بالحياة
وقد كنا من نباتها الأخضر فرجعنا من حطها اليابس ؛ وعادت الشمس
لا تغدوها بل تمتص منها ما بقي ، ولا تستضيء لها ، ولكن تستوقد عليها !
إن من فقد الخير ووقع في الشر ، حري أن يكون قد أصاب خيراً عظيماً
إذا قتل نفسه فخلص من الشر والخير جميعاً ، لا يكدي ولا ينجح ، ولا يألم
ولا يلد ؛ وكما أنكرته الدنيا فلينكرها . أما إنه إن كان القبر فالقبر ولكن
في بطن الأرض لا على ظهرها كحالنا ؛ وإن كان الموت فالموت ولكن بمرّة
واحدة وفي شيء واحد لا كهذا الذي نحن فيه أنواعاً أنواعاً . قد ماتت أيامنا ،
وتركنا نعيش كالموتى لا أيام لهم ، وزاد علينا الموتى في النعمة والراحة أنهم
لا يتطفلون على أيام غيرهم فيطردوا عن يوم هذا ويوم ذاك .
قال : فاستعبرت المرأة باكية ، ولما فرغت من كلام دموعها قالت :
كأنك تريد أن تفجعنا فيك ؟ قلت : ما عدوت ما في نفسي ؛ ولكن هل بقي
في من تفجعين فيه ؟ أما ذهب مني ذاك الذي كان لك زوجاً وكاسباً ، وجاء
الذي هو همك وهم هذا الصبي من رجلٍ كالحفرة لا تنتقل من مكانها وتأخذ
ولا تعطى ؟

أم والله لكأنني خلقت إنساناً خطأ ، حتى إذا تبين الغلط أريد إرجاعي
إلى الحيوان فلم يأت لا هذا ولا ذاك ، وبقيت بينهما ؛ يمر الناس بي فيقولون

إنسانٌ مسكينٌ ؛ وأحسبُ لو نطقت الكلابُ لقالت عني كلبٌ مسكينٌ . يا عجباً !
عجباً لا ينتهى ! أصبحت الدنيا فى يدنا من العجز واليأس كأنما هى بعرَةٌ
نَجْهَدُ فى تحويلها ياقوتةً أو لؤلؤةً

فقالت المرأة : والله لئن حييت على هذا إن هذا الكفرُ قبيحٌ ، ولئن مُتَ
عليه إنه لأقبحُ وأشدُّ .

فقلت لها : ويحك وماذا تنظر العينُ المبصرةُ فى الظلام الحالكِ إلا
ما تنظرُ العمياء ؟

قالت : ولم لا تنظر كما ينظر المؤمنُ بنور الله ؟
قلت : فانظرى أنت وخبرينى ماذا ترين . أترين رغبةً ؟ أترين إداماً ؟
أترين ديناراً ؟

قالت : والله إنى لأرى كلَّ ذلك وأكثرَ من ذلك . أرى قرأً سيكشفُ
هذه الشدَّةَ المظلمةَ إن لم يطلعُ فكانَ قدَّ .

قال : فعاظتنى المرأةُ ورأيتها حينئذٍ أشدَّ علىَّ بقلَّةِ ذاتِ عقلِها من قلَّةِ ذاتِ
يدى ؛ ولولا حُبِّ إياها ورحمى لها لأوقعتُ بها . واستحکم فى ضميرى أن أزهقَ
نفسى وأدعها لما كُتِبَ لها .

وقلت : إنَّ جُبْنَ المرأةِ هو نصفُ إيمانِها حين لا يكون نصفَ عقلِها ،
وللقد ريدُ ضعيفةٌ على النساءِ تَصْفَعُهُنَّ وتمسحُ دموعهن ، وله يدٌ أخرى على
الرجالِ ثَقِيلَةٌ تصفعُ الرجلَ وتأخذُ بحلقةِ فتعصرُهُ .

قال : وكنتُ قد سمعتُ قولَ الجاهليةِ فى هذه الخليفة : أرحامُ تدفعُ ،
وأرضُ تبَلِّغُ . فخصرنى هذا القولُ تلكَ الساعةَ وشبَّه لى ، واعتقدتُ أن هذا
الإنسانُ شىءٌ حقيرٌ فى الغايةِ من الهوان والضعَّة : حملته أمه كرهاً ، وأنقَلَتِ

به كرها ، ووضعت كرهاً ؛ وهو من شؤمه عليها إذا دنا لها أن تضع لم يخرج منها حتى يضربها الخاض فتقآب وتصبح وتمزق وتنصدع ؛ وربما نشب فيها فقتلها ، وربما التوى فنبقر بطنها عنه . وإذا هي ولدت على أي حالها من عسرٍ وطريقٍ بمثل المطارق الحطمة ، أو سراحٍ وروحٍ كما يتيسر — فإنما تلده في مشيمةٍ ودماءٍ وقدرٍ من الأخلط كأنما هو خارجٌ من جرح . ثم تتناول الدنيا فتضعه من معانيها في أقبح وأقذر من ذلك كله . ثم يستوفى مدته فيأخذ القبر فيكون شرّاً عليه في تمزيقه وتعفينه وإحالة .

قال : وحضرنى مع كلمة الجاهلية قولُ ذلك الجاهل الزنديق الذى يعرف (بالبقلى) — إذ كان يزعم أن الإنسان كالبقلة ، فإذا مات لم يرجع . وقات لنفسى : إنما أنت بقلةٌ حمقاء ذاويةٌ فى أرضٍ نشاشة^(١) ، فقتلها ملح أرضها أكثر مما أحيها .

قال : وثرت إلى المديّة أريد أن أتوجأ بها ، فتبادرنى المرأة وتحول بينى وبينها ؛ وأكاد أبطشُ بها من الغيظ ، وكانت روحُ الجحيم ترفرف من حولى ، لو سمعوا سمعوا لها شهيقاً وهى تفور ؛ فما أدرى أى ملكٍ هبط بوحنى الجنة فى لسان امرأتى .

قلت لها : إنها عزيمةٌ منى أن أقتل نفسى .

قالت : وما أريد أن أنقضها ولست أرذك عنها وستنقضها .

قلت : فخلّى بين نفسى وبين المديّة .

قالت : كلنا نفسٌ واحدةٌ أنا وأنت والصبيّ فلتنقض معاً ؛ وما بنفسى عن نفسك رغبةٌ ولا ندعُ الصبيّ يتيماً يصفعه من يطعمه ، ويضربه ابنُ هذا وابنُ ذاك إذ لا يستطيع أن يقول فى أولاد الناس أنا ابنُ ذلك ولا ابنُ هذا .

(١) الأرض النشاشة : هى السبخة التى فيها الملح والماء .

قلت : هذا هو الرأي .
 قالت : فتعال اذبح الطفل
 ...

قال المسيب بن رافع : وما بلغ الرجل في قصته إلى ذبح صغيره حتى ضجَّ
 الناس ضجةً مُسكرةً ؛ وتوهم كلُّ أبٍ منهم أن طفله الصغير مُمدَّدٌ للذبح وهو ينادى
 أباه ويشقُّ حلقةً بالضراخ : يا أباي يا أباي ؛ أدركني يا أباي .
 أما الإمام فدمعت عيناه وكنت بين يديه فسمعتُه يقول : إنا لله ، كيف
 تصنعُ جهنمُ خطبها ؟

وأنا فما قطُ نسيْتُ هذه الكلمة ، وما قطُ رأيتُ من بعدها كافراً ولا فاسقاً
 فاعتبرتُ أعماله إلا كان كلُّ ذلك شيئاً واحداً هو طريقةُ صنْعته خطباً ...
 كأن الشيطان لعنه الله يقول لأتباعه : جفّفوه ...
 وكانت هنيئاتٌ ، ثم فاء الناسُ ورجعوا إلى أنفسهم وصاحوا بالمتكلم :
 ثم ماذا ؟

قال الرجل : ففتحتُ عيني وقلبي معاً ورَمَقْتُ الطفلَ المسكينَ الذي لا يملك
 إلا يديه الضعيفتين ؛ ونظرتُ إلى تجرّى السكّين من حلقةٍ وإلى محزّها في رقبتِه
 اللينة ؛ ورأيتُه كأنما تفرّق بصرُه من الفزع على كل جهة ، ورأيتُه يتضرّع
 لي بعينيه الباكيتين ألاّ أذبحه ، ورأيتُه يتوسلُ بيديه الصغيرتين كأنه عرف أنه
 مني أمام قاتله ، ثم خيلَ إليّ أنه يتلوّى وينتفض ويصرّخُ من ألم الذبح تحت
 يديه ؛ تحت يد أبيه التّعس .

يا ويلتاه ! لقد أخذني ما كان يأخذني لو تهدّمت السماء على الأرض ،
 وحسبتُ السكون كله قد انفجر صُراخاً من أجل الطفل الضعيف الذي ليس له
 إلا ربُّه أمام القاتل .

فَهَرُّوْلتُ مَسْرَعاً وَتَرَكْتُ الدَّارَ وَالْمَرْأَةَ وَالصَّبِيَّ وَأَنَا أَقُولُ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ .
يا من خلقَ الطِفْلَ عَالِماًهُ أُمُّهُ وَأَبُوهُ وَحَدَّاهُ وَبَاقِيَ الْعَالَمِ هَبَاءً عِنْدَهُ . يا من دَبَّرَ
الرُّضِيعَ فَوَهَبَهُ مُلْكاً وَمَمْلَكَةً وَغَنَى وَسُروراً وَفَرَحاً ، كُلُّ ذَلِكَ فِي ثَدْيِ أُمِّهِ
وَصَدْرِهَا لَا غَيْرَ . يَا إِلَهِي : أُنْسِنِي مِثْلَ هَذَا النِّسيانِ ، وَارْزُقْنِي مِثْلَ هَذَا الرِّزْقِ ،
وَإِكَفُلْنِي بِمِثْلِ هَذَا التَّدْيِيرِ فَإِنِّي مُنْقَطِعٌ إِلَّا مِنْ رَحْمَتِكَ انْقِطَاعَ الرُّضِيعِ إِلَّا مِنْ أُمِّهِ .

قال الرجل : وَلَقَدْ كُنْتُ مَغْروراً كَالْجِيفَةِ الرَّاكِدَةِ تَحْسِبُ أَنَّهَا هِيَ تَقُورُ
حِينَ فَارَتْ حَشَرَ أَتْهَا . وَلَقَدْ كُنْتُ أَحْقَرُ مِنَ الذِّبَابِ الَّذِي لَا يَجِدُ حَقَائِقَهُ ،
وَلَا يَلْتَمِسُهَا إِلَّا فِي أَقْدَرِ الْقَدَرِ .

وَمَا كَدْتُ أَمْضِي كَمَا تَسُوقُنِي رِجْلَايَ حَتَّى سَمِعْتُ صَوْتاً نَدِياً مَطْلُولاً يَرْجِعُ
تَرْجِيعَ الْوَرَقَاءِ فِي تَحَنُّانِهَا وَهُوَ يُرْتَلُّ هَذِهِ الْآيَةُ :

« وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ
وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا
وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً . »

قال : فَوَقُفْتُ أَسْمَعُ وَمَاذَا كُنْتُ أَسْمَعُ ؟ هَذِهِ شُعْلٌ لَا كَلِمَاتُ ، أَحْرَقَتْ
كُلَّ مَا كَانَ حَوْلِي وَلَمَسْتُ مِصْبَاحَ رُوحِي الْمُنْطَفِئِ فَإِذَا هُوَ يَتَوَهَّجُ ، وَإِذَا الدُّنْيَا
كُلُّهَا تَتَوَهَّجُ فِي نَوْرِهِ ، وَارْتَفَعَتْ نَفْسِي عَنِ الْجَدْبِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ وَكَأَنَّمَا
لَقِيتُ سَحَابَةً مِنَ السَّحَبِ ، فِي رُوحِي نَسِيمُ الْمَاءِ الْبَارِدِ وَرَائِحَةُ الْمَاءِ الْعَذْبِ .

لَعَنَ اللَّهُ هَذَا الْاضْطِرَابَ الَّذِي يُبْتَلَى الْخَائِفُ بِهِ . إِنَّمَا نَحْسِبُهُ اضْطِرَاباً وَمَا هُوَ
إِلَّا اخْتِلَاطُ الْحَقَائِقِ عَلَى النَّفْسِ وَذَهَابُ بَعْضِهَا فِي بَعْضٍ ، وَتَضَرُّبُ الشَّرِّ فِي
الْخَيْرِ وَالْخَيْرِ فِي الشَّرِّ حَتَّى لَا يَبِينُ جَنْسٌ مِنْ جَنْسٍ ، وَلَا يُعْرَفُ حَدٌّ مِنْ حَدٍّ ،
وَلَا تَمْتَازُ حَقِيقَةٌ مِنْ حَقِيقَةٍ . وَبِهَذَا يَكُونُ الزَّمَنُ عَلَى الْمُبْتَلَى كَلِمَاءَ الَّذِي جَدَّ

لا يتحرك ولا يتسائر. فيلوح الشر وكأنه دائماً لا يزال في أوله يُنذِرُ بالأهوال ، وقد يكون هَوْلُهُ انتهى أو يُوشِكُ .

قال الرجل : وكنت أرى يأسى قد اعتري كلَّ شيء ، فامتدَّ إلى آخر الكون وإلى آخر الزمن ؛ فلما سكن ما بى إذا هو قد كان يأسَ يومٍ أو أيامٍ في مكانٍ من الأمكنة ؛ أما ما وراء هذه الأيام وما خلف هذا المكان ، فذلك حكمه حكم الشمس التي تطلع وتغيب على الدنيا لإحيائها ، وحكم الماء الذي تهمي السماء به ليسقي الأرض وما عليها ، وحكم استمرار هذه الأجرام السماوية في مدارها لا تمسكها ولا تزنها إلا قوة خالقها .

أين أثر الإنسان الدنيء الحقير في كل ذلك ؟ وهل الحياة إلا بكل ذلك ؟ وما الذي في يد الإنسان العاجز من هذا النظام كله فيسوغ له أن يقول في حادثة من حوادثه إن الخير لا يبتدىء وإن الشر لا ينتهى ؟

تعتري المصائب هذا الإنسان لتمحو من نفسه الخسّة والدناءة ، وتكسبر الشر والكبرياء ، وتقنأ الحدة والطيش ؛ فلا يكون من حقه إلا أن يزيد بها طيشاً وحدة ، وكبرياء وشرّاً ، ودناءة وخسة ، فهذه هي مصيبة الإنسان لا تلك .
المصيبة هي ما ينشأ في الإنسان من المصيبة .

قال : ورددت الآية الكريمة في نفسى لا أشبع منها ، وجعلت أرتلها أحسن ترتيل وأطربه وأشجاه ؛ فكانت نفسى تهتر وتترجج كأنما هي تبدأ تنظيم ما فيها لإقرار كل حقيقة في موضعها بعد ذلك الاختلاط والاضطراب .

صبر النفس مع الذين يمثلون روحانياتها تمثيلاً دائماً بالغداة والعشي ، وعلى نور الحياة وظلامها ، يريدون وجه الله الذي سبيله الحب لا غيره من مال أو متاع . وتقيد العينين بهذا المثل الأعلى كما يكون الأمر في الجمال والحب ؛

والربطُ على الارادة كيلا تَتَفَلَّتْ فَتُسِفَ إلى حقائر الدنيا المسماة هُزْءًا وتهكماً
زينة الدنيا ، تلك التى تشبه حقائق الذباب العالمة . . . فتكونُ قَدْرَةَ نَجَسَةٍ ،
ولسكنها مع ذلك زينةُ الحياة لهذا الخلقِ الدُّبَابِي ...
تلك والله هى أسبابُ السعادة والقوة . أما المصائبُ كلها ، فهى فى إغفالِ
القلبِ الإنسانى عن ذكر الله .

قال : ولما صَحَّتْ تَوْبَتِي ، وَقَوِيَ اليَقِينُ فى نَفْسِي ، كَبُرَتْ رَوْحِي
وَاتَسَعَتْ ، وانبعثت لها بواعث من غير حقائق الذباب ، وأشرق فيها الجمالُ
الالهى ساطعاً من كل شىء ، وكان الصبحُ يطلعُ علىَّ كأنه ولادةٌ جديدة ،
فأنا دائماً فى عُمرِ طفل ، وجاءنى الخير من حيث أحتسبُ ولا أحتسب ،
وكأنما نمتُ فانتبَهْتُ غنياً وعمِلَ القلبُ الحى فى الزمن الحى .
ولقد أَفَدْتُ من الآية طبيعةً لم تكن فىَّ ، ولا يثبتُ معها الشرُّ أبداً ،
فأصبح من خِصالى أن أرى الحاضرَ كله متحركاً يَمُرُّ بما فيه من خيره وشره
جميعاً ، وأستشعرُ من حركته مثلما ترى عيناي من قطارِ الإبلِ يهتَرُّ تحتِ رحاله
وهو يُغْدُ السَّير .

لم أَبْعُدْ قليلاً وأنا أمشى مطمئناً تائباً متوكلاً حتى دعانى رجلٌ ذو نعمة
ومروءة وجاه ، وكأنما كلمه قلبه أو كلمه وجهى فى قلبه فاستنبتانى ، وبشَّته
حالى واقتَصَصْتُ قِصتى . فقال : سُبْحِيكَ الله بالطفل الذى كدتَ تقتله
فارجع إلى دارك . ثم وجَّهَ إلى دنانير وقال : اتَّجِرْ بهذه على اسم الله وبركته
فسيبنوا فيها طفلٌ من المال يبلغُ أشدَّهُ . وقد صدق إيمانه وإيمانى ، فبارك لى الله
ونما طفلُ المال وبلغَ وجاوزَ إلى شبابه .

قال المسيَّب : وجلس الرجل وكان كالخطيب على المنبر ، فقال الإمام :
ما أشبه النكبةَ بالبيضة تُحَسَّبُ سَجَنًا لما فيها ، وهي تحوطُه وتربِّيهِ وتُعِينُهُ
على تمامه ، وليس عليه إلا الصبرُ إلى مدة ، والرضى إلى غاية ، ثم تَنقُفُ البيضةُ
فيخرجُ خلقًا آخر .

وما المؤمنُ في دنياه إلا كالفرخ في بيضته ، عمله أن يتكوَّنَ فيها ، وتماؤه
أن ينبثقَ شخصه الكاملُ فيخرجَ إلى عالمِهِ الكامل .

الاتحار

٤

قال المسيَّب بن رافع : ومدَّ الإمامُ عيْنَه وقد رُفِعَ له شخصٌ من المجلس ؛
ثم جلى بنظره كأنما يتطلَّعُ إلى عجيبةٍ كالخق إذا بطل ، والصدق إذا كذب ؛
ثم ردَّ بصره علىَّ كأنه يُعَجِّبُنِي من عجيبةٍ ؛ ثم سَجَا طرفه كأنما أنكرَ رأى
عينيه فهو يلتبسُ رأى قلبه . وتبيَّنتُ في وجهه انقباضًا خيَلُ إلى أن الشيطانَ
جاء بهذا الرجل يُفَحِّمُهُ به يُريه كيف يجعلُ أحدَ المؤمنين الصالحين يتحمَّسُ
في دينه ليرجعَ بعد ذلك أصلًا لا غنى عنه في إنشاء قصةٍ كفر !

هذا هو ضيفنا (أبو محمد البصري) يتخوَّضُ الناسُ ليجيئ فيحدثنا
حديثه في قتل نفسه والاثم برَّبه ؛ فلو قيل لى : إن قوَّسَ السماءَ بأحمره وأصفره
وأزرقه وأخضره ، قد وقع إلى الأرض واصطبغ من ألوانه أوحلاً وأقذاراً ؛
لكان هذا كهذا في تعاظمه وإنكاره والعجب منه ؛ فأبو محمد من الرجال

الْحُمْسُ^(١) الذين لو كَفَرُوا أَحَدُهُمْ ثُمَّ قِيلَ «إِنَّهُ كَفَرَ» ، لَقَصَّرَ اللَّفْظُ أَنْ يَبْلُغَ الْحَقِيقَةَ أَوْ يَصِفَ شُعْنَهَا ، كَمَا يَقْصُرُ لَفْظُ الْجَنُونِ عَنْ وَصْفِ حَكِيمٍ تَأَلَّى أَنْ يَعْمَلَ عَمَلًا يُخْرِجُهُ مِنَ الْكُفْرِ ، فَلَا يَبْقَى فِي أَرْضٍ وَلَا سَمَاءٍ وَلَا تَنَالُهُ يَدُ اللَّهِ ! إِنْ فِي لَفْظِ الْكُفْرِ مَعْ ذَاكَ ، وَفِي لَفْظِ الْجَنُونِ مَعْ هَذَا — شَيْئًا مِنْ نِفَاقِ الْعَقْلِ وَتَأْذِيهِ فِي آدَاءِ الْمَعْنَى الْأَخْرَقِ الَّذِي لَا يُشَبَّهُهُ جُنُونٌ وَلَا كُفْرٌ .

وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ خِذْلَانِهِ ؛ فَلَقَدْ يَكُونُ الرَّجُلُ الْمُؤْمِنُ فِي تَشَدُّدِهِ وَإِغَالِهِ فِي الدِّينِ — كَالَّذِي يَصْنَعُ حَبْلًا يَفْتَلُهُ فِتْنًا شَدِيدًا فَيُمِرُّهُ عَلَى طَاقٍ بَعْدَ طَاقٍ ، لِيَكُونَ أَشَدَّ لَهُ وَأَقْوَى ، ثُمَّ يُجَادِبُهُ الشَّيْطَانُ حَبْلَهُ ، فَإِذَا هُوَ كَانَ فِي الْوَهْنِ مِثْلَ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا فِي سَقْفِ حَدَادٍ ؛ فَرَأَتْهُ يَصُبُّ الْحَدِيدَ الْمَصْهُورَ يَجْعَلُهُ سَاسِلَةً حَلَقَةً فِي حَلَقَةٍ ، فَذَهَبَتْ تَحْكِيهِ وَتُرْسِلُ مِنْ أَلْعَابِهَا خِيطًا فِي خِيَطِ تَرْزَعِهِ سَاسِلَةً . . . !

إِنْ مَعَ كُلِّ مُؤْمِنٍ شَيْطَانُهُ يَتَرَبَّصُ بِهِ ، فَلِهَذَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَكُونَ فِي كُلِّ سَاعَةٍ كَالَّذِي يَشْعُرُ أَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ إِلَّا مِنْذُ سَاعَةٍ ، فَهُوَ أَبَدًا مُحْتَرِسٌ مُتَهَيِّئٌ مُتَجَدِّدُ الْحَوَاسِّ مُرْهَفُهَا يَسْتَقْبِلُ بِهَا الدُّنْيَا جَدِيدَةً عَلَى نَفْسِهِ بَيْنَ الْفَتْرَةِ وَالْفَتْرَةِ ؛ وَمِنْ هَذَا حِكْمَةُ أَنْ يُؤْذَنَ لِلْمُؤْذَنِ وَأَنْ تُقَامَ الصَّلَاةُ مَرَارًا فِي الْيَوْمِ ، فَكَلِمَا بَدَأَ وَقْتُ قَالِ الْمُؤْمِنُ : الْآنَ أَبْدَأُ إِيمَانِي أَطْهَرَ مَا كَانَ وَأَقْوَى .

وَقَالَ الْإِمَامُ : هَيْه يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ! فَقَالَ الْبَصْرِيُّ وَقَدْ رَأَى الْكَرَاهَةَ فِي وَجْهِ الْإِمَامِ : لَا يُفْزِعُكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ يَجْعَلُ مَا يَحِبُّهُ هُوَ فِي مَا نَكْرَهُ نَحْنُ ؛ وَلَيْسَ لِلْأَقْدَارِ لُغَةٌ فَتَجَرَّى عَلَى أَلْفَاظِنَا ؛ وَقَدْ نُسَمَّى النَّازِلَةَ تَنْزِيلًا بِنَا خَسَارًا وَهِيَ رِيحٌ ، أَوْ نَقُولُ مُصِيبَةً جَاءَتْ لِتَبْدِيلِ الْحَيَاةِ ، وَلَا تَكُونُ إِلَّا طَرِيقَةً

(١) أَيْ الْمُتَحَمِّسِينَ فِي دِينِهِمْ .

تَيَسَّرَتْ لتبديل الفكر . إنما لغة القدر في شيء هي حقيقة هذا الشيء حين تظهر الحقيقة ؛ وكأني من حادثة لا تصيب امرأ في نفسه إلا لتقع بها الحرب بين هذه النفس وبين غرائزها . فتكون أعمال الطبيعة المعادية أسباباً في أعمال العقل المنتصر .

وكثير من هذا البلاء الذي يُقضى على الإنسان ، لا يكون إلا وسائل من القدر يُردّ بها الإنسان إلى عالم فكره الخاص به ؛ فإن هذه الدنيا عالم واحد لكل من فيها ، ولكن دائرة الفكر والنفس هي لصاحبها عالمه وحده . والسعيد من قرّ في عالمه هذا واستطاع أن يحكم فيه كالملك في مملكته ، نافذ الأمر في صغيرتها وكبيرتها ؛ والشقي من لا يزال ضائعاً بين عوالم الناس ، ينظر إلى هذا الغنى ، وإلى ذاك المحدود ، وإلى ذلك الموفق ؛ وهو في كل هذا كالأجنبي في غير بلده وغير قومه وغير أهله ، إذ كل شيء يصبح أجنياً عن الإنسان مادام هو أجنبياً عن نفسه .

لقد كنت ضالاً عن نفسي وعالمها ، فكنت في هذه الدنيا أستشعر شعور اللص ، أشياءه هي أشياء الناس جميعاً ؛ واللعن ينظر إلى أموال الناس بعيني شاعر مُتَحَبِّبٍ كَلِيفٍ ، وهي تنظر إليه بعيني مُقَاتِلٍ متربصٍ حذر .

كنت والله إن ضقت بالناس أو وسعهم ؛ رأيت في ذلك معنى من ضيق اللص وسعته ؛ هو على أي حاله لا ينظر في أعماق نفسه إلا لشخص متواريا تحت الظلام يتسلل في خشيّة وحذر !

وكنت نزقاً حديد الطبع سريع البادرة ؛ ومن فقد عالم نفسه وكان في مثل اللص الذي ذكرت ؛ فإن هذه الطباع تكون هي أسلحته يدفع بها أو يعتدى . وما قط تمكن إنسان من نفسه وأحاط بها ونفذ فيها تصرفه ؛ إلا كان راضياً عن كل شيء ، إذ يتصل من كل شيء بمجهته السامية لا غيرها ،

حتى في اتصاله بأعدائه من الناس وأعدائه من الأشياء ؛ فما يرى هؤلاء ولا هؤلاء إلا امتحاناً لفضائله وإثباتاً لها . وقد يكون عدوك في بعض الأمور عينا لك في رؤية نفسك ؛ ففيه بركة هذه الحاسة ونعمتها .

ولو نحن كنا مسلمين إسلام نبينا (صلى الله عليه وسلم) ، وإسلام المقتدين به من أصحابه — لأدركنا سر الكمال الإنساني ؛ وهو أن يقر الإنسان في عالم نفسه ويجعل باطنه كباطن كل شيء إلهي ، ليس فيه إلا قانونه الواحد المستمر به إلى جهة الكمال ، المرتفع به من أجل كماله عن دوافع غيره ؛ فنظر الإنسان إلى نقص غيره هو أول نقصه . والمؤمن كالغصن ؛ إن أثمر فثلك ثمار نفسه ، وإن عطل لم يشحد ولم يحسد واستمر يعمل بقانونه .

ولقد نشأت في مغرس كريم ، على صورة من الحياة تشبه صورة الثرة الحلوة ، اجتمع لها من طبيعة مغرسها ومرتبها ما تتعين به من حلاوة ونكهة ومذاق ؛ فلما عقلت وعرفت الناس بعد فجارتهم وخالطتهم ، رأيتني منهم كالتفاحة ملقاة في البصل . . . وكانت التفاحة حقا فزادت حقا ، وكانت حديدة فزادت حدة ، وظننت أن الحكمة قد مسخت في الدنيا وبدأت إذ خلقت البصلة بعد أن خلقت التفاحة ؛ وما علمت الخرقاء أن الكمال في هذه الحياة مجموع نقائص ، وأن للجمال وجبين : أحدهما الذي اسمه القبح ؛ لا يعرف هذا إلا من هذا ؛ وأن البصلة لو أدركت ما يريد الناس من معناها ومعنى التفاحة لسمت نفسها هي التفاحة ، وقالت عن هذه إنها هي البصلة !

ولما رأت تقاحت أنها عاجزة أن تجعل الشجر كله في مثل مرتبتها ومغرسها — قالت : إن الأمر أكبر من طبعي ، وما دام سر الكون مغلقاً فلا تعريف له إلا أنه سر مغلق ، وليبق كل شيء في طبيعة نفسه ، فعلى هذا يصلح كل شيء ولو في نفسه وحدها .

قال أبو محمد : ولكن بقيت وَحْشَةُ الدنيا وَجَفَوْتُهَا ، إذ لم أكن اهتديتُ
إلى عالمي ، ولا تأكَّدتُ عقيدتي بنفسي ؛ فكان كل ما حولي مُنبَجِسًا في رُوحِي
بِشِرِّهِ ، وكانت الدنيا بهذا كالمتطابقة في رأيي على معنى واحد ، وزادني أني
كنتُ رجلًا عَزَبًا مُتَعَفِّفًا ؛ وما أشبه فراغَ الرجولة من المرأة بفراغ العقل من
الذكاء ؛ هذا هو العقلُ البليد ، وتلك هي الرجولةُ البليدة !

والمرأة تُضَاعِفُ معنى الحياة في النفس ، فلا جَرَمَ كان الخلاء منها مضاعفةً
لمعنى الموت ؛ عِلْمَ هذا مَنْ عِلِمَ وَجْهَلُهُ مَنْ جَهِلَ ، فكنتُ أعيش من الكون في
فراغٍ مَيِّتٍ ، وكنتُ أُحِسُّ في كل ما حولي وحشةً عقليةً تُشْعِرُنِي أَنَّ الدنيا غيرُ
تَامَةٍ ؛ وكيف تتمُّ في عيني دنيا أراها غيرَ الدنيا التي في قلبي ؟

وعرفتُ أن كلَّ يومٍ يمضي على الرجل العزب المتعفف لا يمضي حتى يهَيِّئَ
فيه مَرَضَ يومٍ آخَرَ . ومن هذه الأيام المريضة المتهالكة ، تُعَدُّ الحياة انتقامها
من هذا الحَيِّ الذي نَقَضَ آيَتَهَا وافتَتَتْ عليها ، وجعل نفسه كالإله لا زوجة له
ولا صاحبة !

وَأَيْمُ اللَّهِ إِنْ الشَّيْطَانَ لَا يَفْرَحُ بِالرَّجُلِ الزَّانِي وبِالْمَرْأَةِ الزَّانِيَةِ مَا يَفْرَحُ
بِالرَّجُلِ الْعَزَبِ وبِالْمَرْأَةِ الْعَزْبَاءِ ؛ لِأَنَّهُ فِي ذِينِكَ رَذِيلَةٌ فِي أُسْلُوبِهَا ، أَمَا فِي هَذَيْنِ
فَالشَّيْطَانُ رَذِيلَةٌ فِي أُسْلُوبِ فَضِيلَةٍ . . . هُنَاكَ يُبْلِمُ الشَّيْطَانُ وَيَمُضِي ، وَهُنَا يَأْتِي
الشَّيْطَانُ وَيُقِيمُ !

وقد عشتُ ما عشتُ بقلبي مُغْلَقٍ وعقلي مُفْتَوَحٍ ؛ وليتني كنتُ جاهلاً
مُغْلَقًا عقله ، وكان قلبي مفتوحاً لأفراح هذا الكون العظيم !

ومضتُ أَيَّامِي يَضْرِبُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ ، وَيُمِرُّ ضُ بَعْضُهَا بَعْضًا حَتَّى اتَّهَتْ
مُنْتَهَايَا ، وجاء اليومُ المُدَنَّفُ الهالكُ الذي سيموت . . .

أصبحتُ فقلتُ لنفسِي : كم تعيشين ويحك في أحكام جسدٍ مُخْتَلٍّ

لا تصدقُ أحكامه ، وما أنتِ معه في طبيعتك ولا هو معكِ في طبيعته ؛ فقيم اجتماعكما إلا على بلائى ونكدى ؟

لم تصطلحا قط على واجبٍ ولألذة ، ولا حلال ولا حرام ؛ فأتما عدوان لاهمَّ لكليهما إلا إفسادُ المسرةِ التى تعرضُ للآخر . وما أدرى بمن يسخرُ الشيطانُ منكما ؟ فالعابدُ الذى يُوسوسُ بالذاتِ يتنى اقترافها ، كالفاجر الذى يُواقعها ويقتحمها !

ويحك يا نفس ! إني رأيت هذه الدنيا الخرقاء لم تُقدِّم لى إلا رغبةً وقالت : املا بهذا بطنك وعقلك وعينيك وأذنك ومشاعرك . آه ، آه ! ممكِّن واحدٌ معه أربعةٌ مستحيلات ^(١) ؛ إن هذا لا يُلبثنى أن يذهبَ منى بالأربعة التى تمسكنى على الحياة : الأمل والعقل والإيمان والصبر .

لقد استوى فى هذه الكآبة صغيرُهمى وكبيرُهمى ، وما أرانى إلا قد أشرفتُ على الهاكمةِ التى لا باقيةَ لها ، فإن وجهى المتكَلِّحَ المتقبِّضَ يدلُّ منى على أعصابٍ مُحْتَضرةٍ نهكتها أمراضها ووساوسُها ، وإنما وجهُ الإنسانِ فى قطوبه أو تهلله هو وجهه ووجهُ دنياه تعبسُ أو تبسم .

وتالله لقد عجزتُ عن كفاح الدنيا بهذه الأعصاب المريضة الواهنة ؛ فإن حِبالةَ الصَّيْدِ — صَيْدِ الوحش — لا تكون من خيط الإبرة! وأرانى أصبحتُ كإنسانٍ حَجَرى ليس فى طبيعته الالتواء إلى يمين الحياة ويسارها ؛ ويُحِيلُ إلى من صلابتى أنى الأسد ، ولكنى أسدٌ من حجر ، لا تقرضُ قوته الفرار منه على أحد !

قال أبو محمد : ورأيتُ نفسى فى هذا الحوار كالميتة ، لا تُجيب ولا تعترض

(١) الرغيف يملأ البطن فهذا هو الممكن ولكن عمله فى الباقيات مستحيل .

ولا تُنكِر، وكنتُ أظنها تُراوِدُنِي على الحياة أو تَرُدُنِي عن غَوَايِي؛ فلأني
سكونُها جزَعاً، وأيقنتُ أن الشيطانَ بيني وبينها، وأنه أخذ بمنافذها، فأردتُ
الصلاةَ فثقلتُ عنها ورأيتُني لا أصلحَ لها، بل خيَلُ إليَّ أني إذا قمتُ إلى الصلاة
فإنما قمتُ لأتهزأ بالصلاة!

وجعل الشيطانُ يأخذني عن عقلي ويردُنِي إليه، ثم يأخذني ويردُنِي، حتى
توهمتُ أني جُننتُ، وكأني ما كان يريد اللعينُ بقيةَ إيماني يجاذبني فيها وأجاذبه،
فلم ألبث أن مسَنَى خيالاً وألقيتُ هذه البقيةَ في يديه!

ثم أَقَفْتُ إفاقةً سريعةً، فرأيتُ (المصحفَ) يَرُقُبُنِي قريباً، فَعُدْتُ به
وعطفتُ عليه وقلتُ له: امْنَع الضربةَ عن قلبي. بَيَدَ أُنِي أَحْسَسْتُ أَنَّهُ خَصَمِي
في موقفي لا ظَهِيرِي؛ كأني جعلته مصحفاً عند زنديق، فكان كلُّ إيماني الذي
بقي لي في تلك اللحظة أني ضعفتُ عن سَمَلِ المصحفِ كما ثقلتُ عن الصلاة،
فبقي الطاهر طاهراً والنَجِسُ نَجِساً.

ولم تكن نفسي فيَّ ولا كنتُ فيها؛ فرأيتُ الدنيا على وجهٍ لا أدري ما هو،
غير أنه هو ما يمكن أن يكونَ معقولاً من تخاليط مجنونٍ تركه عقله من ساعة:
بقايا شعورٍ ضعيفٍ، وبقايا فهمٍ مريضٍ، تتصاغُرُ فيهما الدنيا، ويتعاقَرُ
بهما العقل.

فلما انتهيتُ إلى هذا لم أعقلُ ما عملتُ، وكانت المَوسَى قد أصابت من
يدِي عِرْقاً ناشراً مُنْتَبِراً، ففار الدَّمُ وانفجر منه مثلُ الينبوعِ ضُربَ عنه الصخرُ
فانشقَّ فانبثَقَ.

وتحقَّقت حينئذ أنه الموتُ فنظرتُ فرأيتُ ...

قال المسبِّبُ راوي القصة: وتجهَّم وجهُ الرجلِ فأطرق وسكت، وكان على

وجبه شفقٌ مُحَمَّرٌ فأظلم بغتةً عند ما قال : « فنظرتُ فرأيتُ » .

وارتجَّ المسجدُ بصيحةٍ واحدة : رأيتَ ماذا ؟ رأيتَ ماذا ؟

وبعثت الصيحةُ أبا محمد فقال : رأيتُ ثلاثةً وجوهٍ أشرفتُ من المصحفِ تنظرُ إلىَّ كالعائبة ، وكان أوسطُها كالقمر الطالع ، لو تمثلت آياتُ الجنة كلها وجهاً لكانته في نصرته وبشاشته . وغمغمت الوجوهُ الثلاثةُ بكلمات لم أسمع منها شيئاً ، ولكنَّ نظرَها إلىَّ كان يؤدِّي لي معانيها ، وكأنها تقول : « أ كذلك المؤمن ... ؟ »

ثم غابت وتخلَّت عني وبرزت ثلاثةً وجوهٍ أخرى ، كأنها نقائصُ تلك ، وأعوذ بالله من أوسطها ، لو تمثلت آياتُ الجحيم كلها وجهاً لكانته في نكره وهوله ، وخيَّل إلىَّ أن الوجهَ الأصغرَ منها وجهُ سورةٍ من سور المصحف ، ففكرتُ ، فوقَّع لي مما قام في نفسي من اللعنة أنها : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَبٍ وَتَبَّ ... »

وطمسَ الظلامُ هذه الرؤيا وتغيَّمت الدنيا ، فأيقنتُ أن آلامي قد أقباتُ على ظلمةٍ بعد ظلمةٍ ، والتعشى شئٌ أحمر ، فنظرتُ فإذا الدَّمُ يتخايلُ في عيني كأنه شعلٌ تلوَّى ، فجزعتُ أشدَّ الجزع ، وحسبتها طرائقَ ممتدةٍ لرُوحى تذهب بها إلى الجحيم .

وماتت كلُّ خواطري بعد ذلك إلا فكرةً واحدةً بقيت حيةً تأكلُ في قلبي أكلَ النار ، وهى : « كيف تجرأتُ فوضعتُ بيني وبين الله حمقى ؟ »

ويقولون : إن أختي قد رأتني أتَشَحَّطُ في دمي فصاحت ، وجاء الناس على صوتها ، وكان فيهم طبيب ، فبعد لأيٍ ما ، استطاع حبسَ الدم ، واحتال حيلته

حتى أَسَفَ الجُرحَ دواءً وضمَّده ؛ فجعلتُ أثوبُ نفسًا بعد نفس ، وراجعتُ قليلاً قليلاً ...

ثم طافت الحياة على عيني ففتحتهما ، فإذا الأشياءُ تبدولى وليس فيها حقائق ولا معانٍ ، كأنها تتخلَّقُ جديدةً تحت بصرى ، وكأنها خارجةٌ لساعتها من يد الله !

وتماثلت شيئاً بعد ساعات ، فأحسستُ أن نفسى قد رجعتُ إلى سخرةٍ منى تقول : كيف رأيتَ عَمَلَ العقلِ أيُّها العاقل ؟

وبدأت الحياة تتجدد ، فأقسمتُ بينى وبين نفسى أن أجددُ إيمانى بالله . ولم أكد أفعَلُ حتى أحسستُ كأن قوَّةَ الوجودِ كلها مستقرَّةٌ فى روحى ، وخيلَ إلىَّ أنى أنا وحدى القويُّ على هذه الأرض قوَّةَ جبالها وصخورها ، على حين كان جسمى ممدداً كالنيت لا يتماسكُ من الضعف !

فأيقنتُ حينئذٍ ما لم أعرفه قط من الدنيا ولم أشعر به قط فى الحياة ولم يأتنى به علمٌ ولا فكر : أيقنتُ أنها مُعجزةُ الإيمان الجديد الغضِّ ، المتَّصلُ بالله لتوِّه كإيمان الأنبياء دون أن تلمسه شهوة ، أو تعترضه خاطرة ، أو تكدره ذرَّةٌ واحدة من فكرٍ أرضيٍّ دَنِسٍ

قال المسيب : ثم جلس المتحدث ، وكان الناسُ فى آخر كلامه كأنما غادروا الدنيا ساعةً ، ورجعوا إليها على مثل حالته ومثل إيمانه ؛ فسكت الإمام ولم يتكلم ، ليدعَ كلَّ نفسٍ تكلمُ صاحبها .

الاتحار

هـ

قال المسيَّب بن رافع : وأطرقَ الناسُ قليلاً بعدَ خَبَرِ (أبي محمد البَصْرِي) ؛
إذْ كانَ كلُّ مُنْهَمٍ قد جَمَعَ باله لِما سَمِعَ ، وأخذَ يَحْدِسُ في نفسه ويَراجِعُها الرأى ،
وكانَ المجلسُ قد امتدَّ بنا منذَ العَصْرِ وما يكادُ النهارُ يُشْعِرُنَا بِإِدْبَارِهِ ، حتَّى
اعتَرَضَتْ في شَمْسِهِ الغُبْرَةُ التي تَعْتَرِيها إذا دَنَتْ أَنْ تَغْرُبَ . وكانَ إلى يَسَارِي
فَتَى رِيَّانُ الشَّبَابِ ، حَسَنُ الصُّورَةِ ، وَضِيءُ مُشْرِقٍ ، لَهُ هَيْئَةٌ وَسَمَتْ ، أَقْبَلَ
على الأَيامِ ، وأَقْبَلَتِ الأَيامُ عليه .

فَسَمِعَنِي أَطِنُّ على أُذُنِ (مُجَاهِدِ الأَزْدِيِّ) ؛ وَكُنْتُ أَعْرِفُهُ شاعِراً في كَلامِهِ
وَشاعِراً في قَلْبِهِ ؛ فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ النِّهارِ يا مُجَاهِدُ إِلَّا مِثْلُ صَبْرِ الحَبِّ
دَنَا لَهُ المَوْعِدُ ؛ وَلَمْ يَبْقَ مِنَ الشَّمْسِ إِلَّا مِثْلُ ما تَتَلَفَّفُ صَاحِبَتُهُ ، تَأْخُذُ عَلَيْهَا
ثَوْبُهَا وَغَلَاثِلُهَا ، وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ تُسْقِطَها مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَا ، لَتَرَى جِمالَ جَسَمِها
هنا وهنا !

فاهْتَزَّتِ الفَتَى لِهَذِهِ الكَلِمَاتِ ، وَسالتِ الرِّقَّةَ في أَعْطافِهِ ، وَقَالَ : يا عَمِّ ،
أَما تَرى ما بَقِيَ مِنَ النِّهارِ كَأَنَّهُ وَجْهُ بَاكٍِ مَسَحَ دُمُوعَهُ وَلَيْسَ حَوْلَهُ إِلَّا كِتابَةُ
الزَّمَنِ . . . ؟

قُلْتُ : كَأَنَّ لَكَ خَبِراً يا فَتَى ، فَإِنْ كانَ شَأْنُكَ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ فَقُصِّهِ عَلَيْنَا
وَعَلَّلْنَا بِهِ سائِرَ الوَقْتِ إلى أَنْ تَجِبَ الشَّمْسُ ، وَلَعَلَّكَ طائِرٌ بنا طَيْرَةَ فَوْقَ الدُّنْيَا .
قال : فَمَهْ ؟

قُلْتُ : تَقُومُ فَتُتَكَلَّمُ ، فَإِنِّي أَرى لَكَ لِساناً وَبَياناً .

قال : أَوْ يَحْسُنُ أَنْ أَتَكَلَّمَ فِي الْمَسْجِدِ عَنْ صَرْعَةِ الْحُبِّ وَصَرِيْعِهِ ، وَعَاشِقِهِ
وعاشق ؟

فبادر مجاهدٌ فقال : ويحك يا فتى ! لقد تَحَجَّرَتْ واسِعاً ؛ إِنْ الْمُؤْمِنَ
لِيَصِلَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَكِتَابُ سَيِّئَاتِهِ فِي عُنُقِهِ مَنْشُورٌ مَقْرُوءٌ . وَهَلْ أَوْقَاتُ الصَّلَاةِ
إِلَّا سَاعَاتٌ قَلْبِيَّةٌ لِكُلِّ يَوْمٍ مِنَ الزَّمَنِ ، تَأْتِي السَّاعَةُ مِمَّا قَبْلُهَا كَمَا تَأْتِي تَوْبَةُ
الْقَلْبِ مِمَّا عَمِلَ الْجِسْمُ ؟ إِنَّمَا يَتَلَقَّى الْمَسْجِدُ مَنْ يَدْخُلُهُ لِسَاعَتِهِ الَّتِي يَدْخُلُهَا فِيهَا ،
وَلَوْ أَنَّهُ حَاسِبُهُ عَنْ أَمْسٍ وَأَوَّلٍ مِنْهُ وَمَا خَلَا مِنْ قَبْلِ ، لَطَرَدَهُ مِنَ الْعَتَبَةِ !
إِنَّ الْمَسْجِدَ يَا بَنِيَّ إِنَّمَا يَقُولُ لِدَاخِلِهِ : أَدْخُلْ فِي زَمَنِي وَدَعْ زَمَنَكَ ، وَتَعَالِ إِلَى
أَيُّهَا الْإِنْسَانُ الْأَرْضِيُّ ، لِنَتَحَقَّقَ أَنْ فِيكَ حَاسَّةٌ مِنَ السَّمَاءِ ، وَجِئْتَنِي بِقَلْبِكَ
وَفِكْرِكَ ، لِيَشْعُرَا سَاعَةً أَنَّهُمَا فِي لَافِيكَ ^(١) . وَلَسْنَا الْآنَ يَا بَنِيَّ فِي مُتَحَدِّثٍ
كَفَنَدِيِّ الْقَوْمِ يَتَطَارَحُونَ فِيهِ أَخْبَارَهُمْ ، بَلْ نَحْنُ فِي مَجْلِسِ عِلْمٍ تَكَلَّمْتُ فِيهِ
رَقَبَةً هَذَا وَرَقَبَةً هَذَا بِمَا سَمِعْتُ ؛ فَقُمْ أَنْتَ فَادْكُرْ عِلْمَ قَلْبِكَ وَقَصِّ عَلَيْنَا خَبَرَ
طَيْشِ الْحُبِّ وَالشَّبَابِ الَّذِي يُشَبِّهُ الْكَلَامُ فِيهِ أَنْ يَكُونَ كَلَامًا عَنِ الصُّعُودِ إِلَى
الْقَمَرِ وَالْقَبْضِ مِنْ هُنَاكَ عَلَى الْبَرْقِ !

قال المَسِيَّبُ : فَاتَهَضَّ الْفَتَى ، وَرَأَيْتُ مُجَاهِدًا يَتَهَدَّدُ كَأَنَّمَا انْصَدَعَتْ
كَبِدُهُ : فَقُلْتُ : مَا بِأَلَاكَ ؟ قَالَ : إِنْ شَبَابِي قَدْ مَرَّ عَلَى السَّاعَةِ فَتَسَمَّتْ مِنْهُ
فِي بُرْدَةِ هَذَا الْفَتَى ، ثُمَّ فَقَدْتُهُ فَقَدْأً ثَانِيًا فَهَرِمْتُ هَرَمًا ثَانِيًا ، وَجَاءَنِي الْحُزْنُ
مِنْ إِحْسَاسِي بِأَنِّي شَيْخٌ ، حُزْنٌ مِّنْ هَمٍّ أَنْ يَدْخُلَ بَابَ حَبِيبٍ ثُمَّ رَدُّ ... !
وَتَحَدَّثَ الْفَتَى ، فَإِذَا هُوَ يُدِيرُ بَيْنَ فَكِّهِ لِسَانَ شَاعِرٍ عَظِيمٍ ، يَتَكَلَّمُ كَلَامَهُ

(١) سَتَأْتِي فِلْسُفَةُ الْمَسْجِدِ فِي مَقَالَاتٍ أُخْرَى مِمَّا يَجْمَعُ هَذَا الْكِتَابَ ، وَانْظُرْ مَقَالَه
(الله أكبر) .

بنفسين : إحداهما بشرية تصنع المعنى واللفظ ، والأخرى علوية تلقى فيها
النار والنور .

قال : إن لي قصة أيها الشيخ ، لم يبقَ منها إلا الكلام الذي دُفِنَتْ فيه
معانيها ؛ وقد تأتي القصة من أخبار القلب مُفَعَّمَةً بالآلام والأحزان ، لا يُراد
بالآلام وأحزانها إلا إيجاد أخلاقٍ للقلب يعيشُ بها ويتبدَّل . والذي قُدِّرَ عليه
الحبُّ لا يكون قد أحبَّ غيره أكثرَ مما يكون قد تعلم كيف ينسى نفسه في
غيره ، وهذه كما هي أعلى درجات الحب ؛ فهي أعلى مراتب الإحسان .
ومتى صدق المرء في حبه كانت فكرته فكريتين : إحداهما فكرة ،
والأخرى عقيدة تجعل هذه الفكرة ثابتة لا تتغير ؛ وهذه كما هي طبيعة الحب
فهى طبيعة الدين .

ولاشيء في الدنيا غيرُ الحب يستطيع أن ينقل إلى الدنيا ناراً صغيرة
وجنة صغيرة ، بقدر ما يكفي عذاب نفسٍ واحدةٍ أو نعيمها ! وهذه حالة
فوق البشرية .

والفضائلُ علمتها تعمل في نقل الإنسان من حيوانيته ، وقد لا تنقل إلا أقله
ويبقى في الحيوانية أكثره ؛ ولكنَّ الحبَّ الصادقَ يقتلع الإنسان من حيوانيته
بمرة واحدة ، بيد أنه لا يكون كذلك إلا إذا قتله بالآلام ؛ فهو كأعلى
النسك والعبادة .

كان من خبري أني دُعيتُ يوماً إلى ما يُدعى لمشلة الشباب في مجلس غناء
وشراب . يالهُ من مجلس ! وقد قال تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ
مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا » ، والبعوضة في قصتي أنا كانت امرأة نصرانية . . .
قينة فلان المغنية الحاذقة المحسنة للتأدبة ، تحفظ الخبر وتروى الشعر ، وتتكلم بالفاظٍ
فيها حلاوة وجهها ، وتخلق النسك إذا شاءت خلق الزهرة المتفتحة عليها سقيط

الندى ؛ وتجدُّ بالحديث ما شاءت وتهزِّل ، فتجعل للكلام عقلاً وشهوة تضاعفُ بهما مَنْ تحدِّثه في شهواته وعقله !

وستجرى في قصتها ألفاظُ القصةِ نفسها ، لا تأتُّم من ذلك ولا أتدَّم ؛ فقد ذكر الله الحمرَ بلفظ الحمر ولم يقل : « الماء الذي فيه الشُّكر » ، ووصفَ الشيطانَ ولم يقل : « الملك الذي عملَ المرأةُ الحسناء في تكبرها » ، وذكر الأصنامَ بأنها الأصنام ، ولم يُسمَّها : « حاملة السماء التي يصنعها الإنسان بيديه » وحكاية ما بين الرجل والمرأة هي كلامٌ يقبلُ بعضه بعضاً ويلتزمُ ويتعاقق ! قال المسيب : فتبسم إمامنا ونظرتُ عيناه تسألان سؤالاً . أما مجاهدُ الأزديِّ فكان من هزّة الطرب كأنه على قتبٍ بغير ، وقال : لله درّه فتى ، إن هذا لبيانٌ كحيلُ العين ...

ثم قال الفتى : وذهبتُ إلى المجلس وقد جعلته هذه المغنيةُ من حواشيه وأطرافه كأنه تفسيرٌ لها هي . أما هي فجعلت نفسها تفسيراً لكلمةٍ واحدة هي : « اللذة ... »

قال المسيب : وطرب مجاهدٌ طرباً شديداً ، وسمعه يُخافت بصوته يقول : « لله درّها امرأة ؛ هذه ، هذه عدوةُ الجورِ العين ! »

ثم قال الفتى : وتطرب جماعةُ أهلِ المجلس إلى الشرب ، وماذقتُ خمرًا قط ، ولن أذوقها ولو شربها الناسُ جميعاً ، ولن أذوقها ولو انقطع الغيثُ ولم تمطر السماءُ إلا خمرًا ؛ فإني مذ كنت يافعا رأيتُ أبي يشربها ، وكانت أمي تلومه فيها وتستدُّ في تعنيفه وتحتدِّم ، وكانا يتشاحنان فينالها بالأذى ويندرئُ عليها بالسبِّ وفحشِ القول . وسكر مرة وغلبه السكرُ حتى ثارت أحشاؤه ، فذرعَه القىء فتوهَّني وعاء ، وجاء إلى وأنا جالسٌ فأمسك بي وقاء في حجرى ، حتى أفرغ جوفه ؛ وثارت أمي لتنزعه وأنشأتُ تعالجه عنى فتصارع جنونه وعقلها حتى

كَفَّاتِهِ عَلَى وَجْهِهِ كَالْإِنَاءِ ؛ فَالتَوَى كَالْحَيَّةِ بَطْنًا لظَهْرِ ، وَاسْتَجْمَعَ كَالْقَنْفِذِ فِي شَوْكِهِ ، ثُمَّ لَكَزَهَا بِرِجْلِهِ أَسْفَلَ بَطْنِهَا فَانْقَلَبَتْ ، وَأَصَابَ رَأْسُهَا إِجَّانَةً ^(١) الْعَجِينَ فَتَثَلَّمَ تَثَلِّمَ الْإِنَاءِ كَأَنَّمَا شُدَّ خَ ضَرْبًا بِحَجَرٍ ، وَانْتَثَرَتْ دِمَاغُهَا عَلَى الْأَرْضِ أَمَامَ عَيْنِي ، وَرَأَيْتُهَا لَمْ تَزِدْ عَلَى أَنْ دَفَعَتْ بِإِحْدَى يَدَيْهَا فِي الْهَوَاءِ ، وَضَمَّتْ بِالْأُخْرَى إِلَى صَدْرِهَا ، تَتَوَهَّمُ أَنَّهَا تَحْمِيْنِي وَتَدْفَعُهُ عَنِّي ؛ ثُمَّ سَكَنتُ ، وَلَوْ لَمْ تَمُتْ مِنَ الشَّجَّةِ فِي رَأْسِهَا لَمَاتَتْ مِنَ الضَّرْبَةِ فِي بَطْنِهَا !

قَالَ الْمَسِيْبُ : وَأَطْرَقَ الْفَتَى هُنَيْهَةً وَأَطْرَقَ النَّاسُ مَعَهُ ؛ فَرَفَعَ مُجَاهِدٌ صَوْتَهُ وَقَالَ : رَحِمَهَا اللَّهُ ! فَقَالَ النَّاسُ جَمِيعًا : رَحِمَهَا اللَّهُ !

ثُمَّ قَالَ الْفَتَى : وَكَانَ عَامَّةٌ مَنِ فِي الْمَجْلِسِ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ مِنِّي ، وَيَعْرِفُونَ أَنَّهُ لَوْ سَاغَ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَشْرَبَ دَمَ أُمِّهِ مَا شَرِبْتُ أَنَا الْحَمْرَ . فَقَالُوا لِلْمَغْنِيَّةِ : إِنْ هَذَا لَا يَدْخُلُ فِي دِيْوَانِنَا ^(٢) . فَنَظَرْتُ إِلَى ، وَهَرَبْتُ أَنَا مِنْ نَظَرِهَا بِإِطْرَاقَةٍ ؛ ثُمَّ قَالَتْ : تَشْرَبُ عَلَى وَجْهِى ؟ فَقُلْتُ لَهَا : إِنْ وَجْهَكَ يَقُولُ لِي : لَا تَشْرَبُ فَتَضَاحَكْتُ وَقَالَتْ : أَهْوِ يَقُولُ لَكَ غَيْرَ مَا يَقُولُ لَهُؤُلَاءِ ؟ فَهَرَبْتُ مِنْ كَلَامِهَا بِإِطْرَاقَةٍ أُخْرَى ، وَوَصَلَتْ الْإِطْرَاقَتَانِ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ قَلْبِهَا ؛ وَتَنَبَّهَ فِيهَا مِثْلُ خُنُوِّ الْأُمِّ عَلَى طِفْلِهَا إِذَا آذَنَتْ بِلِسَانِهَا فَاطْرُقَ سَاكِنًا يَشْكُوهَا إِلَى قَلْبِهَا !

وَالْتَفَتْتُ لِمَنْ حَضَرَ وَقَالَتْ لَهُمْ : لَسْتُ أَطِيبُ لَكُمْ وَلَا تَتَنَفَعُونَ بِي إِلَّا أَنْ تَشْرَبُوا لِي وَلَهُ وَلَا نَفْسَكُمْ ، وَانْحَطَّ عَلَيْهِمُ السَّاقِ ، فَشَرَبُوا أَرْطَالًا وَأَرْطَالًا ، وَهِيَ بَيْنَ ذَلِكَ تَغْنِيهِمْ وَقَدْ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِمْ وَخَلَا وَجْهُهَا لَهُمْ مِنْ دُونِي وَإِنَّمَا تُخَالِسُنِي النَّظْرَةَ بَعْدَ النَّظْرَةِ .

(١) هِيَ مَا يَعْجَنُ فِيهِ الْعَجِينَ وَتَغْسَلُ فِيهِ الثِّيَابَ ، وَقَدْ يَوْضَعُ فِيهَا الْمَاءَ لِيَتَوَضَّأَ مِنْهُ ، وَتَتَخَذُ مِنْ حَجَرٍ أَوْ خَزَفٍ أَوْ غَيْرِهَا .

(٢) تَعْبِيرٌ قَدِيمٌ كَانُوا يَرِيدُونَ بِهِ الشَّرْبَ كَأَنَّهُ دِيْوَانُ مَلِكٍ .

فوسوس لي شيطاني أن تشدد مع هذه بمثل عزمتك مع الخمر فإنما هاشيء واحد . ولكنني كنت أجد النظر إليها ، فمرة أو أمة نظرة الحب للحبيب ، ومرة أغضى عنها بنظرة لا تنظر ؛ وكأني بذلك كنت أخذها وأدعها ، وأصاها وأهجرها . فقالت لي كالمُنكرَة على : ما بالك تنظر إلي هكذا ؟ ولكن هيئة وجهها جعلت المعنى : لا تنظر إلي إلا هكذا !

وأسرع الشراب في القوم وأفرط عليهم السكر ؛ فبقيت لي وحدي وبقيت لها وحدها ؛ ثم تناولت عودها وضمتها إليها ضمّاً شديداً أكثر من الضم . . . وألمسته صدرها ونهديها ، ثم رنت إلي بمعنى ، فما شككت أنها ضمة لي أنا والعود ؛ ثم غنت هذا الصوت :

ألا قاتل الله الحمامة غدوة

على الغصن ؛ ماذا هيّجت حين غنت ؟
فما سكنت حتى أويت لصوتها ،
وقلت : ترى هذي الحمامة جنت ؟

وما وجد أعرابية قدفت بها
صُروف النوى من حيث لم تك ظننت ...
إذا ذكرت ماء العِضاء وطيبه ،
وبرّد الحمى من بطن خبت ، أرنت ...
بأكثر مني لوعة ، غير أنني

أججم أحشائي على ما أجت !
وغنّته غناء من قلب يئن ، وصدر يتهد ، وأحشاء لا تخفي ما أجت ؛
وكانت ترتفع بالصوت ثم كأنما يهيمى الدمع على صوتها ، فيرتعش ويتنزل

قليلاً قليلاً حتى يئن أنينَ الباكية ، ثم يعتلجُ في صدرها مع الحب ، فيتردد
عاليّاً ونازلاً ، ثم يرفضُ الكلامُ في آخره دموعاً تجري .

قال المسيّب : فنظر إلى مجاهد وقال : عدوةُ الجنةِ واللهِ هذه يا أبا محمد ،
لا تقبلُ الجنةَ من يكون معها . تقول له : كنتَ مع عدوّتي !

ثم قال الفتى : وكان القوم قد انتشوا ، فاعتراهم نصفُ النوم وبقى نصفُ
اليقظة في حواسهم ، فكل ما رأوه منا رأوه كأحلام لا وجود لها إلا خاف
أجفانهم المُثقلة سكرًا ونعاسًا . ووثبت المغنية فجاءت إلى جانبي والتصقت بي ،
وأسرع الشيطانُ فوسوس لي : أن احذر فإنك رجلٌ صدق ، وإذا صدقتَ
في الخمر فلا تسكذبَنَّ في هذه ، ولئن مسستها إنها اضياعك آخر الدهر !

فعجبتُ أشدَّ العجب أن يكون شيطاني أسلم وأُعنتُ عليه كما أُعين
الأنبياء على شياطينهم . ولكن العين مضي يصدّني عن المرأة دون معانيها ،
وكان مني كالذي يُدنى الماء من عيني القليل المتأهب جوفه ثم يجعله دائماً
فوّتَ فيه ، ولقد كنتُ من الفحولة بحيث يبدو لي من شدة الفورة في دمي
وشبابي أني أجمع في جسمي رجالاً عدّة ، ولكن ضربني الشيطانُ بالحجل فلم
أستطع أن أكون رجلاً مع هذه المرأة .

وعجبتُ هي لذلك وما أسرع ما نطق الشيطانُ على لسانها بالموعظة
الحسنة ... ! فقالت : لقد أحبيبتك ما لم أحبّ أحداً ، وأحبيتُ خجلك أكثر
منك ، فما يسرّني أن تأثم في فتدخل النار بحبي ، ولو أنك ابتعتني من مولاي ؟
فقلت : بكم اشتراك ؟ قالت : بألف دينار ! قلت : وأين هي مني وأنا لو بعثتُ
نفسي ما حصلتُ لي ؟

فتنمّ الشيطانُ موعظته ، وقالت وأشارت إلى قلبها : إن قلبي هذا قبلك

غنيًّا كنتَ أو فقيرًا ، وأحسَّ بك وحدك حُبَّ العذراءِ أوَّلَ ما تحبَّ ، وأنا — كما تراني — أعيش في السيئاتِ كالْمُكْرَهَةِ عليها ، فسأعمل على أن تكون أنتَ حَسَنَتِي عند الله ، أذهبُ إليه حامِلَةً في قلبي حُبِّي إياك وعفتي عنك ، وإن كانت عَفَةٌ من لا يشتهي ولا يجدُ تَعْدُ فضيلةً كاملةً ، إن عَفَةٌ من يجدُ ويشتهي لَتَعْدُ دينًا بحاله . ولا يزالُ حبي بِكِرًا ، ولا أزال في ذلك عذراء القلب ، وهؤلاء قد نزعوا الحياءَ عني من أجل أنفسهم ، فألْبَسْنِيهِ أنتَ من أجلك خاصة ؛ وإن قوة حبي كالذي سيتألم بك ويتعذَّب منك لِطُولِ ما يصبرُ عنك ، ستكون هي بعينها قوةً لفضيلاتي وطهارتي .

ثم تناولتُ عودَها وسَوَّته وغنتُ :

فلو أنا على حَجَرٍ ذُبَحْنَا جَرَى الدِّمْيَانِ بالخبرِ اليقين^(١)
وجعلتُ تنأوهُ في غنائها كأنها تُذْبَحُ ذَبْحًا ، ثم وضعتُ العودَ جانبًا وقالت :
ما أشقاني ! إذا اتفقت لي ساعةٌ زواجي في غير وقتها فجاءت كالحلم يأتي بخيال الزمن فلا يكون فيه من الأشياء إلا خيالُ الأشياء .

ثم سألتني : ما بالك لم تشرب الخمر ولم تدخل في الديوان ؟ فبدرَ شيطاني المؤمن وساق في لساني خبرَ أمي وأبي ، فانتَضَحَتْ عيناها باكيةً وتمَّ لها رأيٌ في كراي أنا في المسكر ؛ وكان شيطانها بعد ذلك شيطانًا خبيثًا مع أصحابها ، وبَطَرٍ يقًا زاهدًا معي أنا وحدي !

ورأيتهما لا تجالسنِي إلا مُتَزَايِلَةً كالْعِذْرَاءِ الْخَفْرَةِ إذا انقبضتْ وغطت وجهها ، وصارت تخافني لأنها تحبني ، وهَيَّبَنِي الشَّيْطَانُ إليها فعادت لا ترى في الرجل الذي هو تحت عينيها الثَّيْبَتَيْنِ ولكن القديس الذي تحت قلبها البكر .

(١) كانت العرب تزعم أنه إذا قتل اثنان جُزِيَ دميها على طريق واحد ثم النقا ، حكم عليهما أنهما كانا متحايين ، فإن لم يلتقيا حكم عليهما أنهما كانا متشائمين . وما أجملها خرافة وأشعرها .

ولم يُعْذِ جمالى هو الذى يُعجبها ويُضَيِّبها ، بل كان يعجبها منى أنى صنعة
فضيلتها التى لم تصنع شيئاً غيرى . . .

وانطلق الشيطانُ بعد ذلك فىَّ وفيها بدهائه وحُسنِ كَيْتِه وبكلِّ ما جَرَّبَ
فى النساء والرجال من لَذُنِ آدَمَ وحواءَ إلى يومى ويومها . . . ! فكان يجذبني
إليها أشدَّ الجذب ، ويدفعها عنى أقوى الدفع ، ثم يُغرينى بكلِّ رذائلها
ولا يغريها هى إلا بفضائلى . وألقى منها فى دُمى فكرةَ شهوةٍ مَجْنُونَةٍ متقلِّبة ،
وألقى منى فى دمها فكرةَ حكمةٍ رزينةٍ مستقرَّة . وكنت ألقاها كلَّ يومٍ وأسمع
غناءها ؛ فما هو بالغناء ولكنه صوتُ كلِّ ما فيها لكلِّ ما فىَّ ، حتى لو التصقَ
جسمُها بجسمى وسارَّ البدنُ البدنَ ، وهَمَسَ الدمُ للدم ، لكان هو هذا الغناء
الذى تغنيهِ .

وأصبحت كلما استقمت لحبها تَلَوْتُ عَلَىَّ ؛ إذ لست عندها إلا الأمل فى
المَغْفِرَةِ والثواب ، وكأنما مُسَخَّتُ حَبلاً طوله من هنا إلى الجنة لتتعلق به . وعاد
امتناعها منى جنوناً دينياً ما يفارقها ، فابتلانى هذا بمثل الجنون فى حبها من
كَلَفٍ وشَغَفٍ .

وانحصرتُ نفسى فيها ، فرجعت معها أشدَّ غباوةً من الجاهل ينظر إلى مَدِّ
بصره من الأفق فيحكم أن ههنا نهايةَ العالم ، وما ههنا إلا آخرُ بصره وأوَّلُ
جهلِهِ . وانفلت منى زمامُ رُوحى ، وانكسر ميزانُ إرادتى ، واختلَّ استواءُ
فكرى ، فأصبحتُ إنساناً من النقائض المتعادية أجمعُ اليقين والشكِّ فيه ، والحبِّ
والبغضِ له ، والأملِ والخيبةِ منه ، والرغبة والعزوفَ عنها . وفى أقلِّ من هذا
يُخْطَفُ العقل ، ويتدلَّه من يتدلَّه .

ثم ابتليتُ مع هذا اللِّعَمِ بجنون الغيظ من ابتذالها لأصحابها وعفتها معى ،

فكنتُ أُنطَيرُ قِطْعاً بين السماء والأرض ، وأجدُ عليها وأتسكّرُ لها ، وهى فى كل ذلك لا تزيدنى على حالةٍ واحدة من الرهبانية ؛ فكان يَطِيرُ بعقلى أن أرى جسمها ناراً مشتعلة ، ثم إذا أنا رُمْتُه استحال ثلجاً ، وقرّحت الغيرة قلبى وفتتت كبدى من عبادة الشيطان مع الجميع ، الراهبة مع رجلٍ واحدٍ فقط !
ورجعت خواطرى فيها مما يُعَقَّلُ ومالا يُعَقَّلُ ؛ فكنت أرى بعضَهَا كأنه راجعٌ من سفرٍ طويل عن حبيبٍ فى آخر الدنيا ، وبعضَهَا كأنه خارجٌ من دار حبيبٍ فى جوارى ، وبعضَهَا كأنه ذاهبٌ بى إلى المارستان !
ورأيتُنا كأننا فى عالمين لا صلةَ بينهما ، ونحن معاً قلباً إلى قلب ، فذهبَ هذا بالبقية التى بقيت من عقلى ؛ ولم أرَ لى مَنجاةً إلا فى قتلِ نفسى لازهقَ هذا الوحش الذى فيها .

وذهبتُ فابتعتُ شَعِيرَاتٍ من السمِّ الوَحِىِّ الذى يُعْجَلُ بالقتل ، وأخذتها فى كفى وهممتُ أن أقمَحَهَا وأبتلعَهَا ، فذكرتُ أُمى ، فَظَهَرَتْ لى إلى مشدوخة الرأسِ فى هيئة موتها ، وإلى جانبها هذه المرأة فى هيئة جمالها ، وثبتت على عيني هذه الرؤيا ، وأدمنتُ النظرَ فيها طويلاً فإذا أنا رجلٌ آخرٌ غيرُ الأول ، وإذا المرأة غيرُ تلك ، وطغتْ عبرة الموت على شهوة الحياة ففتحها ، وصحَّ عندى من يومئذٍ أن لا علاج من هذا الحب إلا أن تُقرن فى النفس صورة امرأةٍ ميتة إلى صورة المرأة الحية ، وكلما ذُكِرَتْ هذه حِجَى لها بتلك ، فإذا استمر ذلك فإن الميتة تُمِيتُها فى النفس وتُمِيت الشهوة إليها ، ما من ذلك بُدَّ ، فليجرِّبه من شك فيه .

وانفتح لى رأى عجيب ، فجعلتُ أتأمل كيف آمن شيطانى ثم كفر بعدُ ، على أن شيطانها هى كفر فى الأول ثم آمن فى الآخر ؟ فوالله ما كنتُ إلا غيبياً حامداً للفطنة ، إذ لم يَسْتَحْ لى الصوابُ حتى كدت أزهق نفسى وأخسر الدنيا

والآخرة ؛ فإن الشيطان — لعنه الله — إنما ردّني عن الفاحشة وهي ذنب واحد ، ليرميني بعدها في الذنوب كلها بالموت على الكفر !

وردّ إليّ هذا الخاطرُ ما عَزَبَ من عقلي . ومَن ابتلى ببلاء شديد يزلزل يقينه ثم أبصر اليقين ، جاء منه شخص كأنما خُلِقَ لساعته ؛ فلعلتُ شيطاني واستعدتُ بالله من مكره ، وألقيت السمَّ في التراب وغيّبته فيه ، وقلتُ لنفسي : ويحك يا نفس ! إن الحياة تعمل عملاً بالحي ، أقترضين أن تعمل الحياة بأبطالها ورجالها ما عرفت وما علمت ، ثم يكون عملها بك أنت القعود ناحية والبكاء على امرأة ؟

أيتها النفس ، ما الفرق بين سرقة لحم من دكان قصّاب ، وبين سرقة لحم امرأة من دار أبيها ، أو زوجها ، أو مولاها ... ؟

أيتها النفس ، إن إيمان أسلافنا معنا ؛ إن الإسلام في المسلم .

قال المسيّب : وهنا طاش مجاهد واستخفه الطرب ، فصاح صيحة النصر :
الله أكبر ! وجاوبه أهل المسجد في صيحة واحدة : الله أكبر ! ولم يكديهتمف
بها الناس حتى ارتفعت صيحة المودن لصلاة المغرب . الله أكبر ...

الاتحار

٦

تمة

قال المسيب بن رافع : وانفضَّ مجلسُ الشيخ ، وَدَرَجَتْ بعده أعوامٌ في عدَّةِ
الشهور من حَمَلِ المرأة ، بلغت فيها أمورُ الناس مبلَغها من خير الدنيا وشرِّها ،
مما أعرفُ وما لا أعرف ؛ ودخلتُ البصرة أنا ومجاهدُ الأزدي ، نسمع
الحسن^(١) ونأخذ عنه ؛ فإنَّا لسائران يوماً في سِكَّةِ بنى سَمُرَةَ ، إذ وافقنا الفتى
صاحبَ النصرانية مُقبِلاً علينا ، وكنا فقدناه تلك المدة ، فأسرَعَ إليه مجاهد
فالتزمه وقال : مرحباً مرحباً بذى نَسَبٍ إلى القلب . وسألتُ بعده وعانقته ،
ثم أقبلنا نسأله ، فقلت له : ما كان آخِرُ أوَّلِكَ ؟ قال مجاهد : بل ما كان
آخِرُ أولها هي ؟

فضحك الرجل وقال : النَّصرانيةُ تعنى ؟ قال : نعم . قال : آخِرُها من أولها
كهذا منى ؛ وأومأ إلى ظله في الأرض ممدوداً مشبوحاً مختلطاً غيرَ متميز ؛
كأنه ثوبٌ منشورٌ ليس فيه لابسُه ، وكنا في الساعة التي يصير فيها ظلُّ كلِّ
شَيْءٍ مِثْلِيهِ فهو مَرَجُ المَسْخِ بالمَسْخِ ...

قال مجاهد : ما أفظَّ جوابك وأثقله يا رجل ! كأنك والله تاجر لا صلة له
بالأشياء إلا من أثمانها ؛ فنظره إلى فِراهِةِ الدابة من الدوابِّ وإلى فِراهِةِ
الجارية من الرقيق سواء .

(١) الحسن البصري : الإمام العظيم .

قال الرجل : فأنا والله تاجر ، وأنا الساعة على طريق الإيوان^(١) الذى يلتقى فيه تجارُ العراقِ والشامِ وخراسان ؛ وقد ضربتُ فى هذه التجارات وحسنتُ بها حالى وتأتلتُ منها ؛ غير أن قلبَ التاجرِ غيرُ التاجر ، فليس يزِنُ ولا يقبِضُ ، ولا يبيع ولا يشتري . أما « تلك » فأصبحتُ نسياناً ذهب لسبيله فى الزمن !

قال مجاهد : فكيف كنتَ تراها وكيف عدتَ تنظر إليها ؟

قال : كنت أنظر إليها بعينى وأفكارى وشهوأتى ؛ فكانت بذلك أكثرَ من نفسها ومن النساء ، وكانت ألواناً ألواناً ما تنقضى ، فلما دخل بينى وبينها الزمنُ والعقل ، أبعدَها هذا عن قلبى وأبعدَها ذاك عن خيالى ؛ فنظرتُ إليها بعينى وحدهما ، فرجعتُ امرأةً كسكلِ امرأة ؛ وبنزولها من نفسى هذه المنزلة ، رجعتُ أقلَّ من نفسها ومن النساء ، وهذه القلةُ فيما عرفتُ لا تُصيبُ امرأةً عندَ محبتها إلا فعلتُ بجمالها مثلَ ما تفعله الشيمخوخةُ بجسمها ، فأدبرتُ به ثم أدبرتُ واستمرتُ تدبّر !

وأنتَ فإذا أبصرتَ امرأةً شبيخةً قد ذهبتِ التى كانت فيها وأخطرتَ فى ذهنك نيسةً مما بين الرجال والنساء ، فهل تُراك واجداً الشهوةِ والميلِ إلا النَّفَرَةَ والمعصية ؟ إن هذا الذى كان الحبَّ والهوى والعشق ، هو بعينه الذى صار الإثمَ والذنبَ والضلالة !

قال مجاهد : كأنك لما ذهبتَ تقتلُ نفسك من حبها قتلتها هى فى نفسك ؟ قال : يارحمةً قد رحمتُ بها نفسى يومئذ ! أما والله إن الذى يقتل نفسه من حب امرأةٍ لقبي . ويحبه ! فليمتخلص من هذا الجزء من الحياة لا من الحياة نفسها . وقد جعل الله للحب طرفين : أحدهما فى اللذة ، والآخرُ فى الحماقة ؛ ما منهما بد . فهذا الحبُّ يُلقي صاحبه فى الأحلام ويُعشّي بها على بصره ،

(١) هذه الكلمة خير ما يعبر بها عن (البورصة) ، وكذلك كانوا يستعملونها .

ثم إن هو اتجه بطرفه السعيد إلى حظه المقبل وانفتحت اللذة للمحب ، أيقظته اللذة من أحلامه ؛ وإن اتجه الحب بطرفه الشقي إلى حظه المذبر ، وقعت الحماقات فنونا شتى بين الحبيبين ، وفعلت آخرًا فعل اللذة ، فأيقظت العاشق من أحلامه أيضًا . وهذا تدبير من الرحمة في تلك القوة المدورة المسماة الحب . أفلا يدل ذلك على أن اللذة وهم من الأوهام ما دام تحققها هو فناءها ؟

خذ عني يا مجاهد هذه الكلمة : « ليس الكمال من الدنيا ولا في طبيعتها ، ولا هو شئ يُدرك ، ولكن من عظمة الكمال أن استمرار العمل له هو إدراكه . »

قال مجاهد : لقد علمت بعدنا علماء ، فمن أين لك هذا وعن أخذت ؟

قال : عن السماء !

قال : ويلك ! أين عقلك ، فهل نزل عليك الوحي ؟

قال الرجل : لا ، ولكن تعالينا معي إلى الدار فأحدثك كما .

قال المسيب : وذهبنا معه ؛ فأتينا بطعام نظيف فأكلنا ، وأشعرتنا الدار أن ربها قد وقع فيما شاء من دنياه وتواصلت عليه النعمة ؛ فلما غسلنا أيدينا قال مجاهد : هيه يا أبا . . . يا أبا من ؟ قال : أبو عبید . قال : هيه يا أبا عبید . . .

فأفكر الرجل ساعة ثم قال : عهد كما بي منذ تسع في مجلس الإمام الشعبي بالكوفة ؛ وقد كنت في بقية من النعمة أتجمل بها ، وكانت تمسكني على موضعي في أعين الناس ؛ فما زالت تلك البقية تدق وتنفض حتى نكد عيشي ووقعت في الأيام المقعدة التي لا تمشي بصاحبها ، وانقلب الزمن كالمدو المغير جاء ليضطلم ويخرب ويُفسد ، فأثر في أقبح آثاره ، فبعت ما بقي لي وتحملت عن الكوفة إلى البصرة ، وقلت : إن لم تتغير حالي تغيرت نفسي ،

ولأأكون في البصرة قد انتهيتُ إلى الفقر ، بل أكون قد بدأتُ من الفقر كما يبدأ غيرى ، وأدعُ الماضيَ في مكانه وأمضى إلى ما يستقبأنى .

فالتستُ رُقَّةً فالتأمتنا عشرين رجلاً ، فلما كنا في الطريق ، سلبنا اللصوصُ وحازوا القافلةَ وما تحويه ، ونجوتُ أنا راكباً فرسى وعُمري ، وأدركتُ حينئذُ أن الحياةَ وحدها مُلْكٌ عظيمٌ ، وأنها هي الأداةُ الإلهيةُ ، والباقي كله هو من أنفسنا لأنفسنا والأمرُ فيه هينٌ والخطبُ يسير .

وقلت : لو أن اللصوصَ قد مرُّوا بنا كما يمرُّ الناسُ بالناسِ لما نكَبُونَا ، ولكنهم عرضوا لنا غُرُوضَ اللصِّ للمالِ والمتاعِ لا للناسِ ، فوضعوا فينا الأيديَ الناهبةَ ؛ ومن هذا أدركتُ أن ليس الشرُّ إلا حالةٌ يتلبَّسُ بها من يستطيع أن يتخلصَ منها . فإذا كان ذلك فأصلُ السعادةِ في الإنسان ألا يعبأ بهذه الحالات متى عَرَضَتْ له ؛ وهو لا يستطيع ذلك إلا إذا تمثل الشرَّ كما يراه واقعاً في غيره ؛ فالمرأةُ العفيفةُ إذا عَرَضَتْ لها حالةٌ من الفُجورِ ، ونظرتُ إلى نفسها وحظَّ نفسها ، فقد تعمى وتزلَّ ؛ ولكنها إذا نظرتُ إلى ذلك في غيرها وإلى أثره على الفاجرة ، كانت كأنما زادت على نفسها نفساً أخرى تُريها الأشياءُ مجردةً كما هي في حقايقها .

قال : ومضيت على وجهي تتقاذفني البِقَاعُ والأمكنةُ ، وأنا أعانى الأرضَ والسماءَ ، وأخشى الليلَ والنهارَ ، وأكابدُ الألمَ والجوعَ ، حتى دخلتُ البصرةَ دخولَ البعيرِ الرازحِ ، قَطَعَ الصحراءَ تأكلُ منه ولا يأكل منها ، فأنضاه السفرَ وحسره السكَّالُ وتحتته الثقلُ الذي يحمله ، فجاء بينيةً غيرِ التي كان قد خرج بها . وكانت أيامي هذه عمراً كاملاً من الشقاءِ ، جعلتني أوقن أن هؤلاء الناسَ في الحياة إن هم إلا كاللِّوَابِ تحت أحمالها : لا تختار الدابةَ ما تحملُ ولا من تحملُ ، ولا يتركُ لها مع هذا أن تختارَ الطريقَ ولا مدةَ السيرِ ؛ وليس للدابةِ

إلا شيئان : صبرُها وقوتُها ؛ إن فقدتهما هلكتْ ، وإن وهنَا فيها كان ضعفُها بحسب ذلك .

إن هناك أوقاتاً من الشقاء والبؤس تقذف بالإنسان وراء إنسانيته وإنسانيّة البشر جميعاً ، لا تبالى كيف وقع وفي أىّ وادٍ هلكَ ، فلا ينفع الإنسان حينئذ إلا أن يعتصمَ بأخلاق الحيوان ، فى مثل رضاه الذى هو أحكمُ الحكمة فى تلك الحال ، وصبره الذى هو أقوى القوة ، وقناعته التى هى أغنى الغنى ، وجهله الذى هو أعلمُ العلم ، وتوكُّله الذى هو إيمانُ فطرته بفطرته . لا يبالى الحيوان مالاً ولا نعيماً ، ولا متاعاً ولا منزلةً ، ولا حظاً ولا جاهاً ، وإن تجدد حمارُ الملك يعرفُ من الملك أكثرَ مما يعرف حمارُ السَّقاء من السَّقاء ؛ ولعلك لو سألتَهما وأطافا الجوابَ لقال لك الأول : إن الذى فوق ظهري ثَقِيلٌ مَقِيمٌ بغِيض ؛ ولقال لك الثانى : إن الذى يركبه خفيفٌ سهلٌ سَمَح !

ولكنَّ بلاءَ الإنسان أنه حين يُطَوِّحُ البؤسُ والشقاء وراء الإنسانية ، لا ينظر لغير الناس ، فيزيده ذلك بؤساً وحسرة ، ويمَحِّقُ فى نفسه ما بقى من الصبر ، ويقلبُ رضاه غيظاً ، وقناعتَه سخطاً ، ويتلّيه كلُّ ذلك بالفكرة المهلكة أعجزها أن تهلك أحداً فلا تجد من تُدمِّره غيرَ صاحبها ؛ فإذا هى وجدتْ مَسَاغاً إلى الناس فأهلكتْ وعاشتْ وأفسدتْ ، جعلتْ صاحبها إما لصاً أو قاتلاً أو مجرمًا ، أىّ ذلك تيسر !

قال : وكنتُ أعرف فى البصرة فلاناً التاجر من سرائها ووجوه أهلها ، فاستطرقته ؛ فإذا هو قد تحوّل إلى خراسان ، وليس يعرفنى أحدٌ فى البصرة ولا أعرف أحداً غيره ؛ فكأنما نُسِبتُ مرةً ثانية بغارةٍ شرٍّ من تلك ، غير أنها قطعت علىّ فى هذه المرة طريقَ أيامى ، وسلبتْنى آخرَ ما بقى لنفسى ، وهو الأمل !

ورأيتُ أنه ما من نزولى إلى الأرض بُدَّ ، فأكون فيها إنساناً كاللدابة أو الحشرة : حياتُها ما اتفق لا ما تريد أن يتفق ؛ وأنه لا رأى إلا أن أُسخرَ من الشهوات فأزهدَ فيها وأنا القوىُّ الكريم ، قبل أن تسخرَ هي منى إذا جثَّتْها وأنا الطامعُ العاجز !

وفي الأرض كفاية كلِّ ما عليها ومن عليها ، ولكن بطريقتها هي لا بطريقة الناس ؛ وما دامت هذه الدنيا قائمةً على التغير والتبديل وتحولِ شَيْءٍ إلى شَيْءٍ ، فهذا الظبيُّ الذي يأكله الأسدُ لا تعرفُ الأرضُ أنه قد أَكَلَ ولا أنه افترَسَ ومزَّقَ ، بل هو عندها قد تحولَ قوَّةً في شَيْءٍ آخر ومضى ؛ أما عند الناس فذلك خطبٌ طويل في حكاية أوهامٍ من الخوف والوجل ؛ كما لو اخترعت قصةً خرافية تحكيها عن أسدٍ قد زرعَ لحماً . . . فتعهده فأنبته فخصده فأكله ، فذهبَ الزرعُ محتججاً على آكله ، وجعل يشكو ويقول : ليس لهذا زرعَتني أنت ، وليس لهذا خرجتُ أنا تحت الشمس ، وليس من أجل هذا طلعت الشمسُ علىَّ وعليك !

والإنسانُ يرى بعينه هذا التغيرَ واقعاً في الإنسانية عامتها وفي الأشياء جميعها ؛ فإذا وقع فيه هو ضجَّ وسَخِطَ ، كأن له حقاً ليس لأحدٍ غيره ؛ وهذا هو العجيبُ في قصة بني آدم ، فلا يزال فيها على الأرض كلماتٌ من الجنة لا تقالُ هنا ولا تفهمُ هنا ؛ بل محلُّ الاعتراضِ بها حين يكونُ الإنسانُ خالداً لا يقع فيه التغير والتبديل . ومن هذا كان خيالُ اللذة في الأرض هو دائماً باعثُ الحماقة الإنسانية .

قال أبو عبيد : وذهبتُ أُعْتَمِلُ يديَّ وجسمي على آلام من الفاقة والضَّرِّ ، ومن الخيبة والإخفاق ، ومن إجلاء المسكنة وإحواج الخصاصة ؛ فلقد رأيتُني وإنَّ يدي كيدِ العبد ، وظهري كظهر الدَّابة ، ورجلي كرجل الأسير ، وعنقي

كعق المغلول ؛ ويطلعُ قرصُ الشمس على الدنيا ويغيبُ عنها وما أعتَمِلُ إلا بقرص من الخبز ؛ ولقد رأيتني أبذلُ في صيانة كلِّ قطرةٍ من ماء وجهي سحابةً من العرق حتى لا أسأل الناس ، ويا بؤساً لي إن سألتُ وإن لم أسأل !
وما كان يُمكنني على هذه الحياة المُرْمَقَةِ ، تأتي رَمَقاً بعد رَمَقٍ في يومٍ يوم — إلا كلامُ الشعبي الذي سمعتهُ في مسجد الكوفة ، وقوله فيمن قتل نفسه ؛ فكان كلامه نوراً في صدرى يُشرق منه كلُّ يوم مع الصبح صبحٌ لإيماني .
ولكن بقيتُ أيامُ نعمتي الأولى ولها في نفسي ضَرْبانٌ من الوجع كالذي يجده المجرَّح في جرحه إذا ضَرَبَ عليه ، فكان الشيطانُ لا يجد منفذاً إلى إلا منها .
وفقدتُ الصديقَ وعونه ، فما كان يُقبلُ على صديقٍ إلا في أحلامي من وراء الزمن الأول !

قال مجاهد : والحبيب ؟

فتبسّم الرجل وقال : إذا فرغت الحياة من الذي هو أقلُّ من الممكن ، فكيف يكون فيها الذي هو أكثرُ من الممكن ؟ إن جوعَ يوم واحدٍ يجعل هذه الحياة حقيقةً جافيةً لا شِعْرَ فيها ، ويترك الزمنَ وما فيه ساعةً واحدةً مُعْطَرَةً . . . والبؤسُ يَقْطَعُ مَوْلةً في القلب الإنسانيَّ تحرّم عليه الأحلام ؛ وما الحبُّ من أوّلِهِ إلى آخرِهِ إلا أحلامُ القلوب بعضها ببعض !

قال أبو عبيد : وتَضَعُصَتْ لهذه الحياة الخزية وأبرمتني أيامها ، وحات في الميتَ والحَيَّ ، ورأيتُ الشيطانَ — لعنه الله — كأنما اتخذني وعاءً مُطَرَّحاً على طريقه يُلْقِي فيه القمامة . . . ؛ وظهر لي قلبي في وسوسهِ كالمدينة الخربةِ ضَرَبَهَا الوباءُ ، فأعمرُما فيها مقبرَتُها ؛ وعاد البؤسُ وقَاحَ الهِجَةِ لا يستحي ، فلا أراه إلا في أرذلِ أشكاله وأبردها ؛ ولقد يكون البؤسُ لبعض الناس على شيء من الحياة

فيأتي في أسلوبٍ معتذرٍ كالمرأة الدميمة في نقابها .

وقلت لنفسى : ما هو والله إلا القتل ، فهذا عمرُ أراه كالأسير أقيم على النّطع وسُلّ عليه السيف ، فما ينتقم منه المنتقمُ بأفطع من تأخير الضربة ، وما يرحمه الراحمُ بأحسن من تعجيلها !

وبتُ أوامرُ هذه النفس في قتلها وأحدثها حديث الموت ، فسددتُ رأيي فيه وقالت : ما تصنعُ بجسمٍ كالمتعفن أصبح كالمقبور لا أيام له إلا أيام انقراضه وتفتيته ؟ بيّد أنى ذكرتُ كلام (الشعبي) في ذلك المجلس وأنا أحفظه كله ، فجعلتُ أهذه ^(١) ما أترك منه حرفاً ، واتخذته متكلماً مع نفسى لا كلاماً ، كنتُ كلما غلبني الضعفُ رفعتُ به صوتي وأصغيتُ كما أصغى إلى إنسان يُكلمنى ؛ فראيتُ الشيطانَ بعد ذلك كاللصّ إذا طمع في رجل ضعيفٍ منفردٍ ، ثم لما جاءه وجد معه رجلاً ثانياً قويا فهرب !

قال أبو عبيد : ونالني رَوْحٌ من الاطمئنان وجسدتُ له السكينة في قلبي فمنت ، فإذا الفزعُ الأكبر الذي لا ينسأه من سمع به ، فكيف الذي رآه بعينه ؟ رأيتهُ ميتاً في يد غاسله يُقلّبه ويغسله كأنه خرقة ؛ ثم حُمِلْتُ على النعش ، كأن الحاملين قد رفعوني يقولون : انظروا أيها الناس كيف يصير الناس ؛ ثم صلى على الإمام الشعبي في مسجد الكوفة ، ثم دُلّيتُ في قعرٍ مظلمةٍ وهيلَ الترابِ على ، وتركتُ وحيداً وانصرفوا !

وما أدري كم بقيتُ على ذلك ؛ ثم رأيتُ كأنما نفخَ في الصور وبُعِثَتِ الأمواتُ جميعاً ، فطَرنا في الفضاء ، وكانت النجومُ غباراً حولنا كتراب العاصفة في العاصفة ؛ وإذا نحن في عَرَصات القيامة وفي هول الموقف ! وتوجّهتُ بكلِّ شعرةٍ في جسمي إلى الرجاء في رحمة الله ؛ ورأيتُ أعمالِي

(١) الهذ : الإسراع في القراءة .

رؤيةً أحرزتنى ، فهى كمدينة عظيمة كل أهلها صعاليك إلا قليلا من المستورين ، أرى منهم الواحد بعد الواحد فى الساعة بعد الساعة ، نذروا وتبعثروا وضاعوا كأعمالى الصالحة !

وذكرت أنى كدت أقتل نفسى فراراً بها من العمر المؤلم ؛ فنظرت ، فإذا الزمن قد ظهر فى أبديته ، ورجع الماضى حاضراً بكل ما حوى كأنه لم يمض ، وإذا عمرى كله لا يكاد يبلغ طرفه عين من دهر طويل ، فحمدت الله أنى لم أفتد ألم اللحظة القصيرة القصيرة ، بعذاب الأبد الخالد الخالد .

وجيء على أعين الخلق بأنعم أهل الدنيا وأكثرهم لذات فى تاريخ الدنيا كله ، فصاح صائح : هذا أنعم من كان على الأرض منذ خلقها الله إلى أن طواها . ثم غمس هذا المنعم فى النار غمسة خفيفة كنبضة البرق ، وأخرج إلى الحشر ، وقيل له والناس جميعاً يسمعون : هل ذقت نعيماً قط ؟ قال : لا والله .

ثم جيء بأتعس أهل الأرض وأشدّهم بؤساً منذ خلقت الأرض ، فغمس فى الجنة غمسة أسرع من النسيم تحرك ومر ، ثم أخرج إلى الحشر وقيل له : هل ذقت بؤساً قط ؟ قال : لا والله .

وسمعنا شهييق جهنم وهى تفور تكاد تميز من الغيظ ؛ فأيقنت أن لها نفساً خلقت من غضب الله . وخرج منها عنق عظيم هائل ، لو تضرعت السماء كلها ناراً لأشبهته ، فجعل يلتقط صنفاً صنفاً من الخلق ، وبدأ بالملوك الجبابرة فالتقطهم مرة واحدة كالمغناطيس لثراب الحديد ؛ وقذف بهم إلى النار ؛ ثم انبعث فالتقط الأغنياء المفسدين فأطارهم إليها ؛ ثم جعل يأخذ قوماً قوماً ، وقد ألجنى العرق من الفزع ؛ ثم طرت أنا فيه ، ونظرت ، فإذا أنا محتبس فى مظلمة نارية كالهوىة ، ليس حولى فيها إلا قاتلو أنفسهم . ولو أن بحار الأرض

جُعِلَ فيها البحرُ فوق البحر فوق البحر ، إلى أن تجتمع كلها فيكون العمق كبعْد ما بين الأرض والسماء ، ثم تُسَجَرُ ناراً تَلْظَى ، لكانت هي الهاوية التي نحن في أعماقها ؛ وكنت سمعت من إمامنا الشعبي : أن عَصاةَ المؤمنين الموحِّدين إذا ماتوا على إيمانهم كانوا في النار أحياءً وجوارحُهم مَوْتى ؛ لأن هذه الجوارح قد أطاعت الله وسبَّحته فكَرُمَتْ بذلك حتى على جهنم ، ثم يعذبون عذاباً فيه الرحمة ، ثم يُخْرَجُونَ وينظرهم إيمانهم على باب النار ، فكان إلى جانبي رجلٌ قَتَلَ نفسه ، فسمع قائلاً من بعيد يقول لمؤمن : اخرج فإن إيمانك ينتظرك . فصاح الذي إلى جانبي : وأنا ، أفلا ينتظرنى إيماني ؟ فقليل له : وهل جئت به ؟ ورأيت رجلاً ذبح نفسه يريد أن يصرخ يسأل الله الرحمة ، فلا يخرج الصوت من حلقة ، إذ كان قد فَرَّاه وبقى مَفْرِيًّا ! وأبصرتُ آخرَ قد طعن في قلبه بمديّة ، فهو هناك تسلخُ الزبانية قلبه تبحث هل فيه نيةٌ صالحة ، فلا تزال تسلخُ ولا تزال تبحث !

ورأيت آخر كان تحسّى من السم فمات ظمآن يتلظى جوفه ، فلا تزال تنشأ له في النار سحابةٌ رويةٌ تبرق بالماء ، فإذا دنت منه ورجاها ، انفجرت عليه بالصواعق ، ثم عادت تنشأ وتنفجر !

وقال رجل : إنما كنت مجنوناً ضعيفاً عاجزاً فأزهقت نفسي . فنودى : أو ما علمت أن الله يحاسبك على أنك عاقلٌ لا مجنونٌ ، وقوى لا ضعيف ، وقادرٌ لا عاجز ؟ كنت تعقل بالأقل أنك ستموت ، وكنت تقوى على أن تصبر ، وكنت تقدر أن تترك الشر .

وقال رجل عالم قد حزّ في يده بسكين فمات : « لم يكن الكمال من الدنيا ولا في طبيعتها ولا هو شيء يدرك . » فصرخ فيه صوت رهيب : « ولكنّ

من عَظَمَةِ الكَمَالِ أَنْ استمرَّارَ العملِ له هو إدراكه ! »

قال أبو عُبَيْد : ثم انتصب بإِزائي شيطانٌ ماردٌ أحمر ، يلتمعُ التماعَ الزجاجِ فيه الخمر ، فقام في وجهي وقال : بماذا جئتُ إلى هنا يا عدوَّ الخمر ؟ فما كان إلا أن سمعتُ النداء : شَفَعَتْ فيكَ الخمرُ التي لم تشربها ، اخرج ، إن إيمانَكَ ينتظرك ! فصحت : الحمد لله ! وتحرك بها لساني ، فانتبهت .

لقد علمتُ أن الصبرَ على المصائبِ نعمةٌ كبرى لا يُنعمُ الله بها إلا في المصائبِ .

وحي القبور

ذهبتُ في صُبح يوم عيد الفطر أحملُ نفسي بنفسى إلى المقبرة ، وقد مات
لى من الخواطر مَوْتَى لا مَيِّتٌ واحد ؛ فكنتُ أمشى وفي جِنَازَةٍ بِمُشِيِّهَا :
من فكرٍ يَحْمِلُ فِكْراً ، وخاطرٍ يَتَّبِعُ خَاطِراً ، ومعنى يَبْكِي ، ومعنى
يُبْكِي عليه .

وكذلك دأبى كلما انحدرتُ في هذه الطريق إلى ذلك المكان الذى تأتية
العيون بدموعها ، وتمشى إليه النفوس بأحزانها ، وتجيئ فيه القلوب إلى بقاياها .
تلك المقابر التى لا ينادى أهلها من أهلهم بالأسماء ولا بالألقاب ، ولكن بهذا
النداء : يا أحبابنا ، يا أحزاننا !

ذهبتُ أزورُ أمواتى الأعماء وأتصلُ منهم بأطراف نفسى ، لأحيا معهم فى
الموت ساعةً أَعْرِضُ فيها أمرَ الدنيا على أمرِ الآخرة ، فأُنسى وأذكر ، ثم أنظرُ
وأعتبرُ ، ثم أتعرفُ وأتوسمُ ، ثم أَسْتَبْطِنُ مما فى بطن الأرض ، وأستظهرُ
مما على ظهرها .

وجلسْتُ هناك أُشْرِفُ من دهرٍ على دهرٍ ، ومن دنيا على دنيا ،
وأخرجتُ الذَّاكِرَةَ أفرأحها القديمة لتجعلها مادةً جديدةً لأحزانها ؛ وانفتح لى
الزمنُ الماضى فرأيتُ رَجْعَةَ الأُمس ، وكأن دهرًا كاملاً خالقُ مجوادثه وأيامه ،
ورُفِعَ لعينى كما تُرْفَعُ الصورةُ المعلقةُ فى إطارها .

أعرفُ أنهم ماتوا ، ولكنى لم أشعر قطّ إلا أنهم غابوا ؛ والحبيبُ الغائبُ
لا يتغيّرُ عليه الزمانُ ولا المكانُ فى القلب الذى يحبه مهما تَرَاخَتْ به الأيام ؛

وهذه هي بقية الروح إذا امتزجت بالحب في روح أخرى : تترك فيها مالا يُمَحَى
لأنها هي خالدة لا تُمَحَى .

ذهب الأمواتُ ذهابهم ولم يقيموا في الدنيا ؛ ومعنى ذلك أنهم مرُّوا
بالدنيا ليس غير ، فهذه هي الحياة حين تعبر عنها النفسُ بلسانها لا بلسان
حاجتها وحرصها .

الحياةُ مدةٌ عمل ، وكأن هذه الدنيا بكل ما فيها من المتناقضات ، إن هي
إلا مَصْنَعٌ يُسَوِّغُ كلَّ إنسانٍ جانباً منه ، ثم يقال له : هذه هي الأداةُ فاصنع
ما شئتَ ، فضيلتك أو رذيلتك .

جلستُ في المقبرة ، وأطرقتُ أفكر في هذا الموت . يا عجباً للناس ! كيف
لا يستشعرونه وهو يهدمُ من كلِّ حيٍّ أجزاءً تحيط به قبل أن يهدمه هو بجملته ؛
وما زال كلُّ بُنيانٍ من الناس به كالحائطِ المُسَلَّطِ عليه خرابه ، يتأكلُ من
هنا ويتناثرُ من هناك ؟ !

يا عجباً للناس عجباً لا ينتهى ! كيف يجعلون الحياةَ مدةَ نزاع وهي مدةُ عمل ،
وكيف لا تبرحُ تنزُّو التَّوَاذِي بهم في الخلاف والباطل ، وهم كلما تدافَعوا
بينهم قضيةً من النزاع فضرَبوا خصماً بخضم وردَّوا كَيْدًا بكيد ، جاء حكمُ
الموت تكذيباً قاطعاً لكل من يقول لشيءٍ : هذا لى ؟

أما والله إنه ليس أعجبُ في السخرية بهذه الدنيا من أن يُعْطَى الناسُ
ما يملكونه فيها لإثبات أن أحداً منهم لا يملك منها شيئاً ، إذ يأتى الآتى إليها
لحمًا وعظمًا ، ولا يرجع عنها الراجعُ إلا لحمًا وعظمًا ، وبينهما سفاهةُ العظم والعظم
حتى على السَّكَّينِ القاطعة ...

تأتى الأيامُ وهي في الحقيقة تَفِرُّ فِرَارَهَا ؛ فمن جاء من عمره عَشرون سنةً

فإنما مضت هذه العشرون من عمره . ولقد كان ينبغي أن تُصحَّح أعمالُ الحياة في الناس على هذا الأصلِ البَيِّنِ ، لولا الطباعُ المدخولةُ ، والنفوسُ الغافلةُ ، والعقولُ الضعيفةُ ، والشهواتُ العارمةُ ؛ فإنه ما دام العمرُ مُقْبِلًا مُدْرِبًا في اعتبار واحد ، فليس للإنسان أن يتناولَ من الدنيا إلا ما يُرضيه محسوباً له ومحسوباً عليه في وقتٍ معاً ؛ وتكونُ الحياةُ في حقيقتها ليست شيئاً إلا أن يكونَ الضميرُ الإنسانيُّ هو الحَيُّ في الحَيِّ .

وما هي هذه القبور ؟ لقد رجعتُ عند أكثر الناس مع الموتى أبنية ميمية ؛ فما قطُّ رأوها موجودةً إلا لينسوا أنها موجودة ؛ ولولا ذلك من أمرهم لكان للقبور معناه الحَيُّ المُتَعَلِّغُ في الحياة إلى بعيد ؛ فما القبرُ إلا بناءٌ قائمٌ لفكرة النهاية والانقطاع ؛ وهو في الطرف الآخر رَدٌّ على البيت الذي هو بناءٌ قائمٌ لفكرة البدء والاستمرار ؛ وبين الطرفين المَعْبُدُ وهو بناءٌ لفكرة الضمير الذي يحيا في البيت وفي القبر ، فهو على الحياة والموت كالقاضي بين خصمين يُصلح بينهما صلحاً أو يَقضي .

القبرُ كلمةُ الصدق مبنيةٌ متجسِّمةٌ ، فكل ما حولها يَتَكَذَّبُ ويتأوَّل ، وليس فيها هي إلا معناها لا يَدْخُلُهُ كَذِبٌ ولا يعتريه تأويل . وإذا ماتت في الأحياء كلمةُ الموت من غرورٍ أو باطلٍ أو غفلةٍ أو أثر ، بقي القبرُ مُذَكِّراً بالكلمة شارحاً لها بأظهر معانيها ، داعياً إلى الاعتبار بمذلولها ، مبيناً بما ينطوى عليه أن الأمر كله للنهاية .

القبرُ كلمةُ الأرض لمن ينخدعُ فيرى العمرَ الماضي كأنه غيرُ ماضٍ ، فيعملُ في إفراغ حياته من الحياة ^(١) بما يملؤها من رذائله وخسائسه ؛ فلا يزال

(١) أى من إنسانية الحياة .

دائماً في معاني الأرض واستجاعيها والاستمتاع بها ، يتلو في ذلك تلو الحيوان
ويقتأس به ، فشريعتُه جوفه وأعضاؤه ؛ وترجعُ بذلك حيوانيته مع نفسه
الروحانية ، كالحمار مع الذي يملكه ويعلفه ، لو سئل الحمارُ عن صاحبه من هو ؟
لقال : هو حمارى

القبرُ على الأرض كلمةٌ مكتوبةٌ في الأرض إلى آخر الدنيا ، معناها أن
الإنسانَ حتى في قانون نهايته ، فلينظر كيف ينتهى .

إذا كان الأمر كله للنهاية ، وكان الاعتبارُ بها والجزاء عليها ، فالحياةُ هي
الحياةُ على طريقة السلامة لا غيرها ؛ طريقة إكراه الحيوان الإنسانى على ممارسة
الأخلاقية الاجتماعية ، وجعلها أصلاً في طباعه ، ووزن أعماله بنتائجها التى تنتهى
بها ، إذ كانت روحانيته في النهايات لافى بداياتها .

في الحياة الدنيا يكون الإنسانُ ذاتاً تعملُ أعمالها ؛ فإذا انتهت الحياةُ انقابت
أعمالُ الإنسان ذاتاً يخلدُ هو فيها ؛ فهو من الخير خالدٌ في الخير ، ومن الشر هو
خالدٌ في الشر ؛ فكأن الموتَ إنْ هو إلا ميلادٌ للروح من أعمالها ؛ تولد مرتين :
آتيةً وراجعةً .

وإذا كان الأمرُ للنهاية فقد وجب أن تبطل من الحياة نهاياتٌ كثيرة ،
فلا يترك الشرُّ يمضى إلى نهايته بل يُحسَم في بدئه ويُقتل في أول أنفاسه ؛
وكذلك الشأنُ في كل ما لا يحسنُ أن يبدأ ، فإنه لا يجوز أن يمتدَّ : كالعداوة
والبغضاء ، والبخل والأثرة ، والكبرياء والغرور ، والخداع والكذب ؛ وما شاكلَ
هذه أو شابهها ، فإنها كلها انبعاثٌ من الوجود الحيوانى وانفجارٌ من طبيعته ؛
ويجب أن يكون لكل منها في الإرادة قبرٌ كي تسلم النفس الطيبة إنسانيتها
إلى النهاية .

يا من لهم في القبور أموات !
إن رؤية القبر زيادةٌ في الشعور بقيمة الحياة ، فيجب أن يكون معنى
القبر من معاني السلام العقلي في هذه الدنيا .

القبر فمٌ ينادى : أسرعوا أسرعوا ، فهي مدة لو صُرِفَتْ كلها في الخير
ما وَفَتْ به ؛ فكيف يضيع منها ضياعٌ في الشر أو الإثم ؟ لو وُلِدَ الإنسان ومشى
وأيقَعَ وشبَّ واكْتَهَلَ وَهَرِمَ في يوم واحد ، فما عساه كان يُضِيع من هذا
اليوم الواحد ؟ إن أطول الأعمار لا يراه صاحبه في ساعة موته إلا أقصر من يوم .
ينادي القبر : أصلحوا عيوبكم ، وعليكم وقتٌ لإصلاحها ؛ فإنها إن جاءت
إلى هنا كما هي ، بقيت كما هي إلى الأبد ، وتركها الوقتُ وهرب .

هنا قبر ، وهناك قبر ، وهنالك القبرُ أيضاً ؛ فليس ينظر في هذا عاقلٌ إلا
كان نظره كأنه حكمٌ محكمةٍ على هذه الحياة كيف تنبغى وكيف تكون .
في القبر معنى إلغاء الزمان ، فمن يفهم هذا استطاع أن ينتصر على أيامه ،
وأن يُسْقِطَ منها أوقات الشر والإثم ، وأن يُمِيتَ في نفسه خواطرَ السوء ؛ فمن
معاني القبر ينشأ للإرادة عقلها القوي الثابت ؛ وكل الأيام المكروهة لا تجد لها
مكاناً في زمن هذا العقل ، كما لا يجد الليلُ محلاً في ساعات الشمس .

ثلاثة أرواح لا تصلح روح الإنسان في الأرض إلا بها :
روح الطبيعة في جمالها ، وروح المعبد في طهارته ، وروح القبر في موعظته .

عروس تزف إلى قبرها

— ١ —

كان عمرها طاقةً أزهار تُسمى أياماً .

كان عمرها طاقةً أزهار يَنْتَسِقُ فيه اليومُ بعد اليوم كما تَنْبُتُ الورقةُ الناعمةُ في الزهرة إلى ورقةٍ ناعمةٍ مثلها .

أيامُ الصَّبَا المَرِحَّةِ حتى في أحزانها وهمومها ؛ إذ كان مجيئها من الزمن الذي خَصَّ بشباب القلب ، تبدو الأشياء في مجارى أحكامها كالمسحورة ؛ فإن كانت مُفْرِحَةً جاءت حاملةً فرحين ، وإن كانت مُحْزَنَةً جاءت بنصف الحزن .

تلك الأيام التي تعملُ فيها الطبيعةُ لشباب الجسم بِقُوَى مختلفة : منها الشمسُ والهواءُ والحركة ، ومنها الفرحُ والنسيانُ والأحلام !

وسبَّت العذراءُ وأفرغتُ في قالبِ الأنوثةِ الشمسيِّ القمريِّ ، واكتسى وجهها ديباجةً من الزَّهر الغَضِّ ، وأودعتها الطبيعةُ سِرَّها النسائيَّ الذي يجعلُ العذراءَ فنَّ جمالٍ لأنها فنُّ حياة ، وجعلتها تمثالاً للظرف ؛ وما أعجب سِحْرَ الطبيعةِ عند ما تجلُّ العذراءُ بظرفٍ كظرفِ الأطفال الذين ستلدُّهم من بعد ! وأسبغتُ عليها معاني الرقة والحنان وجمال النفس ؛ وما أكرم يد الطبيعةِ عند ما تَمَهَّرُ العذراءُ من هذه الصفات مَهَرَّها الإنساني !

وخطبت العذراء لزوجها ، وعقد له عليها في اليوم الثالث من شهر مارس في الساعة الخامسة بعد الظهر .

وماتت عذراء بعد ثلاث سنين ، وأُنْزِلَتْ إلى قبرها في اليوم الثالث من شهر مارس في الساعة الخامسة بعد الظهر !

وكانت السنوات الثلاث عُمرَ قلبٍ يُقَطَّعُهُ المرض ، يتنظرون به العُرس ، وينتظر بنفسه الرَّمْس !

يا عجائب القدر ! أذاك لحنٌ موسيقيٌّ لأنينٍ استمرَّ ثلاث سنوات ، فجاء آخره موزوناً بأوله في ضبطٍ ودقة ؟

أكانت تلك العذراء تحملُ سرّاً عظيماً سيُغيِّرُ الدنيا ، فردَّت الدنيا عليها يومَ التهنئة والابتسام والزينة ، فإذا هو يومُ الْوَلَوَّةِ والدموع والكفن ؟

— ٢ —

واهاً لك أيها الزمن ! مَنْ الذي يفهمك وأنت مُدَّةُ أقدار ؟
واليوم الواحدُ على الدنيا هو أيامٌ مختلفةٌ بعدد أهل الدنيا جميعاً ، وبهذا يعود لكل مخلوقٍ سرُّ يومه ، كما أن لكل مخلوقٍ سرَّ روحه ، وليس إليه لا هذا ولا هذا .

وفي اليوم الزمني الواحدِ أربعمائة مليون يومٍ إنسانيٍّ على الأرض ! ومع ذلك يُحْصِيهِ عقلُ الإنسان أربعاً وعشرين ساعة ؛ يا للغباوة . . . !

وكلُّ إنسان لا يتعلَّق من الحياة إلا بالشعاع الذي يُضيء المكانَ المظلمَ في قلبه ، والشمسُ بما طاعت عليه لا تستطيع أن تُنيرَ القلبَ الذي لا يضيئه إلا وجهٌ محبوب .

وفي الحياة أشياء مكذوبةٌ تكبِّرُ الدنيا وتُصَغِّرُ النفس ، وفي الحياة أشياء

حقيقة تَعْظُمُ بالنفس وتَصْغُرُ بالدنيا ؛ وَذَهَبُ الأرض كُلُّهُ فَقْرٌ مُدْقِعٌ حين
تَكُونُ المعاملةُ مع القلب .

أيتها الدنيا ؛ هذا تحقيرُك الإلهيُّ إذا أَكْبَرُكَ الإنسان !

ويا عَجَبًا لأهل السوءِ المَعْتَرِينَ بِحَيَاةٍ لَا بَدْءَ أَنْ تَنْتَهِيَ ! فإِذَا يَرْتَقِبُونَ إِلَّا أَنْ
تَنْتَهِيَ ؟ حَيَاةٌ عَجِيبَةٌ غَامِضَةٌ ؛ وَهَلْ أَعْجَبُ وَأَعْغِضُ مِنْ أَنْ يَكُونَ انْتِهَاءُ الإنسانِ
إِلَى آخِرِهَا هُوَ أَوَّلُ فِكْرِهِ فِي حَقِيقَتِهَا ؟

فَعِنْدَ مَا تَحِينُ الدَّقَائِقُ الْمَعْدُودَةُ الَّتِي لَا تَرَقُمُهَا السَّاعَةُ وَلَكِنْ يَرْقُمُهَا صَدْرُ
الْمُحْتَضَرِّ ... عِنْدَمَا يَكُونُ مُلْكُ الْمُلُوكِ جَمِيعًا كَالْتَرَابِ لَا يَشْتَرِي شَيْئًا أَلْبَتَّةَ ...
... مَاذَا يَكُونُ أَيُّهَا الْمَجْرُمُ بَعْدَ مَا تَقْتَرِفُ الْجَنَايَةَ ، وَيَقُومُ عَلَيْكَ الدَّلِيلُ ،
وَتَرَى حَوْلَكَ الْجَنْدَ وَالْقَضَاةَ ، وَتَقِفُ أَمَامَكَ الشَّرِيعَةُ وَالْعَدْلُ ؟

أَعْمَالُنَا فِي الْحَيَاةِ هِيَ وَحْدَهَا الْحَيَاةُ ، لَا أَعْمَارُنَا ، وَلَا حِظُوظُنَا . وَلَا قِيَمَةٌ
لِلْعَمَلِ ، أَوْ الْجَاهِ ، أَوْ الْعَافِيَةِ ، أَوْ هِيَ مَعًا — إِذَا سَابَّ صَاحِبُهَا الْأَمْنُ وَالْقَرَارُ !
وَالْأَمْنُ فِي الدُّنْيَا مَنْ لَمْ تَكُنْ وَرَاءَهُ جَرِيمَةٌ لَا تَزَالُ تَجْرِي وَرَاءَهُ . وَالسَّعِيدُ فِي
الْآخِرَةِ مَنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ جَرِيمَةٌ تُطَارِدُهُ وَهُوَ فِي السَّمَاوَاتِ .

كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ تَخْدَعَ الْأَلَّةَ صَاحِبَهَا وَفِيهَا (الْعَدَّادُ) : مَا تَتَجَرَّكُ مِنْ حَرَكَةٍ
إِلَّا أَشْعَرَتْهُ فَعَدَّاهُ ؟ وَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَكْذِبَ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ وَفِيهِ الْقَلْبُ : مَا يَعْمَلُ
مِنْ عَمَلٍ إِلَّا أَشْعَرَهُ فَعَدَّاهُ ؟

— ٣ —

وَرَأَيْتُ الْعُرُوسَ قَبْلَ مَوْتِهَا بِأَيَّامٍ .
أَفَرَأَيْتَ أَنْتَ الْغَنَى عِنْدَ مَا يُدْبِرُ عَنْ إِنْسَانٍ لَيْتَرَكَ لَهُ الْحُسْرَةَ وَالذِّكْرَى

الآلية ؟ أرايت الحقائق الجميلة تذهب عن أهلها فلا تترك لهم إلا الأحلام بها ؟
ما أتعب الإنسان حين تتحوّل الحياة عن جسمه إلى الإقامة في فكره !
وما هي المموم والأمراض ؟ هي القبر يستبطنه صاحبه أحياناً فينفض في ✓
بعض أيامه شيئاً من ترابه ... !

رايت العروس قبل موتها بأيام ، فيا لله من أسرار الموت ورهبتها ! فرغ
جسمها كما فرغت عندها الأشياء من معانيها ! وتخلّى هذا الجسم عن مكانه
للروح تظهر لأهلها وتتف بينهم وقفة الوداع !

وتحوّل الزمن إلى فكر المريضة ؛ فلم تعد تعيش في نهار وليل ، بل في
فكر مضى أو فكر مظلم !

يا إلهي ! ما هذا الجسم المتهدم المقبل على الآخرة ؛ أهو تمثال بطل تعبيره ،
أم تمثال بدأ تعبيره ؟

لقد وثقت أنه الموت ، فكان فكرها الإلهي هو الذي يتكلم ؛ وكان ✓
وجهها كوجه العابد : عليه طيف الصلاة ونورها . والروح الإنسانية متى عبرت
لا تعبر إلا بالوجه .

ولها ابتسامة غريبة الجمال ؛ إذ هي ابتسامة آلام أيقنت أنها موشكة أن ✓
تنتهي ! ابتسامة روح لها مثل فرح السجين قد رأى سجنانه واقفاً في يده الساعة
يرقب الدقيقة والثانية ليقول له : انطلق !

ودخلت أعودها فرأت كأنني آت من الدنيا ... ! وتسمت مني هواء
الحياة ، كأنني حقيقة لا شخص !

ومن غير المريض المدنف ، يعرف أن الدنيا كلمة ليس لها معنى أبداً إلا

العافية ؟ مَنْ غيرُ المريضِ المُشْفَى على الموت ، يعيشُ بقلوبِ الناسِ الذينِ حوله
لا بقلبه ؟

تلكِ حالةٌ لا تنفعُ فيها الشمسُ ولا الهواءُ ولا الطبيعةُ الجميلةُ ، ويقومُ مقامُ
جميعِها للمريضِ أهلهُ وأحبَّاءُه !

وكانَ ذُووها من رهبةِ القدرِ الدانى كأنهم أُسرى حَرْبٍ أُجِلِسوا تحتِ
جِدَارٍ يريدُ أن يَنْقُضَ ! وكانت قلوبُهم من فزعِها تَبْضُ نبْضاً مثلَ ضَرَباتِ
المَعَاوِلِ .

وباقتِرابِ الحبيبِ المحتَضِرِ من المجهولِ ، يُصبحُ من يحبُّه فى مجهولٍ آخرِ ،
فتختلطُ عليه الحياةُ بالموتِ ، ويعودُ فى مثلِ حَيَرَةِ المَجْنُونِ حينَ يُمسِكُ بيدهِ الظلَّ
المتحرِّكَ لينبِّهه أن يذهبَ ! وتعرَّوه فى ساعةٍ واحدةٍ كآبةٍ عمرٍ كاملٍ ، تُهيءُ له
جلالَ الحسِّ الذى يشهدُ به جلالُ الموتِ !

وحانت ساعةٌ مالا يُقَهِّمُ ، ساعةٌ كلُّ شَيْءٍ ، وهى ساعةُ الاشْيَاءِ فى العقلِ
الإنسانى ! فالتفتت العروسُ لأبيها تقولُ : « لا تحزنْ يا أبى ... » ولأُمها تقولُ :
« لا تحزنِ يا أمى ... ! »

وتبسَّمت للدموعِ كأنما تحاولُ أن تكلمَها هى أيضاً ؛ تقولُ لها :
« لا تبكى ... ! » وأشفقت على أحيائها وهى تموتُ ، فاستجمعت رَوْحَهَا ليقبَلَ
وجْهها حيًّا من أَجْلِهِمْ بضعَ دقائق ! وقالت : « سأغادرُكم مبتمِّمةً فعيشوا مبتمِّمينَ ،
سأتركُ تذكارى بينكم تذكارَ عروس ! ... »

ثم ذكَّرتُ اللهَ وذكَّرتهم به ، وقالت : « أشهدُ أن لا إلهَ إلا الله . » وكررتها
عشرًا ! وتَمَلَّأتْ رَوْحُهَا بالكلمةِ التى فيها نورُ السماواتِ والأرضِ ، ونطقت

من حقيقة قلبها بالاسم الأعظم الذى يجعل النفس منيرة تتلأأ حتى وهى ✓
فى أحزانها .

ثم استقبلت خالق الرحمة فى الآباء والأمهات ! وفى مثل إشارة وداع من
مسافر انبعث به القطار ، ألت إليهم تحية من ابتسامتها وأسلمت الروح !

— ٤ —

يا لعجائب القدر ! مشينا فى جنازة العروس التى تُزف إلى قبرها طاهرة
كالطفلة ولم يبارك لها أحد ! فما جاوزنا الدار إلا قليلاً حتى أبصرت على حائط
فى الطريق إعلاناً قديماً بالخط الكبير الذى يصيح للأعين ؛ إعلاناً قديماً عن
(رواية) هذا هو اسمها : « مبروك ... ! »

واخترقنا المدينة وأنا أنظر وأتقصى ، فلم أر هذا الإعلان مرة أخرى !
واخترقنا المدينة كلها ، فلما انقطع العمران وأشرفنا على المقبرة ، إذا آخر حائط
عليه الإعلان : « مبروك ... ! »

موت أم

رجعت من الجنّازة بعد أن غبّرتُ قديميَّ ساعةً في الطريق التي ترابها ترابٌ وأشعة ، وكانت في النعش لؤلؤةً آدميةً محطّمةً ، هي زوجةُ صديق طحّطَحَتْها الأمراضُ ففرّقتْها بين عللِ الموت ، وكان قلبُها يُحميها فأخذ يُهاكُمها ، حتى إذا دنا أن يَقْضِيَ عليها رحمها الله فقفى فيها قضاءه . ومن ذا الذي مات له مريضٌ بالقلب ولم يره من قلبه في علته كالعضفورة التي تهتلك تحت عينيّ ثعبانٍ سلط عليها سمومَ عينيه !

كانت المسكينةُ في الخامسة والعشرين من سنّها ، أما قلبُها ففي الثمانين أو فوق ذلك ؛ هي في سن الشباب وهو مهتدّمٌ في سن الموت .

وكانت فاضلةً تقيّةً صالحةً ، لم تتعلم ولكنّ علمها التقوى والفضيلة . وأكمل النساءُ عندي ليست هي التي ملأت عينها من الكتب فهي تنظر إلى الحياة نظراتٍ تحلّ مشا كلّ وتخلق مشا كل ؛ ولكنها تلك التي تنظر إلى الدنيا بعين متلاثلة بنور الإيمان تُقرّ في كل شيء معناه السماوى ، فتؤمن بأحزانها وأفراحها معاً ، وتأخذ ما تُعطى من يد خالقها رحمةً معروفةً أو رحمةً مجهولة . هذه عندي تسمى امرأةً ، ومعناها المعبّدُ القدسى ؛ وتكون الزوجة ، ومعناها القوة المُسعدة ؛ وتصيرُ الأمّ ، ومعناها التكملةُ الإلهيةُ لصغارها وزوجها ونفسها .

ومهما تبلغ المرأةُ من العلم فالرجلُ أعظمُ منها بأنه رجل ، ولكنّ المرأةَ حقّ المرأةُ هي تلك التي خلقت لتكون للرجل مادةَ الفضيلة والصبر والإيمان ، فتكون له وحيًا وإلهامًا وعزاءً وقوةً ، أى زيادةً في سروره ونقصاً من آلامه .

ولن تكون المرأة في الحياة أعظم من الرجل إلا بشيء واحد ، هو صفاتها ✓
التي تجعل رجلها أعظم منها .

ومشيتُ من البيت الذي ألبسته الميتة معنى القبر ، إلى القبر الذي ألبسَ
للميتة معنى البيت . وأنا منذ مشيتُ في جنازة أمي (رحمها الله) لا أسير في هذه
الطريق مع الأحياء ، ولكن مع الموتي ، فأَتبعُ من الميتِ صديقاً ليس رجلاً
ولا امرأة ، لأنه من غير هذه الدنيا ؛ وأمشي في ساعة ليست ستين دقيقةً ،
لأنها خرجت من الزمن ؛ ولا أرى الطريق من طرق الحياة ، لأنني في صحبة
ميت : وتُصبح للأرض في رأيي جغرافيةً أخرى عَمِيَ الناسُ عنها لشدة وضوحها ،
كالألوهية خفيت من شدة ما ظهرت .

يقولون : إن ثلاثة أرباع الأرض يغمرها البحر . أما أنا فأرى في تلك
الساعة أن ثلاثة أرباع الأرض لا يغمرها البحر الذي وصفوا ، ولكن خِضمٌ
آخرٌ زخارٌ مُتَضَرَّبٌ ، هو ذلك البحرُ الترابيُّ العظيمُ المسمى « المقبرة » .
يقولون : إن الحياة هي ... هي ماذا — ويحكم — أيها المغرورون ؛ أفلا
تَرَوْنَ هذه الصلة الدائمة بين بطنِ الأم وبطنِ الأرض ؟

لعمري كيف تجعلُ هذه الحياة للناس قلوباً مع قلوبهم ، فيحسُّ المرء بقلب ،
ويعملُ بقلب آخر : يعتقد ضررَ الكذب ويكذب ، ويعرف مَعَرَّةَ الإثم ويأثم ،
ويؤقن بعاقبة الخيانة ثم يخون ؛ ويمضي في العمر منتهياً إلى ربه ، ما في
ذلك شك ، ولكنه في الطريق لا يعمل إلا عمل مَنْ قد فرَّ من ربه ... ؟
✓ هَبَّتِ الرياحُ في السَّجَرِ على روضةٍ غناء فطابت لها ، ففقدتُ عُقدتها أن
تتخذَ لها بيتاً في ذلك المكان الطيب لتقيم فيه ... يا لها حكمة من التدبير !

تزعج الرياحُ الإقامةَ على حين كلِّ وجودِها هو لحظةُ مرورِها ، وتحلُّمُ بالقرارِ في البيتِ وهي لا تملكُ بطبيعتها أن تقفَ .
يا لها حكمةٌ ساميةٌ ، لا يسكنها من المعنى إلا أسخفُ ما في الحُمو !

هَمَدَ الحَيُّ وانطفأت عيناها ، ولكنّه تحركَ في تاريخه مما ضَيَّقَ على نفسه
أو وَسَّعَ ، وأصبح ينظر بعينٍ من عمله إما مُبْصِرَةً أو كالعمياء ؛ فلو تكلم يصفُ
الحياةَ الدنيا لقال : إن هذه النجومَ على الأرضِ مصابيحُ مَأْتَمٍ أَقِيمَ ليل .
وما أعجبَ أن يجلسَ أهلُ المَأْتَمِ في المَأْتَمِ ليضحكوا ويلعبوا !
ولو نطق الموتى لقالوا : أيها الأحياء ، إن هذا الحاضرَ الذي يمر فيكونُ
ماضيَكم في الدنيا ، هو بعينه الذي يكونُ مستقبلَكم في الآخرة ، لا تزيدون فيه
ولا تنقصون . وإن الدنيا تبدأ عندكم من الأعلى إلى الأدنى : من العطاء إلى
الفقر ؛ ولكنّها تنقلبُ في الآخرة فتبدأ من الفقر إلى العطاء ؛ وأتمَّ ترسمونها
بخطوطِ المطامعِ والحظوظِ ، ويرسمها الله بخطوطِ الحرمانِ والمجاهدة ؛ إن التأمَّ
على الأرضِ مَنْ تَمَّ بمتاعها ولذاتها ، ولكن التأمَّ في السماءِ مَنْ تَمَّ بنفسه وحدها .

يا أسفا ! لن يقولَ الميتُ للحَيِّ شيئاً ، ومن يدرى ؟ لعننا ونحن نُلجِدُ
للموتى ونُنزِلُهُم في قبورهم ، يَرَوْنَ بأرواحهم الخالدة أننا نحن موتاهم المساكين ،
وأنا مدفونون في القبر الذي يسمونه « الكرة الأرضية » ! وهل الكرةُ
الأرضيةُ من اللانهاية إلا حفرةٌ برجلٍ نَمَلَةٍ لتُدْفَنَ فيها نَمَلَةٌ . . .
الحياة ... أتريد أن تعرفها على حقيقتها ؟ هي المُبْهَمَاتُ الكثيرةُ التي ليس
لها في الآخرِ إلا تفسيرٌ واحدٌ : حلالٌ أو حرام .

ورجعنا مع الصديق إلى بيته ، وله خمسة أطفال صغارٍ لو أنهم هم الذين
انْتَزَعُوا من أمهم لترك كلُّ واحدٍ على قلبها مثل المِكْوَةِ الحَمِيَّةِ عليها في النار
إلى أن تحمَّرَ ؛ ولكنَّ أمهم هي التي نُزِعَتْ منهم ، فكان بقاؤهم في الحياة
تخفيفاً لسَكْرَةِ الموت عليها . وغَشِيَتْهَا العَشِيَّةُ فأتت وهي تضحك ، إذ تراهم
نائمين تحت جناح الرحمة الإلهية الممدود ، وقالت : إنها تسمع أحلامهم . وكانوا
هم عَقلُها في ساعة الموت !

تبارك الذي جعل في قلب الأمِّ دنيا من خَلْقِهِ هو ، ودنيا من خَلْقِ أولادها !
تبارك الذي أثاب الأمَّ ثوابَ ما تُعاني ، فجعل فرحها صورةً كبيرة من
فرح صغارها !

وجاء أكبرُ الأطفال الخمسة ، وكأنه ثمانية أُرْطالٍ من الحياة لاثمانية أعوام
من العمر ؛ جاء إلينا كما يحییُّ الفَرْعُ لقلوبٍ مطمئنة ، إذ كان في عينيه الباكيتين
معنى فقد الأم !

وطغَتْ عليه الدموعُ فتناول منديلَه ومسحَها بيده الصغيرة ، ولكنَّ روحه
اليتيمة تأبى إلا أن ترسم بهذه الدموعِ على وجهه معاني يَتِمُّها !
وظهرَ الانكسارُ في وجهه يعبرُّ ببلاغةٍ أنه قد أحسَّ حقيقةَ ضعفه وطفولته
بإزاء المصيبة التي نزلت به ، وجلس مستسلماً لترجم هيئته معاني هذه الكلمة :
« رفقاً بي ! »

ثم تطير من عينيه نظراتٌ في الهواء ، كأنما يحسُّ أن أمه حوله في الجو
ولكنه لا يراها !

ثم يُرْخِي عينيه في إغماضةٍ خفيفةٍ ، كأنما يرجو أن يرى أمه في طَوْبَيْتِهِ !
ولا يُصدِّق أنها ماتت ، فإن صوتها حي في أذنيه لا يزال يسمعه من أمس !

ثم يعود إلى وجهه الانكسار والاستسلام ، ويتملُّ في مجلسه ، فينطقُ جسمه
كلُّه بهذه الكلمة : « يا أمي ! »

أحسنَّ — ولا ريب — أنه قد ضاع في الوجود ، لأن الوجودَ كان أمه .
ولمَسْ خشونة الدنيا منذ الساعة ، بعد أن فقدَ الصدرَ الذي فيه وحده لينُ
الحياة لأن فيه قلبَ أمه وروحها .

وشعر بالذل ينسابُ إلى قلبه الصغير ، لأن تلك التي كان يملك فيها حقَّ
الرحمة قد أُخِذَتْ منه وتركته بلا حقٍّ في أحد ؛ وليس لأحدٍ أَمَان !
ولبسته المسكنةُ ، لأن له شيئاً عزيزاً أصبح وراء الزمان فلن يصلَ إليه !
ولبسته المسكنةُ ، لأنه صار وحده في المكان كما هو وحده في الزمان !
وارتسم على وجهه التعجب ، كأنه يسأل نفسه : « إذا لم تكن أمي هنا ،
فلماذا أنا هنا ؟ ! »

ثم تغرَّغَرَتْ عيناه فيُخْرِجُ منديلَه ويمسح دمعَه بيده الصغيرة ، ولكن
روحه اليتيمة تأبى إلا أن ترسمَ بهذه الدموعِ على وجهه معانيَ يَتَمَهَّيها !

ونهبض الصغيرُ ولم ينطق بذاتِ شَفَّة ؛ نهض يحمل رجولته التي بدأت
منذ الساعة !

انتهت — أيها الطفلُ المسكينُ — أيامُك من الأم ؛ هذه الأيام السعيدةُ
التي كنتَ تعرف الغدَ فيها قبل أن يأتى معرفتك أَمْسِ الذي مضى ؛ إذ يأتى
الغدُ ومعك أُمُّك !

وبدأت — أيها الطفلُ المسكين — أيامُك من الزمن ، وسيأتى كلُّ غدٍ
محجَّباً مرهوباً ؛ إذ يأتى لك وحدك ، ويأتى وأنت وحدك !

الأم ... ؟ يا إلهي ، أى صغيرٍ على الأرض يجدُ كفايته من الروح إلا في الأم ؟ !

قصة أب

حدثني المسكينُ فيما حدَّث وهو يصف ما نزل به قال :

رأيتُ الناسَ قد أنعم الله عليهم أن يكونوا آباءً فَنَسُوا بالولدِ في آثارهم ،
ومدَّ بالنسل في وجودهم ، وزاد منه في أرواحهم أرواحاً ، وضمَّ به إلى قلوبهم
قلوباً ، وملاً أعينهم من ذلك بما تقرُّ به قُرَّةُ عينٍ كانت لم تجد ثم وَجَدَتْ ؛
فهم بهؤلاء الأطفالِ يملكون القوةَ التي تُرجِعُهُم أطفالاً مثلاً في كل ما يسرُّهم ،
فيكبر الفرخُ في أنفسهم وإن كان في ذات نفسه ضئيلاً صغيراً ، ويعظم الأملُ
في أشياءهم وإن كان هو عن شيءٍ حقيرٍ لا يُؤبَّه له .

وتلك حقيقةٌ من حقائق السعادة لا أسمى ولا أعظم منها إلا الحقيقةُ
الأخرى : وهي القوةُ التي يتحوَّلُ بها السكونُ في قلب الوالدين إلى كنزٍ من
الحب والرحمة وجمالِ العاطفة ، بسخرٍ من ابتسامةٍ طفلٍ أو طفلة ، أو بكلمةٍ منهما
أو حركة ، على حينٍ لا يتحوَّلُ مثل ذلك ولا قريباً منه بمال الدنيا ،
ولا بملك الدنيا .

رأيتُ الناسَ قد أنعم الله عليهم أن يكونوا آباءً ، ولكنهُ ابتلاني بأن
أكون أباً ، وأخرج لي من أفراح قلبي أحزانَ قلبي ! ولقد كنت كرجلٍ ملك
داراً يستمتعُ بها ، فتمنى أن يُشرعَ^(١) في جانب منها غرفةٌ يترخَّفُ فيها ، فلما تم
له ذلك وبلغ المُتَرَحَّحَ ، انهدمت الدارُ وبقيت الغرفة قائمة !

عَمَّرَكَ اللهُ ، أيشعرُ هذا الرجلُ في نكبته بالغرفة أم بالدار ؟ وهل تراه زاد

(١) أى يفتح غرفة إلى الشارع .

أو نقص ؟ وباليتهما بيتٌ وغرفةٌ من بيت ؛ فإن الحجارَةَ تحيا بالبناء إذا ماتت بالهدم ، ولكن من ذا يُحيي الزوجةَ ماتت بعد أن وضعت بكرها الأول والآخر ! إنها طفلةٌ وُلِدَتْ وكأُما أُخْرِجَتْ من تحت الرِّدمِ ، إذ وُلِدَتْ تحت ماضٍ من الحياة منهدِمٍ ، وهل فرقُ بين هذا وبين أن تكون أمها قد ولدتها في الصحراء ثم أُكْرِهَتْ أن تدعها وحدها في ذلك القفر تصرخ وتبكي ! فالمسكينةُ على الحالين منقطعةٌ أول ما انقطعت من حنانِ الأم ورحمتها .

طفلةٌ وُلِدَتْ صارخةً ، لا صرخةَ الحياة ، ولكن صرخةَ النوح والنذب على أمها .

صرخةٌ حزينةٌ معناها : ضعوني مع أمي ولو في القبر !

صرخةٌ ترتعدُ ، كأن المسكينةَ شعرت أن الدنيا خاليةٌ من الصدر الذي يُدقُّها !

صرخةٌ تتردد في ضراعةٍ ، كأنها جملةٌ مركبةٌ من هذه الكلمات : « ياربِّ ارحمني من حياةٍ بلا أم ! »

قال المسكين وهو يبكي امرأته :

ولما ضَرَبَها الخاضُ ، ضاعفتُ قوتها من شعورها أنها ستكون بعد قليل مضاعفةً بمولودها ، وستكون روحين لا روحاً واحدة ، وتلد لي الحياةَ والحبَّ الإلهيَّ معاً ، وتأتي لقلبي بمثل طفولته الأولى التي يستحيلُ أن تأتي الرجل إلا من زوجه . كلُّ ذلك ضاعف قواها ساعةً وشدَّ منها ؛ ولكن ما أسرع ما تبَيَّنَتْ أنه الموتُ ، إذ عُضِّلَتْ وعُسِّرَ خروج مولودها .

وجاءها الجراحىُ بمبضعه ، وكأنها رأتَه ذابحاً لا طبيباً ، فحلت تعبُّر بعينيها ، إذ لم تملك في آلامها القاتلةِ غيرَ لغةِ هاتين العينين .

كانت بنظرة تبكي عَلَى وعلى بؤسى ، وبأخرى تبكي على بؤس مولودها
وشقاءه ؛ وبنظرة تودّعى ، وبأخرى تدعو الله لى جزاء ما أحسنتُ إليها ؛
وبنظرة تتوجّع لنفسها ، وبأخرى تتألم من أنها ترانى أكادُ أُجَن .
نظرات نظرات ...

يا إلهى ! لقد خُيّل إلى أن مَلَكَ الموت واقفٌ بين عشرين مرآة تُحيط
به ، فأنا أراه موتاً متعدداً لا موتاً واحداً ، وكلُّ نظرة من عيني زوجتى إلى
كانت منها هى نظرة ، وكانت عندى أنا مرآة الروح للروح .
ولكنها لم تنس أنها تموت لوضع مولودها ، وأن هذه الآلام الدموية
الذابحة هى الوسيلة لأن تترك لى بقية حية منها ؛ فىيا للرحمة والحنان والحب !
لقد ابتسمت لى وهى تموت ؛ وهى تلد ؛ وهى تُذبح !

ليست رحمة المرأة المحبة خيالاً إلا إذا كانت حرارة الشمس التى تُحيى
الدنيا خيالاً أيضاً ؛ إن هذا القلب النسوى المستقرّ فوق أحشاء تحملُ الجنين
صابرة راضية فرحة بالآلام ، وتغذوه وتقاسمه حياة نفسها — هذا القلب يحملُ
الحب أيضاً صابراً راضياً فرحاً بالآلامه ، ويغذوه ويقاسمه حياة نفسه .
والرحمة الإلهية أدلة كثيرة تدل الإنسان عليها دلالات مختلفة ؛ فالشمس
تدل عليها بالضوء الذى تطعمه الحياة ، والهواء يدل عليها بالضوء الذى تنفّسه
الحياة ، والماء يدل عليها بالضوء الذى تشربه الحياة ، وهكذا إلى أن يأتى فى
الآخر قلب المرأة فيدل على رحمة الله بالحب الذى تقوم به الحياة .

ابتسامة الحب غالبت زفوات الموت التى تعتدج من تحتها حتى غلبتها ،
وأعادت الحياة لحظة إلى وجه زوجتى لأراها آخر ما أراها فى صورة المحبة لى ،
فكان كلُّ جمالِ نفسها منتشرّاً على ذلك الوجه ، وظهرت فيه روحها وعواطفها

تودّعني وداعاً حزينا متبسماً يتكلم ؛ يتكلم بعجزه عن الكلام .
ابتسامه لا ريب أن فيها أشياء ليست من جمال هذه الدنيا ولا من حقايقها ؛
فكأنما التمت بأشعة من الخلد ترف رفيفها على وجه الحبيب ليظهر ساعة
الموت أن حبه أقوى من الموت .

قال المسكين : ونثر الطبيب ذا بطنها فكانت طفلة ، وما كانت زوجتي
تقترح أن يكون الجنين غيرها ، بل كانت مستيقنة أنها تضعها أنثى ، وصنعت
لها ثيابها ، ووشتها بزينة الأنوثة ، وعرضت أسماء البنات فاخترت اسمها أيضاً ،
وكنت أكره ذلك منها وأريد ولدًا لا بنتًا ، فكانت تغايظني بعملها وإصرارها
غيظ دُعابة لا غيظ جفاء .

ومضت لا تذكر إلا بنتها مدة الحمل ، ولا تتكلم إلا عن بنتها ، وقد
كنت أعجب لذلك ؛ فلما قضى الله فيها قضاءه ، علمت أن ذلك أمر من أمر
الروح ، فكان الإلهام فيها أنها على باب قبرها ، وأنها لن ترى طفلتها ، وإن
تعيش لها ، فعاشت أيام الحمل مع ذكراها : تضم ثيابها إلى صدرها ، وتحملها
على يدها ، وتناغيها وتقبلها ، وتأخذها من الوهم وتردها إليه ؛ وكذلك نعت
المسكينة بالمسكينة !

لك الله يا معجزة الرحمة ، يا نفس الأم !

ولما قيل : ماتت . جعل يكلمني المتكلم ولا أعقل ؛ فإن الكلمة التي
تأتي بالمصيبة المتوقعة طال ارتقابها ، لا تأتي بمعان لغوية كغيرها من الكلام ،
بل بأسلحة تضرب في النفس وفي العقل ، وتبخنهما جراحًا وفتسكا .
وجعلني موتها كأنني ميت يحمل نفسه ، ما حوله إلا المشيعون ؛ وأحسست

كَأَنَّ قُوَّةً أَخَذَتْ بِأَحْدَى رِجْلَيَّ فَوَضَعَتْهَا فِي الْآخِرَةِ وَتَرَكْتَ الثَّانِيَةَ فِي الدُّنْيَا ،
وَلَحَقْتَنِي مِنَ الْجَزَعِ مَا اللَّهُ عَالِمٌ بِهِ ، وَوَجِدْتُ أَخْرَقَ الْوَجْدَ ، وَبَكَيْتُ أَحْرََّ
الْبُكَاءِ ؛ وَجَعَلْتُ أَفْكَارِي تَنْحَدِرُ مِنْ رَأْسِي إِلَى حَاقِي فَأَخْتَنَقُ بِهَا ثُمَّ لَا يُنْفَسُ
عَنِّي إِلَّا الدَّمْعَ ، كَأَنَّ أَعْضَائِي اخْتَلَّتْ مِمَّا ضَغَطَنِي مِنَ الْحَزَنِ ، فَأَنَا أَتَنَفَسُ
بِرِئْتِي وَعَيْنِي .

بِمَوْتِهَا شَعَرْتُ بِهَا ؛ وَلَعَلَّهُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ لَا يَشْعُرُ الْإِنْسَانُ بِلَذَّةِ الْحُبِّ
كَامِلَةً إِلَّا فِي آلَامِ الْحُبِّ وَحِدْهَا ، وَكَانَتْ فِي حَيَاتِهَا تَضَعُ مِنْ رُوحِهَا فِي
سُرُورِي ، وَهَذَا هُوَ سِرُّ الْمَرْأَةِ الْمَحْبُوبَةِ : يَجِدُ مُحِبَّهَا فِي كُلِّ سُرُورٍ لِحَاتٍ رُوحَانِيَّةٍ ؛
وَكَذَلِكَ فَعَلْتُ بَعْدَ مَوْتِهَا ، فَجَعَلْتُ رُوحَهَا فِي أَحْزَانِي ؛ وَلَوْلَا أَنَّ رُوحَهَا فِي أَحْزَانِي
لَقَتَلْتَنِي الْمَصِيبَةَ .

وَكَنتُ أَذْلِفُ وَرَاءَ النِّعَشِ وَقَدْ بَطَلَ فِي نَفْسِي الشُّعُورُ بِالدُّنْيَا ، وَكَانَ النَّاسُ
يَمْشُونَ حَوْلِي بِمَا فِيهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ ، وَكَانُوا ذَاهِبِينَ إِلَى الْمَقْبَرَةِ عَلَى أَنْهَمُ سَائِرُونَ
كَمَا يَذْهَبُونَ إِلَى كُلِّ مَكَانٍ ؛ أَمَا أَنَا فَكَنتُ أَمْشِي بِمَا فِيَّ مِنَ الْحُبِّ مِنْكَسِرًا
مَنْخَذِلًا مَتَضَعِّعًا ، لِأَنِّي وَحْدِي سَائِرٌ وَرَاءَ مَا لَا يُلْحَقُ .

وَتَقَلَّ النَّاسُ عَلَى قَلْبِي ، وَرَجَعَ كُلُّ أَمْرِهِمْ عِنْدِي إِلَى الْعَيْبِ وَالنَّقِيصَةِ ،
إِذَا كَانَ لِي عَقْلٌ طَارَى مِنْ الْحَالَةِ الَّتِي أَنَا فِيهَا لَيْسَ مِثْلُهُ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَكَنتُ
وَحْدِي الْمَصَابَ بَيْنَهُمْ ، فَكَنتُ وَحْدِي بَيْنَهُمُ الْعَاقِلُ .

أَنَا أَمْشِي لِأَتَنْهِيَ إِلَى آخِرِ مَصِيبَتِي ، وَهُمْ يَمْشُونَ لِيَنْتَهَوْا إِلَى آخِرِ الطَّرِيقِ ؛
وَشَتَّانَ مَا نَحْنُ وَشَتَّانَ !

وَلَمَّا رَأَيْتُ قَبْرَهَا ابْتَدَرْتُ عَيْنَايَ تَنْظُرَانِ بِالْهَمِّ لَا بِالنَّظَرِ ، وَرَأَيْتُ
الْتَرَابَ كَأَنَّهُ غَيُومٌ مَلَوْنَةٌ بِالْوَانِ السَّحْبِ الدَّاكِمَةِ تَهَيَّأُ فِي سَمَائِهَا تَحْتَ الظَّلَامِ
لِتُخْفِيَ كَوَكَبًا مِنَ الْكَوَاكِبِ ؛ وَظَهَرَ لِي الْقَبْرُ كَأَنَّهُ فَمٌ الْأَرْضِ يَخَاطَبُ

الإنسان بحزم صارم ، يخاطبُ الفقيرَ والغني ، والضعيفَ والقوي ، والملوكَ والصعاليك : « أن كلَّ قوةٍ تُنزعُ هنا . »

قال المسكين : وكما يجدُ الإنسانُ في أيامِ المطرِ رائحةَ النسيمِ المبتلِّ بالماء ، كنتُ أُستَرَوِّحُ في رَجْعتي إلى الدارِ رائحةَ نسيمِ مبتلٍّ بالدموع ؛ وحضرتُ الماتمَ وعزائي الناسُ ، فكنتُ فيهم كالمأسورِ بينهم : لا أتمنى إلا أن يدعوني فأنجوا على وجهي ، ولا أرى إلا أنهم يجرونني الوجودَ غُصَصاً كما تجرعتُ الفقدَ غُصَّةً غُصَّةً ؛ إلى أن تفرقوا مع سوادِ الليلِ فانكفأتُ إلى الدارِ ، فإذا كلُّ شيءٍ قد تغيَّرَ ولمسه الموتُ لَمَسَةً ، وإذا الدارُ نفسها كالعينِ المقروحةِ من آثارِ البكاء : ما تَمَّ شيءٌ إلا ليظالِعني بأن مسراتي قد ماتت !

ولاح الصبحُ لعيني الساهرتين صبحاً فاتراً تبيَّنتُ فيه الخجلَ ، كأنه يقول : « لم أطلعْ لك . » ، فانسَلتُ من البيت ، وذهبتُ أمشي في دنيا هي الكآبةُ المضيئةُ سَخِرَتِ الأقدارُ منها بإظهارها في هذا الضوءَ مَظْهَرَ وجهِ العجوزِ المتصابيةِ في زينةٍ لا تزيدُها إلا قبحاً !

ومضيتُ على وجهي لا غايةَ لي ، أضربُ في كلِّ جهةٍ كأنما أريدُ أن أهربَ من نفسي ! وما خطر لي قط أني في يومٍ جديدٍ ، بل كنتُ عند نفسي لا أزالُ في أمس ، وتغيَّرَ عندى الزمانُ والمكان : فأحدها ساعةُ موتٍ لا تتركُ ما فيها ، والآخِرُ قبرٌ مَيِّتَةٌ لا يردُّ ما فيه .

آه من الوقت الذي ينتهي فيه الوجودُ ليعذبَّنَا بالتذكُّرِ أنه كان موجوداً !

قال المسكين : ثم أعادتني قدمي إلى البيتِ لأرى طفلي — وما كنتُ

رأيتها — ولقد كانت ولادتها أول الحياة لها ، وأول الحياة لى أيضاً ؛ إذ لولاها
لا تَحَرَّتْ غَيْرَ شَكٍّ .

يا وِيلَتَا ! لم تلتقِ عيني بعينِ الطفلة حتى انفجرتُ تبكى . أتبكين لى
يا ابنتى أم على ؟

أهذا بكاءُكِ أيتها المسكينة ، أم هو صوتُ قلبك اليتيم ؟
أصوتكِ أنتِ ، أم هى روحُ أمكِ تصرخُ ترثى لى ، وتتوجعُ لفرطِ
ما قاسيت !

يا ابنتى ، إنما أنتِ الحقيقةُ الصغيرةُ التى خرجتُ لى من كل تلك الخيالات
الشعرية الجنية ، خيالاتِ الأيام السعيدة التى مرَّت !
يُحَلِّقُ المواليدُ من اللحم والدم ؛ وأراكِ أنتِ يا مسكينة ، خلقتِ من اللحم
والدمِ والدموع !

بقيةُ حياةٍ ماتت ! فهل معنى ذلكِ إلا أنكِ بقيةُ موتٍ يحيا ؟
مسكينة ، مسكينة ؛ لو أن نواميسَ العالمِ متغيرةٌ لشيءٍ لتغيرتُ من أجلِ
بؤسِكِ فردَّت لكِ الأم ؛ ولكنّها لن تتغير ، وما بكاؤنا وآلامنا وتعاستنا إلا
تراثُ الحياةِ فى أجسامنا الأرضية ، كلُّ ذلكِ طبيعةٌ ، ولكنَّ بقعةً أنظفُ
من بقعة ، وأراكِ يا ابنتى كالبيتِ الذى هُدمَ أوَّلَ ما بُنى يملؤه ترابه !
لن تتغيرِ النواميس ، فلن تجدى عطفَ الأم ، ولكن لن يتغيرَ قلبى أيضاً ،
فلن تُجرى عطفَ الأب .

وإذا صبرَ الناسُ على الحياةِ فمن أجلكِ يا مسكينة ! من أجلِ ضعفِكَ
وانقطاعِ سَاعَانِ الصبرِ لك ، وأعانى الصبرَ لى ، وأعانى الصبرَ عن أمكِ ،
سأصبرُ على الصبرِ نفسه !

يا ابنتى ، يا ابنتى ، لماذا وضعتِ الأقدارُ من هذه الحياةِ فى الناحية التى

ليس فيها إلا قبرٌ مظلمٌ مقفلٌ على أمك ، وأبٌ مسكينٌ مقفلٌ على آلامه ؟

قال المسكين : وهكذا كُتِبَتْ من أهل البؤس والهم ، فلم أتزوج إلا لتصنع لي حبيبتى دموعى ، ثم لم تمت إلا بعد أن تركت لي حبيبةً أخرى ستظل زمناً طويلاً تصنع لي دموعى !

السَّامَكَةُ

حدَّثَ أحمدُ بنُ مسكينٍ الفقيهُ البغدادي قال : حصلت في مدينة (بلخ) سنة ثلاثين ومائتين ، وعالمُها يومئذ شيخُ خراسان أبو عبد الرحمن ^(١) الزاهد صاحبُ المواعظ والحكم ؛ وهو رجل قلبه من وراء لسانه ، ونفسه من وراء قلبه ، والفلكُ الأعلى من وراء نفسه ، كأنه يُلقَى عليه فيما زعموا .

وكان يقال له عندهم : (لقمانُ هذه الأمة) ؛ لما يُعجبهم من حكمه في الزهد والموعظة ، وقد حضرتُ مجالسه وحفظتُ من كلامه شيئاً كثيراً ، كقوله : من دخل في مذهبنا هذا (يعنى الطريق) فليجعل على نفسه أربع خصال من الموت : موتٌ أبيض ، وموتٌ أسود ، وموتٌ أحمر ، وموتٌ أخضر ؛ فالموتُ الأبيضُ الجوع ، والموتُ الأسودُ احتمالُ الأذى ، والموتُ الأحمرُ مخالفةُ النفس ، والموتُ الأخضرُ طرحُ الرِّقَاعِ بعضُها على بعض (يعنى لبسُ المرقعة والخاقِ من الثياب) .

(١) هو حاتم بن يوسف خراسان وواعظها ، توفي سنة ٢٣٧ للهجرة .

وقلت يوماً لصاحبه وتلميذه (أبي تراب) وجاريته في تأويل هذا الكلام :
قد فهمنا وجه التسمية في الموت الأخضر ما دامت المرقعة خضراء ؛ فما الوجه
في الأبيض والأسود والأحمر ؟ فجاء بقول لم أرضه ، وليس معه دليل ، ثم قال :
فما عندك أنت ؟ قلت : أما الجوع فيميت النفس عن شهواتها ويتركها بيضاء
نقية ، فذلك الموت الأبيض ؛ وأما احتمال الأذى فهو احتمال سواد الوجه عند
الناس ، فهو الموت الأسود ؛ وأما مخالفة النفس فهي كإضرار النار فيها ، فذلك
الموت الأحمر .

قال أحمد بن مسكين : وكنت ذاتَ نهارٍ في مسجد (بأنج) والناس
مُتَوافرون ينتظرون (لقمان الأمة) ليسمعوه ، وشغلته بعضُ الأمر فرأيت عليهم ،
فقالوا : مَنْ يَعْظُنَا إِلَى أَنْ يَجِيءَ الشَّيْخُ ؟ فالتفتُ إِلَى أَبِي تَرَابٍ وَقَالَ : أَنْتَ
رَأَيْتَ الْإِمَامَ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ ، وَرَأَيْتَ بَشَرًا خَافِيًا وَفَلَانًا وَفَلَانًا ، فَقَدْ حَدَّثَ
النَّاسَ عَنْهُمْ ، فَإِنَّمَا هَؤُلَاءِ وَأَمْثَالُهُمْ هُمُ بَقَايَا النَّبَوَّةِ . ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي إِلَى الْأَسْطُوَانَةِ
الَّتِي يَجْلِسُ إِلَيْهَا إِمَامُ خِرَاسَانَ فَاجْلَسَنِي ثُمَّ وَقَعَدَ بَيْنَ يَدَيَّ .

وتناولت الأعناق ، ورماني الناسُ بأبصارهم ، وقالوا : الْبَغْدَادِيُّ !
الْبَغْدَادِيُّ ! وَكَأَنَّمَا ضَوْعِفَتْ عَنْدهُمْ بِعِجْلِي مَرَّةً وَبِنِسْبَتِي مَرَّةً أُخْرَى ، فَقُلْتُ
فِي نَفْسِي : وَاللَّهِ مَا فِي الْمَوْتِ الْأَحْمَرِ وَلَا الْأَخْضَرِ وَلَا الْأَسْوَدِ مَوْعِظَةٌ ، وَلَوْ لِبَشَرٍ
عِزْرَائِيلَ قَوْسَ قَزَحٍ لَا فُسَدَ شَعْرُهُ هَذِهِ الْأَلْوَانُ مَعْنَاهُ ، وَإِنَّمَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ
كَأَيِّهَا أَنْ يَكُونَ ؛ وَلَا مَوْعِظَةٌ فِي كَلَامٍ لَمْ يَمْتَلِ مِنْ نَفْسٍ قَائِلُهُ ، لِيَكُونَ عَمَلًا
فِيَتَحَوَّلَ فِي النَفُوسِ الْأُخْرَى عَمَلًا وَلَا يَبْقَى كَلَامًا ؛ وَإِنَّمَا لَيْسَ الْوَعْظُ تَأْلِيفَ
الْقَوْلِ لِلسَّمَاعِ يَسْمَعُهُ ، لَكِنَّهُ تَأْلِيفُ النَفْسِ لِنَفْسٍ أُخْرَى تَرَاهَا فِي كَلَامِهَا ،
فِيَكُونُ هَذَا الْكَلَامُ كَأَنَّهُ قَرَابَةٌ بَيْنَ النَّفْسَيْنِ ، حَتَّى لَسْكَانِ الدَّمِ الْمَتَجَاذِبِ يَجْرِي
فِيهِ وَيَدُورُ فِي أَلْفَاظِهِ .

وكنْتُ رأيتُ رؤيا (ببلخ) تتصل بقصة قديمة في بغداد ، فقصصتها عليهم ، فكانت القصة كما حكيتها : أني امْتُحِنْتُ بالفقر في سنة تسع عشرة ٢١٩ ومائتين ؛ وانْحَسَمَتْ مادتي وقَحِطَ منزلي قَحْطًا شديدًا جمع على الحاجة والضَّرَّ والمسكنة ؛ فلو انكشيت الصحراء الجذبة فَصَغُرْتُ ثم صَغُرْتُ حتى ترجع أذرعًا في أذرع ، لكانت هي داري يومئذ في محلة باب البصرة من بغداد .

وجاء يومٌ صَحْرَاوِيٌّ كأنما طلعت شمسُه من بين الرمل لا من بين الشَّجْب ، ومَرَّت الشمسُ على داري في بغداد مرورها على الورقة الجافة المعلقة في الشجرة الخضراء ؛ فلم يكن عندنا شيء يُسِغُهُ حَلَقُ آدمي ، إذ لم يكن في الدار إلا ترابها وحجارتها وأجذاعها ؛ ولى امرأة ولى منها طفلٌ صغير ، وقد طَوَّينا على جُوعٍ يَخْسِفُ بالجوف خَسْفًا كما تَهَيِّطُ الأرض ؛ فلتَمَنَّيْتُ حينئذ لو كنا جُرْدَانًا فنَقَرِضَ الخشب ! وكان جوعُ الصبي يزيدُ المرأةَ ألمًا إلى جوعها ، وكنْتُ بهما كالجائع بثلاثة بطونٍ خاوية .

فقلت في نفسي : إذا لم نأكل الخشبَ والحجارة فلنأكلَ بَشَنها . وجمعتُ نيتي على بيع الدار والتحوُّلِ عنها ، وإن كان خروجي منها كالخروج من جِلْدِي : لا يَسْمَى إلا سُلْخًا وموتًا ؛ وبت ليلتي وأنا كالمُتَخَنِّ حِمْلٍ من معركة : فما يَتَقَّابُ إلا على جراحٍ تعملُ فيه عملُ السيفِ والأسنة التي عملتُ فيها .

ثم خرجتُ بغلسٍ لصلاة الصبح ؛ والمسجدُ يكون في الأرض ولكن السماء تكون فيه ، فأيتيتُ عند نفسي كأني خرجتُ من الأرض ساعة . ولما قُضِيَت الصلاة رفع الناسُ أكَفَّهُم يدعون الله (تعالى) ، وجرى لساني بهذا الدعاء : « اللهم بك أعوذ أن يكون فقري في ديني ، أسألك النفع الذي يُصْلِحُنِي بطاعتك ، وأسألك بركة الرضى بقضائك ، وأسألك القوة على الطاعة والرضا يا أرحمَ الراحمين . »

ثم جلستُ أنا مُملُ شأني ، وأطلتُ الجلوسَ في المسجدِ كأنني لم أعدُ من أهلِ الزمنِ فلا تجرِي عليَّ أحكامه ، حتى إذا ارتفعَ الضحَى وابتضتِ الشمسُ جاءت حقيقةُ الحياة ، فخرجتُ أتسبَّبُ لبيعِ الدارِ ، وانبعثتُ وما أدرى أين أذهب ، فما سرتُ غيرَ بعيدٍ حتى لقيني (أبو نصر الصياد) وكنتُ أعرفه قديماً ، فقلتُ : يا أبا نصر ! أنا على بيعِ الدارِ ؛ فقد ساءتِ الحالُ وأخوَجَتِ الخِصاصةُ ، فأقرضني شيئاً يُمسِكُنِي على يومي هذا بالقوامِ من العيشِ حتى أبيعَ الدارَ وأوفِّيكَ . فقال : يا سيدي ! خذ هذا المنديلَ إلى عيالك ، وأنا على أثرِكَ لاحقٌ بك إلى المنزلِ . ثم ناولتني منديلاً فيه رُقَاقَتانِ بينهما حلوى ، وقال : إنهما واللهِ بركةُ الشيخِ .

قلت : من الشيخِ وما القصةُ ؟

قال : وقفتُ أمسٍ على بابِ هذا المسجدِ وقد انصرفَ الناسُ من صلاةِ الجمعةِ ، فرَبَّيْ أبو نصرٍ بشرُ الحافي^(١) فقال : مالي أراك في هذا الوقتِ ؟ قلتُ : ما في البيتِ دقيقٌ ولا خبزٌ ولا درهمٌ ولا شيءٌ يباعُ . فقال : اللهُ المستعانُ ؛ احمل شبكتَكَ وتعالَ إلى الخندقِ ؛ فحملتها وذهبتُ معه ، فلما انتهينا إلى الخندقِ قال لي : توضأُ وصلِّ ركعتينِ . ففعلتُ ، فقال : سَمَّ اللهُ تعالى وألقِ الشبكةَ . فسمَّيتُ وألقيتها ، فوقعَ فيها شيءٌ ثَقِيلٌ ، فجعلتُ أجره فشَقَّ عَلَيَّ ؛ فقلتُ له : ساعدني فإنني أخافُ أنْ تنقطعَ الشبكةُ ، فجاء وجرَّها معي ، فخرجتُ سمكةً عظيمةً لم أرَ مثلاً سَمَنًا وعِظْماً وفِراةً . فقال : خذها وبعها واشترِ بثمنها ما يُصلِحُ عيالكَ . فحملتها فاستقبلني رجلٌ اشتراها ، فابتعتُ لأهلي ما يحتاجونَ إليه ، فلما أكلتُ وأكلوا ذكرتُ الشيخَ فقلتُ أهدى له شيئاً ، فأخذتُ هاتينِ الرقَاقَتينِ وجعلتُ بينهما

(١) هو الزاهد العظيم بشر بن الحارث المعروف بالحافي ، توفي سنة ٣٢٧ للهجرة وكان واحداً في ورعه وتقواه ؛ وقيل له : (الحافي) لأنه كان في حدائمه يمشي إلى طلب العلمِ حافياً ، إجلالاً لحديثِ النبي صلى الله عليه وسلم .

هذه الحلوى ، وأتيتُ إليه فطَرَقْتُ الباب ، فقال : من ؟ قلت : أبو نصر ! قال :
افتح وضع ما معك في الدهليز وادخل . فدخلتُ وحدثته بما صنعت فقال :
الحمد لله على ذلك . فقلت : إني هياتُ للبيت شيئاً وقد أكلوا وأكلتُ ومعى
رقاقتان فيهما حلوى .

قال : يا أبا نصر ! لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة ! اذهب كُلْهُ
أنت وعيالُك .

قال أحمد بن مسكين : وكنتُ من الجوع بحيث لو أصبتُ رغيفاً لحسبته
مائدة أنزلت من السماء ، ولكنَّ كلمة الشيخ عن السمكة أشبعني بمعانيها شبعاً
ليس من هذه الدنيا ، كأنما طعمتُ منها ثمرةً من ثمار الجنة ؛ وطفقتُ أرددها
لنفسى وأتأملُ ما تقتقُ الشهواتُ على الناس ، فأيقنتُ أن البلاءَ إنما يضيئنا
من أننا نفسُ الدنيا على طولها وعرضها بكلماتٍ معدودة ، فإذا استقرَّ في أنفسنا
لفظٌ من ألفاظ هذه الشهوات ، استقرت به في النفس كلُّ معانيه من المعاصي
والذنوب ، وأخذتُ شياطينُ هذه المعاني تحومُ على قلوبنا ، فنصبحُ مهينين لهذه
الشياطين ، عاملين لها ، ثم عاملين معها ، فتدخلنا مداخلُ السوء في هذه الحياة ،
وتفتحُنا في الورطة بعد الورطة ، وفي الهلكة بعد الهلكة .

وما هذه الشياطينُ إلا كالذباب والبعوض والهوام ، لا تحومُ إلا على رائحةٍ
تجذبها ، فإن لم تجد في النفس ما تجتمعُ عليه ، تفرقت ولم تجتمع ، وإذا ألتمت
الواحدة منها بعد الواحدة لم تثبت . فلو أننا طردنا من أنفسنا الكلمات التي
أفسدت علينا رؤية الدنيا كما خلقت ، لكان للدنيا في أنفسنا شكلٌ آخرُ
أحسنُ وأجملُ من شكلها ، ولكانت لنا أعمالٌ أخرى أحسنُ وأطهرُ من أعمالنا .
فالشيخ لم يكن في نفسه معنىً لكلمة (التأذُّد) ، ويطرده من نفسه هذا

اللفظ الواحد ، طَرَدَ معاني الشرِّ كلها ، وصَلَحَ له دينه ، وَخَلَصَتْ نفسه للخير ومعاني الخير . ولو أن رجلاً وضع في نفسه امرأةً يَعَشِقُهَا ، لصارت الدنيا كلها في نفسه كَالْمُخْدَعِ : ما فيه إلا المرأةُ وحدها بأسبابها إليه وأسبابه إليها . . .

وقد كنتُ سمعتُ في درس شيخنا أحمد بن حنبل هذا الحديث : « لولا أن الشياطينَ يَحْمُونَ على قلوب بني آدمَ لَنَظَرُوا إلى مَلَكَوتِ السمواتِ . » فما فهمتُ والله معناه إلا من كلمة الشيخ في السمكة ، وقد علمتها هذا الصيادُ العامي ؛ فالشياطينُ تنجذبُ إلى المعاني ، والمعاني يُوجِدُها اللفظُ المستقرُّ في القلب استقراراً غرضاً أو شهوةً أو طمعاً ؛ فإذا خلا القلبُ من هذه المعاني ، فقد أَمِنَ مُنَازَعَتَهَا له وَشَغْلَهَا إياه ، فيصبحُ فوقها لا بينها ؛ ومتى صار القلبُ فوق الشهوات ولم يجد من أَلْفَظِها ما يُعَمِّيه ويعتريضُ نظره إلى الحقائق ، انكشفت له هذه الحقائقُ فانكشف له المَلَكَوتُ ؛ فإذا وقع بعدُ في واحدةٍ من اللذات ولو (كالرقاقتين والحلوى) ، استَعَلَّتْ الأشياءُ عليه فحجبته ، وعاد بينها أو تحتها ، وعَمِيَ عَمَى اللذة ؛ والحِجَابُ على البصرِ كأنه تعليقُ العمى على البصرِ .

وكنتُ لا أزالُ أعجبُ من صبر شيخنا أحمد بن حنبل وقد ضُربَ بين يدي المعتصم بالسيّاط حتى غشي عليه ^(١) فلم يتحوّل عن رأيه ؛ فعلمتُ الآن من كلمة السمكة أنه لم يجعل في نفسه للضرب معنى الضرب ، ولا عرف للصبر معنى الصبر الأدمي ؛ ولو هو صَبَرَ على هذا صَبَرَ الإنسانُ لَجَزَعَ وتحوّل ، ولو ضُرب ضربَ الإنسانِ لتألّمَ وتغير ؛ ولكنه وضع في نفسه معنى ثباتِ السنّةِ وبقاء الدين ، وأنّه هو الأمةُ كلها لا أحمد بن حنبل ، فلو تحوّل لتحوّل الناسُ ، ولو ابتدّع لا ابتدّعوا ؛ فكان صبرُهُ صبرَ أمةٍ كاملةٍ لا صبرَ رجلٍ فردٍ ، وكان يُضْرَبُ

(١) كان هذا في سنة ٢١٩ وقد أرادوا الإمام العظيم على القول بخلق القرآن فلم يقل به ، فأقّى القاضي ابن أبي دؤاد بقتله وشغب عليه . ثم ضرب بين يدي المعتصم ، فلما صمم ولم يجب أطلقه المعتصم وندم على ضربه .

بالسياط ونفسه فوق معنى الضرب ، فلو قرضوه بالمقاريض ونشروه بالمناسير لما نالوا منه شيئاً ؛ إذ لم يكن جسمه إلا ثوباً عليه ، وكان الرجل هو الفكر ليس غير .

هؤلاء قوم لا يرون فضائلهم فضائل ، ولكنهم يرونها أماناتٍ قد انتمنوا عليها من الله لتبقى بهم معانيها في هذه الدنيا ؛ فهم يزرعون في الأمم زرعاً بيد الله ، ولا يملك الزرع غير طبيعته ، وما كان المعصم وهو يريد شيخنا على غير رأيه وعقيدته إلا كالأحمق يقول لشجرة التفاح : أثمرى غير التفاح .

قال أحمد بن مسكين : وأخذت الرقاقتين وأنا أقول في نفسي : لعن الله هذه الدنيا ! إن من هوانها على الله أن الإنسان فيها يلبس وجهه كما يلبس نعله . فلو أن إنساناً كانت له نظرة ملائكية ثم اعترض الخلق ينظر في وجوههم ، لرأى عليها وحولاً وأقداراً كالتي في نعالهم أو أقدار أو أقبح ، ولعله كان لا يرى أجمل الوجوه التي تسهمي الناس وتتصباها من الرجال والنساء ، إلا كالأحذية العتيقة . . .

ولكني أحسست أن في هاتين الرقاقتين سرّ الشيخ ، ورأيتهما في يدي كالوثيقتين بخير كثير ؛ فقلت : على بركة الله . ومضيت إلى داري ؛ فلما كنت في الطريق لقيتني امرأة معها صبي ، فنظرت إلى المنديل وقالت : يا سيدي ، هذا طفل يتيم جائع ولا صبر له على الجوع ، فأطعمه شيئاً يرحمك الله . ونظر إلى الطفل نظرة لا أنساها ؛ حسبت فيها خشوع ألف عابد يعبدون الله (تعالى) منقطعين عن الدنيا ؛ بل ما أظن ألف عابد يستطيعون أن يروا الناس نظرة واحدة كالتي تكون في عين صبي يتيم جائع يسأل الرحمة . إن شدة الهم لتجعل وجوه الأطفال كوجوه القديسين ، في عين من يراها من الآباء والأمهات ،

لِعَجَزِ هَؤُلَاءِ الصَّغَارِ عَنِ الشَّرِّ الْآدَمِيِّ وَانْقِطَاعِهِمْ إِلَّا مِنْ اللَّهِ وَالْقَلْبِ الْإِنْسَانِيِّ ،
فَيُظْهِرُ وَجْهَ أَحَدِهِمْ وَكَأَنَّهُ يَصْرُخُ بِمَعَانِيهِ يَقُولُ : يَا رَبَّاهُ يَا رَبَّاهُ !

قال أحمد بن مسكين : وَخَيَّلَ إِلَى حِينُنْذِ أَنْ الْجَنَّةَ نَزَلَتْ إِلَى الْأَرْضِ
تَعْرِضُ نَفْسَهَا عَلَى مَنْ يُشْبِعُ هَذَا الطِّفْلَ وَأُمَّهُ ، وَالنَّاسُ عُغْمَى لَا يُبْصِرُونَهَا ،
وَكَاثِمُهُمْ يَمْرُونَ بِهَا فِي هَذَا الْمَوْطِنِ مَرُورَ الْحَيْرِ بِقَصْرِ الْمَلِكِ : لَوْ سُمِّيَتْ فَضَّلَتْ
عَلَيْهِ الْإِصْطَبَلُ الَّذِي هِيَ فِيهِ ...

وَذَكَرْتُ امْرَأَتِي وَابْنَهَا وَهِيَ جَائِعَانِ مُذْ أَمْسَ ، غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ لَهَا فِي قَلْبِي
مَعْنَى الزَّوْجَةِ وَالْوَلَدِ ؛ بَلْ مَعْنَى هَذِهِ الْمَرْأَةِ الْحَاجَّةِ وَطِفْلِهَا ، فَأَسْقَطْتُهُمَا عَنْ قَلْبِي
وَدَفَعْتُ مَا فِي يَدَيِ الْمَرْأَةِ وَقُلْتُ لَهَا : خَذِي وَأَطْعِمِي ابْنَكَ ، وَوَاللَّهِ مَا أَمْلَأُ
بِضَاءً وَلَا صَفْرَاءً ، وَإِنَّ فِي دَارِي لَمَنْ هُوَ أَحْوَجُ إِلَى هَذَا الطَّعَامِ ؛ وَلَوْ لَا هَذِهِ
الْخَلَّةُ بِي لَتَقَدَّمْتُ فِيمَا يُصْلِحُكَ . فَدَمَعْتُ عَيْنَاهَا ، وَأَشْرَقَ وَجْهُ الصَّبِيِّ ، وَلَكِنْ
طَمَّ عَلَى قَلْبِي مَا أَنَا فِيهِ فَلَمْ أَجِدْ لِلدَّمْعَةِ مَعْنَى الدَّمْعَةِ ، وَلَا لِلْبَسْمَةِ مَعْنَى الْبَسْمَةِ .

وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : أَمَا أَنَا فَاطُوِيْ إِنْ لَمْ أُصِْبْ طَعَامًا ، فَقَدْ كَانَ أَبُو بَكْرٍ
الصَّدِيقُ يَطْوِي سِتَّةَ أَيَّامٍ ، وَكَانَ ابْنُ عُمرِ يَطْوِي ، وَكَانَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ مِمَّنْ حَفَظْنَا
أَسْمَاءَهُمْ وَرَوَيْنَا أَخْبَارَهُمْ ؛ وَلَكِنْ مَنْ لِلْمَرْأَةِ وَابْنِهَا بِمَثَلِ عَقْدِي وَنَيْتِي ؟ وَكَيْفَ
لِي بِهِمَا ؟

وَمَشَيْتُ وَأَنَا مُنْكَسِرٌ مُنْقَبِضٌ ، وَكَأَنِّي كُنْتُ نَسِيتُ كَلِمَةَ الشَّيْخِ : « لَوْ
أَطْعَمْنَا أَنْفُسَنَا هَذَا مَا خَرَجْتَ السَّمَكَةُ . » فَذَكَرْتُهَا وَصَرَفْتُ خَاطِرِي إِلَيْهَا وَشَغَلْتُ
نَفْسِي بِتَذَكُّرِهَا وَقُلْتُ : لَوْ أَنِّي أَشْبَعْتُ ثَلَاثَةَ مِجْزَعِ اثْنَيْنِ لَخَرِمْتُ خُمْسَ فُضَائِلِ (١)

(١) يريد : جوعه ، وجوع امرأته ، وجوع ابنه ؛ ثم شبع هذه المرأة ، وشبع ابنها .

فهذه خمس فضائل .

وهذه الدنيا محتاجةٌ إلى الفضيلة ، وهذه الفضيلة محتاجةٌ إلى مثل هذا العمل ، وهذا العمل محتاجٌ إلى أن يكون هكذا ، فما يستقيم الأمر إلا كما صنعت .
وكانت الشمس قد انبسطت في السماء وذلك وقت الضحى الأعلى ، فأتت ناحيةً وجلست إلى حائط أفكر في بيع الدار ومن يبتاعها ، فأتنا كذلك إذ مرَّ أبو نصر الصياد وكأنه مُسْتَطَارٌّ فرحاً ، فقال : يا أبا محمد ، ما يجلسُك ههنا وفي دارك الخير والغنى ؟ قلت : سبحان الله ! من أين خرجت السمكة يا أبا نصر ؟ قال : إنى لفي الطريق إلى منزلك ، ومعى ضرورة من القوت أخذتها لعيالك ، ودراهم استدتها لك ، إذا رجلٌ يستدلُّ الناس على أبيك أو أحدٍ من أهله ، ومعه أثقالٌ وأحمال ، فقلت له : أنا أدلك . ومشيت معه أسأله عن خبره وشأنه عند أبيك . فقال : إنه تاجر من البصرة ، وقد كان أبوك أودعه مالا من ثلاثين سنةً ، فأفلس وانكسر المال ، ثم ترك البصرة إلى خراسان ، فصالح أمره على التجارة هناك ، وأيسر بعد المحنة ، واستظهر بعد الخذلان ، وأقبل جدُّه بالثراء والغنى ؛ فعاد إلى البصرة ، وأراد أن يتحلل ، فجاءك بالمال وعليه ما كان يربحه في هذه الثلاثين سنةً ، وإلى ذلك طرائفٌ وهدايا .

قال أحمد بن مسكين : وأقلبُ إلى دارى فإذا مالٌ جمٌّ وحالٌ جميلة !
فقلت : صدق الشيخ : « لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة . » ! فلو أن هذا الرجل لم يلق في وجهه أبا نصر ، في هذه الطريق ، في هذا اليوم ، في هذه الساعة ، لما اهتدى إلى ؛ فقد كان أبى مغموراً لا يعرفه أحدٌ وهو حى ؛ فكيف به ميتاً من وراء عشرين سنةً ؟

وآليت ليعلمنَّ الله شكرى هذه النعمة ؛ فلم تكن لى همةً إلا البحث عن المرأة المحتاجة وابنها ، فكفيتهما وأجريت عليهما رزقاً ، ثم اتجرت في المال ،

وجعلتُ أَرْبُةَ المعروف والصَّنيعةِ والإحسان وهو مُقْبِلٌ يُزَادُ ولا يَنْقُصُ ، حتى تَمَوَّلْتُ وتَأَثَّلْتُ .

وكأنني قد أُحِبَّتَنِي نَفْسِي ، وسَرَّني أَنِي قد مَلَأْتُ سِجِلَاتِ الملائكةِ بِحَسَنَاتِي ، ورجوتُ أَن أكونَ قد كُتِبْتُ عِنْدَ اللَّهِ في الصالحينَ ، فَنِمْتُ لَيْلَةً فَرَأَيْتُنِي في يَوْمِ القِيَامَةِ والخَلْقِ يَمُوجُ بَعْضُهُمْ في بَعْضٍ ، والهولُ هَوْلُ السكونِ الأعظمِ على الإنسانِ الضعيفِ ، يُسْأَلُ عن كلِّ ما مَسَّهُ من هذا السكونِ . وسمعتُ الصَّاحَّ يقولُ : يا معشَرَ بنِي آدَمَ ! سَجَدْتَ البَهَائِمُ شُكْرًا لِلَّهِ أَنَّهُ لم يجعلها من آدَمَ . ورأيتُ النَّاسَ وقد وُسِّعَتْ أبدانُهُم فهِمَ يَحْمِلُونَ أوزارَهُم على ظُهُورِهِم مخلوقةَ جَسَمَةٍ ، حتى لكانَ الفاسقُ على ظَهْرِهِ مَدِينَةً كُلُّهَا مُحْزِيَاتٍ !

وقيل : وُضِعَتْ الموازينُ . وحيءَ لِي لوزنُ أَعْمَالِي ، فَجُعِلَتْ سِيئَاتِي في كِفَّةٍ ، وأُلْقِيَتْ سِجِلَاتُ حَسَنَاتِي في الأُخْرَى ، فَطَاشَتْ السِّجِلَاتُ وَرَجَحَتْ السِّيئَاتُ ، كَأَنَّمَا وَزَنُوا الجِبَلَ الصَّخْرَى العَظِيمَ الضَّخْمَ بِلُفَافَةٍ مِنَ القُطْنِ . . .

ثمَّ جَعَلُوا يُلْقُونَ الحَسَنَةَ بَعْدَ الحَسَنَةِ مِمَّا كُنْتُ أَصْنَعُهُ ، فَإِذَا تَحْتَ كُلِّ حَسَنَةٍ شَهْوَةٌ خَفِيَّةٌ مِنْ شَهَوَاتِ النَفْسِ : كَالرِّيَاءِ والغُرُورِ وَحُبِّ المَحْمَدَةِ عِنْدَ النَّاسِ وَغَيْرِهَا ، فلمْ يَسَلِّمْ لِي شَيْءٌ ، وَهَلَكْتُ عَنِّي حُجَّتِي ، إِذْ الحِجَةُ مَا يُبَيِّنُهُ المِيزَانُ ، وَالمِيزَانُ لمْ يَدِلَّ إِلَّا عَلى أَنِي فارغٌ .

وسمعتُ الصَّوتَ : أَلَمْ يَبْقَ لَهُ شَيْءٌ ؟ فَقِيلَ : بَقِيَ هَذَا .

وَأَنْظُرْ لِأَرَى مَا هَذَا الَّذِي بَقِيَ ، فَإِذَا الرِّقَاقَتَانِ اللَّتَانِ أَحْسَنَتُ بِهِمَا عَلى المَرَأَةِ وَابْنِهَا ! فَأَيَقَنْتُ أَنِي هَالِكٌ ؛ فَلَقَدْ كُنْتُ أُحْسِنُ بِمِائَةِ دِينَارٍ ضَرْبَةً وَاحِدَةً فَمَا أَغْنَتْ عَنِّي ، وَرَأَيْتُهَا في المِيزَانِ مَعَ غَيْرِهَا شَيْئًا مَعْلَقًا ، كَالغَنَامِ حِينَ يَكُونُ سَاقِطًا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ : لَا هُوَ في هَذِهِ وَلَا هُوَ في تِلْكَ .

وَوُضِعَتْ الرِّقَاقَتَانِ ، وَسمعتُ القَائِلَ : لَقَدْ طَارَ نِصْفُ ثَوَابِهِمَا في مِيزَانِ

أبى نصر الصياد . فأنخذلتُ انخذالاً شديداً ، حتى لو كُسِرَتْ نصفين لكان أخفَّ علىَّ وأهون . بيدَ أنى نظرتُ فرأيتُ كِفَّةَ الحسناتِ قد نزلتْ منزلةً ورجعتْ بعضَ الرُّجحان .

وسمعتُ الصوتُ : ألم يبقَ له شيءٌ ؟ فقليلٌ بَقِيَ هذا .

وأنظرُ ما هذا الذى بقى ، فإذا جوعُ امرأتى وولدى فى ذلك اليوم ! وإذا هو شيءٌ يُوضَعُ فى الميزان ، وإذا هو ينزلُ بكِفَّةٍ ويرتفعُ بالأخرى حتى اعتدلتا بالسَّوِيَّة . وثبتَ الميزانُ على ذلك فكنتُ بين الهلاك والنَّجاة .

وأسمعُ الصوتُ : ألم يبقَ له شيءٌ ؟ فقليلٌ بَقِيَ هذا .

ونظرتُ فإذا دموعُ تلك المرأة المسكينة حين بكّتْ من أثرِ المعروفِ فى نفسها ، ومن إيثارى إياها وابنها على أهلى . ووُضِعَتْ غُرْغَرَةٌ عَيْنِهَا فى الميزان ففَارَتْ ، فطَمَتْ كأنها لُجَّةٌ ، من تحتِ اللجةِ بجرٍ ؛ وإذا سمكةٌ هائلةٌ قد خرجتْ من اللجةِ وقعَ فى نفسى أنها رُوحُ تلك الدموع ، فجعلتْ تعظمُ ولا تزالُ تعظمُ ، والكفةُ ترجحُ ولا تزالُ ترجحُ ، حتى سمعتُ الصوتُ يقولُ :
قد نجا !

وصحّتُ صيحةً انتبهتُ لها ، فإذا أنا أقولُ : « لو أطمعنا أنفسنا هذا ما خرجتِ

السمكة ! »

الزاهدان

٢

قال أحمد بن مسكين : وانتشر حديث السمكة في أهل (بلخ) .
واستفاض بينهم ، وكنت قصصته عليهم يوم السبت ، فلما دار السبت من
أسبوعه لقيني شيخهم حاتم بن يوسف (لقمان الأمة) ومعه صاحبه أبو تراب ،
فقال : يا أحمد ! لكأنك في هذه المدينة قرططلع بليلى ، فلا يعظ الناس في يوم
السبت غيرك ؛ ومن سمع فكأنه عاين ، وليس على السنة أهل بلخ منذ تحدثت
إلا بشر وابن حنبل ، ولا على بال أحد منهم إلا موعظتك وحديثك .

والكلام عن الصالحين في مثل ما وصفت وحكيت قرب من حقائقهم ،
وسموا إلى معانيهم ؛ وليس في القول باب له موقع كموقع القصة عن هؤلاء الذين
يخلقهم الله في البشرية خلق النور : يضيء ما حوله من حيث يرى ، ويعمل
فيما حوله من حيث لا يرى ، وفي ظاهره الجمال والمنفعة ، وفي باطنه القوة والحياة .
ولست أقول لك اذهب فحدث الناس ، ولكني أقول اذهب فأعظ الناس
عقلاً من الحديث .

قال ابن مسكين : فلما صلينا العصر ، قدمني أبو تراب فجلست في مجلسي
ذاك ، وهتف بي الناس يريدون الحديث عن بشر الخافي وما سقط لي من أخباره ،
على الطريقة التي حدثهم بها من قبل ، فابتدأت بذكر موته (رحمه الله) ،
وأن يومه كما إنما اجتمع له أهل خمس وسبعين سنة ^(١) ، إذ خرجت جنازته بعد

(١) مات (رحمه الله) عن خمس وسبعين سنة .

صلاة الصبح ، فلم يحصل في قبره إلا في الليل مما احتشد في طريقه من الخلق ، حتى لكان في نعشه سرا من أسرار الجنة يطالعهم به الموت فخرجوا ينظرون إليه ، وكانوا يصيحون في جنازته : هذا والله شرف الدنيا قبل شرف الآخرة .

ثم قلت : حدثني حسين المغازلي^(١) : أن بشراً (رحمه الله) كان لا يأكل إلا الخبز تورعاً عن الشبهات واكتفاءً لضرورة الحياة بالأقل الأيسر ، وكان يقول في ذلك : يد أقصر من يد ، ولقمة أصغر من لقمة . وسئل مرة : بأي شيء تأكل الخبز؟ فقال : أذكر العافية فأجعلها إداماً . وقد أعانه على ذلك أنه لم يتزوج ، وكان يرى هذا نقصاً في نفسه حتى فضل الإمام أحمد بن حنبل بأشياء : منها أن له أهلاً ؛ غير أنه قيل له ذات يوم : لو تزوجت تم نسكك . فقال : أخاف أن تقوم الزوجة بحقي ولا أقوم بحقها . فكانت هذه النية في نفسه أفضل من زواجه .

وكان مع هذا لا يؤاكل أحداً ، ولا يسعى إلى لقاء أحد ، حتى إنه لما رغب في مؤاخاة الزاهد العظيم (معروف الكرخي) ، أرسل إليه (الأسود بن سالم) وكان صديقاً لها ، فقال لمعروف : إن بشر بن الحارث يريد مؤاخاتك وهو يستحي أن يشافئك بذلك ، وقد أرسلني إليك يسألك أن تعقد له فيما بينه وبينك أخوة يحتسبها ويعتد بها ؛ إلا أنه يشترط فيها شروطاً : أولها أنه لا يجب أن يشتهر ذلك ، وثانيها ألا يكون بينك وبينه من أورة ولا ملاقاة . فقال معروف : أما أنا فإذا أحببت أحداً لم أحب أن أفارقه ليلاً ولا نهاراً ، وأزوره في كل وقت ، وأوتره على نفسه في كل حال ؛ وأنا أعقد لبشر أخوة بيني وبينه ، ولكني

(١) نسبة إلى عمل المغازل ، وكان حسين هذا صديقاً لبشر ، وكان بشر يعمل المغازل ويعيش من ثمنها ، ومن كلامه لابن أخته عمر : يا بني ، اعمل بيدك ؛ فإن أثره في الكفين أحسن من أثر السجدة بين العينين . هكذا كانوا رحمهم الله .

أزوره متى أحببت ، وأمره ببقاءى فى مواضع نلتقى فيها إذا هو كره زيارتى .
قال حسين المغازلى : وكان هذا كله من أمرٍ بشرٍ معروفٍ فى بغداد ، لا يجده
أحد من أهلها ، إذ لم يكن لبغداد إمام غيره وغير ابن حنبل ؛ فما كان أكثر
عجبي حين كنت عنده يوماً وقد زاره (فتش الوصل) ، فقام فجاء بدراهم ملء كفه
ودفعها إلى وقال : اشتري لنا أطيب ما تجد من الطعام ، وأطيب ما تجد من الحلوى ،
وأطيب ما تجد من الطيب . وما قال لى مثل ذلك قط ، وهو الذى رأى الفاكهة
يوماً فقال : ترك هذه عبادة ! وهو القائل لأبى نصر الطياد : لو أطعنا أنفسنا
هذا ما خرجت السمكة ^(١) .

فذهبت فاشتريت وانتقيت وتخيرت ، ثم وضعت الطعام بين أيديهما ،
فرايته يأكل معه وما رأيته أكل مع غيره ، ورأيت منسبطاً إليه ومالى عهد
كان بانساطه إلى أحد . وقد كنت أخبرته فى ذلك النهار بخبر أحمد بن حنبل ،
علمته من أدريس الحداد : فإنه لما زالت المحنة بعد أن ضرب بين يدي المعتصم
وصرف إلى بيته ، تحمل إليه مال كثير من سروات بغداد وأهل الخير فيها ،
فرد جميع ذلك ولم يقبل منه قليلاً ولا كثيراً ، وهو محتاج إلى أيسره ، وإلى
الأقل من أيسره ، وإلى الشيء من أقله ، فجعل عمه اسحق يحسب ما ورد فى
ذلك اليوم ، فكان خمسين ألف دينار ، فقال له الإمام : يا عم ، أراك مشغولاً
بحساب ما لا يفيدك . قال : قد رددت اليوم كذا وكذا ألفاً وأنت محتاج إلى
حبة من دائق . فقال الإمام : يا عم ، لو طلبناه لم يأتنا ، وإنما أتانا لما تركناه .

قال المغازلى : فتمت تلك الليلة وأنا أفكر فى صنيع الشيخ ، وقد تعاق
خاطرى به : كيف انقلبت الحال معه ، وأى شيء هذه الحال ؟ وجهات أن كذا

(١) مر هذا فى مقال (السمكة)

ذهنى لأعرف الحقيقة العقلية التى سَاطَتْ عليه هذه الضرورة فتسَاطَ النعيمُ على نفسه ، وأنا أعلم أن للقوم علوماً روحانيةً ليست فى الكتب ، فمنها ما لا يتعلمونه إلا من الفقر ، ومنها ما لا يتعلمونه إلا من البلاء ، ومنها ، ومنها ؛ ولكن ليس منها ما يتعلمونه من اللذات والشهوات ؛ وذهب قلبى إلى أوهام كثيرة ليس فى جميعها طائلٌ ولا بها معرفة ، حتى غلبتنى عينائى ، وأنا من وهَج الفكر نائمٌ كالمرضى ، وقد ثَقُلَ رأسى واختلط فيه ما يُعَقَل بما لا يُعَقَل .

فرايتُ أولَ ما رأيت مَلِكاً جباراً يحكم مدينةً عظيمة ، وقد أطلق النادى فى جمعٍ كلِّ أطفالِ مدينته ، فحىء بهم من كل دار ، ثم رأيتُه قد جلس على سريره وفى يده مقراضٌ عظيم ، قد اتخذَه على هيئة نصلين عريضين لو وُضِعَتْ بينهما رقبة لفَصَلَاها عن جسمها ؛ فكان هذا الجبار يتناول الطفل من أولئك فيضع أصابع إحدى قدميه فى شِقِّ المقراض فيقرضُها ، فإذا هى تتناثر أسرع مما يقرضُ المَقْصُ الخيط ، ثم يرمى بالطفل مغشياً عليه ، ويتناول غيره فيبترُ أصابعه ، والأطفال يصرخون ؛ وأنا أرى كلَّ ذلك ولا أملك إلا غيظى على هذا الجبار من حيث لا أستطيع أن أمْضِي فيه هذا الغيظ فأقرضَ عنقه بمقراضه . ثم رأيتُه يأخذ طفلاً صغيراً ، فلما جاءت قدمُ الطفل بين شِقِّ المقراض صاح : ياربِّ ، ياربِّ . فإذا المقراضُ يلتوى فلا يصنع شيئاً ، وكأنَّ فيه حجراً صلباً لا قدماً رَخْصَةً . فتميَّزَ الجبارُ من الغيظ وقال : مَنْ هذا الطفل ؟ فسمعتُ هاتفاً يهتف : هذا بشر الحافى ! لا يبلغ تاجُ مَلِكٍ فى الأرض أن يكونَ لقدمه الحافية نعلًا عند الله !

وكان إلى يمينى رجل يتَوَضَّأُ وجهه صلاحاً وتقوى ، فقلت له : مَنْ هذا الطاغية ؟ ولم اتَّخَذْ المقراضَ لأقدام الأطفال خاصة ؟ فقال : يا حسين ! إن هذا الجبار هو ذُلُّ العيش ، وهذا وَسْمُهُ لأهل الحياة

على الأرض ، يحقق به في الإنسان معنى البهيمة أول ما يدبُّ على الأرض ، حتى كأنه ذو حافر لا ذو قدم .

قلت : فما بال هذا الطفل لم يعمل فيه المقراض ؟

قال : إن لله عبادةً استخصَّهم لنفسه ، أولُ علامته فيهم أن الذلَّ تحت أقدامهم ، وهم يحيئون في هذه الحياة لإثبات القدرة الإنسانية على حكم طبيعة الشهوات التي هي نفسها طبيعةُ الذلِّ ؛ فإذا اطَّرح أحدُهم الشهوات وزهد فيها ، واستقام على ذلك في عقْدِ نيَّةٍ وقوةٍ إرادة ، فليس ذلك بالزاهد كما يصفُّه الناس ، ولكنه رجل قوي اختارته القدرة ليحمل أسلحةَ النفس في معاركها الطاحنة ، كما يحملُ البطلُ الأروعُ أسلحةَ الجسم في معاركه الدامية : هذا يتعلَّم منه فنٌّ ، وذاك يتعلَّم منه فنٌّ آخر ، وكلاهما يُرمَى به على الموت لإيجاد النوع المستعزِّ من الحياة ، فأولُ فضائله الشعورُ بالقوة ، وآخر فضائله إيجادُ القوة .

قال المغازلي : وضربَ النومُ على رأسي ضربةً أخرى ، فإذا أنا في أرضٍ خبيثةٍ داخنةٍ ، قد ارتفع لها دُخانٌ كثيفٌ أسودُّ يتضرَّبُ بعضُه في بعض ، وجمعاتُ أرى شِعْلاً حمراً تذهبُ وتجيءُ كأنها أجسامٌ حية ، فوقع في وهمي أن هؤلاء هم الشياطينُ : إبليسُ وجنوده ، وسمعتُ صارخاً يقول : يا بشرى ! فأتبكِ السماءُ على الأرض ، لقد أكلَ بشرٌ الحافي من أطيبِ الطعام وأطيبِ الحلوى بعد أن استوى عنده حجرُها ومدَّرها ، وذهبها وفضَّها ! فعارضه صائحٌ أسمعُ صوته ولا أرى شخصه : ويلك يا زلنبور^(١) ! إن هذا شرٌّ علينا من عامَّةِ نُسكِه وعبادته ؛ فهذا ويحك هو الزهدُ الأعلى الذي كان لا يطيقه بشرٌ ؛ إنه إعناتُ

(١) هذا اسم بعض ولد إبليس فيما يروى ، وفي بعض النسخ التي بأيدينا أنه خنزب لا زلنبور ...

سأطه على نفسه ، فإنني دفعتُ هذا (المغازلي) الأعمى القلبَ ليزينَ له ما فعل
أحمدُ بن حنبل من رده خمسين ألف دينار على حاجته ، زهداً وورعاً ، وقوة
عزم ، ونفاذَ إرادة ؛ وقلتُ : عسى أن تتحرك في نفسه شهوةُ الزهد فيَحْسُدَ
أو يَغَارَ ، أو تُعْجِبَهُ نفسه فيكونُ لي من ذلك لَمَّةٌ بقلبه فأوسوسُ له ، فإنَّا نأتى
هؤلاء من أبوابِ الثواب كما نأتى غيرهم من أبوابِ المعاصي ، ونتورَّعُ مع أهل
الورع كما نتسَخَّفُ مع أهل الشخف ؛ ولكنَّ الرجلَ رجلٌ وفيه حقيقةُ الزاهد ،
فقد أعطى القوةَ على جعلِ شهواتِ نفسه أشخاصاً حيةً يعاديهَا ويقَاتِلُهَا ، فإذا
أنا جعلتُ شهوتهَ في اللذة قتلَ اللذة ، وإذا جعلتها في الكآبة قتلَ الكآبة ،
وليس الزاهدُ العابدُ هو الذي يتعَشَّفُ ويتعَفَّفُ ، ويتخَفَّفُ ويتلَفَّفُ ، فإن كثيراً
ما تكونُ هذه هي أوصافُ الدُّلِّ والحق ، ويكونُ لها عملُ العبادة وفيها إثمُ
المعصية . ولكنَّ الزاهدَ حقَّ الزاهد من أدار في هذه الأشياءَ عيناً قد تعلمت
النظرَ بحقه والإغضاءَ بحقه ؛ فهذا لا يخطئ معنى الشر إن لبَّسناه عليه في صورة
الخير ، ولا معنى الخير إن زوَّرنَاهُ في صورة الشر ، وبذلك يضع نفسه في حيث
شاء من المنزلة ، لا في حيث شاءت الدنيا أن تضعه من منازلها الدينية .

وما أكلَ بشرٌ هذه الطيِّباتِ إلا ليُبَادِرَ بها وسوستي ويردني عن نفسه
وعن اللَّمَّةِ بقلبه ، فلوأنه أعجبه زهدُ ابنِ حنبل ونظر من ذلك إلى زهدِ نفسه
لَحَبِطَ أجرُهُ ؛ فهذه الطيِّباتُ عالجَ نفسه علاجَ مريض ، وقد غيَّرَ على جوفه
طعاماً بطعام ، كما يبدِّل على جلده ثوباً بثوب ؛ ولا شهوةَ للجلد في أحدها .

قال المغازلي : وثقلَ النومُ على ثَقَلَةٍ أخرى ، فرأيتني في وادٍ عظيم ، وفي وسطه
مثلُ الطَّوْدِ من الحجارة قد رُكِّمَ بعضها على بعض ؛ ورأيتني مع بشرٍ أقصَّ عليه
خبرَ أحمد بن حنبل ؛ فقال : انظر ويحك ؛ إن الناسَ يسمونها خمسين ألف دينار ،

وهي هنا في وادي الحقائق خمسون ألف حجرٍ لو أصابتُ أحمدَ لقتلته ولكانت قبره آخرَ الدهر .

إن المالَ يا بني هو ما يعملُه المال لا جوهره من الذهب والفضة ، فإذا كنتَ بِمَفَازَةٍ ليس فيها من يَبِيعُكَ شيئاً بذهبك ، فالترابُ والذهبُ هناك سواء ؛ والفضائلُ هي ذهبُ الآخرة ؛ فهنا تجدُّ بالمال دنياك التي لا تبقى أكثر من بقائك ، وهناك تجدُّ بالفضائل نفسك التي تخلدُ بخلودها .

ومعنى الغنى معنى مُلتَبَسٌ على العقول الآدمية لاجتماع الشهوات فيه ، فحين يردُّ أحمدُ بنُ حنبلٍ خمسين ألفاً ، يكون هذا المعنى قد صحَّح نفسه في هذا العمل وجهاً من التصحيح .

قال حسين المغازلي : وغطّني النوم في أعماقه غَطَّةً أخرى ؛ فإذا أنا في المسجد في درس الإمام أحمد وهو يحدث بحديث النبي (صلى الله عليه وسلم) : « إذا عظمت أمتي الدينار والدرهم ، نُزِعَ منها هَيِّبَةُ الإسلام ؛ وإذا تركوا الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر ، حُرِّموا بركة الوحي . » وهم أن يتكلم في تفسيره ^(١) ولكنه رآني فأمسك عنه وأقبل عليّ فقال : يا حسين ! إذا اجتزأ شيخُك بالرغيف فهذا عنده هو قدرُ الضرورة ؛ فإن أكلَ الطيبات فقد عرَضَتْ حالُ جعلت هذه الطيبات عنده هي قدرُ الضرورة ؛ وفي هذه النفوس السماوية لا يكون الجزء الأرضي إلا محدوداً ، فلا يكون محصوله إلا ما ترى من قدر الضرورة .

ولما صغرُ الجزء الأرضي في نفوس المسلمين الأولين ملكوا الأرض كلها بقوة الجزء السماويِّ فيها ، إذ كانت إرادتهم فوق الأطماع والشهوات ، وكانت

(١) سيأتي تفسيره في مجلس آخر من مجالس ابن مسكين .

بذلك لا تذلل ولا تضعف ولا تنكسر؛ فالأدمية كلها تنتهي إلى بعض صورٍ ،
وهؤلاء هم الذين محلهم في أعلاها .

يا حسين ! ألا وإن ردَّ خمسين ألف دينار هو كذلك قدرُ الضرورة .
قال حسين : وذهبتُ أعترض على الإمام بما كان في نفسي من أن هذا
المال وإن لم يكن من كسبه ، فقد كان يتحول في يده عملاً من أعمال الخير ؛
وأنسيتُ أن هذه الصدقات هي أوساخ الناس وأقذار نفوسهم ؛ فلم أكد أفتح
في حتى رأيتُ الكلام يتحول طيناً في في ليذكرني بهذا المعنى ؛ وكدتُ
أختنق فانتفضتُ أنفسي ، فطار النوم والحلم .

(١) إبليس يعلم ...

٣

قال أحمد بن مسكين : ودار السبت الثالث ، وجلستُ مجلسي للناس وقد
انتظمتُ حلقَتَهُمْ ؛ فقام رجلٌ من عُرض المجلس فقال : إن الحسن بن شجاع
البلخي تلميذ الإمام أحمد بن حنبل (٢) ، كان منذ قريب يحدثنا بأحاديث عن
الشیطان ، حفظنا منها قوله (صلى الله عليه وسلم) : « إن المؤمن يُنضى
شيطانه كما يُنضى أحدكم بعيره في سفره . » وكان الحسن يقول في تأويله :
إن شيطان الكافر دَهِينٌ سمينٌ كاسٍ ، وشيطان المؤمن مهزولٌ أشعثٌ أغبرٌ

(١) داعبنا إبليس (لغنه الله) مداعبة ثقيلة في كتابة هذا المقال ، وستنقص للقراء حكايته
في مقالة : (دعاية إبليس) .

(٢) توفي ابن شجاع هذا سنة ٢٤٤ هـ ، وكان من حفاظ (بلخ) .

عار . فهل يأكلُ الشيطان ويدَّهِن ويلبسَ ليكون له أن يجوعَ مع المؤمن ويعرَى ويتشعث ويعبَّر ؟

قال ابن مسكين : فقلت في نفسي : لا حول ولا قوة إلا بالله ! ما أرى السائل إلا شيطانَ هذا السائل ؛ فإن إبليس إذا أراد أن يسخرَ من العالم ويسمعه طنزه وتهكمه ^(١) ، حرك من يسأله عنه ما هو وكيف هو ؛ كما يقول له : تنبّه ويحك على معنای ، فأنت تتكلم وأنا أعمل ، وأنت صورةٌ من الردِّ على ، ولكني حقيقةٌ من الرد عليك ، وما أنت في محاربتك لي بالوعظ إلا كالذي يريد أن يضرب عُنقَ عدوه بمائة اسمٍ وُضِعَت للسيف . . .

قال : وكنت قد سمعت خبراً عجيباً عن أبي عامر قبيصة بن عُقبة الكوفي الحدّث الحافظ الثقة أحدِ شيوخ أحمد بن حنبل ^(٢) ؛ وهو الرجلُ الصالح العابد الذي كان يقال له : (راهبُ الكوفة) ؛ من زهده وعبادته واحتباس نفسه في داخله كما جسدُه جدارٌ بين نفسه وبين الدنيا ، فقلت والله لأغِيظَنَّ الشيطانَ بهذا الخبر ، فإن أسماء الزهاد والعباد والصالحين هي في تاريخ الشياطين كأسماء المواقع التي تهزُم فيها الجيوش ، وما الرجلُ العابد إلا صاحبُ الغمرات مع الشيطان ، وكأنه يحتملُ المكارهَ عن أمةٍ كاملة بل عن البشرية كلها حيث كانت من الأرض ، فالناسُ يحسبونه قد تخلّى من الدنيا ويظنون التركَّ أيسرَ شيء ، وما علموا أن الزهد لا يستقيم للزاهد حتى يجعلَ جسمه كأنه في نظامٍ آخر غير نظام أعضائه ؛ ولا أشقَّ من ذلك على النفس . ومعجزةُ الزاهد أنه مكلفٌ أن يخرج للناس أقوى القوة من المعاني التي هي عند الناس أضعفُ الضعف ؛ ولو أن ملكاً عظيماً تعب في جمع الدنيا وفتح الممالك حتى حيزت له

(١) الطنز : التهزؤ والتهكم ، ولعل منه كلمة (طظ) عند العامة .

(٢) توفي سنة ٢١٥ هـ .

جوانب الأرض ، لكان عمله هذا هو الوجه الآخر لتعب الزاهد في مجاهدة هذه الدنيا وتركها .

قال أحمد بن مسكين : وقصصت عليهم القصة فقلت : كان أبو عامر قبيصة ابن عتبة كثير الفكر في الشيطان ، يود لو رآه وناقله الكلام ؛ وكان يتدبر الأحاديث التي صحَّ ورودها فيه ، ويفسر معنى الشيطان بأنه الروح الحى للخطأ على الأرض ؛ والخطأ يكون صواباً محوَّلاً عن طريقته وجهته ، ولهذا كان إبليس في الأصل ملكاً من الملائكة وتحول عن طبيعته حين خلق آدم (عليه السلام) ، أى وجد في الكون روح الخطأ حين وجد فيه الروح الذى سيخطئ . فلما هبط آدم من الجنة وخرمها هو وزوجه وذريته ، كان إبليس (لعنه الله) هو معنى بقاء هذا الحرمان واستمراره على الدهر ، فكان هذه الأدمية أخرجت من الجنة ، وأخرجت معها قوة لا تزال تصدُّها عنها ، ليضطربا في الكفاح مائياً من زمن هو عمر كل إنسان ، وهذا هو العدل الإلهي : لم يعرف آدم حق الجنة ، فعوقب ألا يأخذها إلا بحتمها ، وأن يقاتل في سبيل الخير قوة الشر .

وبات أبو عامر ذات ليلة يفكر في هذا ونحوه بعد أن فرغ من صلاته وقراءته ، ثم هوَّم فكان بين اليقظة والنوم ، وذلك حين تكون العين نائمة والعقل لا يزال منتبهاً ، فكان العين متراجعة تبصر من تحت أجفانها بصراً يُشارِكها فيه العقل .

فراى شيخنا أبو عامر صورة إبليس جاءه في زي رجل زاهد ، حسن السمْت ، طيب الريح ، نظيف الهيئة ، وكاد يشبُّه عليه لولا أنه قد عرفه من عينيه ، فإن عيني الكاذب تصدقان عنه ، وقد علم الله أن الكاذب آدمي قفر كالمناهة من الأرض ، فجعل عينيه كالعلامات لمن خاض الفلاة .

وظهر الشيطان زاهداً عابداً تقياً نقيماً كأنه دين صحيح خُلق بشراً ، فصرخ فيه أبو عامر : عليك لعنة الله ! أمعصية في ثوب الطاعة ؟

قال إبليس : يا أبا عامر ! لو لم تقل المعصية إنها طاعة لم يُقارِفها أحد . وهل خلقت الشهوات في نفس الإنسان وغيْرته إلا لتقريب هذه المعاصي من النفس ، وجعل كل منها طاعةً لشيء ما ؛ فتقع المعصية بأنها طاعة لا بأنها معصية ؟ أو لا ترى يا أبا عامر أن الحيلة مُحكمة في الداخل من الجسم أكثر مما هي مُحكمة في الخارج عنه ، وأنه لولا أن هذا الباطن بهذا المعنى وهذا العمل لما كان لظاهر الوجود كله في الإنسان معنى ولا عمل ؟

قال الشيخ : عليك لعنة الله ! فما أرى الموت قد خلق إلارداً عليك أنت ، ليتبين الناس أنك الممتلئ الممتلئ ، ولكنك الفارغ الفارغ ؛ بل كل شهواتك سخرية منك ورد عليك ، فلا طعم للذة من لذاتك إلا وهي تموت ، وإنما تمام وجودها ساعة تنقضي . ومتى قالت اللذة : قد انتهت . فقد وصفت نفسها أبلغ الوصف .

قال إبليس : يا أبا عامر ، ولكن اللذة لا تموت حتى تلد ما يُبقِيها حية ، فهي تلد الحنين إليها ، وهو لا يسكن حتى يعود لذة تنقضي وتلد .

قال الشيخ : معاني التراب ، معاني التراب ؛ كل نبْتة فيها بذرتها ، ولكن (عليك لعنة الله) لماذا جئتنى في هذه الصورة ؟

قال إبليس : لأنني لا ألبس إلا حبة القاب الآدمي ، ولولا ذلك لطردتني القلوب كلها وبطلَ عملي فيها ، وهل عملي إلا التلبس والتزوير ؟ أفترى يا أبا عامر أنني لا أعتري الحيوان قط ؟

قال الشيخ : لأن الحيوان لا ينظر إلى الشيء إلا نظرة واحدة ، هي نظره وفهمه معاً ، فلا محل للتزوير مع هذه النظرة الواحدة ؛ وصدق الله العظيم :

« هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ؟ تنزل على كل أفاك أثيم . » فأتت أيها الشيطانُ التزوير ، والتزويرُ موضعه الكذب ؛ فمن لم يكذب في الفكر ولا في النظر ولا في الفهم ولا في الرجاء ، فليس لك عنده عمل .

قال إبليس : يا أبا عامر ! وهل ترى (رحمك الله) أعجب وأغرب وأدعى إلى الهُزء والسخرية من أن أعظم العقلاء الزهاد العباد ، هو في جملة معانيه حيوان ليس له إلا نظرة واحدة في كل شيء ؟

قال الشيخ : عليك وعليك ... ؛ إن الحيوان شيء واحد ، فهو طبيعة مسخرة بنظامها ، ولكن الإنسان أشياء متناقضة بطبيعتها ، فالوحيته أن يُقر النظام بين هذه المتناقضات ، كما أننا امتحن فأعطى من جسمه كونا فيه عناصر الاضطراب ، وحوله عناصر الاضطراب ، ثم قيل له دبره .

فضحك إبليس : قال الشيخ : مم ضحكت لعنك الله ؟

قال : ضحكت من أنك أعلمتني حقيقة الإبلسية ، فالزهاد هم الصالحون لأن يكونوا أعظم الأبالسة ...

قال الشيخ : عليك لعنة الله ؛ فما هي تلك الحقيقة التي زعمت ؟

قال إبليس : والله يا أبا عامر ، ما غلا إنسان في زعم التقوى والفضيلة إلا كانت هذه هي الإبلسية ؛ وسأعلمك يا أبا عامر حقيقة الزهد والعبادة . فلا تقل إنها الوهيّة تُقر النظام بين متناقضات الإنسان ومتناقضات الطبيعة .

قال الشيخ : وتسخر مني لعنك الله ؟ فمتى كنت تعلم الحقيقة والفضيلة ؟

قال إبليس : أولم أكن شيخ الملائكة ؟ فمن أجدر من شيخ الملائكة أن يكون عالمها ومعلمها ؟

قال : عليك لعنة الله ؛ فما هي حقيقة الزهد والعبادة ؟

قال إبليس : حقيقتها يا أبا عامر ، هي التي أعجزتني في نبأكم .

قال الشيخ : صلى الله عليه وسلم ؛ فما هي ؟
قال إبليس : هي ثلاث بها نظامُ النفس ، ونظامُ العالم ، ونظامُ اللذات
والشهوات : أن تكونَ لك تقوى ، ثم يكونَ لك فِكْرٌ من هذه التقوى ، ثم
يكونَ لك نظر إلى العالم من هذا الفكر . ما اجتمعت هذه الثلاثُ في إنسان
إلا قَهَرَ الدنيا وقَهَرَ إبليس .

فإن كانت التقوى وحدها — كتقوى أكثر الزهاد والرهبان — فما أيسرَ
أن أجعلَ النظرَ منها نظرَ الغفلة والجنِّ والبلادة والفضائل الكاذبة ، وإن كان
الفكرُ وحده — كفكر العلماء والشعراء — فما أهونَ أن أجعلَ النظرَ به نظرَ
الزَّيغ والإلحادِ والبهيمية والردائلِ الصريحة .

قال الشيخ : صدق الله العظيم : « إن الذين اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِذَا مَسَّهِمْ طَائِفٌ
من الشيطانِ تذكَّروا فإذا هم مُبْصِرُونَ . »

قال إبليس : يا أبا عامر ! ما يضرني والله أن أفسرَ لك ، فإن قارورةً من
الصَّبْغِ لا تَصْبُغُ البحرَ ، وأنا أعدُّ الزهاد والعلماء المصلحين فأضعُ في الناس بجانب
كل واحد منهم مائة ألف امرأة مفتونة ، ومائة ألف رجل فاسق ، ومائة ألف
مخلوق ظالم ، فلو أنك صَبَّغْتَ البحرَ بملء قارورةٍ حمراء لما صبغتَ البحرَ
الإنسانيَّ بالزاهد والمصلح ، ما دام المصلحُ شيئاً غيرَ السيف ، وما دام الزاهدُ شيئاً
غيرَ الخاكم .

قال الشيخ : لعنك الله من شيطانٍ عارِمٍ ، فإذا وضعتَ المصلحَ بين مائة ألف
فاسد ، فهل هذه إلا طريقة شيطانية لإفساده ؟
قال إبليس : ومائة ألف امرأة فتانة مفتونة يا أبا عامر ، كل واحدة
تَحْسِبُ جَسَمَهَا ...

فصرخ الشيخ : اغْرُبْ عني عليك لعنة الله !

قال إبليس : ولكن الآيات الآيات يا أبا عمر . لقد لقيت المسيح وجربته وهو كان تفسيراها .

قال الشيخ : عليه السلام ! وعليك أنت لعنة الله ! فكيف قال ؟ وكيف صنع ؟

قال إبليس : ألقىته به جائعا في الصحراء لا يجد ما يطعمه ، ولا يظن أنه يجد ، ولا يرجو أن يظن ؛ ثم قلت له : إن كنت روح الله وكلته كما تزعم ، فمر هذا الحجر ينقلب خبرا . فكان تقيا ، فتذكر فإذا هو مبصر ، فقال : ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان . فقتل هذا لو مات جوعا لم يتحول ، لأن الموت إتمام حقيقة السامية فوق هذه الدنيا ، ولو ملئت له الدنيا خبزا وهو جائع لم يتحول ، لأن له بصرا من فوق الخبز إلى حقيقة السماوية ؛ فليس بالخبز وحده يحيا ؛ بل بمعان أخرى هي إشباع حقيقة السماوية التي لا شهوة لها .

ثم ارتقيته به إلى ذروة جبل وأريته ممالك الخافقين ، كشفها كلها لعينه وقلت له : هذا كله لك إذا أنت سجدت لى . فكان متقيا ، فتذكر فإذا هو مبصر : أبصر حقيقة الخيال الذي جسمته له ، وعلم أن الشيطان يعطى مثل معاني هذه الممالك في جرعة خمر ، كما يعطيها في ساعة لذة ، كما يعطيها في شفاء غيظ بالقتل والأذى ؛ ثم لا يبقى من كل ذلك باق غير الإثم ، ولا يصح منه صحيح إلا الحرام . ومن ملك الدنيا نفسها لم يبق لها إذا بقيت له ، فهي خيال في جرعة الحياة ، كما هي خيال في جرعة الخمر .

يا أبا عامر ؛ إن هذا النظر ، الذي وراء التذكر ، الذي وراء التقوى ، التي وراءها الله — هذا وحده هو القوة التي تتناول شهوات الدنيا فتصفى أربع مرات حتى تعود بها إلى حقائقها الترابية الصغيرة التي آخرها القبر ، وآخر وجودها التلاشي .

فالبصرُ الكاشفُ الذي يُجَرِّدُ الأشياءَ من سِحْرِها الوهمي ، هذا هو كلُّ السرِّ .

قال الشيخ : لعنك الله ؛ فكيف مع هذا تفتن المؤمن ؟

قال إبليس : يا أبا عامر ، هذا سؤالٌ شيطاني ... تريد — ويحك — أن تحتالَ على الشيطان ؟ ولكن ما يضرني أن أفسرها لك .

ليس الإيمانُ هو الاعتقادُ ولا العملُ ، ولو كان من هذين لما شَقَّ على أحدٍ واصلحت الدنيا وأهلها ؛ إنما الإيمانُ وضعُ يقينٍ خفيٍّ يكونُ مع الغريزة في مقرِّها ، ويصلحُ أن يكونَ في مقرِّها لتصدُّرِ عنه أعمالُ الغريزة ؛ وهذا اليقينُ لا يصلحُ كذلك إلا إذا كان يقيناً ثابتاً بما هو أكبرُ من الدنيا ، فيرجع إليه الإنسانُ فيتمدِّدُ فيه فيُبصرُ . هناك ميراثٌ من الآخرة للمؤمن ، فاليقينُ بهذا الميراثِ هو سرُّ الإيمان .

والعملُ الشيطانيُّ لا يكونُ إلا في إفسادِ هذا اليقينِ ومعارضةِ الخيالِ العظيم الذي فيه بالحقائق الصغيرة التي تظهرُ للعقلِ عظمة ، كما تشبُّ نارُ أكبرٍ من قرصِ الشمسِ ثم يقالُ للأبله : انظرْ بعينيك . فيصدقُ أنها أكبرُ من الشمسِ . ومتى صغرَ هذا اليقينُ وكانت الحقائقُ الدنيويةُ أكبرَ منه في النفس ، فآيسرُ أسبابِ الحياة حينئذٍ يُفسدُ المعتقدَ ويُسقطُ الفضيلة ؛ وبدرهمٍ واحدٍ يُوجدُ اللصُّ حينئذٍ .

أما إذا ثبتَ اليقينُ فالشيطانُ مع الإنسانِ يصغرُ ثم يصغرُ ، ويعجزُ ثم يعجزُ ، حتى ليرجعُ مثلَ الدرهمِ إذا طمِعَ الطامعُ أن يجعلَ الرجلَ الغنيَّ الكثيرَ المالِ لصاً من اللصوصِ بهذا الدرهمِ .

قال الشيخ : لعنك الله ! فإن لم تستطع إفساد هذا اليقين فكيف تصنع
في فتنة المؤمن ؟

قال إبليس : يا أبا عامر ، إن لم أستطع إفساد اليقين زدته يقيناً فيفسد ،
واستحسان الرجل لأعماله السامية قد يكون هو أول أعماله السافلة ؛ وبأى عجب
يكون الشيطانُ شيطاناً إلا بمثل هذا ؟

قال أحمد بن مسكين : وغضب الشيخ ، فمدَّ يده فأخذ فيها عنق إبليس وقد
راه دقيقاً ، ثم عصره عصرًا شديدًا يريد خنقه ؛ فقهقه الشيطانُ ساخرًا منه .
ويتنبه الشيخ ، فإذا هو يشدُّ بيمده اليمنى على يده اليسرى

الدنيا والدرهم

٤

قال أحمد بن مسكين : وأزفَ ترخلى عن (بلخ) ، وتهيأت للخروج ، ولم
يبق من مدة مقبلي بها إلا أيامٌ يحى فيها السبتُ الرابع ، وكان قد وقعت مُمارةُ
بيني وبين مفتى (بلخ) أبي إسحق إبراهيم بن يوسف الباهلي ^(١) تلميذ أبي
يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة ، ويزعمون أنه شحيحٌ على المال ، وأنه يتغلله
من مُستغلاتٍ كثيرة ^(٢) ، فكأنما غشيته غمامتي ، فهو لا يرى أن أتكلمَ في

(١) توفي مفتى بلخ هذا سنة ٣٢٩ هـ .

(٢) المستغلات : أصول الأموال ، وتغلل واستغل بمعنى .

الزهد ، ويحسبُ هذا الزهدَ تَمَاوُتَ العِبَاد ، وَنَقْضَ الأيدي من الدنيا ، وسوءَ
المصاحبة لما يُنعم الله به على العبد ، وخذلانَ القوة في البدن ، وما جرى هذا
الجرى من تزوير الحياة بالأباطيل التي زعم أنها أباطيلُ الطاعات وما أقربها من
أباطيل المعصية . ولم يكن هذا المفتى قد سمعنى ولا حضر مجلسى ، ولولا الذى لم
يعرفه من ذلك لقد كان عرف .

وجادلته فرأيتُه واهنَ الدليل ، ضعيفَ الحجة ، يُحَدِّثُ تخمينَ فقيه ، وينظر
إلى الخفايا من حقائق النفوس نظرَ صاحب النصِّ إلى الظاهر ، كأن الحقيقة
إذا أُلقيت على الناس مضت نافذة كفتوى المفتى ويزعم أن الوعظَ وعظ
الفقهاء ، يقولون : هذا حرام . فيكون حراماً لا يُقارِفُهُ أحد ، وهذا حلال . فيكون
حلالاً لا يتركه أحد ، وهو كان بعيداً عن حقيقة الوعظ ومداخلة إلى النفس
وسياسته فيها ، ولا يعرف أن الحقيقة كالأنثى : إن لم تُرَيْنْ بزيتها لم تستهوَ
أحداً ؛ وأن الموعظة إن لم تتأدَّ في أسلوبها الحى كانت بالباطل أشبه ، وأنه
لا يغير النفس إلا النفس التى فيها قوة التحويل والتغيير ، كنفوس الأنبياء ومن
كان في طريقة رُوحهم ، وأن هذه الصناعة إنما هى وضع نور البصيرة في
الكلام ، لا وضع القياس والحجة ، وأن الرجلَ الزاهدَ الصحيحَ الزهد ، إنما
هو حياة تلبسها الحقيقة لتكون به شيئاً في الحياة والعمل . لا شيئاً في القول
والتوهم ، فيكون إلهامها فيه كحرارة النار في النار : من وآتاها أحسنها .

ولعمري ، كم من فقيهٍ يقول للناس : هذا حرام . فلا يزيد هذا الحرام إلا
ظهوراً وانكشافاً مادام لا ينطق إلا بنطق الكتب ، ولا يحسن أن يصل بين
النفس والشرع ، وقد خلا من القوة التى تجعله روحاً تتعلق الأرواحُ بها وتضعه
بين الناس في موضع يكون به في اعتبارهم كأنه آتٍ من الجنة منذ قريب ،
راجع إليها بعد قريب .

والفقيه الذى يتعلق بالمال وشهوات النفس ، ولا يجعل همّه إلا زيادة الرزق وحظّ الدنيا — هو الفقيه الفاسدُ الصورةِ فى خيال الناس ، يُفهمهم أول شيء ألا يفهموا عنه ؛ إذ حرصه فوق بصيرته ، وله فى النفوس رائحة الخبز ، وله معنى خمس وخمسة عشرة^(١) ... وكأنّ ديناه وُضعت فيه شيئاً فاسداً غريباً يُفسدُ الحقيقة التى يتكلم بها ؛ ولست أدري ما هو هذا الشيء ، ولكنى رأيتُ فقههاء يعظون ويتكلمون على الناس فى الحرام والحلال وفى نصّ كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، ثم لم أجد لكلامهم نفعاً ولا رداً ، إذ يُلمّون الناس بأرواحهم غير المعنى الذى يتكلمون فيه ؛ وتسخرُ الحقيقة منهم — على خطرهم وجلال شأنهم — بذات الأسلوب الذى تسخرُ به من لص يعظ لصاً آخر فيقول له : لا تسرق ...

قال ابن مسكين : فلما دار يومُ السبت أقبل الناس على المسجد أفواجا ، وكانوا قد تعالّما إزماعى الرحيل عن بلادهم — وجاء (لقمان الأمة) فى أشياعه وأصحابه ، وجاء أبو اسحق المقتى فى جماعته ؛ واستقر فى المجلس فنذتُ الناس بنظري ، فكانهم من كثرتهم نباتُ غطى الأرض ، فأذكرنى هذا شيخنا السرى بن مغلس السقطى^(٢) ، وكان قد لزم داره فى بغداد لا يخرج منها ولا يراه إلا من قصد إليه ، وهمتُ أن أجعل الموعظة فى شرح كلمته المشهورة : « لا تصحّ الحجة بين اثنين حتى يقول أحدهما للآخر : يا أنا . » وما نقلوا عنه من أنه قال مرة لبعض أصحابه : منذ ثلاثين سنة وأنا فى الاستغفار من قولى :

(١) يريد أنه فى هذه الدنيا (عملية حسابية ...) وفى أيام ضعفه الدين يكون الفقه استخراج الدرام من النصوص ...

(٢) السقط : ردى المتاع (روباكيكا) ، وبائعه : السقطى . وهذا الامام العظيم كان أوحده أهل زمانه فى الورع ، وله كلام إلهى مشرق ، وقد توفى عن سن عالية فى سنة ٢٥٣ هـ .

(الحمد لله) . فقال صاحبه : وكيف ذلك ؟ قال : وقع ببغداد حريقٌ ، فاستقبلني رجلٌ فقال : نجا حانوتك . فقلت : الحمد لله . فأنا نادمٌ من ذلك الوقت على ما قلت ؛ إذ أردتُ لنفسى خيراً من الناس !

قال ابن مسكين : ولكنى أحببتُ أن أكلم المفتى ومال المفتى ؛ فحدثهم حديث معرفتى بالسرى : أنى سمعتُ يوماً (عَمِلَانَ الْخِطَاطِ) يقول : إن السرى كان اشترى كُرْلُوزَ^(١) بستين ديناراً ، وأثبتته فى رزناجه^(٢) وكتب أُمَامَهُ : رَجَحُهُ ثَلَاثَةُ دَنَانِيرَ^(٣) ؛ فلم يلبث أن غلا السعرُ فبلغ تسعين ديناراً ؛ فأتاه الدلال الذى كان اشترى له فقال : أريد ذلك اللوز . قال الشيخ : خذه . قال : بكم ؟ فقال : بثلاثة وستين ديناراً . وكان الدلال رجلاً صالحاً ، فقال للشيخ : إن اللوز قد صار الكُرْ بـتسعين . قال السرى : ولكنى عقدتُ بينى وبين الله عقداً لا أحله ، فلستُ أبيع إلا بثلاثة وستين ديناراً . فقال الدلال : وأنا قد عقدتُ بينى وبين الله عقداً لا أحله ، ألا أغشّ مسلماً ، فلستُ أشتري منك إلا بتسعين ؛ فلا الدلال اشترى منه ، ولا السرى باعه . . . !

قال أحمد بن مسكين : فلما سمعتُ ذلك لم تكن لى همةٌ إلا أن ألقى الشيخَ وأُصْحَبَهُ وأخذَ عنه ، فلم أُعَرِّجْ على شىء حتى كنتُ فى المسجد الذى يصلّى فيه ، فأجده فى حلقته وعنده ممن كنتُ أعرفهم : عبد الله بن أحمد بن حنبل ، وإدريسُ الحداد ، وعلى بن سعيد الرازى ، وحوله خلق كثير وهو فىهم كالشجرة الخضراء بين الهشيم تعلوه نضرة روحه ، وكأنما يُمدُّه بالنور عرقٌ من السماء ، فهو يتلألأ للعين ؛ ولا يملك الناظر إليه إلا أن يُحْسَ فى ذاتِ نفسه أنه الأدنى ، من رؤيته فى ذاتِ نفسه أن هذا هو الإنسان الأعلى .

(١) الكر (بضم الكاف) : مكيال عظيم يقدرُون به فى الحساب ، وهو أربعون لاردياً مضرباً . (٢) أى دفتر حسابه . (٣) خمسة فى المائة .

ورأيت على وجهه آلاما تمسحه مسحة الأشواق لا مسحة الآلام ، فهي آثار ما يجده في روحه القوية ، لا كآلام الناس التي هي آثار الحرمان في أرواحهم الواهنة الضعيفة فلا تمسح وجوههم إلا مسحة الغم والسكابة وما يخطئ النظر في تمييز آلام السماء على هذه الوجوه السعيدة من آلام الأرض في الوجوه الأخرى ، فإن الأولى تتندى على روح الناظر بمثل الطل إذا قطره الفجر ، والأخرى تتشور في روحه كما تهيج الغبرة إذا ضربت الريح الأرض .

كان الشيخ في وجود فوق وجودنا ؛ فلا تتلون له الأشياء ، ولا تعدو عنده ما هي في نفسها ، ولا يحمل الشيء له إلا معناه من حيث يصلح أو لا يصلح ، ومن حيث ينبغي أو لا ينبغي . فإنما تتلون الأشياء عند ما يضع الشيطان عينه في عين الناظر إليها ؛ وإنما تزيد وتنقص في القلب عند ما يكون روح الشيطان في القلب ؛ وإنما يشتبه ما ينبغي وما لا ينبغي عند ما يأتي الشيء من جهتين : جهته من طبيعته هو ، وجهته من طبيعتنا نحن . وبهذا قد يجمع الإنسان للمال ثم لا يجد في المال معنى الغنى ، وقد تنفق أسباب النعيم ولا يكون منها إلا الذل . وكم من إنسان يجد وكأنه لم يجد إلا عكس ما كان ينبغي ، وآخر لم يجد شيئاً ووجد بذلك راحته .

قال ابن مسكين : وما كان أشدَّ عجبى حين تكلم الشيخ ، فقد أخذ يجيب عَمَّا في نفسي ولم أسأله ، كأن الذي في فكري قد انتقل إليه ؛ فروى الحديث : « إذا عظمت أمتي الدينار والدرهم ، نزع منها هيبة الإسلام ؛ وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حرِّموا بركة الوحي . » ثم قال في تأويله : إن ملك الوحي ينزل بالأمر والنهي ليخضع صولة الأرض بصولة السماء ،

فإذا بقي الأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر ، بقي عملُ الوحي إلا أنه في صورة العقل ، و بقيت روحانية الدنيا إلا أنها في صورة النظام ، وكان مع كل خطأ تصحيحه ؛ فيصبح الإنسان بذلك تنفيذاً للشرعة بين أمر مطاع ومأمور مطيع ، فيتعامل الناس على حالة تجعل بعضهم أستاذاً لبعض ، وشيئاً منهم تعديلاً لشيء ، وقوةً مسنداً لقوة ؛ فيقوم العزمُ في وجه التهاون ، والشدة في وجه التراخي ، والقدرة في وجه العجز ؛ وبهذا يكونون شركاء متعاونين ، وتعود صفاتهم الإنسانية وكأنها جيش عامل يناصر بعضه بعضاً ، فتكون الحياة مفهومة ما دامت معانيها السامية تأمرُ أمرها وتلهم إلهامها ، وما دامت ممثلة في الواجب النافذ على الكل .

والناس أحرار متى حكمتهم هذه المعاني ، فليست حقيقة الحرية الإنسانية إلا الخضوع للواجب الذي يحكم ، وبذلك لا يغيره يتصل ما بين الملك والشوق ، وما بين الأغنياء والفقراء ، اتصال الرحمة في كل شيء ، واتصال القسوة في التأديب وحده . فبركة الوحي إنما هي جعل القوة الإنسانية عملاً شرعياً لا غير .

أما تعظيم الأمة للدينار والدرهم ، فهو استعباد المعاني الحيوانية في الناس بعضها لبعض ، وتقطع ما بينهم من التشابك في لُحمة الإنسانية ، وجعل الكبير فيهم كبيراً وإن صغرت معانيه ، والصغير فيهم صغيراً وإن كبرت في المعاني ؛ وبهذا تموج الحياة بعضها في بعض ، ولا يستقيم الناس على رأي صحيح ؛ إذ يكون الصحيح والفاقد في ملك الإنسان لا في عمل الإنسان ، فيكنز الغنى مالا ويكنز الفقير عداوةً ، كأن هذا قتل ماله هذا ، وكأن أعمالاً قتلت أعمالاً ، وترجع الصفات الإنسانية متعادية ، وتباع الفضائل وتشتري ، ويزيد من يزيد ولكن في القسوة ، وينقص من ينقص ولكن في الحرية ، وتكون المنفعة الذاتية هي التي تأمر في الجميع وتنهى ، ويدخل الكذب في كل شيء حتى في

النظر إلى المال ، فيرى كلُّ إنسانٍ كأنما درهمه وديناره أكبرُ قيمةً من دينارِ الآخر ودرهمه ، فإذا أعطى نقصَ فعشٍّ ، وإذا أخذ زاد فسرق ؛ وتصبح النفوسُ نفوساً تجاريةً تُساوِمُ قبل أن تنبعثَ لفضيلة ، وتُماكِسُ إذا دُعيتُ لأداء حق ، ويتعامل الناسُ في الشرف على أصولٍ من المِعدة لا من الروح ، فلا يقالُ حينئذٍ : إن رغيفين أكثرُ من رغيف واحدٍ . كما هي طبيعة العدد ، بل يقال : إن رغيفين أشرفُ من رغيفٍ . كما هي طبيعة النفاق .

أما التجارة — وهى التفسيرُ الظاهرُ لمعانى النفوس — فتُصبح بين الغش والضرر والمأكرة ، وتكونُ يقظةَ التاجر من غفلة الشارى ، وتفسدُ الإرادة فلا تُحدثُ إلا آثارها الزائفة . وما التاجرُ فى الأمة القوية إلا أستاذُ انعدامِ الصدق والخُلُق فى الموضع المتقلب ، فكلمته كالرقم من العدد لا يحتملُ أزيد ولا أنقص مما فيه ، ويُمتَحَن بالدنيا والدرهم أشدَّ مما يُمتَحَن العابدُ بصلاته وصيامه . وقد شهد رجلٌ عند عمر بن الخطاب فى قضية ، فقال له عمر : ائتنى بمن يعرفك . فأتاه برجلٍ أثنى عليه خيراً ، فقال له عمر : أنت جاره الأدنى الذى يعرفُ مدخله ومخرجه ؟ قال : لا . قال : فكنت رقيقه فى السفر الذى يُستدلُّ به على مكارم الأخلاق ؟ قال : لا . قال : فعاملته بالدينار والدرهم الذى يَسْتَبِينُ به ورعُ الرجل ؟ قال : لا .

قال عمر : أظنك رأيتَه قائماً فى المسجد يُهَمُّهم بالقرآن ، يَحْفِضُ رأسه طوراً ويرفعه أخرى ؟ قال : نعم .

قال : فاذهب فليست تعرفه !

وإنما التاجرُ صورةٌ من ثقة الناس بعضهم ببعض ، وإرادة الخير واعتقادِ الصدق ، وهو فى كل ذلك مظهرٌ توضعُ اليدُ عليه كما تجسُّ اليدُ مرضَ المريض وصحته .

فإذا عظمت الأمة الدينار والدرهم ، فإنما عظمت النفاق والطمع والكذب
والعداوة والقسوة والاستعباد ؛ وبهذا تقيم الدنانير والدرهم حدوداً فاصلة بين
أهلها ، حتى لتكون المسافة بين غني وفقير كالمسافة بين بلدين قد تباعد
ما بينهما . وإنما هيبة الإسلام في العزة بالنفس لا بالمال ، وفي بذل الحياة
لا في الحرص عليها ، وفي أخلاق الروح لا في أخلاق اليد ، وفي وضع حدود
الفضائل بين الناس لا في وضع حدود الدراهم ، وفي إزالة النقائص من الطباع
لا في إقامتها ، وفي تعاؤن صفات المؤمنين لا في تعاديها ، وفي اعتبار الغنى
ما يُعمل بالمال لا ما يُجمع من المال ، وفي جعل أول الثروة العقل والإرادة ،
لا الذهب والفضة .

هذا هو الإسلام الذي غلب الأمم ، لأنه قبل ذلك غلب النفس
والطبيعة .

دُعَابَةُ إِبْلِيسَ (١)

أَمَّا إِنِّي سَأَقْصُ هَذِهِ الْحِكَايَةَ كَمَا اتَّفَقَتْ ، لَا أَزِيدُهَا بِخَيَالٍ ، وَلَا أَزِيدُ فِيهَا بِخَبَرٍ ، وَلَا أَوْلِدُ لَهَا مَعْنَى ؛ فَإِنَّمَا هِيَ حِكَايَةُ خُبْتِ الْخَبِيثِ : فَفُتْهَا حِدْقُهُ وَدَهَاوُهُ ، وَرَقَّتْهَا غِلْظَتُهُ وَشَرُّهُ ، وَمَعَانِيهَا بِلَاؤُهُ وَمِحْنَتُهُ ؛ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ .

لَمَّا فَسَكِرْتُ فِي وَضْعِ مَقَالَةِ (إِبْلِيسَ) مِنْ أَحَادِيثِ (ابْنِ مَسْكِينٍ) ، وَأَدْرْتُ رَأْيِي فِي نَهْجِهَا وَحُدُودِهَا وَمَعَانِيهَا ، جَعَلْتُ فِكْرِي يَقْتَضِعُ فِي ذَلِكَ ، يَذْهَبُ وَيَجِيءُ كَأَنِّي بَيْنِي وَبَيْنَهُ مَنَازَعَةٌ ، أَوْ كَأَنِّي فِي نَفْسِي شَيْئًا يَثْنِينِي وَيَقْطَعُنِي عَنِ الْعَزْمِ ؛ وَخَيْلٌ إِلَى حَيْثُ أَنْ (إِبْلِيسَ) هَذَا مَنَفَعَةٌ مِنَ الْمَنَافِعِ . . . وَأَنَّهُ هُوَ قَانُونُ الطَّبِيعَةِ الَّذِي نَصُّ مَادَتِهِ الْأُولَى : مَا أَعْجَبَكَ فَهُوَ لَكَ . وَنَصُّ مَادَتِهِ الْآخِرَةِ : مَا احْتَجَّتْ إِلَيْهِ فَتَمَنَّهُ أَنْ تَقْدَرَ عَلَى اخْذِهِ . . .

وَهَجَسَ فِي نَفْسِي هَاجِسٌ : أَنْ (إِبْلِيسَ) قَائِمٌ فِي لَفْظِ الْحَرِيَةِ كَمَا هُوَ قَائِمٌ فِي لَفْظِ الْإِثْمِ ، وَأَنَّهُ إِنْ يَكُنْ فِي قُلُوبِ الْفُسَّاقِ فَهُوَ أَيْضًا فِي أَدْمَغَةِ الْفَلَّاسِفَةِ ؛ وَإِنْ كَانَ فِي سَقُوطِ أَهْلِ الرَّذِيلَةِ إِلَى الرَّذِيلَةِ ، فَهُوَ كَذَلِكَ فِي سَمَوِّ أَهْلِ الْفَنِّ إِلَى الْفَنِّ . . . قَالَ الْهَاجِسُ : وَإِنْ (إِبْلِيسَ) أَيْضًا هُوَ صَاحِبُ الْفَضِيلَةِ الْعَمَلِيَةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ الْمَادِيِّ ، فَهُوَ مِنْ ثَمَمٍ حَقِيقٌ أَنْ يَلْقَبَهُ « صَاحِبُ الْفَضِيلَةِ . . . » وَلَكِنِّي لَمْ أَحْفَلْ بِهَذِهِ الْوَسَاوِسِ وَلَمْ أُعْجَبْ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا ، وَاسْتَعْنْتُ اللَّهَ وَأَمْضَيْتُ نَيْتِي عَلَى الْكِتَابَةِ ، وَأَخَذْتُ أَقْلَبُ الْمَوْضُوعَ ، وَأَنْبَتُهُ فِكْرِي لَهُ ،

(١) الدُّعَابَةُ : الْمَزَاحُ وَاللَّعِبُ ، وَكُلُّ مَا سِيرَ فِي هَذِهِ الْمَقَالَةِ فَهُوَ صَحِيحٌ لَمْ نَخْتَرَعْ مِنْهُ شَيْئًا .

وَأَسْتَشْرِفُ لِمَا يُوَدِّي إِلَيْهِ النَّظَرُ ، وَأَتَطَّلَعُ لِمَا يَجِبُنِي بِهِ الْخَاطِرُ ، وَأَلْتَسُّ مَا أَبْنِي عَلَيْهِ الْكَلَامَ كَمَا هِيَ عَادَتِي ؛ فَلَمْ يَقَعْ لِي شَيْءٌ الْبَتَّةَ ، كَأَنَّمَا ذَهَبَ أَوَّلُ ابْتِدَاءِ الْمَوْضُوعِ فَلَا أَوَّلَ لَهُ وَلَا سَبِيلَ إِلَى اقْتِحَامِهِ ، وَكَأَنَّهُ مِنْ وَرَاءِ الْعِلْمِ فَلَا يُبْلَغُ إِلَيْهِ ، وَكَأَنَّهُ مِنَ التَّعَذُّرِ كَمَحَاوَلَةِ تَصْوِيرِ حِمَاقَةِ الْحَيَاةِ كُلِّهَا فِي كَلِمَةٍ . وَإِبْلِيسُ كَلِمَةٌ فِيهَا حِمَاقَةُ الْحَيَاةِ كُلِّهَا .

وَمِنْ عَادَتِي فِي كِتَابَةِ هَذِهِ الْفُصُولِ الَّتِي تَنْشُرُهَا (الرَّسَالَةُ) ^(١) ، أَنْ أَدَعَ الْفَصْلَ مِنْهَا تَقْلِبُهُ الْخَوَاطِرُ فِي ذَهْنِي أَيَّامَ الثَّلَاثَاءِ وَالْأَرْبَعَاءِ وَالْخَمِيسِ ، وَأَتْرَكَ أَمْرَهُ لِقُوَّةِ الَّتِي فِي نَفْسِي ، فَتَتَوَلَّدُ الْمَعَانِي مِنْ كُلِّ مَا أَرَى وَمَا أَقْرَأُ ، وَتَنْشَأُ مِنْ هَهُنَا وَهَهُنَا ، وَيَكُونُ الْكَلَامُ كَأَنَّهُ شَيْءٌ حَتَّى أُرِيدَ لَهُ الْوُجُودُ فَوْجِدَ .

ثُمَّ أَكْتُبُ نَهَارَ الْجُمُعَةِ ، وَمِنْ وَرَائِهِ لَيْلُ السَّبْتِ وَلَيْلُ الْأَحَدِ كَلْمَدَدٍ مِنْ وَرَاءِ الْجَلِيشِ إِذَا نَالَتْنِي فَتْرَةٌ أَوْ كُنْتُ عَلَى سَفَرٍ أَوْ قَطَعَنِي عَنِ الْكِتَابَةِ شَيْءٌ مِمَّا يَعْزِضُ .

وَفِي أَسْبُوعِ إِبْلِيسَ (لَعَنَهُ اللَّهُ) ، مَرَّتِ الْأَيَّامُ الثَّلَاثَةُ وَفِيهَا ثَلَاثَةُ أَلْوَانٍ : ضَجَرٌ لَا رَوْحَ فِيهِ ، وَكَسَلٌ لَا نَشَاطَ مَعَهُ ، وَاضْطِرَابٌ لَا مِسَاكَ لَهُ . وَأَطَلْتُ التَّفَكِيرَ يَوْمَ الْخَمِيسِ ، فَكَانَتْ تَعْتَرِينِي خَوَاطِرُ مُضْحَكَةٍ : فَيَعْرِضُ لِي مَرَّةً أَنْ أَصَوِّرَ إِبْلِيسَ امْرَأَةً لِيَكُونَ إِبْلِيسَ الْجَمِيلَ وَتَارَةً أَتَوَهَّمُ أَنَّ إِبْلِيسَ يَرِيدُ أَنْ يَكُونَ شَيْخًا كَبَعْضِ رِجَالِ الدِّينِ الَّذِينَ لَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ ، لِيَقَالَ إِبْلِيسُ التَّقِيُّ الْمَصْلِي وَحِينَئِذٍ أَظُنُّ أَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَكُونَ كَاتِبًا مُؤَلِّغًا شَهِيرًا لِيَقَالَ إِبْلِيسُ الْمَفَكَّرُ الْمَصْلِحُ وَخَطَرُ لِي أَخِيرًا أَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَكُونَ حَاكِمًا

(١) مجلة الرسالة ، وكل مقالات هذا الجزء والجزء الأول كتبت لها ونشرت فيها ،

إلا فصولا قليلة .

ملجداً شيوعياً فاجراً ، ليكون إبليسَ التام لا إبليسَ الناقص . . .

ولما ذهبت الأيامُ الثلاثةُ باطلاً ، خُيِّلَ إلىَّ أن إبليسَ (أخزاه الله) يسألني عن المقالة : إلى أى شيء انقلبت . . . ؟ فسقَّ ذلك علىَّ واغتممتُ به ، غيرَ أنى اطمأننتُ إلى يوم الجمعة وأن وراءه ليلتين . وكانت قد غربت شمسُ الخميس ، فقلتُ : فلا أخرجُ لأتفرَّجَ ممَّا بى ، وعسى أن أجمعَ نفسى للتفكير إذا جلستُ فى الندى ، ولعله يقع ما أَسْتَوْحِيهِ أو ينفَتِحُ لى بابٌ فى القراءة .

وخرجتُ ، فلم أجاوزِ الدارَ حتى ابتدرنى من هَبَطَ عليه الخبرُ من القاهرة أن نسيباً لنا من العطاء توفى أخوه اليوم . فقلت : لا حول ولا قوة إلا بالله ؛ ضاع يومُ الجمعة . إذ لا بد من السفر لتشيع الجنازة وحضور المأتم ، ثم قلت : لعل فى هذا السفر استجماماً ونشاطاً فأستدرك الأسبوع كله فى يومين ، وإنما الاستكثارُ بالقوة لا بالزمن ، ولا يد لإبليس فى الموت والحياة ، فليس إلا اطراحه وقلة المبالاة به ، وإنما هى خَطَرَاتٌ من وساوسه .

وأصبحتُ فى القاهرة ، ومشيتُ فى الجنازة قبل الظهر مَسِيرَةً ساعة كاملة ؛ وكانت الشمسُ ساطعةً تتلألأ ، وأنا مُثَقِّلٌ بثياب الشتاء ، وكنتُ أتوقع أن يكونَ اليومُ من أيام الريح الجنونة ؛ فلما اتهمنا إلى الصحراء ، هبَّتْ الريح هبوباً ليناً ، ثم زَفَّتْ فكانت إلى الشدة ما هى ، ولكنها ماضية تسقى الرملَ فى الأعين ، فيأخذُ فى أجفانى أكلٌ وتهيج ، وليس معى شيء أتقيها به ؛ غيرَ أنى شغلتُ فكرى بروية المقابر ، وجعلتها فى نفسى كالمقالة المكتوبة سَطَرًا وراء سطر ؛ وقلت : ههنا الحقيقةُ فى أول تفسيرها ، وغيرُ المفهوم فى الحياة يُفهم هنا .

ثم رجعتُ مُنْدَى الجسم بالعرق وعلىَّ نَضْحٌ منه ، وكان القميصُ من الصوف ، وبصدري أثرٌ من النزلة الشعبية ؛ وإذا تَنَدَّى الصوفُ وجب نزعُه وإلا فهى العلة ما منها بد .

ثم لم تكن إلا ساعة حتى انخرقت الرياح وجعلت تعصف وبرَد الجو ،
فأيقنت أنه الزكام ، وقلت في نفسي : هذا باب على حدة ، والمقالة ذاهبة
لا محالة ، فسيخلفُ الدهن ويتبدل ؛ والشيطان كريم في الشر يعطى من غير
أن يسأل . . .

وثقل ذلك على فكان الغم به علة جديدة ، بيد أنى لم أزل أرجو الفرصة
في أحد اليومين : السبت والأحد . وقلت : إن من البلاء الفكر في البلاء ،
ولعل من السلامة الثقة بالسلامة ؛ فإذا نبهت العزيمة رجوت أن يتغلغل أثرها
في البدن كله فيكون علاجاً في الدم يحدث به النشاط ويُرَهفُ منه الطبع وتجمُّ
عليه النفس . وفي قوة العصب كهربائية لها عملها في الجسم إذا أحسن المرء بعثها
في نفسه وأحكم إفاضتها وتصريفها على طريقة رياضية ؛ ولهي الدواء حين
يعجز الدواء ، وهي القوة حين تُخذلُ القوة .

فاعترمت وصممت ، واحتلت على الإرادة ، وتكثرت من أسباب الثقة
وترصدت لها السوانح العقلية التي تسنح في النفس ، وقلت لإبليس : اجهد
جهدك ، فما تذهب مذهباً إلا كان لي مذهب . ولكن العين أخطر في ذهني
قول القائل يسخر فيه من ذلك الكاتب البغدادى (١) .

لوقيل : كم خمس وخمس ؟ لا غتدى يوماً وليلتة يعد ويحسب ،
ويقول : مفضلة عجيب أمرها ولئن فهمت لها ، لأمرى أعجب
خمس وخمس ستة ، أو سبعة ، قولان قالهما الخليل وثعلب . . .

ثم أجمعت الرجوع من يومى إلى (طنطا) ، لأتق البرد بعلاجه إن نالني

(١) قيل هذا الشعر في وصف مروان الكاتب ، وهو رجل من بغداد ، وكان كاتباً
على الحراج ، فسخر منه الشاعر بهذا الأسلوب البديع .

أثره ، وكان علىَّ وقت إلى أن يقومَ القطار ، فذهبت فقضيت واجباً من زيارة بعض الأقارب في ضاحية (الجزيرة) ، ثم ركب الترام الذي أعلم أنه ذاهبٌ إلى محطة سكة الحديد .

وجلست أفكر في إبليس ومقاتله ، والترام ينبعثُ في طريقه نحو ثالث الساعة ، حتى بلغ الموضع الذي ينخرجُ منه إلى المحطة ، وهو بحمال (جمعية الإسعاف) ، حيثُ تنشعبُ طرق أخرى ؛ وكنت منصرفاً إلى التفكير مستغرقاً فيه ، طائفَ النظراتِ على الجوِّ ، فمراعني إلا اختلافُ منظرِ الطريق ؛ وأتتبه ، فإذا الترام يَمُرُّ مروقَ السهم في تلك السبيلِ الصاعدةِ إلى (الجزيرة) من حيث جئت .

فلعنْتُ الشيطانَ وتلبثت حتى وقف هذا الترام ، فغادرته ورجعت مُهرولاً إلى ذلك المنشعب ، فصادفت تراماً آخر ، فوثبتُ إليه كأنني أُحمَل إليه حملاً ، ودفعتُ الأجرة ، وانطلق ، فإذا هو مُنصبٌّ في تلك الطريقِ عينها الذاهبة إلى الجزيرة من حيثُ جئت ولا أستطيع الانحدارَ منه وهو منطلق ، فتسَخَّطْتُ ولعنْتُ الشيطانَ مرةً أخرى ، ورأيت أن عبثه قد ترادف ؛ فلما سَكَن الترام رجعتُ مُهرولاً إلى ذلك المنشعب ولم يبقِ من الوقت غيرُ قليل .

وأنظرُ ثمَّ ، فإذا ترامٌ وراء ترام ، وإذا قد وقعتُ حادثة لإحدى السيارات واجتمع الناسُ وسَدَّت الطريق فجعلتُ أغلي من الغيظ ، وامتُ هذا الدَّعابة الخبيث . وأذكرني اللعينُ نادرة الأعرابي الذي عضه ثعلب ، فأتى راقياً ، فقال له الراقى : ما عضَّكَ ؟ فاستحى أن يقول ثعلب ، وقال : كلب . فلما ابتدأ الرجلُ برُقِيَّة الكلب ، قال له الأعرابي : واخِطُ بها شيئاً من رُقِيَّة الثعلب

ثم إنى لم أربداً من بلوغ المحطة على قدمي لأتيم على عزيقتي في مراغمة اللعين ، فأسرعت أطوى الأرض وكأنا أخوض في أحشائه ، وكان بصدري التهابٌ فهاجبى ، غير أنى تجلّدت واتسعت لاحتاله وبلغت حيث أردت . ثم ذهبت ألتمس في القطار عربة خاصة أعرفها ، كانت من عربات الدرجة الأولى فجعلوها في الثانية يرفّهون بها بعض الترفيه على طائفة من المسافرين ؛ وأصبت فيها مكاناً خالياً كأنما كان مهياً لى بخاصة . . . فالحطت فيه إلى جانب رجل أوربى أحسبه ألمانيا لتفاوت خلقه وعنجهيته ؛ وجاست أنفـس عن صدرى ، ثم أقبلت أسخر من إبليس ونكايته ، وجعات أتعجب مما اتفق من هذا التدبير .

وتحرك القطار وانبعث ، وكان الأوربى إلى جانبي مما يلى النافذة وقد تركها مفتوحة ، فأحسست الهواء ينصب منها كالماء البارد وأنا مُتندّد بالعرق ؛ وترقبت أن يغلقها الرجل فلم يفعل ، فصابرته قليلاً فإذا هو ساكنٌ مطمئن يتروّح بالهواء وكأنما يشربه ، وتأمّنته فإذا شيخ في حدود الستين أو فوقها ، غير أنه على بقية من قوة مصارع فى اكتناز عضله واجتماع قوته ووثاقه تركيبه ، فأيقنت أن الهواء من حاجته ، وهممت أن أنبهه أو أقوم أنا فأغاق النافذة ، ولو شئت أن أفعل ذلك فعلت ، غير أن الشيطان (أخزاه الله) وسوس لى : أن هذا رجل أجنبيّ غربى ، وأنت مصرى شرقى ، فلا يحسن بك أن تعلمه وتعلم الحاضرين أمامك أنك أنت الأضعف على حين أنه هو الأسن ، وكيف لا تقوم لما يقوم له وقد كنت تبأ كرم الماء البارد فى صميم الشتاء ، وكنت لا تلبس فى أشد أيام البرد غير ثياب الصيف ، وكنت تحمل كذا وكذا ثقلاً للرياضة ، وتُعانى كذا وكذا من ضروب القوة ، وكنت تلهى بيدك عود الحديد ، وكنت وكنت . . .

فتذممتُ واللهِ مما خطرَ لى ؛ وأنفِتُ أن أنبهَ الرجل ، ورأيتُ على هذا ضعفاً وفُسولةً ، ولم أعبأ بالهواء ولا بالعرق ولا بالنزلة الشعبية ولا بالزكام ، وتركتُ الأوربى وشأنه ، وأقبلتُ على كتاب كان فى يدى ، وتناسيتُ أن هذه النافذة جهةٌ من تدير إبليس ؛ وكان القطارُ مزدحماً بالراجعين من المعرض الزراعى الصناعى ، وبعضُ الناس وقوفٌ فلا مطعم فى مكان آخر ...

ولبثتُ ساعةً ونصفَ ساعة فى تيار من هواء (فبراير) ينصبُ انصباباً ، ويعصفُ عصفاً ، وكأنى أسبحُ منه فى نهرٍ تحت ظلمة الليل الماطر ، والناسُ معجبون بى وبالأوربى ، وهذا الأوربى معجبٌ بى أكثرَ منهم ، وقد رأى مكانى وعرف موضعى ؛ وكان إلى يمينى مجلسٌ بقى خالياً ولم يُقدم أحدٌ على أن يجلسَ فيه خوفاً من الهواء ومن الرجل الأوربى ...

ثم تراءيتُ أنوارَ محطة (طنطا) ، ولم يبقَ من هذه المحنة غيرُ دقيقتين ؛ فواللهِ الذى لا يُخلفُ بغيرِ اسمه عزَّ وجلَّ ، لقد كان إبليسُ رقيقاً جلفاً بارداً ثقيلَ المزاج ؛ إذ لم أكدُ أتهماً للقيام ، حتى رأيتُ الرجل الأوربى قد مدَّ يده فأغلق النافذة ...

ورجعتُ إلى دارى وأنا أقول : ثم ماذا يا إبليس ؛ ثم ماذا أيها الدُّعْبُوبُ^(١) ؟ وحاولتُ بجهدى أن أكتبَ أو أقرأ فلم أتحركَ لشئٍ من ذلك ، وكانت الساعة العاشرة ليلاً ، فصليتُ وأويتُ إلى مضجعى .

ثم أصبحتُ يوم السبت ، فإذا كتابٌ من الأستاذ صاحب (الرسالة) : أنه سيطبع عددان معاً فيريدُ لهما مقالاتين ، إذ تغلق المطبعة فى أيام عيد الأضحى . وكان أملى فى المقالة الواحدة مخذولاً مما قاسيت ، فكيف لى باثنتين ؟

(١) الدعبب والمداعب والدعابة (بتشديد العين) : كلها بمعنى .

واختلطَ في نفسى همٌّ بهمٍّ ، وما يُفسدُ عَلَىَّ أمرى شىءٌ مثْلُ الضيق ، فإذا تضايقتُ كُنتُ غيرَ من كُنتُ ؛ ولكنى تيقظتُ وتنبتُ وأمأتُ العافية ما أجده من ثقلِ البردِ وضعفَتِه ، وأحدثُ طمعاً في النشاط إذا جاستُ للكتابة في الليل ، فإني بالنهار أعمل للحكومة .

فلما كان الليلُ لم أجِدْ أمرى على ما أُحب ، وجاستُ مُتفتراً مُعتلاً ، ونُقِلَ رأسى من ضربةِ النافذة ، وتسَلَّطَ على ظَنِّ المرضِ والعجزِ عن الكتابة ، وانتَقَضَ الأمرُ كُلُّهُ فأيتُّنى أشتُّ على نفسى بلا طائل ، فكان من صوابِ التدبيرِ عندي أن أستجِمَ بالنومِ ثم أنهضَ في السَّحَرِ للكتابة ؛ فأوصيتُ من يوقظنى ، وحرَّرتنا الساعةَ المنبهةَ على تمامِ الثانية بعد منتصفِ الليل .

وأحسستُ أنى جائع ، وأن معدتى مشحوزة ، ونسيتُ كلَّ ما أعرف من الطب ؛ وجاءونى بشواءٍ وحلوى وما بينهما ، فخططتُ فيه وأفقتُ الآخرَ بالأول ، ثم قمتُ أريد النوم ، فإذا الطعامُ كان أشدَّ عَلَىَّ من نافذةِ القطار ، وكان الذى فى الفكر من المقالة أثقلَ من الذى فى المعدة من الطعام ، وساء الهضمُ فى الدماغ والبطن جميعاً !

وجعلتُ أتناوَمُ وأرِخى أعضائى وأتوهمَّ الكرى وأستدنيه بكلِّ ما أعرف من وسيلة ، ثم لا أزداد على ذلك إلا أرقاً ، وتمردَ الفكر ، وأحسستُ رأسى يكاد ينفجر ، وصرتُ أتمكِّلُ ولا أتقارُّ ، وتوهمتُ أن لو كان لى عقلاً ما استطعتُ كتابةَ المقالة عن إبليس لعنه الله ؛ وأذكرنى الخبيثُ نادرةً مضحكة : أن رجلاً كان يركب حماراً ضعيفاً ، وكان يبعثه فلا ينبعث ، فجعل يضربه ، ف قيل له : ارفُقْ به . فقال إذا لم يقدرْ يمشى فلم صار حماراً . . . ؟

وقذفتُ بنفسى من الفراش ونظرتُ فى الساعة ، فإذا هى موشِكةُ أن تبلغ

الثانية ولم أحسَّ الرقادَ بعد ، فأسرعت إلى المنبهة وحرَّرتها على تمام الساعة الرابعة صباحاً ، وأيقنتُ أن الشيطان يُرهِقُنِي طُغْيَانًا وكَيْدًا ، فَطَفِقْتُ أَعْنَهُ ، وما أحسبُهُ إلا قد رأى اللعنَ مدحاً فهو يستزيدني ...

ثم رجعتُ أحاول النومَ ، فما كان هذا الليلُ إلا شيئاً واحداً أولُهُ آخرُهُ إلى أن طلع الفجر .

وجاء يوم الأحد وهو يومُ عطلة الأوربيين ، فما أشدَّ عَجْبِي إِذ تركنِي فيه إبليس كأنهم لا يدعون له وقتاً في هذا اليوم

والآن يزِين لي الخبيث أن أختم هذه المقالة ب..... ب.....
ولكن لا . لا . لا

الشَّيْطَانُ ...

قال الشيخُ أبو الحسن بن الدَّقَاق : كان شيخِي أبو عبد الله محمد الأزهريُّ العجميُّ (رضى الله عنه) رجلاً صاحبَ آياتٍ وخَوَارِقَ مما فوقَ العقل ، كأنما هو سرٌّ من الأسرار الجارية في هذا الكون ، قد بلغ بنفسه رتبةَ النجم في أفقهِ البعيد ؛ ففيه أهواءُ الإنسان وشهوَاتُهُ وطبَاعُهُ ، إلا أنها كنُور النجم في تألقِهِ ولأنَّهُ من إشراق روحِهِ وصفائِها ؛ وقد ارتفع بآدميته فوقَ نفسها ؛ فأصبح في الناس ومعه ساءُوه ، يجعلُها بين قلبه وبين الدنيا .

والرجلُ إذا بلغَ هذا المبلغَ كان حياً كالليت ساعة احتضاره : ينظرُ إلى كل مافي الحياة نظرة من يتركُ لا من يأخذ ، ومن يعتبرُ لا من يَغْتَرُّ ، ومن

يَلْفِظُ لَا مِنْ يَتَذَوَّقُ ، وَمَنْ يُدْرِكُ السِّرَّ لَا مِنْ يَتَعَلَّقُ بِالظَّاهِرِ ؛ وَيَرَى الشَّهَوَاتِ
كَأَنَّهَا مِنْ لُغَةٍ لَا يَعْرِفُهَا ، فَهِيَ أَلْفَاظٌ فِيهَا مَعَانِي أَهْلُهَا لَا مَعَانِيَهُ ، وَإِنَّمَا تَبْلِسُ
كَلِمَاتُنَا مَعَانِيَهَا مِنْ أَنْفُسِنَا . وَفِي النُّفُوسِ مِثْلُ الْهَشِيمِ : إِذَا وَقَعَتْ فِيهِ الْمَعَانِي الْمَشْتَعِلَةُ
اسْتِطَارَ حَرِيقًا وَتَضَرَّرَ ، وَفِيهَا عَلَى الْمَجَاهِدَةِ مِثْلُ الْمَاءِ ؛ إِذَا خَالَطَتْهُ تِلْكَ الْمَعَانِي
انْطَفَأَتْ بِهِ وَخَمِدَتْ .

وَقَدْ سَأَلْتُ الشَّيْخَ مَرَّةً : كَيْفَ تَحْدُثُ الْكَرَامَاتُ وَالْخَوَارِقُ الْإِنْسَانُ ؟
فَقَالَ : يَا وَلَدِي ، إِنَّ الْإِنْسَانَ مِنَ النَّاسِ الْحُجُوجِ بَيْنَ يَتَصَرَّفُ فِي جِسْمِهِ وَلَا يَكَادُ
يَمْلِكُ لِرُوحَانِيَّتِهِ شَيْئًا ، إِذَا أُبْلِيَ فِي الْمَجَاهِدَةِ وَوَقَعَ فِي قَابَةِ النُّورِ ، تَصَرَّفَ فِي
رُوحَانِيَّتِهِ وَلَا يَكَادُ يَمْلِكُ لْجِسْمِهِ شَيْئًا ، فَمَنْ أَطَاقَ أَنْ يَنْسِلَخَ مِنْ بَشَرِيَّتِهِ ،
وَاتَّسَعَتْ ذَاتُهُ فِي مَعَانِي السَّمَاءِ بِمَقْدَارِ مَا ضَاقَتْ مِنْ مَعَانِي الْأَرْضِ ، وَكَانَ مُعَدًّا
لَأَنْ يَتَحَقَّقَ فِي رُوحَانِيَّتِهِ ، مُعَانًا عَلَى ذَلِكَ بِطَبِيعَةٍ فَوْقَ الْإِعْتِدَالِ — فَقَدْ شَاعَ فِي
الْكُؤُنِ ، وَأَصَابَ لَهُ وَجْهًا وَمَذْهَبًا إِلَى تِلْكَ الْقُوَّةِ الَّتِي تَهْدِمُ فِي الْعَالَمِ وَتَبْنِي ،
وَتُفَرِّقُ وَتَجْمَعُ ، وَتَنْقُلُ الصُّوَرَ بَعْضَهَا إِلَى بَعْضٍ ؛ فَإِنَّ الْكُؤُنَ كُلَّهُ جَوْهَرٌ وَاحِدٌ
هُوَ النُّورُ ، حَتَّى الْجَبَلُ هُوَ نُورٌ صَخْرِيٌّ ، وَحَتَّى الْبَحْرُ هُوَ نُورٌ مَائِيٌّ ، وَحَتَّى
الْحَدِيدُ وَالذَّهَبُ وَالتَّرَابُ ، كُلُّ ذَلِكَ نُورٌ ^(١) صَرَفَتْهُ الْقُدْرَةُ الْإِلَهِيَّةُ تَصْرِيفَهَا
الْمُعْجَزَ ، فَكَانَ عَلَى مَا نَرَى : ظَاهِرٌ مُخَيَّلٌ يَلَامُ نَقْصَنَا وَعَجْزَنَا ، وَحَقِيقَةٌ قَازَةٌ عَلَى
غَيْرِ مَا نَرَى . وَمَنْ ذَا يَعْقِلُ أَنَّ الصَّخَرَ نُورٌ مُتَجَمِّدٌ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ إِلَّا عَقْلٌ عَيْنُهُ
وَحَوَاسُّهُ ؟ وَمَنْ ذَا يُطِيقُ أَنْ يَفْهَمَ بِحَوَاسِّهِ وَعَيْنِهِ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى : « وَتَرَى الْجِبَالَ
تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ » ، صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَّ كُلَّ شَيْءٍ . ؟
فَالْجِبَالُ جَامِدَةٌ ثَابِتَةٌ ، غَيْرَ أَنَّهَا تَمُرُّ بِأَرْضِهَا وَتَمُوجُ فِي نَفْسِهَا ؛ وَمَتَى تَأْذَنَ اللَّهُ

(١) كلمة (النور) هذه هي التي يعبر عنها اليوم بالكهرباء ، وقد ثبت أن الكون

كله هو هذه الكهرباء منجمدة على ما شاء الله أن تكون .

أن ينكشف نورُ كلامِهِ للعقل الإنسانيّ ، فستكون هذه الآية علماً جديداً في الأرض ، يُثبت أن السحابَ والجبلَ مادةٌ واحدةٌ وصنعٌ واحد .
ويا لها سُخريةً بالإنسانِ وجهله ! فإنه إذا كانت الحقيقةُ غيرَ ما نرى ، فكلُّ شيءٍ في الدنيا هو ردٌّ على النظر الإنسانيّ ، ويكاد الجبلُ العظيم يكون كلمةً عظيمةً تقول للإنسان : « كذبت ! »

فالشأنُ في الخوارقِ والكراماتِ راجعٌ إلى القدرة أن يُسلّطَ الإنسانُ الروحانيُّ ما فيه من سرِّ النور على ما في بعض الأشياء من هذا السر ، وتلك هي طاعةُ بعضِ الكونِ لمن ينصرفُ عن المادةِ ويتصلُّ بخالقها .

فإذا بقي في الرجلِ الروحانيُّ شيءٌ من أمر جسمِهِ يقول : « أنا ... » لم يكن في الرجلِ من تلك القدرة ذرة ؛ فإن هو حاول أن يخرقَ العادة ، أبى الكونُ أن يعرفه إلا كما يعرفُ حجراً مُلقى يحاول أن يتصرفَ بالجبلِ الذي هو منه فينقله أو يرحزه أو يزلزله .

ولا خير على الأرض مطلقاً إلا وهو أخذٌ من حقوق هذه « أنا ... » في إنسانها ، ولا شرٌّ على الأرض مطلقاً إلا وهو إضافةُ حقوقٍ إليها ؛ فحين لا يبق لها حقٌّ في شيء عند نفسها ، يجبُ لها الحق عندئذ على كل شيء . وهذه هي الكرامة ؛ تُكريمُ الخليفةُ مَنْ أكرمه الخالق .

فمن أراد أن تتصلَّ نفسه بالله ، فلا يكن في نفسه شيءٌ من حظ نفسه ، ولا يؤمنَ إيمانَ هؤلاء العامة : يكون إيمانهم بالله فكرةً تُذكر وتُنسى ، أما عملهم فهو إيمانهم الراسخُ بالجسم وشهواته يُذكر ولا يُنسى .

وأنت ترى رجالَ الروح يأكلون ويشربون ويلبسون ، ولكن هذا كله ليس فيه ذرّةٌ من أرواحهم ، على خلافِ غيرهم من الناس ؛ فهؤلاء كلُّ أرواحهم في مطاعهم ومَناعهم ؛ ومن ثمَّ لا يجرى الشيطانُ من الأولين إلا في

مَجَارِ ضَيْقَةٍ أَشَدَّ الضَّيْقِ لَا يَكَادُ يَنْفُذُ مِنْهَا إِلَى فِكْرٍ أَوْ شَهْوَةٍ أَوْ حُلْمٍ مِنْ أَحْلَامِ الدُّنْيَا ، أَمَا الْآخَرُونَ فَالشَّيْطَانُ فِيهِمْ هُوَ تَيَّارُ الدَّمِ ، يَعْبُ غُبَابُهُ فِي الْأَسْفَلِ وَالْأَعْلَى .

* * *

قال أبو الحسن : وكنا يومئذٍ في دمشق ، فنهني كلامُ الشيخ عن الشيطان إلى ما قرأته عن كثيرين ممن رأوا الشيطانَ أو حاوروه أو صارعوه ؛ فقلت للشيخ : إن من حَقَّكَ عَلَى أَنْ أَسْأَلَكَ حَقَّكَ عَلَيْكَ ، وما في نفسي أَحَبُّ إِلَيَّ وَلَا أعْجَبُ مِنْ أَنْ أَرَى الشَّيْطَانَ وَأَكْلَهُ وَأَسْمَعَهُ ؛ وَأَنْتَ قَادِرٌ أَنْ تَنْقَانِي إِلَيْهِ كَمَا نَقَلْتَنِي إِلَى مَا دَخَلْتَ بِي عَلَيْهِ مِنْ عَوَالِمِ الْغَيْبِ .

قال الشيخ : وماذا يَرُدُّ عَلَيْكَ أَنْ تَرَى الشَّيْطَانَ وَتَكَلِّمَهُ ؟
قلت : سُبْحَانَ اللَّهِ ! لَا يُجْدِي عَلَى شَيْئًا إِلَّا أَنْ أَسْخَرَ مِنْهُ .
قال الشيخ : فَإِنِّي أَخْشَى يَا وَلَدِي ، أَنْ يَكُونَ الشَّيْطَانُ هُوَ الَّذِي يَرِيدُ أَنْ تَرَاهُ وَتَسْمَعَهُ . . . !

قلت : فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَهُ عَنْ سِرِّهِ ، فَيَكُونُ عَلَمًا لَا سَخْرِيَةَ .
قال : لَوْ كَشَفَ لَكَ عَنْ سِرِّهِ لَمَا كَانَ شَيْطَانًا ، فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ بَسْرَّةً لَا بَغِيرَهُ .

قلت : فَأُرِيدُ أَنْ أَرَى الشَّيْطَانَ لَا كَوْنٍ قَدْ رَأَيْتَ الشَّيْطَانَ !
قال الشيخ : لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ! لَوْ كُنْتُ يَا أَبَا الْحَسَنِ بِأَرْبَعِ أَرْجُلٍ لَهَرَبْتُ مِنَ الشَّيْطَانِ بِثَلَاثٍ مِنْهَا وَتَرَكْتُهُ يَجْرِكُنِي مِنْ وَاحِدَةٍ !
قلت : يَا سَيِّدِي ، فَلَوْ كُنْتُ حِمَارًا لَبَطَّلَ عَمَلُ الشَّيْطَانِ فِي أَرْجُلِي الْأَرْبَعِ كُلِّهَا ، إِذْ لَا حَاجَةَ بِهِ إِلَى إِغْوَاءِ حِمَارٍ !

فَتَبَسَّمَ الشَّيْخُ وَقَالَ : وَلَا بَدَأَ أَنْ تَرَى الشَّيْطَانَ وَتَكَلِّمَهُ ؟

قلت : لا بد .

قال : إنه هو يقولها ، فقم !

قال أبو الحسن : وكان الشيخ إذا مشى إلى أمر خارق بقيت معه غائباً عن الحس ، كأنه يُبْطَلُ مني ما أنا به أنا ، فأصبح ظلاً آدمياً معلقاً به . ولا تقع الخوارق إلا لمن وجد القوة المكملة لروحه ، وهذه القوة تستمد من الشيخ الواصل ، فلا بد من إمام يأخذ عن إمام ، كأنها سلسلة نفسية متميزة في الأرض ، فتتغير الواحدة منها بالواحدة ، إذ تقع في جَوْها فتورق وتثمر ؛ كالشجرة : جَوْه يكسوها ، وجَوْه يُذْبِلُها ، وجَوْه يسلبها سلباً ؛ وكذلك تفعل النفس إذا كان لها جَوْه .

وخرجنا من دمشق وأنا خلف الشيخ كالحمول ، فرأيتنا وقد أشرفنا على بناء عظيم ، ورأيت أقواماً يتلقون الشيخ ويسلمون عليه ويتبرّكون بقدومه ؟ فأنكرتهم نفسى ووجدت منهم وخشّة ، فالتفت إلى الشيخ وقال : هؤلاء قوم من الجن ، وما إليهم قصدنا ، فلا تشتغل بما ترى واشتغل بي .

ثم انتهت إلى البناء العظيم ، فتستقبلنا طائفة أخرى ، ويدخلون الشيخ وأنا خلفه ، ويمرّون بنا على دنيا مخبوءة تعجز الوصف ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ؛ فيقولون : هذه كنوز سليمان وذخائره ، ويطوفون بالشيخ يعرضونها عليه كنزاً كنزاً ؛ فرأينا ثمّ نعيماً ومُلْكاً كبيراً ، ثم انتهينا آخراً إلى مغارة خسيّفة كأنها عروق من عروق جسم الأرض ، يتفجّر منها دوى كالرعد القاصف ، إلا أنه في السمع كخوار الثور ، إلا أنه ثور خيّل إلى أن رأسه في قدر جبل عظيم ، يتعلق به غبّ^(١) في قدر جبل آخر ، على جسم يسد الخافقين ،

(١) غبب الثور وغببه : ما تثنى من لحم ذقنه من أسفل

فخواره كأنه صُراخُ الأرض ، وإذا أنا بأقبح مكانٍ منظرًا ، وأنتبه ريحًا ،
كأنه سجنٌ بناؤه من الجيف .

قلت : ما هذا ؟ قالوا : هذا سجنُ إبليس ، وهو هنا في هذه المغارة منذ
زمن سليمان عليه السلام .

قلت : أفَسَجَنُ هو ؟

قالوا : وإنه مع ذلك مُوقَرٌ بأمثالِ الجبال حديدًا يَرَبِضُ به في مَحْبَسِهِ ، فلا
يتزعزع ولا يتحلحل .

قلت : وإنه مع ذلك قد ملأ الدنيا فسادًا ، فكيف به لو كان طليقًا ؟
قالوا : فلو أنه كان طليقًا لاسْتَحْوَذَ على الناس كافةً ؛ فيجتمعُ أهلُ
الأرض على شهوةٍ واحدة لا شيءَ غيرها ، فيبطلُ مع هذه الشهوة الواحدة
كلُّ تدبيرٍ بينهم ، فلا تقومُ لهم سياسة ، ولا يكونُ بينهم وازع ؛ فيرجعون
كالكلاب أصابها السكلبُ وهاجَ بها ، فأنيابها في لُحْمِها ، لا يزال يعَضُّ بعضها
بعضًا ، فليس لجميعها إلا عملٌ واحدٌ يُسَلِّمُها إلى الهلاك ، ويصبح ظهرُ الأرض
أعْرَى من سَرَاةٍ أديم .

وإنما يصلحُ الناسُ باختلافِ شهواتهم وتنافُرِها وتنازعِها ؛ فبعضُها يحكم
بعضًا ، وشيء منها يزْعُ شيئًا ، ومن تَخَلَّصَ من نزوةٍ قَمَعَ بها نزوةً أخرى ؛
كالمزوّج المَحْصَنِ : يحكمُ بالجلد والرجم على من ليست له امرأةٌ فزنا ؛ وكالغنيِّ
الواجد : يحكم على اللصِّ الذي لم يجدْ فسرق ، وهلمَّ جرا .

وما ينشأ الناسُ في ثلاثة أعمار ، فيشَبُّون ويكْتَهِلُون ويهرُمُون ، إلا لاختلافِ
شهواتهم وتختلفَ مقاديرُ الرغبةِ فيها ، فتتحققُ من نَمِّ تلك الحكمة الإلهية
في التدبير ، ويجدُ الشرعُ محله بينهم ، كما يجدُ العصيانُ بينهم محله .

ولو أن أمةً كلها أطفالٌ أو كهولٌ أو شبوخ ، لبادت في جيل واحد ؛ وإنه

ليس أسمح من الرذيلة تكون وحدها في الأرض إلا الفضيلة تكون وحدها ،
فلا بد من شيء يظهر به شيء غيره ، كالضد والحد ؛ والمعرفة إذا انتصر كل
من فيها كانت هزلاً وكانت شيئاً غير المعرفة .

قال أبو الحسن : وقلت لهم : فإذا كان الشيطان سجيناً قد ربضت به
أثقاله ، حتى لهو في سجن من سجن مبالغه في كفه والتضييق عليه — فكيف
يفتن الناس في أرجاء الأرض ويوسوس في قلوبهم ، حتى لهو يد بين كل
يدين ، وحتى لهو العين الثالثة لعيني كل إنسان ؟

قالوا : إن في روحه النارية قوة تفصل منها وتنتشر في الأرض ، كشعاع
الشمس من الشمس : هذه كرة نارية ممتدة معلقة على الأجسام مرصدة لها ،
وتلك كرة نارية حية معلقة على النفوس مرصدة لها ، وبهذه وتلك عمار الدنيا
وأهل الدنيا .

قلت : لعلكم أردتم أن تقولوا : خراب الدنيا وأهل الدنيا . فعلاطتم ،
فكان ينبغي أن يحىء بذكر الغلط ...

فقال أحدهم : يا أبا الحسن ، خرق الثوب المسمار . جاز هنا لأن الأبس
أن يكون المفعول به — وهو الثوب — مرفوعاً وفاعله — وهو المسمار — منصوباً ،
هل جئت — ويحك — تطلب النحو أو تطلب الشيطان ... ؟

قال أبو الحسن : فقطعني الجنى — والله — وأخرجاني ، ونظرت خاصة إلى
الشيخ أراه كيف يسخر مني ، فإذا الشيخ قد أماس فلا أراه ، وإذا أنا وحدي
بين الجن وبإزاء هذا الساهر الذي وضعت عينه في جبهته وشق فمه في فقه ... !
فسررت عني وزال ما أجده ، وقلت في نفسي : الآن أبلغ أربي من الشيطان
ويكون الأمر على ما أريد ، فلا أجد من أحشيم ولا تقطعني هيمه الشيخ ... !

ووقع هذا الخاطرُ في نفسي ، فاستعذتُ بالله ولعنتُ الشيطانَ وقلت :
هذا أولُ عَبيثِهِ بي وجعلهُ إِيَّايَ من أَهلِ الرِياءِ ، كَأَن لِي شَأْنًا في حُضورِ الشيخِ
وشَأْنًا في غِيابِهِ ، وكَأَنِّي مُنَافِقٌ أُعْلِنُ غَيْرَ ما أُسِرُّ ، وقلت : إنا لله ! كَدَتْ
يا أبا الحَسَنِ تَتَشَيَّبُن !

ثم هَمَمْتُ أَن أُنْكَصَ على عَقِبَيَّ ، فَقَدْ أَيْقَنْتُ أَنَّ الشيخَ إِنَّمَا تَخَلَّى عَنِّي
لأَ كُونَ هُنَا بِنَفْسِي لَا بِهِ ، وَمَا أَنَا هُنَا إِلَّا بِهِ لَا بِنَفْسِي ، فَيُوشِكُ إِذَا بَقِيتُ
فِي مَوْضِعِي أَن أَهْلِكَ ! بَيِّدَ أَنَّ الْمَغَارَةَ انْكَشَفَتْ لِي لِحَاةً ، فَمَا مَلَكَتُ أَن أَنْظُرَ ؛
وَنَظَرْتُ فَمَا مَلَكَتُ أَن أَقِفَ ، وَوَقَفْتُ أَرَى ، فَإِذَا دُخَانٌ قَدْ هَاجَ فَارْتَفَعَ
يُثَوِّرُ ثَوْرَانَهُ حَتَّى تَمَلَأَ الْمَكَانُ بِهِ ، ثُمَّ رَقَّ وَلَطَفَ .

وَاسْتَضَمَّتْ مِنْهُ نَارٌ عَظِيمَةٌ لَهَا وَهْجَانٌ شَدِيدٌ يُضْطَرِمُّ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ ،
وَيُسْمَعُ مِنْ صَوْتِهَا مَعْمَعَةٌ قَوِيَّةٌ ، ثُمَّ خَمَدَتْ .

وَانْفَجَرَ فِي مَوْضِعِهَا كَالسَّدِّ الْمُنْبَثِقِ مِنْ مَاءٍ كَشِيفٍ أَبْيَضَ أَصْفَرَ أَحْمَرَ ،
كَأَنَّهُ صَدِيدٌ يَتَقَيَّحُ فِي دَمٍ ، ثُمَّ غَاضَ .

وَتَنَبَّعَتْ فِي مَكَانِهِ حَمَاءٌ مُنْتَنَةٌ جَعَلَتْ تَرَبُّوً وَتَعَظُمٌ حَتَّى خِفْتُ أَن تَبْتَلَعَنِي
وَأَذْهَبَ فِيهَا ، فَسَمِيتُ اللَّهَ تَعَالَى فَغَارَتْ فِي الْأَرْضِ .

ثُمَّ نَظَرْتُ فَإِذَا كَلْبٌ أَسْوَدٌ مُخَمَّرٌ الْحَمَالِيقِ ، هَائِلُ الْخَلْقَةِ مُسْتَأْسِدٌ ،
قَدْ وَقَفَ عَلَى جِيْفَةٍ قَدْرَةٍ غَابَ فِيهَا خَطْمُهُ يَعْْبُ مَا تَسِيلُ بِهِ .

فَقُلْتُ : أَيُّهَا الْكَلْبُ ، أَأَنْتَ الشَّيْطَانُ ؟

وَانْظُرْ فَإِذَا هُوَ مَسْخٌ شَائِبٌ كَأَنَّهُ إِنْسَانٌ فِي بَهِيمَةٍ قَدْ امْتَزَجَا وَطَنِي مِنْهُمَا
شَيْءٌ عَلَى شَيْءٍ ، أَمَا وَجْهُهُ فَأَقْبَحُ شَيْءٍ مَنْظَرًا ، تَحْسِبُهُ قَدْ لَبَسَ صُورَةَ أَعْمَالِهِ ..

وَنَطَقَ فَقَالَ : أَنَا الشَّيْطَانُ !

قُلْتُ : فَمَا تِلْكَ الْجِيْفَةُ ؟

قال : تلك دنياكم في شهواتها ، وأنا ألتقم قلب الفاسق أو الآثم منكم ،
كما ألتقم دودة من هذه الجيفة .

قلت : عليك لعنة الله وعلى الفاسقين والآثمين ، فكيف كنت دخاناً ،
ثم انقلبت ناراً ، ثم رجعت قيحاً ، ثم صرت حمأة ، ثم كنت كلباً على جيفة ؟

قال : لا تلعن الفاسقين والآثمين ؛ فإنهم العباد الصالحون بأحد المعنيين ،
وأنت وأمثالك عباد صالحون بالمعنى الآخر ، أليس في الدنيا حياة ووقاحة ؟
فأولئك يا أبا الحسن هم وقاحتى أنا على الله ! أنا معكم في زهدكم حرمان
الحرمان ، وققر الفقر ، ولقد أهلكتموني بؤساً ؛ غير أنى معهم لذة اللذة ،
وشهوة الشهوة ، وغنى الغنى ، لا تتم لذة في الأرض ، ولا تحلو لذائقتها وإن
كانت حلالاً ، إلا إذا وضعت أنا فيها معنى من معاني أو وقاحة من وقاحتى !
حتى لأجعل الزوجة لزوجها مثل الشعر البليغ إذا استعار لها مئني مئني ، وكل
ما فسدت به المرأة فهو مجازى واستعارتي لها أجعلها به بليغة . . .

وأتم يا أبا الحسن تقطعون حياتكم كلها تجاهدون إثم ساعة واحدة من
حياة عبادي ، فانظر — رحمك الله — لئن كانت ساعة من حياتهم هي
جهنمكم أتم ، فكيف تكون جهنم هؤلاء المساكين ؟

إنك رأيتني دخاناً لأنني كذلك أنبعث في القلب الإنساني ، فتى تحركت
فيه حركة الشر كنت كالاحتيال لإضرار النار بالنفخ عليها ؛ فن ثم أكون
دخاناً ، فإذا غفل عنى صاحب القلب تضرمت في قلبه ناراً تطالب ما يطفئها ؛
ثم يواقع الإثم والمعصية ويقضى نهيمته فأبرد عن قلبه ، فيكون في قلبه مثل
الحرق الذي برد فتأكل كل موضعه فتقيح ، ثم يختلط قيح أعماله بمادته الترابية
الأرضية ، فينقلب هذا المسكين حمأة إنسانية لا تزال تربو وتنتفخ كما رأيت .

قلت : أعوذ بالله منك ! أفلا تعرفُ شيئاً يردُّك عن القلب وأنت دخانٌ بعد ؟

فقهمه اللعين وقال : ما أشدَّ غفلتك يا أبا الحسن ، إذ تسأل الشيطان أن يخترع التوبة ! أما لو أن شيئاً يخترع التوبة في الأرض لاخترعها القبرُ الذي يدفنُ فيه بعضُكم بعضاً كلَّ طرفَةٍ عينٍ من الزمن ، فتُنزِلون فيه الميِّتَ المسكينَ قد انقطع من كل شيء ، وتتركونه لآثامه ، وحسابِ آثامه ، والهلاكِ الأبديِّ في آثامه ؛ ثم تعودون أتم لاقترافِ هذه الآثامِ بعينها !

قلت : عليك وعليك أيها اللعين ؛ ولكن ألا يتبدّد هذا الدخان إذا ضربته الريح أو انطفأ ما تحته !

قال : أوّه ! لقد أوجعتني كأما ضربتني بجبلٍ من نار ، إن نبيكم عرفها ولكنكم أغبياء ؛ تأخذون كلامَ نبيكم كأما هو كلامٌ لا عمل ، وكأنه كلامُ إنسان في وقته لا كلامُ النبوةِ للدهر كله وللحياة كلها ؛ ولهذا غلبتُ أنا الأنبياء على الناس ، فإني أضعُ المعاني التي تعمل ، لا الحكمةَ المتروكةَ لمن يعملُ بها ومن لا يعمل .

أتدري يا أبا الحسن ، لماذا أعجزني أسلافكم الأولون مثل : عمر وأبي بكر ؟ حتى كان إسلامهم من أكبر مصائبِي ، فتركوني زمناً — وأنا الشيطانُ — أرتابُ في أني أنا الشيطان ... ؟

قلت : لماذا ؟

قال : أراك الآن لم تلعنْ ، فلستُ قائلها إلا إذا ترخمتَ على .

قلت : عليك وعليك من لعناتِ الله ! قل لماذا ؟

قال : أسألكُ ويأمرُ ؟ وطُفيلي وَيَقْتَرِح ؟ لا بد أن تترحمَ !

قلت : يرحمنا الله منك ! قل لماذا ؟

قال : وهذه لعنةٌ في لفظِ رحمةٍ ؛ لا ، إلا أن تترحمَ على أنا إبليس الرجيم !
قلت : فيُغني الله عن علمك ؛ لقد ألهمتنها روحُ النبي (صلى الله عليه وسلم) : إن النبوة كانت هي بأعمالها وصفاتها تفسيراً للألفاظ على أسنى الوجوه وأكملها ، فكان روحُ النبي (صلى الله عليه وسلم) لتلك الأرواح كالأم لأبنائها ؛ وقد رأوه لا يغضب لنفسه ولا لحظ نفسه ، وذلك لا يستقيم إلا بالقصد في أمر النفس ، وجعل ناحية الإسراف فيها إسرافاً في العمل لسعادة الناس . وكما ارتدَّ الإنسانُ لنفسه وحظوظها ارتدَّ إليك — أيها اللعين — وأقبل على شقاء نفسه ، وكما عمل لسعادة غيره ابتعد عنك — أيها الرجيم — وأقبل على سعادة نفسه ، وترك الغضب وحظوظ النفس هو الصبر ؛ وصبرُ الأنبياء والصديقين ليس صبراً على شيء بعينه في الحياة ، بل هو الصبرُ على حوادث العمر كله ، كصبر المسافر إن كان عزيمةً مدة الطريق كلها ، وإلا كان فساداً في القوة ووقع به الخذلان .

فهذا الصبرُ المعزِمُ المصمم ، الذي يُوطَّن به الرجلُ نفسه أن يكون رجلاً إلى الآخر — هو تعبُ الدنيا ، ولكنه هو رَوْحُ الجنة مع الإنسان في الدنيا . والمؤمنُ الصابر رجلٌ مُقفلٌ عليه بأقفال الملائكة التي لا يفتحها الشيطان ولا تفتحها مصائب الدنيا ؛ ولذلك قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : « إن المؤمنَ يُنْضِي شيطانه كما يُنْضِي أَحَدُكُمْ بَعِيرَهُ في سفره . » كأنه يقول : لو لم يصبر المسافر دائماً معزماً مدة سفره كلها لما أنضى بغيره ، ولو لم يصبر المؤمن دائماً معزماً مدة حياته كلها لما أنضى شيطانه .

فصاح الشيطان : أوّه ، أوّه ! ولكن قل لي يا أبا الحسن : ما صَبَرُ رجل مؤمنٍ قوى الإيمان ، قد استطاع بقوة إيمانه أن يُفِيقَ من سُكْرِ الغنى ، فتخلص من نزوات الشياطين الذهبية الصغيرة التي تسمونها الدنانير ؛ وقد أردته

على أن يكذب ، فرأى الإيمان أن يصدق ؛ وجهدتُ به أن يغضب ، فرأى الحكمة أن يهدأ ؛ وحاولتُ منه أن يطمع ، فرأى الراحة أن يرضى ؛ وسوّلتُ له أن يحسد ، فرأى الفضيلة ألاّ يبالي ؛ وأخذ نفسه من كل شيء في الحياة بما يثقُ أنه الإيمان والصبر والهدوء والرضا والقناعة ؛ وأحاط نفسه من هذه الأخلاق بالسعادة القلبية واجترأ بها ؛ وقصر نظره على الحقيقة ؛ ووجد الجمال في نفسه الطيبة الصافية ؛ وأجرى ما يؤمله وما يسره مجرى واحداً ؛ ونظر إلى العمر كله كأنه يومٌ واحد يرقبُ مغرب شمسهِ ؛ وأخذ من إرادته قوةً أنسته مالم تعطه الدنيا ، فلم يحفل بما أعطت الدنيا وما منعت ؛ وعاش على فقره بكل ذلك كما يعيش المؤمن في الجنة : هذا في قصرٍ من لؤلؤةٍ أو ياقوتةٍ أو زبرجدةٍ ، وذلك في قصر من الحكمة أو من الإيمان أو من العقل .

قال الشيطان : فلما أعجزني صلاحاً ورضى وصبراً وقناعةً وإيماناً واحتساباً ، وكان رجلاً عالماً فقيهاً — سوّلتُ له أن يخرج إلى المسجد ليعظ الناس فينتفعوا به ، ويُبصّرهم بدينهم ، ويتكلم في نصّ كلام الله ؛ فعقد المجلس ووعظ ، وانصرفوا وبقي وحده .

فجاءت امرأة تسأله عن بعض ما يحتاج إليه النساء في الدين من أمر طبيعتهن ؛ وكانت امرأة جَزَلَةً غَضَّةً رَابِيَةً ، يهتزُّ أعلاها وأسفلها ، وتمشي قصيرة الخطو مثاقلةً كالمتضايقة من حمل أسرار جمالها وأسرار بدنِها الجميل ؛ فبعض مشيتها يقظةً وبعضها نومٌ فاترٌ تخالطه اليقظة ؛ ولا يراها الرجلُ الفحلُ التأمُّ الفحولة إلا رأى الهواء نفسه قد أصبح من حولها أنثى ، مما تعصفُ به ريحُها العطرة عطر زينتها وجسمها .

وكان الواعظ قد ترمّل من أشهر ، وكانت المرأة قد تآبمت من سنوات ؛ فلما رآها غَضَّ طرفه عنها ؛ ولكنها سألته بألفاظها العذبة عن أمور هي من

أَسْرَارِ طَبِيعَتِهَا ، وَسَأَلْتَهُ عَنْ طَبِيعَتِهَا بِالْفَاظِهَا ؛ فَسَمِعَ مِنْهَا مِثْلَ صَوْتِ الْبَلَّورِ ،
يَتَكَشَّرُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ .

وَتَحَدَّثْتُ لَهُ وَكَأَنَّهَا تَتَحَدَّثُ فِيهِ ؛ فَسَمِعَ بِأُذُنِهِ وَدَمِهِ ، ثُمَّ كَانَ غَضُّ
عَيْنِهِ أَقْوَى لِرُؤْيَا قَلْبِهِ وَجَمَعَ خَوَاطِرَهُ .

وَرَأَى صَوْتَهَا يَشْتَهِي ؛ وَعَانَقَتْهُ رَائِحَتُهَا الْعَطْرِيَّةُ النَّفَّاذَةُ ؛ وَأَخَاطَتْهُ بِجَوْجَوِّ
الْفِرَاشِ ؛ وَعَادَتْ أَنْفَاسُهَا كَأَنَّهَا وَسْوَسةُ قُبُلٍ ؛ وَصَارَتْ زَفَرَاتُهَا كَالْفَقْدِ إِذَا
اسْتَجْمَعَتْ غَلِيَانًا ؛ وَطَلَعَتْ فِي خِيَالِهِ عُرْيَانَةً كَمَا تَطْلُعُ لِلْسَّكَرَانِ مِنْ كَأْسِ الْخَمْرِ
حُورِيَّةٌ عُرْيَانَةٌ ، لَهَا جِسْمٌ يُبْدُو مِنَ اللَّيْنِ وَالْبَضَاضَةِ وَالنَّعْمَةِ كَأَنَّهُ مِنْ زَبَدِ الْبَحْرِ ؟
.....

قَالَ أَبُو الْحَسَنِ : وَكَنتُ كَالنَّائِمِ ، فَمَا شَعَرْتُ إِلَّا بِصَوْتِ كَهْكَاءِ الْحَجَرِ
بِالْحَجَرِ ، لَا كَتَكَشَّرِ الْبَلَّورِ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ، وَسَمِعْتُ شَيْخِي يَقُولُ :
أَفْسَقْتُ ... ؟

تاريخ يتكلم...

أيعرفُ القراءُ أن في الأحلام أحلاماً هي قصصٌ عقليةٌ كاملةُ الأجزاء محكمةُ الوضع مُتَّسقةُ التركيب بديعةُ التأليف ، تجعلُ المرءَ حين ينام كأنه أسلم نفسه إلى (شركة من الملائكة) ، تَسِيحُ به في عالمٍ عجيب كأنما سُحِرَ فتحوَّل إلى قصة ؟

إن يكن في القراء من لا يعلمُ هذا فليعلمه مني ؛ فإنني كثيراً ما أكتب وأقرأ في النوم ، وكثيراً ما يُلقَى عليَّ من بارع الكلام ، وكثيراً ما أرى ما لو دَوَّنْتُهُ لَعُدَّ من الخوارق والمعجزات .

وهذه القصةُ التي أروىها اليوم ، كانت المعجزةُ فيها أُنِي مشيتُ في التاريخ كما أمشي في طريقٍ ممتدة ؛ فتقدمتُ إلى أهل سنة ٣٩٥ للهجرة وما يليها ، فعشتُ معهم وتخبَّرتُ من أخبارهم ، ثم رجعتُ إلى زماني لأقصَّ ما رأيته على أهل سنة ١٣٥٣ . . .

أمسيتُ البارحة كالمغموم في أحوالٍ ثقيلةٍ على النفس ما تنطلقُ النفسُ لها ، أولها سوء الهضم ؛ ومتى كان البدنُ من هنا لم تسكن الحركةُ في النفس إلا دائرةً : تذهبُ ما تذهبُ ثم لا تنتهي إلا في سوء الهضم عينه . فجلستُ في النديِّ الذي أَسْمُرُ فيه أحياناً ، فكان لجوِّه وزنٌ أحسسته كما يحسُّ الغائصُ في الماءِ ثِقْلَ الماءِ عليه ؛ ودخنتُ الكُرَّةَ كُرَّةً^(١) فلم تسكن هواءٌ ودُخاناً يَتَرَوَّحُ ،

(١) الكركرة : اسم وضعناه (للشيشة) أو النارجيلة ، أخذنا من صوتها ، كما صنع العرب في تسميتهم (القطا) أخذنا من صوت هذا الطير ، وكما هي طريقهم ؛ وتجمع الكركرة : كراكير ، بالياء للخفة .

بل كانت من ثقلها كالطعام يدخل على الطعام ؛ ونظرت ناحيةً فأخذت عيني رجلاً فيلّي الخِلقة ، مُنْطَادَ البطن كأنما نُفِخَ بطنه بالآلات ، يَحْمِلُ منه مقدار أربعة من بطون البَدِيناتِ الحواملِ كلُّ منهنَّ في الشهر التاسع من حَمَلِها ... وكان معي إلى كل هذا البلاء خمسُ صُحُفٍ يَوْمِيَّةٍ أريدُ قراءتها ... !

ثم جئتُ إلى الدار والمعركة حاميةً في أعصابي ؛ وما كان سوءُ الهضمِ مَنُومَةً فيدعوني إلى النوم ، فدخلتُ بيتَ كُتُبِي وأردتُ كتاباً أيّ كتابٍ تناله يدي ، فخرج لي كتابٌ في خُرَافَاتِ الأولين وأساطيرهم وهذيانهم وسوءِ هضمهم العقلي ... كالكلام عن أدونيس وأرطاميس وديونيس وسميراميس وإيسيس وأتوبيس وأترغيس ... فاستعدتُ بالله وقلت : حتى السكتُ لها في هذه الليلة أعصابٌ قد نالتها الثَقَلَةُ والألم ؟

وبات الليلُ يقظان معي ، وبقيتُ مُتَمَلِّلاً أَتَقَلَّبُ حتى أخذ الصداعُ في رأسي ، فانتقلب التعبُ نوماً ، وجاء من النومُ تعبٌ آخر ، وقُدِفْتُ إلى عالمِ الأحلام في قُنْبَلَةٍ تستقرُّ بي حيث تريد لا حيث أريد :

ورأيتني في قوم لا أعرفُ منهم أحداً قد اجتمعوا جَماهير ، وسمعتُ قائلاً منهم يقول : « الساعةُ يمرُّ مولانا العالی . » فقلت لمن يليني : « مَنْ يكون مولانا العالی ؟ » قال : « أَوَأَنْتَ منهم ؟ » قلت : « ممن ؟ » فألهاه عن جوابي تشوُّفُ الناس وانصرافُهُم إلى رجلٍ أقبلَ راكباً حماراً أشهب ؟ فصاحوا : « القمرُ القمرُ ^(١) » ورَفَعَ الرجلُ الذي يُناكِسُنِي صوته يقول : « البركاتُ والعظَمَاتُ لك يا مولانا العالی ! »

قلت : إنا لله ! لقد وقعتُ في قومٍ من الزنادقة ، يُعارضون « التحياتُ

(١) القمر : اسم ذلك الحمار ، وسيمر ذكره في القصة .

والصَّلَوَاتُ والطَّيِّبَاتُ لِلَّهِ» ؛ ثم مرَّ صاحبُ الحمارِ بجذائى ، وغمزه الرجلُ عَلَى ، فقال : ما بالكَ لا تقول مثله ؟ قلت : أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ كُفْرٍ بَعْدَ إِيمَانٍ . فَكَأَنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَلْطِمَنِي فَرَفَعَ يَدَهُ ، فَصَحَّتْ فِيهِ : كَمَا أَنْتَ — وَبِكَ — وَإِلَّا قَبَضْتُ عَلَيْكَ ، وَأَسْلَمْتُكَ لِلْبَوْلِيسِ ، وَشَكَوْتُكَ إِلَى النِّيَابَةِ ، وَرَفَعْتُكَ إِلَى مُحْكَمَةِ الْجَنَحِ ! قال : ماذا أَسْمَعُ ؟ الرجلُ مَجْنُونٌ فَخَذُوهُ ! وَأَحَاطَ بِي جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ ، وَلَكِنَّهُ تَرَجَّلَ عَنْ حِمَارِهِ وَأَخَذَ بِيَدِي وَمَشِينَا ، فَقُلْتُ : مَنْ أَنْتَ يَا هَذَا ؟ قال : أَرَأَيْكَ مِنْ غَيْرِ هَذَا الْبَلَدِ ؛ أَمَّا تَعْرِفُ الْحَاكِمَ بِأَمْرِ اللَّهِ ؟ فَأَنَا هُوَ . قلت : انْظُرْ — وَيَحْكُ — مَا تَقُولُ ؛ فَمَا أَظُنُّكَ إِلَّا مَمْرُورًا ؛ لَقَدْ كَتَبْتُ أَمْسَ كِتَابًا إِلَى مَجْلَةٍ (الرَّسَالَةِ) أَرْخَتَهُ ١٣ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ ١٣٥٣ و ١٨ مِنْ مَارِسَ سَنَةِ ١٩٣٥ ، وَأَرْسَلْتُ بِهِ مَقَالَـةً «الْخُرُوفِينَ» ^(١) . . .

قال : ماذا أَسْمَعُ ؟ نَحْنُ الْآنَ فِي سَنَةِ ٣٩٥ ؛ فَالرَّجُلُ مَجْنُونٌ ، أَوْ لَا فَأَنْتَ أَيُّهَا الرَّجُلُ مِنْ مَعْجَزَاتِي . لَقَدْ جِئْتُ بِكَ مِنَ التَّارِيخِ ، فَسَتَرِي وَتَسْكُتُ ، ثُمَّ تَعُودُ إِلَى التَّارِيخِ فَتَكُونُ مِنْ مَعْجَزَاتِي ، وَتَقْصُّ عَنِي وَتَشْهَدُ لِي . . . ! قلت : فَإِنِّي أَعْرِفُ أَعْمَالَكَ إِلَى أَنْ قُتِلْتُ فِي سَنَةِ ٤١١ . . . ! قال : أَوَّإِلَهُ أَنْتَ فَتَخْلُقُ سِتَّ عَشْرَةَ سَنَةً بِحَوَادِثِهَا ؟ لَقَدْ كَدْتَ مِنْ أَفْنِكَ وَغَبَاوَتِكَ تَفْسِدَ عَلَى دَعْوَى الْمَعْجِزَةِ !

وَهَاجَ الصَّدَاعُ فِي رَأْسِي ، وَبَلَغَ سُوءُ الْهَضْمِ حَدَّهُ ، وَاشْتَبَكَتْ سَيِّنَاتُ إِيْسَيسٍ وَأَتُوبِيسٍ الْخَ بَسِينِ إِبْلِيسَ ، وَمَرَّتْ بَيْنَ كُلِّ هَذَا حَوَادِثُ الطَّاغِيَةِ الْمُعْتَوَةِ الْمُتَجَبَّرِ ، فَرَأَيْتُهُ يَبْتَدِعُ فِي كُلِّ وَقْتٍ بَدْعًا ، وَيَخْتَرِعُ أَحْكَامًا يُسَكِّرُهُ النَّاسَ عَلَى أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا ، وَيَعَاقِبُهُمْ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْهَا ، ثُمَّ يَعُودُ فَيَنْقُضُ أَمْرَهُ ، وَيُعَاقِبُ عَلَى الْأَخْذِ بِهِ ، كَأَنَّ الَّذِي نَقَضَ غَيْرُ الَّذِي أَبْرَمَ ، وَكَأَنَّهُ حِينَ يَتَبَلَّدُ فَيُعْجِزُهُ

(١) مَرَّتْ هَذِهِ الْمَقَالَةُ فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ .

أن يَخْتَرَعَ جديداً — يَجْعَلُ اختراعه إبطالَ اختراعه .
 ورأيتُه كأنما يعتدُّ نفسه مُخَّ هذه الأمة ، فلا بدَّ أن يكونَ عقلاً لعقولها ،
 ثم لا بدَّ أن يَسْتَعْلَى الناسَ ويستبدَّ بهم استبدادَ الشريعةِ في أمرها ونهْيها ،
 فكانت أعمالُه في جملتها هي نقضُ أعمالِ الشريعةِ الإسلامية ، وظنَّ أنه مستطيعٌ
 محوِّ ذلك العصرِ من أذهانِ الناسِ وقتلَ التاريخِ الإسلاميِّ بتاريخٍ قاتلٍ سَفَاك .
 وسوَّالُ له جنونهُ أنه خُلِقَ تكذيباً للنبوَّة ؛ ثم أفرطَ عليه الجنونُ فَصَلَّ
 في نفسه أنه خلقَ تكذيباً للألوهية ؛ وفي تكذيبه للنبوَّة والألوهية يحملُ الأمةَ
 بالقهر والغلبة على ألا تصدِّقَ إلا به هو ؛ وفي سبيلِ إثباته لنفسه صَنَعَ ما صَنَعَ ،
 فجاء تاريخُه لا ينفى ألوهيةً ولا نبوَّة ، بل ينفى العقلَ عن صاحبه ؛ وجاء هذا
 التاريخُ في الإسلامِ ليتكلمَ يوماً في تاريخِ الإسلامِ ...

رأيتُني أصبحتُ كاتباً لهذا الحاكم ، فجعلتُ أشهدُ أعماله وأدوِّنُ تاريخه ،
 وأقبلتُ على ما أفرَدَني به ، وقلتُ في نفسي : لقد وضعتُ الدنيا موضعاً عزيزاً
 لم يرتفع إليه أحدٌ من كتّابها وأدبائها ، فسأكتبُ عن هذا الدهرِ بعقلٍ بينه
 وبين هذا الدهرِ ٩٦٨ سنةً صاعدةً في العلم .
 ودوَّنتُ عشرةَ مجلِّدات ضخمه انتبَهْتُ وأنا أحفظها كلها ، فإذا هي نُجْلٌ
 صغيرة ، جعلَ الخُلمُ كلَّ نبذةٍ منها سِيفراً ضخماً كما يُحْيِلُ للنائم أنه عاش عمراً
 طويلاً وأحدثُ أحداثاً ممتدَّة ، على حين لا تكونُ الرؤيا إلا لحظة .
 وهذه هي المجلِّداتُ التي قلتُ : إن التاريخَ يتكلَّمُ بها في التاريخ ...

المجلد الأول

ابْتَدَأَ هذا الطاغية بنقيصتين : إحداهما من نفسه ، والأخرى من غيره ؛

فأما التي من نفسه فإني أراه قد خُلِقَ وفي مُحِّه لُفَافَةٌ عَصَبِيَّةٌ مِنْ يَهُودِيَّةِ جَدِّهِ
رَأْسِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ ؛ فَهُوَ الْحَاكِمُ بْنُ الْعَزِيزِ بْنِ الْمُعْزِ بْنِ الْقَاسِمِ بْنِ الْمُهْدِيِّ عُبَيْدِ اللَّهِ ،
وَيَقُولُونَ إِنَّ عُبَيْدَ اللَّهِ هَذَا كَانَ ابْنَ امْرَأَةٍ يَهُودِيَّةٍ مِنْ حَدَادٍ يَهُودِيٍّ ، فَاتَّفَقَ
أَنْ جَرَى ذِكْرُ النِّسَاءِ فِي مَجْلِسِ الْحُسَيْنِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْقَدَّاحِ ، فَوَصَفُوا لَهُ تِلْكَ الْمَرْأَةَ
الْيَهُودِيَّةَ ، وَأَنَّهَا آيَةُ فِي الْحُسْنِ ؛ وَكَانَ لَهَا مِنَ الْحَدَادِ وَلَدٌ ، فَتَزَوَّجَهَا الرَّجُلُ
وَأَدَّبَ ابْنَهَا وَعَلَّمَهُ ، ثُمَّ عَرَفَهُ أَسْرَارَ الدَّعْوَةِ الْعَلَوِيَّةِ وَعَهَّدَ إِلَيْهِ بِهَا .

وَمِنْ بَعْضِ اللَّفَافَاتِ الْعَصَبِيَّةِ فِي الْمَخِ مَا يَنْحَدِرُ بِالْوَرَاثَةِ مَطْبُوعًا عَلَى خَيْرِهِ
أَوْ شَرِّهِ ، لَا يَدَّ لِلْمَرْءِ فِيهِ وَلَا حِيلَةٌ لَهُ فِي دَفْعِهِ أَوْ الْإِتِّفَاعِ مِنْهُ ، فَيَكُونُ قَدَرًا
يَتَسَلَّسَلُ فِي الْخَلْقِ لِيُحْدِثَ غَايَاتِهِ الْمَقْدُورَةَ ، فَتَقَعُ فِي مَخِ إِنْسَانٍ فَالِدُنْيَا بِهِ
كَالْحَبْلِيِّ وَلَا بَدَّ أَنْ تَتَخَضَّ عَنْهُ .

هَذِهِ اللَّفَافَةُ الْيَهُودِيَّةُ فِي مَخِ هَذَا الطَّاعِمَةِ سَتُحَقِّقُ بِهِ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى :
« لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ . » فَهُوَ لَنْ يَكُونَ الْعَدُوَّ
لِلْإِسْلَامِ دُونَ أَنْ يَكُونَ الْأَشَدَّ فِي هَذِهِ الْعَدَاوَةِ ، وَلَنْ يَكُونَ فِيهَا الْأَشَدَّ حَتَّى
يَفْعَلَ بِهَا الْأَفَاعِيلَ الْمُنْكَرَةَ . وَمَا أَرَى هَذِهِ الْمَادَّنَ الْقَائِمَةَ فِي الْجَوْءِ إِلَّا تَخْرُقُ
بِمَنْظَرِهَا عَيْنِيهِ مِنْ بُغْضِهِ لِلْإِسْلَامِ وَانْطَوَانِهِ عَلَى عَدَوَاتِهِ ؛ فَوَيْلٌ لَهَا مِنْهُ !

وَأَمَّا النَّقِيصَةُ الثَّانِيَةُ فَقَدْ ابْتُلِيَ بِقَوْمٍ فَتَنُوهُ بَأْرَائِهِمْ وَمَذْهَبِهِمْ ، وَهُمْ
حِمَزَةُ بْنُ عَلِيٍّ ، وَالْأَخْرَمُ ، وَفُلَانٌ ، وَفُلَانٌ . . . وَقَدْ لَفَقُوا لِلدُّنْيَا مَذْهَبًا هُوَ صُورَةُ
عُقُولِهِمُ الطَّائِشَةِ ، لَا يَجْبِي إِلَّا لِلْهَدْمِ ، ثُمَّ لَا يَضَعُ أَوَّلَ مَعَاوِلِهِ إِلَّا فِي قُبَةِ السَّمَاءِ
لِيَهْدِمَهَا . . . ! وَلَوْ أَنَا جَمَعْتُ هَذَا الْمَذْهَبَ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ لَقُلْتُ : هُوَ حِمَاةُ
حِمَاةٍ تُرِيدُ إِخْرَاجَ اللَّهِ مِنَ الْوُجُودِ لِإِدْخَالِ اللَّهِ فِي بَعْضِ الطُّغَاةِ !

وَيَتَلَقَّبُونَ فِي مَذْهَبِهِمْ بِهَذِهِ الْأَلْقَابِ : الْعَقْلُ ، الْإِرَادَةُ ، الْأَمَامُ ، قَائِمُ
الزَّمَانِ ، عِلَّةُ الْعِلَالِ . . . ! وَهَذِهِ هِيَ الشِّيْعُوَّةُ بِعَيْنِهَا ، تَعْمَلُ عَلَى هَدْمِ فِكْرَةِ

الألوهية وإلحاقها بالخرافة ؛ كأن القائم بهذا المذهب هو عقلُ الناس وإرادتهم ،
كَرِهوا أم رضوا ، فلا إرادة لهم معه ولا عقل ؛ وهو الزمنُ فيصنع الزمنَ بما شاء ،
ويجعله كيف شاء ، لأنه القائم به ، وعلّة العِلل في سياسته وتدييره .

شيوعية آئمة كبرت في حماقتها أن تقومَ بمجنونٍ واحد ، فلا تقوم
إلا باثنين معاً : جنونِ العقل ، وجنونِ السيف !

المجلد الثاني

أظهر الطاغية أن الله يؤيدُ به الإسلام ، ليتألفَ الجندَ والشعبَ ويستميلهم
إليه ، وكان في ذلك لثيمَ الكَيْدِ ، دنيء الحيلة ، يهوديَّ المكر ؛ فأمرَ بعمارة
المدارس للفقهِ والتفسير والحديث والفتوى ، وبَدَلَ فيها الأموال ، وجعل فيها
الفقهاء (والمشايخ) ، وبالغَ في إكرامهم ، والتوسُّعِ عليهم ، والتَّخَضُّعِ لهم ،
ودَخَلَ في ظلالِ العِلمِ ... وأحضرَ لنفسه فقيهيْن مالكييْن (اثنين لا واحد)
يُعَلِّمَانِه ويُفَقِّهَانِه ، وكان أشبهَ بمُرِيدٍ مع شيخِ الطريقة يتسَعَّدُ به ويتَيَمَّنُ ؛
أشرفُ ألقابه أنه خادمُ العِمامة الخضراء ، وأسعدُ أوقاته اليومُ الذي يقول له فيه
الشيخ : رأيتُك في الرؤيا ورأيتُ لك ... !

وكانت هذه المعاملةُ الإسلاميةُ الكريمةُ من هذا الطاغية ، هي بعينها ربا
اللَّفَافَةِ اليهودية في مُحِّه ؛ تُصَلِّحُ بإقراضِ مائة ، وفيها نيةُ الخرابِ بالسَّتين في
المائة ... ! فإنه ما كاد يتمكَّن من الناس ويعرفُ إقبالهم عليه وتحتهم به ،
حتى طَلَبَتِ اللَّفَافَةُ اليهوديةُ رأسَ المالِ والرِّبَا ؛ فأمرهم بهدم تلك المدارس
وإخرايها ، وأبطلَ العيدَين وصلاةَ الجمعة ، وقتَلَ الفقهاء وقتَلَ معهم فقيهيهِ
وأستاذيهِ ، وعادَ كالْمُرِيدِ المنافق مع شيخِ الطريقة ، يقول في نفسه : إن هناك
ثلاثةً تعمل عملاً واحداً في الصَّيْدِ : الفخّ ، والعِمامة ، والألّحية ... !

إن هذا الطاغية ملكٌ حاكم ، يستطيعُ أن يجعلَ حماقته شيئاً واقعاً ، فيقتل علماء الدين بإهلا كههم ، ويقتل مدارس الدين بإخراها ، ولو شاء لاستطاع أن يشنق من المسلمين كلَّ ذى عمامةٍ فى عمامته . ويبلغ من كفره أن يتبجح ويرى هذا قوةً ، ولا يعلم أنه لهوانه على الله قد جعله الله كالذبابه التى تُصيبُ الناسَ بالمرض ، والبعوضه التى تقتل بالحمى ، والقمله التى تُضربُ بالطاعون ، فلو فُحِرتْ ذبابه ، أو تبجحتْ قمله ، أو استطالتْ بعوضه ، لجازله أن يطنَّ طنينه فى العالم . وهل فعل أكثر مما تفعل ؟

لقد أودى بأناسٍ يقوم إيمانهم على أن الموت فى سبيل الحق هو الذى يُخلِّدُهم فى الحق ، وأن انتزاعهم بالسيف من الحياة هو الذى يضعهم فى حقيقتها ، وأن هذه الروح الإسلامية لا يطمسها الطغيان إلا ليجلوها .

إنه والله ما قتل ولا شنق ولا عذب ، ولكن الإسلام احتاج فى عصره هذا إلى قوم يموتون فى سبيله ، وأعوزَه ذلك النوعُ السامى من الموت الأول الذى كان حياة الفكر ومادة التاريخ ، فجاءت القملة تحمل طاعونها . . . !

لقد أحياءم فى التاريخ ، أما هم فقتلوه فى التاريخ ، وجاءهم بالرحمة من جميع المسلمين ، أما هم فجاءوه باللعة من المسلمين جميعاً !

المجلد الثالث

يرى هذا الطاغية أن الدين الإسلامى خرافةٌ وشعوذةٌ على النفس ، وأن محور الأخلاق الإسلامية العظيمة هو نفسه إيجاد أخلاق ، وأن الإسلام كان جريئاً حين جاء فاحتل هذه الدنيا ؛ فلا يطرده من الدنيا إلا جراءة شيطان كالذى توقَّح على الله حين قال : « فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . » ولهذا أمر الناس بسب الصحابة ، وأن يُكتب ذلك على حيطان المساجد والمقابر والشوارع !

أخزاه الله ! أهي روايةٌ تمثيليةٌ يُلصِقُ الإعلانَ عنها في كل مكان ؟ لو سمع
لسمع المساجدَ والمقابرَ والشوارعَ تقول : أخزاه الله ... !

المجلد الرابع

هذا الفاسقُ لا يركبُ إلا حماراً أشهبَ يسمّيه : (القمر) ، وقد جعل
نفسه مُحْتَسِباً لغايةٍ خبيثة ؛ فهو يدورُ على حماره هذا في الأسواقِ ومعه عبدٌ
أسود ، فمن وجده قد غشَّ ؛ أمرَ الأسودَ ف... ! ووقف هو ينظر ويقول
للناس : انظروا ... !

ومن غلبةِ الفسوقِ على نفسه وعلى شيعته أن داعيته (حمزة بن علي) نوه
بالحمار في كتابه وأوماً إليه بالثناء ، لحِصالٍ منها أن ... ! وكتب حمزة هذا في
بعض رسائله : أن ما يرتكبه أهلُ الفسادِ بجوار البساتين التي يمرُّ بها (الفاسق)
من المنكر والفحشاء — إنما يرتكب في طاعته ... !

هذه طبيعة كلِّ حاكمٍ فاسقٍ ملحد ، يرى في نفسه رذائله عُريانةً ،
فلا يكونُ كلامه وعمله وفكره إلا فحشاً يتعرَّى ؛ وإن في هذا الرجل غريزة
فسقٍ بهيميةً متصلةً بطور الحيوان الإنساني الأول ؛ فما من ريب أن في جسمه
خليقةٌ عصبيةٌ مُتَاجَةٌ ، ما زالت تسبحُ بالوراثة في دماء الأحياء ، متلففةً على
خصائصها ، حتى استقرَّت في أعصاب هذا الفاسق ، فانفجرت بكل تلك
الخصائص .

ولست أرى أكثرَ أعماله ترجعُ في مرَدِّها إلا إلى طغيان هذه الغريزة
فيه ؛ فهو يحاول هدمَ الإسلام ، لأنه دينُ العفة ودينُ صَوْنِ المرأة ، يلزمها
حجاب عِفَّتِها وإبائها ، ويمنعُها الابتذالَ والخلاعة ، ويُعِينها أن تتخلَّصَ ممن
يشتبهها ، ولو كان الحاكم ... إنه يمتُّ هذا الدينَ القوي ، كما يمتُّ اللصُّ

القانون ؛ فهو دينٌ يُثْقَلُ على غريزته الفاسقة ، ولكلِّ غريزة في الإنسان شعورٌ لا مَهْنَأَ لها إلا أن يكونَ حراً حتى في التوهم ؛ وهل يُعَجِّبُ السَّكَّارُ شَيْءٌ أو يُرْضِيهِ أو يَلْذَهُ ، كما يُعْجِبُهُ أن يرى الناسَ كُلَّهُم سُكَّارِي ؛ فَيَنْتَشِي هو بالخمَرِ ، وتسكَّرَ غريزته برؤية السُّكَّرِ ؟

وما زال رأى الفُسَّاقِ في كلِّ زمن أن الحريةَ هي حرية الاستمتاع ، وأن تقييدَ اللذة إفسادٌ لِلذَّةِ .

المجلد الخامس

يزعم الطاغيةُ أنه يُعِزُّ قومه ، وما أراه يُعْزِمُ ، ولكنه يمتحنُ ذُلَّهُم وضعفَهُم وهوانَهُم على الأمم ؛ فهو يتجرَّأُ شيئاً فشيئاً ، مُتَنَظِّراً ما يَتَسَهَّلُ ، مترقباً ما يمكن ؛ وهو يرى أن أخلاقنا الإسلامية هي أمواتنا دفنوا أنفسهم فيها ؛ فمن ذلك يهدمُ الأخلاقَ ويظنُّ عند نفسه أنه يهدمُ قبوراً لا أخلاقاً .

ولقد سَخِرَ منه المصريون بنسكتةٍ من ظرْفهم البديع ، وجاءوه من غريزته ، فصنعوا امرأةً من الورق الذي يُشَبِّه الجلد ، وألبسوها خُفَّها وإزارها ، حتى لا يشكَّ من رآها أنها آدمية ، ثم وضعوا في يدها قِصَّةً وأقاموها في طريقه ؛ فلما رآها عدَلَ إليها وأخذَ من يدها القِصَّةَ وقرأها ، فإذا فيها سَبُّ له ولآبائه ؛ وسخريةٌ من جنونه ورُعُونَتِهِ المضحكة ؛ فغضب وأمر بقتل المرأة ؛ فكانت هذه سخريةً أخرى حين تحقَّق أنها من الورق ، وأخذته النسكتةُ الظريفةُ بمثل البرق والرعد ؛ فاستشَاطَ وأمر عبيدَه من السودان بتحريق الثَّوَرِ ونهب ما فيها وسبِّي النساءِ والفُجُورِ بهن ؛ حتى جاء الأزواج يشترون زوجاتهم من العبيد ، بعد أن طارت الزوبعة السوداء في بياض الأعراض .

اندلعت ثورة الفجور في المدينة ، لا من العبيد ، ولكن من الحيوان العتيق
المستقر في هذا الطاغية .

المجلد السادس

وهذه رُعونةٌ من أقبح رُعوناته ، كأن هذا الحيوان لا يحسبُ نساء الأمة
كلّها إلا نساءه ، فيأمرهن بأمر امرأته ، وكأن النساء في رأيه إن هنّ إلا
استجاباتٌ عصبيةٌ تطلق وتُردّ .

إن لموجةِ الفسقِ في الغريزة الطاغيةِ جَزْراً ومدّاً يقعان في تاريخِ الفَسَاقِ ؛
فهذا الطاغيةُ قد جَزَرَتْ فيه الموجة ، فأمر أن يُمنَعَ النساء من الخروج ليلاً
ونهاراً ، لا تطأ أرضَ المدينة قَدَمُ امرأة ، وأمر الخفافين ألا يصنعوا لمن
الأخفاف والأخذية ؛ ولما علم أن بعضَ النساء خرجن إلى الحمامات هَدَمَ
الحمامات عليهن !

ولو مدّت الموجةُ في تنسّق الفاسق لَفَرَضَ على النساء الخروج والاتصال
بالرجال والتعرض للإباحة .

إن الصلاحَ والفساد كلاهما فساد ما لم يكن الصلاحُ نظافةً في الروح
وسموّاً في القلب .

المجلد السابع

يزعم الطاغيةُ أنه سيهدم كلَّ قديم ؛ وإني لأخشى والله أن يأمر الناس
في بعض سَطَوَاتِ جنونه : أن كلَّ من كان له أبٌ أو أمٌ بلغ الستين فليقتله ،
لتخلص الأمة من قديمها الإنساني ... !

كأنه لا يعرفُ أنه إنما يتسلط على أيام مُعاصِريه لا على التاريخ ، ويحكمُ

على طاعة قومه وعصيانهم لا على قلوبهم وطباعهم وميراثهم من الأسلاف ؛ فما هو إلا أن يهلك حتى ينبعث في الدنيا شيئان : تَنْتُنُ رَمْتِهِ فِي بطنِ الأرض ، وتَنْتُنُ أَعْمَالِهِ عَلَى ظَهرِ الأرض . إن هذا الرجلَ المَسَاطَّ ، كالغبارِ المُسْتَطَار لا يُكَنَسُ إلا بعد أن يَقَعَ ...

ولقد رأى المأفونُ أن أكلَ الناس الملوخِيا الخضراء والفَقَّاع ، والثَرْمُس والجِرْجِير ، والزَيْبَ والعَنْبَ — هوَّى قديمٌ في طباعِ الناس ، فنهى عن كل ذلك ، لا يُباع ولا يُؤْكَل ، وظهر على أن جماعةً باعوا أشياء منها فَضَرَبَهُم بالسَّيَاط ، وأمر فَطِيفَ بِهِم في الأسواق ، ثم ضَرَبَ أَعْنَاقَهُمْ ؛ كأن الذي يحملُ الملوخِيا الخضراء على رأسه لِيَبِيعَهَا يلبس عمامة خضراء ...

أهذا — وَيَحَى — تجديدٌ في الأمة ، أم تجديدٌ في المِدة ... ؟

المجلد الثامن

لا يَرْضَى الطاغيةُ إلا أن يَمَحَقَ روحانيةُ الأمة كُلِّهَا ، فلا يترك شيئاً رُوحانياً يكون له في أعصابِ الناس أثرٌ من الوقار ، وبمن يَسْتَظْهِرُ — وَيُثَلِّهِ — إذا مُحِيتْ روحانيةُ الأمة وأشرفت نَزْعَتُها الدينيةُ على الانحلال ؟ كأنه لا يعلم أن حقيقةَ الوجودِ لأمةٍ من الأمم إنما تُسَمِّدُ من إيمانها بالمثل الأعلى الذي يدفعها في سَلَمِها إلى الحياة بقوة ، كما يدفعها في حربها إلى الموت بقوة ؛ وكأنه لا يعلم أن التاريخَ كله تُقَرِّره في الأرض بضعةُ مبادئ دينية .

هذا الحاكم الأخرقُ هو عندى كالذى يقول لنفسه : لم أستطع أن أفتح دولة ، فلا فتَحَ دولةً في مملكتي ... لقد أمر بهدم الكنائس والبِيع ، حتى بلغ ما هدم منها ثلاثين ألفاً ونيِّفًا .

أى مجنونٍ أسخف جنوناً من هذا الذى يحسب النفوسَ الإنسانية

كالأخشاب ؛ تَقْبَلُ كُلُّهَا بغير استثناء أن تُدَقَّ فيها المسامير ... ؟
سيعلم إذا نَشِبَتْ حربٌ بينه وبين دولة أخرى ، أنه كسَرَ أشدَّ سيوفه
مِضَاءً حين كسَرَ الدين !

المجلد التاسع

هذه هي الطامَّةُ الكبرى ؛ فلا أدري كيف أكتب عنها : لقد تطاول
الجنونُ إلى الألوهية فادَّعَاها ، وصار يكتب عن نفسه : باسم الحاكم الرحمن !
لو كان أغبى الأغبياء في موضعه لَاتَّقَى شيئاً ، لا أقولُ تقوى الدين
والضمير ، ولكن تقوى النِّفاقِ السياسيِّ ؛ فكان يحملُ الناسَ على أن يقولوا
عنه : « أبانا الذي في الأرضين ... ! »
وإلا فأى جهلٍ وخَبْطٍ ، وأى حُوقٍ وتهوُّرٍ ، أن يكونَ إلهٌ على حمار ، وإن
كان اسمُ حماره القمر !

المجلد العاشر

سيأخذه الله بامرأة ؛ ولكل شيءٍ آفةٌ من جنسه ؛ لقد بلغ من وقاحةٍ
غريزته أن انْتَفَكَ على أخته الأميرة (ست الملك) ، ورماها بالفاحشة ،
وهي من أزكى النساء وأفضلهن ، واتهما بالأمير (سيف الدين بن الدَّوَّاس)
وقد علمت أنها تُدَبِّرُ قتلَه ، وأنها اجتمعت لذلك بسيف الدين . فسأَمِسْكُ عن
الكتابة في هذا المجلد ، وأدع سائرَه بياضاً حتى أذهبَ إليهما فأعينهما بما عندي
من الرأى ، ثم أعود لتدوين ما يقع من بعد ...

ورأيتُ أنى اجتمعتُ بهما واطمأنَّا إلى ، فأخذنا نُديرُ الرأى :
قالت الأميرة لسيف الدين فيما قالتَه : « والرأى عندي أن تُتَبِعَهُ غلماناً

يقتلونه إذا خرج في غدٍ إلى جبل المقطم ، فإنه ينفرد بنفسه هناك ! »

فقلت أنا : « ليس هذا بالرأى ولا بالتدبير »

قالت : « فما الرأى والتدبيرُ عندك ؟ »

قلت : « إن لنا علماً يسمونه (علم النفس) ، لم يقع لعلمائكم ، وقد صحَّ عندي من هذا العلم أن الرجل طائشُ الغريزة مجنونُها ، وأن الأشعة اللطيفة الساحرة التي تنبعثُ من جسم المرأة ، هي التي تنفجرُ في مخه مرَّةً بعد مرَّة ؛ فإذا خَبَت هذه الأشعة وبطلت الغريزة ، بطَلَت دواعي أعماله الخبيثة كلها ، وكَفَّ عن محاولته أن يجعل الأمة مملوءةً من غرائز جسمه وشهواته ، لا من فضائلها ودينها . فلو أخذتم برأى وأمضيتموه فإنه سيُنكِرُ أعماله إذا عرضها على نفسه الجديدة ، وبهذا يُصلح ما أفسد ، وتكون حياته قد نطقت بكلماتها الصحيحة كما نطقت بكلماتها الفاسدة ؛ فإذا ... »

قال الأمير : « فإذا ماذا ؟ »

قلت : « فإذا خَصِي ... »

فضحكتُ ستُّ الملك ضحكةً رنّت رنيناً .

قلت : « نعم إذا خَصِي هذا الحاكم ... »

فغلبها الضحكُ أشدَّ من الأول ، ورمتني بمنديلٍ لطيف كان في يدها أصاب

وجهي ، فانتبهتُ وأنا أقول :

« نعم إذا خَصِي هذا الحاكم »

كُفْرُ الذَّبَابَةِ . . .

قال كَلِيلَةُ ^(١) وَهُوَ يَعِظُ دِمْنَةً وَيُحَذِّرُهُ وَيَقْضِي حَقَّ اللَّهِ فِيهِ ؛ وَكَانَ دِمْنَةً قَدْ دَاخَلَ الْغُرُورُ وَزَهَاهُ النَّصْرُ ، وَظَهَرَ مِنْهُ الْجَفَاءُ وَالْغِلْظَةُ ، وَاقَى الثَّعَالِبُ مِنْ زَيْغِهِ وَإِلْحَادِهِ عَنَتًا شَدِيدًا :

. وَعَلِمَ يَا دِمْنَةُ أَنَّ مَا زَعَمْتَهُ مِنْ رَأْيِكَ تَامًّا لَا يَعْتَرِيهِ النِّقْصُ ، هُوَ بَعِينُهُ النَّاقِصُ الَّذِي لَمْ يَتَمِّمْ ؛ وَالْغُرُورُ الَّذِي تُثَبِّتُ بِهِ أَنَّ رَأْيَكَ صَحِيحٌ دُونَ الْآرَاءِ ، لَعَلَّهُ هُوَ الَّذِي يُثَبِّتُ أَنَّ غَيْرَ رَأْيِكَ فِي الْآرَاءِ هُوَ الصَّحِيحُ .

وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا يَتَخَيَّلُ كُلُّ ذِي خِيَالٍ ، لَصَدَقَ كُلُّ إِنْسَانٍ فِيمَا يَزْعُمُ ، وَلَوْ صَدَقَ كُلُّ إِنْسَانٍ فِيمَا يَزْعُمُ ، لَكَذَبَ كُلُّ إِنْسَانٍ ؛ وَإِنَّمَا يَدْفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ، لِيَجِيءَ حَقُّ الْجَمِيعِ مِنَ الْجَمِيعِ ، وَيَبْقَى الصَّغِيرُ مِنَ الْخَطَا صَغِيرًا فَلَا يَكْبُرُ ، وَيُثَبِّتَ الْكَبِيرُ مِنَ الصَّوَابِ عَلَى مَوْضِعِهِ فَلَا يُنْتَقَصُ ، وَيَصَحَّ الصَّحِيحُ مَا دَامَتِ الشَّهَادَةُ لَهُ ، وَيَفْسُدَ الْفَاسِدُ مَا دَامَتِ الشَّهَادَةُ عَلَيْهِ ، وَمَا مِثْلُ هَذَا إِلَّا مِثْلُ الْأَرْنَبِ وَالْعُلَمَاءِ .

قَالَ دِمْنَةُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ : زَعَمُوا أَنَّ أَرْنَبًا سَمِعَتْ الْعُلَمَاءَ يَتَكَلَّمُونَ فِي مَصِيرِ هَذِهِ الدُّنْيَا ، وَمَتَى يَتَأَذَّنُ اللَّهُ بِانْقِرَاضِهَا ، وَكَيْفَ تَكُونُ الْقَارِعَةُ ؛ فَقَالُوا : إِنَّ فِي النُّجُومِ نَجُومًا مُدْنَبَةً ، لَوْ التَفَّ ذَنْبٌ أَحَدِهَا عَلَى جِرْمِ أَرْضِنَا هَذِهِ لَطَارَتْ هَوَاءً كَأَنَّهَا نَفْخَةُ النَّافِخِ ، بَلْ أَوْ هِيَ كَأَنَّهَا زَفْرَةُ صَدْرِ مَرِيضٍ ، بَلْ أَوْ هِيَ كَأَنَّهَا نَفْثَةُ مَنْ

(١) كَلِيلَةُ وَدِمْنَةُ هُنَا أَسْلُوبٌ مِنْ أَسَالِيبِ الْأَسْتَاذِ الرَّافِعِيِّ ، يَعْمَدُ إِلَيْهِ حِينَ يَرِيدُ تَقْرِيرَ الْمَعَانِي بِالْمَثِيلِ وَالْمُحَاوِرَةِ .
(الرسالة)
وَانْظُرْ مَقَالَه (فَلَسْفَةُ الطَّائِفَةِ) فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ .

شفتين . فقالت الأرنب : ما أجهلكم أيها العلماء ! قد والله خرقتم وتكذبتم واستحمتكم ؛ ولا تزال الأرض بخير مع ذوات الأذنان ؛ والدليل على جهلكم هو هذا — قالوا : وأرتهم ذنبها . . . !

قال كليله : وكم من مغرور يُنزل نفسه من الأنبياء منزلة هذه الأرنب من أولئك العلماء ؛ فيقول : كذبوا وصدقت أنا ، وأخطئوا جميعاً وأصبت ، والتبس عليهم وانكشف لي ، وهم زعموا وأنا المستيقن . ثم لا دليل له إلا مثل دليل الأرنب الخرقاء من هنة تتحرك في ذنبها .

وكان يُقال : إنه لا يُجَاهِرُ بالكفر في قومٍ إلا رجلٌ هان عليهم فلم يعبوا به ، فهو الأذل المستضعف ؛ أو رجلٌ هانوا عليه فلم يعبوا بهم ، فهو الأعز الطاغية ؛ ذاك لا يخشونه فيدعونه لنفسه وعليه شهادة حمقه ، وهذا يخشونه فيتركون معارضة وعليه شهادة ظلمه ؛ وما شرٌّ من هذا إلا هذا .

وقالت العلماء : إن كنت حاكماً تشق من يخالفك في الرأي ، فليس في رأسك إلا عقل اسمه الحبل ؛ وإن كنت تقتل من ينكر عليك الخطأ ، فليس لك إلا عقل اسمه الحديد ؛ وإن كنت تحبس من يعارضك بالنظر ، ففبك عقل اسمه الجدار ؛ أما إن كنت تناظر وتجادل ، وتقنع وتقنع ، وتدعو الناس على بصيرة ولا تأخذهم بالعمى — ففبك العقل الذي اسمه العقل .

قال كليله : وأنا يا دمنة ، فلو كنت قائداً مطاعاً ، وأميراً متبعاً ، لا يعصى لي أمر ، ولا يرد عليّ رأي ، ولا ينكر مني ما ينكر من الخلق إذا أخطأ ، ولا يقال لي دائماً إلا إحدى الكلمتين : أصبت ، ثم هي دائماً أصبت ؛ ولا يلقاني أحد من قومي بالكلمة الأخرى ، رهبة من سخطي رهبة الجبناء ، أو رغبة في رضاي رغبة المنافقين ، وزعموا أنهم على ذلك قد صحت نياتهم وخاص لي

باطنهم جميعاً — فلو كنتُ وكانوا على هذا ، لأحالي تقصُّهم إلى تقصِّ العقل
بعد كماله ، وردَّتني فسولتهم إلى فسولة الرأي بعد جودته ، فأخبرني أن أعتبر
وضعهم إياي في موضع الآلهة ، هو إنزالهم إياي في منزلة الشياطين ؛ وإلا كنتُ
حقيقاً أن يُصيبني ما أصاب العنز التي زعموا لها أنها أنثى الفيل . . .

قال دمنة : وكيف كان ذلك ؟

قال : زعموا أنه كان في إحدى خرائب الهند جماعةٌ من العظاء ، وكان
فيها عَصْرُ فُوطٍ كبير^(١) ، فلَكتَه الجماعةُ وذهبتْ تأتمرُ على أمره وتنتهي .
فرَّ بهذه الخربةَ فيلٌ جسيمٌ من الفيلة الهندية العظيمة ، لم يُحسَّ بالعظاء ،
ولم يميِّز فرَقاً بين هذه الأمة من الحشرات وبين الحصى منشوراً يلتصع في
الأرض هنا وهنا ؛ قالوا فغضب العَصْرُ فُوطُ ، وكان قائداً عظيماً ، ثم تدبَّر أمرَ
الفيل ينظر كيف يصنع في مدافعتِه ، وكيف يحتمل في هلاكه ؛ فراه لا يتحرك
إلا بأقدامه ينقلها واحدةً واحدةً ؛ فقدَّر عند نفسه أنه لو أزال قدَمَ الفيل عن
الأرض زال الفيلُ نفسه ؛ فجاء فاعترض الطريق ، ودبَّ ديبه ؛ فلما رفع
الفيلُ قدمه اهتبل هذه الغفلة منه .. واندسَّ تحتها ، فاندسَّ مقبوراً في التراب !
ثم إن العظاء افتقدتْ أميرها . فلما مضى الفيلُ لسبيله ورأت ما نزل
بها ، نفرتْ إلى أجحارها ، واستكنَّت فيها ترتقبُ وتتربَّص ؛ فدخلتْ إلى الخربة
عنزٌ جعلت تتقمم منها وترتفع فيها ، ورأتها العظاء فاجتمعن يأتعن . . .
فقال منها قائل : هذه أنثى الفيل . فسألت عَظَايَةً منهن : وأين

النابان العظيان ؟

قالت الأولى : إن الإناث دون الذكور في خلقها ، والأنثى هي الذكرُ

(١) العظاء : جمع عطاءة وعظاية ، وهي هذه الدويبة التي يقال لها (السحلية) ،

والعَصْرُ فُوطُ : ضرب من العظاء يكون أكبر منها .

مقلوباً أو مختصر أو مشوّهاً ، ولذلك هنَّ يَقْلِبْنَ الحياةَ أو يختصرنَّها أو يشوّهنَّها ،
أفلا ترين النابيين العظميين البارزين في ذلك الفيل الجسيم ، كيف نبّتا
صغيرين منقلبين فوق رأس أنثاه . . . ؟

فقلت واحدة : إن جاز قولك في الرأي فأين الخرطوم ؟
قلت الأخرى : هو هذه الزنمة المتدلّية من حلقها ، وذلك خرطوم على
قدر أنوثه الأنثى . . . !

قالوا : ثم اجتمع رأيهن على أن يُملّكن أنثى الفيل هذه ؛ وأن يهَبْنَ
لها الحربة وأمتها . وسمعت الماعزة كلامهن فقالت في نفسها : لا جرّم أن
تكون العنز فيلة في أمة من العطاء ، فقد قالت العلماء : إنه لا كبير إلا بصغير ،
ولا قوى إلا بضعيف ، ولا طاغية إلا بذليل ؛ وإن العظمة إن هي إلا شهادة
الحقارة على نفسها ، وإنه ربّ عظيم طاغية متجبر ما قام في الناس إلا كما
تقوم الحيلة ، ولا عاش إلا كما يعيش الكذب ، ولا حكّم إلا كما يحكم الخداع .
وهذه الدنيا للمحظوظ كأنها دنياه وحده ، فتى جاءت إليه فقد جاءت ، ولو أنها
أدبرت عنه من ناحية لرجعت من ناحية أخرى ، ليثبت الحظ أنه الحظ .

وتقدّم العطاء إلى العنز ، فقلن لها : أيتها الفيلة العظيمة ، إن قرينك
العظيم قد مسّ أميرنا العصف فوطاً بقدمه فغيبه تحت سَمْعِ أَرْضِين ، وأنت أنثاه
وسيدته ، فقد اخترناكِ مَلِكَةً علينا ، ووهبنا لك الحربة وما فيها .

قالت العنز : فإني أتهبُ منكن هذه الهبة ، ونعمًا صنعَتنَّ ؛ غير أن بينكن
وبيني ما بين العظاية والفيل . وما بين الحصاة والجبل ، فإذا أنا قلتُ ، فأنا قلتُ ؛
وإذا أنا أمرتُ ، فأنا أمرتُ ؛ وإذا أنا فعلتُ ، فأنا فعلتُ . هنا في هذه الأمة
كلّها (أنا) واحدة ليس معها غيرها ؛ لأن ههنا في هذا الرأس دماغ فيلة ،
وفي هذا الجسم قوة فيلة ، وفي الحربة كلّها فيلة واحدة ؛ فلا أعرفنَّ منكن

على الصواب والخطأ إلا الطاعة طاعة الأعمى للبصير . ألا وإن أول الحقائق أنى
فيلة وأنكن عطاء ؛ ومتى بدأ اليقين من هنا سقط الخلاف من بيننا وبطل
الاعتراض منكن ، وقوتى حق لأنها قوّة ، وباطلى كذلك حق لأنه من قوتى ؛
وقد قال أسلافنا حكماء الفيلة : إن القوى بين الضعفاء مشيئة مطلقة ، فهو
مُصلِح حتى بالإفساد ، حكيم حتى بالحقارة ، إمام حتى بالخرافة ، عالم حتى
بالجهالة ، نبي حتى بالشعوذة ... !

قالوا : وتُنكرُ عليها عَظَايَ صالحةً عالمةً كانت ذات رأيٍ ودينٍ في قومها ،
وكن يُسمّينها : (العِامة) ، لمياضها وصلاحتها وطهارتها ، فقالت : ولا كلُّ
هذا أيتها الفيلة ؛ لقد تخرّصت غير الحق ؛ فإنك تحكيمننا من أجلنا لا من
أجلك ، وما قولك إلا كلماتٌ تحقّقها أعمالنا نحن ؛ فإلّك الطاعة فيما يُصلِحنا ،
وما كان من غيره فهو ردُّ عليك ، ورأيك شيءٌ ينبغي أن تكونَ معه آراؤنا ،
لتتبيّن الأسبابُ أسبابُ الموافقة والخلافة ، فنأخذ عن بيّنةٍ ونترك عن بيّنة ؛
وقد كان يقال في قديم الحكمة : إنه يجب على من يقدّم رأياً للأمة الحازمة
كي تأخذ به ، أو يضع لها شرعاً ليحملها عليه ، أو يسنّ لها سنةً لتتبعها —
إنه يجب على هذا المتقدّم لتحويل الأمة أو تحريرها أن يتقدّم لأهل الشورى
وفي رأسه الرأي ، وفي عنقه حبل ؛ ثم يتكلم برأيه ويبسطه ويدفع عنه ،
ويجادلهم ويجادلونه ؛ فإن كان الرأي حقاً أخذوا الرأي ، وإن كان باطلاً
أخذوا الحبل فشنعوا فيه هذا المتهوّر .

وفي ديننا أن الطاعة في المعصية معصية أخرى ؛ ولقد كان لنا عَظْرُ فَوْطٍ
بحاثَةٌ في الأديان دراسةً لكتبها علامةٌ نقاب ؛ فكان مما علمنا : أن الخلق
مبنى على النقص إذ هو ماضٍ إلى الغناء ، فيجب ألا يتم منه شيءٌ إلا بمقدار ،
وإلا تكون القوة فيه إلا بمقدار ؛ ولهذا كان العقل التام في الأرض هو مجموع

العقول العظيمة كلها ، وكان أتم الآراء وأصحها ما أثبتت الآراء نفسها أنه أصحها وأتمها . فلا الدين اتبعت أيتها الفيلة ، ولا اتبعت فينا العقل ، وليس إلا هذا (التفيُّل) الكاذب .

فلما سمعت العنز ذلك تنفست و غضبت ، وقالت : إياكم وهذه الترهات من ألسنتكم ، وهذه الأباطيل في عقولكم ؛ لا أسمعن منكم كلمة الدين ولا كلمة الأنبياء ولا العصافيط فذلك وحى غير وحى أنا ؛ وإذا كان غير وحى أنا فأننا لست فيه ، وإذا لم أكن أنا فيه فهو لا يصلح للحكم الذى شرطه أن الدولة ليس فيها إلا أنا واحدة . وذلك إن لم يجعلكم غرباء عنى جعاني غريبة عنكم ، ما بُدَّ من إحدى الغربتين ، فهو أول القطيعة ، والقطيعة أول الفساد . وما دام فى الدين أمر غير أمرى ، ونهى غير نهى ، وتحليل وتحريم لا يتغيران على مشيئتي — فأننا مجنونة إن رضيت لكم هذا . . . !

فصحكت (العجامة) وقالت للماعزة : بل قولى : أنا مجنونة بـ (أنا) ؛ أفلا يجوز وأنت خلق من الخلق أن يعترى عقلك شيء مما يعترى العقول ؟ ولسنا نشكر أنك قوية الرأى فى ناحية القوة ، حسنة التدبير فى ناحية الشجاعة ، متجاوزة المقدار فى ناحية الحزم والحرص على مصالح الدولة ؛ ولكن ألم يقل الحكماء : إن الزيادة المشرقة فى جهة من العقل ، تأتى من النقص المتخيف لجهة أخرى ؛ وإنه رب عقل كان تاماً عبثاً فى أمور ، لأنه ضعيف أبله فى غيرها ؛ يحسن فى تلك ما لا يحسنه أحد ، ويحكم منها ما لا يحكمه أحد ، ثم يغلط فى الأخرى ما لا يغلط أحد فيه ؟

قالوا : فحاشت العنز وفارت من الغضب فورة الجبار ، وخيل إليها من عمى الغيظ أنها ذهبت بين الأرض والسماء ، وأن زنتها امتد منها خرطوم طويل ، وأن قرنها انبعج منهما نابان عظيمان ؛ وقالت : ويحكم ! خذوا هذه

(العمامة) فاشنقوها ؛ فإنها كما قالت ؛ تقدّمت إلينا بالرأى والحبيل ... !
 وكان في العطاء ضعافٌ ومهازِيلٌ وجُبْناءٌ ، وما كُولونٌ لسكلٍّ آكلٌ ؛
 قَشَبَحَ^(١) لهم أن أنثى الفيل هذه ... سَتَخْلُقُهُمْ فَيْلَةً إِنْ هُمْ أَطَاعُوهَا ؛ فإذا
 مَرَدُّوا عليها فإنها من صرامة البأس بحيثُ تجعلُ كلَّ ظِلْفٍ من أظلافها جَبَلًا
 فوقهم كأنه ظِلَّةٌ قَتَسُوخٌ بهم الأرض . ثم إنهم انْخَزَلُوا وتراجَعُوا ، وأُخِذَتْ
 (العمامة) الصالحةُ فشنَقَتْ ، وخذَ الرأي من بعدها ، وانقطع الخلافُ والدينُ
 والعقلُ الحرُّ ؛ وأقبلت دولةُ العطاء على العنز تُجرُّ أذيالها .

قالوا : واغترت الماعِزةُ وأحسَّت لها وجوداً لم يكن ، وعرفت لنفسها وهى
 ماعِزةٌ نباهةٌ شأن الفيل القوى ، فَلَجَّتْ في عَمَائِتها وكفرتُ بِجَنَسِها ، وقالت :
 لم يَخْلُقْنِي اللهُ فَيْلَةً وَخَلَقْتُ نَفْسِي ؛ فَأَنَا لَا هُوَ

وثبتَ عندها أنها ليست بعنزٍ وإن أشبهتها كلُّ عنزٍ في الدنيا ؛ وذهبتُ
 تقلدٌ وتعيشُ على مذاهبِ الفَيْلَةِ بين العطاء ؛ فإذا مشت ارتجبتُ وتخطرتُ
 كأنها بناءٌ يتقلقل ، وإذا اضطجعتُ أُنذرتُ الأرضَ أن تَتَمَسَّكَ
 لا تَدُكَّها بِجَنَبِها !

ومرَّ ذلك الفيلُ بهذا الخرابِ مرَّةً أُخرى ، فلاذتُ العطاءَ كلَّهنَّ
 بالفَيْلَةِ ... وتأهَّبتُ هذه للقتال ، وتحصَّفتُ في المبارزةِ والمناجزةِ ... (والمعانزة) ؛
 فنصبتُ قرنيها ، وحرَّكتُ زَنَمَها ، وطأطأتُ ، وشدَّتْ أظلافها في الأرض ،
 وثبتتُ قوائمها ، وصلَّبتُ عظامها ، ونفشتُ شعرها ، وتشوَّكتُ كالقنفذ ،
 وأصرَّتْ بكل ذلك إصرارها ، وكانت عنزاً نَطِيحَةً منذ كانت تَتَّبِعُ أُمَّها وتتلوها ،
 فكيف بها وقد تَفَيَّكَتْ ... ؟

ثم إنها ثبتتُ في طريق الفيل ليرى بعينيه هذا الهولَ الهائل ... فاقبلَ ،

(١) أى خيل إليهم وتمثل .

فمَدَّ خرطومَه ، فنالها به ، فلفَّها فيه ، فقبَضَه ، فرفَعَه ، فطَوَّحَها ، فكأنما ذهبت
في السماء ... !

وتهاربت العظاء ولذَنَ بأَجْجارهن ، ثم غَدَوْنَ على رِزْقهن ؛ فإذا جِيفَةُ
العنز غير بعيد ، فدَبَّيْنِ عليها وارْتَعَيْنِ فيها ، وعَلِمْنَ أنها كانت ماعِزَةً فَيَلَّها
جنونُها ، وأدركن أن الكذبَ على الحقائق قد جعل الله له حقائقَ أخرى تقتله ،
وأن من غَلَبَ أُمَّةَ العظاء على أمرها فليست الأيامُ والليالي عِظاءً فيغلبها ؛ وأن
تغييرَ الخلقات ، إنما يكونُ بتحويلِ باطنها لا بتحويلِ ظاهرها ، وأن الإناءَ
الأحمر يُريكَ الماءَ محمراً والماءُ في نفسه لأحمره فيه ، حتى إذا انكسر الإناءُ ظهر
كما هو في نفسه ؛ وكلُّ ما يُخفي الحقَّ هو كهذا الإناءُ : لونٌ على الحقِّ لا فيه ؛
ثم أيقنَ أن محاولةَ إخراجِ أُمَّةٍ كاملةٍ من نزعاتِ ماعِزَةٍ مأفونة ، هي كمحاولةِ
استيلاءِ الفيلِ من الماعِزة ... !

قال كليله : واعلم يا دمنه أنه لولا أن هذه العنز الحقاء قد كفرتْ كُفْرَ
الذباية ، لما أخذها الله أَخَذَ الذباية .

قال دمنه : وكيف كان ذلك ؟

قال : زعموا أن ذبايةً سوداءَ كانت من حَمَقِي الذَّبَّانِ ، قُدِرَتْ الحماقةُ عليها
أبديةً ، فلوانقلبتْ نقطةَ حبرٍ في دَوَاةٍ لما كُتِبَتْ بها إلا كلمةٌ سُخِفَ .

ووقعت هذه الذبايةُ على وجهِ امرأةٍ زَهِجِيَّةٍ ضَخْمةٍ ، فجعلتْ تقابلُ بين
نفسها وبين المرأةِ ؛ وقالت : إن هذا لمن أدلَّ الدليل على أن العالمَ فوضى لا نظامَ
فيه ، وأنه مُرْسَلٌ كيف يتفق على ما يتفق ، عَبَثًا في عبث ، ولا ريبَ أن
الأنبياءَ قد كَذَّبوا الناسَ ، إذ كيف يستوى في الحكمة خَلْقِي (أنا) وخلقُ هذه
الذباية الضخمة التي أنا فوقها ... ؟

ثم نظرت ليلةً في السماء ، فأبصرتْ نجومَهَا يتلألأْنَ وبينها القمرُ ؛ فقالت : وهذا دليلٌ آخر على ما تحقق عندى من فوضى العالم ، وكذبِ الأديان ، وعَبَثِ المصادفات ؛ فما الإيمانُ بعينه إلا الإلحادُ بعينه ، ووضعُ العقلِ فى شىء هو إيجادُ الألوهية فيه ، وإلا فكيف يستوى فى الحكمة وضعى (أنا) فى الأرض ورفعى هذا الذبَّانِ الأبيض ويعسُوبه الكبير^(١) إلى السماء ... ؟

ثم إنها وقعتْ فى دار فلاح ، فجعلتْ تمرُّ فيها ذهاباً وحيثةً ، حتى رجعتْ بقرةُ الفلاح من مرعاها ، فبهتت الذبابةُ وجمدتْ على غُرَّتِها من أوّل النهار إلى آخره ، كأنها تزاوُلُ عملاً ؛ فلما أمست قالت : وهذا دليلٌ أكبرُ الدليل على فوضى الأرزاق فى الدنيا ، فهاتان ذبابتان قد ثَقِبَتَا ثُقْبَيْنِ فى وجه هذه البقرة واكْتَنَتَا فيهما تأكلان من شَحْمِها فتَعْظُمَانِ سِمْنًا ؛ والناسُ من جهلهم بالعلم الذبَّابى يسمُونهما عينين وأنا قضيتُ اليومَ كله أحمشُ وأعضُ وألسع لأثقبَ لى ثقباً مثلهما فما انتزعتْ شعرة ؛ فهل يستوى فى الحكمة رزق (أنا) ورزقُ هاتين الذبابتين فى وجه البقرة . . . ؟

ثم إنها رأتْ خُنْفَسَاءَ تدبُّ ديبِها فى الأرواث والأقذار ؛ فنظرتْ إليها وقالت : هذه لا تصلحُ دليلاً على الكفر ؛ فإنى (أنا) خيرٌ منها ؛ (أنا) لى أجنحة وليس لها ، (وأنا) خفيفةٌ وهى ثقيلةٌ ؛ وما كأنها إلا ذبابةٌ قديمة من ذباب القرون الأولى ، ذلك الذى كان بليداً لا يتحرّكُ فلم تجعل له الحركةُ جناحاً^(٢) . ثم إنها أصغتْ فسمعتْ الخنفساء تقولُ لأخرى وهى تحاورها : إذا لم يجد الخلقُ أنه كما يشتهى فليكفرْ كما يشتهى ؛ يا ويحنا ! لمْ لمْ نكون

(١) العسوب : أمير النحل والذبّان ونحوهما ، خيل للذبابة أن القمر أمير هذا الذبّاب الأبيض

(٢) إشارة إلى أن الوظيفة تخلق العضو كما زعموا .

جاموساً كهذا الجاموس العظيم ، وما بيننا وبينه فرق إلا أنه وجد من ينفخه ولم نجد ... ؟

فقلت الذبابة : إن هذا دليلُ العقلِ في هذه العاقلة ، ولعمري إنها لا تمشي مثاقلةً من أنها بطيئةٌ مرهقةٌ بعجزها ، ولسكن من أنها وقورٌ مثقلةٌ بأفكارها ، وهي الدليلُ على أنى (أنا) السابقة إلى كشف الحقيقة ... !

وجعلت الذبابة لا يسمعُ من دندنتها إلا : أنا ، أنا ، أنا ، أنا ، أنا ... من كُفرٍ إلى كفرٍ غيره ، إلى كفرٍ غيرِها ؛ حتى كأن السماواتِ كلها أصبحتُ في معركةٍ مع ذبابة

ثم جاءت الحقيقةُ إلى هذا الإلحاد الأحمق تسعى سعيها ؛ فبينما الذبابة على وجه حائط ، وقد أكلت بعوضةً أو بعوضتين ، وأعجبتهما نفسها ، فوقفت تحكُّ ذراعها بذراعها — دنت بطةً صغيرة قد انفلقت عنها البيضة أمس ، فدنت منقارها ، فالتقطتها .

ولما انطبق المنقار عليها قالت : آمنت أنه لا إله إلا الذي خلق البطة ... !

يا شباب العرب !

يقولون : إن في شباب العرب شيخوخةَ الهمم والعزائم ؛ فالشبان يُمتدُّون في حياة الأمم وهم ينفكشون .
وإن اللهو قد خَفَّ بهم حتى ثَقُلَتْ عليهم حياةُ الجد ، فأهملوا المكنات فرجعتْ لهم كالمستحيلات .
وإن الهزل قد هَوَّنَ عليهم كلَّ صَعْبَةٍ فاخْتَصَرُواها ؛ فإذا هَزَّوْا بالعدوِّ في كلمة فسكَّأَما هَزَمُوهُ في معركة ...
وإن الشابَّ منهم يكونُ رجلاً تامًّا ، ورجولةُ جسمه تحتجُّ على طفولةِ أعماله .
ويقولون : إن الأمرَ العظيم عند شباب العرب ألاَّ يحملوا أبداً تبعَةَ
أمرٍ عظيم .

ويزعمون أن هذا الشباب قد تَمَّتْ الألفَةُ بينه وبين أغلاطه ، فخيَّأته حياةُ هذه الأغلاط فيه .
وأنه أبرعُ مقلِّدٍ للغرب في الرذائل خاصة ؛ وبهذا جعله الغربُ كالحيوان محصوراً في طعامه وشرابه ولذاته .
ويزعمون أن الزجاجةَ من الحجر تعملُ في هذا الشرق المسكين عملَ جنديٍّ أجنبيٍّ فاتح ...
ويتواصون بأن أولَ السياسةِ في استعبادِ أمم الشرق ، أن يُتركَ لهم الاستقلالُ التامُّ في حرية الرذيلة ...

ويقولون : إنه لا بد في الشرق من آتين للتخريب : قوة أوربا ، ورذائل أوربا .

يا شباب العرب ! مَنْ غيرُكم يكذبُ ما يقولون ويزعمون على هذا الشرقِ المسكين ؟

مَنْ غيرُ الشباب يضع القوةَ بإزاء هذا الضعفِ الذي وصفوه لتكونَ جواباً عليه ؟

من غيركم يجعل النفوسَ قوانينَ صارمة ، تكون المادةُ الأولى فيها : قدرنا لأننا أردنا ؟

ألا إن المعركةَ بيننا وبين الاستعمارِ معركةٌ نفسية ، إن لم يُقتلْ فيها الهزلُ قُتلَ فيها الواجب !

والحقائقُ التي بيننا وبين هذا الاستعمارِ إنما يكون فيكم أتمُّ بحثُها التحليلي ، تكذبُ أو تصدُق .

الشبابُ هو القوة ؛ فالشمسُ لا تملأُ النهارَ في آخرِهِ كما تملؤه في أولِهِ .
وفي الشباب نوعٌ من الحياة تظهرُ كلمةُ الموتِ عنده كأنها أختُ كلمةِ النوم .
وللشباب طبيعةٌ أولُ إدراكِها الثقةَ بالبقاء ، فأولُ صفاتها الإصرارُ على العزم .

وفي الشباب تصنعُ كلُّ شجرة من أشجار الحياة ثمارها ؛ وبعد ذلك لا تصنع الأشجارُ كلها إلا خشباً . . .

يا شباب العرب ! اجعلوا رسالتكم : إما أن يحيا الشرقُ عزيزاً ، وإما أن تموتوا .

أَتَقِدُوا فُضَائِلَنَا مِنْ رِذَائِلِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ الْأُورُبِيَّةِ ، تَنْقِدُوا اسْتِقْلَالَنَا بَعْدَ ذَلِكَ ، وَتَنْقِذُوهُ بِذَلِكَ .

إِنْ هَذَا الشَّرْقَ حِينَ يَدْعُو إِلَيْهِ الْغَرْبُ ، « يَدْعُو لَمَنْ ضَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ؛ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلِبِئْسَ الْعَشِيرُ . »

لَبِئْسَ الْمَوْلَى إِذَا جَاءَ بِقُوَّتِهِ وَقَوَانِينِهِ ، وَلِبِئْسَ الْعَشِيرُ إِذَا جَاءَ بِرِذَائِلِهِ وَأَطْمَاعِهِ .
أَيُّهَا الشَّرْقُ ! إِنْ الدِّينَارَ الْأَجْنَبِيَّ فِيهِ رِصَاصَةٌ مُخْبِوَةٌ ، وَحَقُوقُنَا مَقْتُولَةٌ بِهَذِهِ الدَّنَانِيرِ .

أَيُّهَا الشَّرْقُ ! لَا يَقُولُ لَكَ الْأَجْنَبِيُّ إِلَّا مَا قَالَ الشَّيْطَانُ : « وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي . »

يَا شَبَابَ الْعَرَبِ ! لَمْ يَكُنِ الْعَسِيرُ يَعُسِّرُ عَلَى أَسْلَافِكُمُ الْأَوَّلِينَ ، كَأَنْ فِي يَدِهِمْ مِفْتَاحَ مِنَ الْعُنَاصِرِ يَفْتَحُونَ بِهَا .

أَتَرِيدُونَ مَعْرِفَةَ السَّرِّ ؟ السَّرُّ أَنَّهُمْ ارْتَفَعُوا فَوْقَ ضَعْفِ الْخَلْقِ ، فَصَارُوا عَمَلًا مِنْ أَعْمَالِ الْخَالِقِ .

غَلَبُوا عَلَى الدُّنْيَا لَمَّا غَلَبُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَعْنَى الْفَقْرِ ، وَمَعْنَى الْخَوْفِ ، وَالْمَعْنَى الْأَرْضِي .

وَعَلَمَهُمُ الدِّينُ كَيْفَ يَعِيشُونَ بِالذَّاتِ السَّمَاوِيَّةِ الَّتِي وَضَعَتْ فِي كُلِّ قَلْبٍ عِظَمَتَهُ وَكِبَرِيَاءَهُ .

وَاخْتَرَعَهُمُ الْإِيمَانُ اخْتِرَاعًا نَفْسِيًّا ، عَلَامَتُهُ الْمُسَجَّلَةُ عَلَى كُلِّ مِنْهُمْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ : لَا يَدِلُّ .

حِينَ يَكُونُ الْفَقْرُ قَلَّةَ الْمَالِ ، يَفْتَقِرُ أَكْثَرُ النَّاسِ ، وَتَمُخِذُ الْقُوَّةُ الْإِنْسَانِيَّةَ ، وَتَهْلِكُ الْمَوَاهِبُ .

ولكن حين يكونُ فقرُ العمل الطيب ، يستطيع كل إنسان أن يغتنى ،
وتنبعثُ القوةُ ، وتعملُ كل موهبة .

وحين يكونُ الخوفُ من نقص هذه الحياة والامها ، تفسرُ كلمة الخوف
مائة رذيلةٍ غير الخوف .

ولكن حين يكونُ من نقص الحياة الآخرة وعذابها ، تصبح الكلمةُ
قانونَ الفضائل أجمع .

هكذا اخترع الدينُ إنسانه الكبير النفس الذي لا يقال فيه : انهزمت نفسه .

يا شباب العرب ! كانت حكمة العرب التي يعملون عليها : اطلب الموت
توهبُ لك الحياة .

والنفسُ إذا لم تحش الموتَ كانت غريزة الكفاح أول غرائزها تعمل .
وللكفاح غريزة تجعلُ الحياة كلها نصراً ، إذ لا تكونُ الفكرة معها
إلا فكرةً مُقاتلة .

غريزة الكفاح يا شباب ، هي التي جعلت الأسد لا يسمنُ كما تسمنُ
الشاة للذبح .

وإذا انكسرت يوماً ، فالحجرُ الصلدُ إذا ترَضِرَضَتْ منه قطعة كانت
دليلاً يكشفُ للعين أن جميعه حجرٌ صلد .

يا شباب العرب ! إن كلمة (حق) لا تحيا في السياسة إلا إذا وضع قائلها
حياته فيها .

فالقوة القوة يا شباب ! القوة التي تقتل أول ما تقتل فكرة الترف
والتخثُّث .

لنؤثره بالنفس الذي يحيد
بالجهد الذي

القوةُ الفاضلةُ المتساميةُ التي تضعُ للأُنصارِ في كلمةٍ (نعم) معنى نعم .
القوةُ الصارمةُ النفاذةُ التي تضعُ للأعداءِ في كلمةٍ (لا) معنى لا .
يا شباب العرب ! اجعلوا رسالتكم : إما أن يحيا الشرق عزيزاً ، وإما
أن تموتوا .

لَوْ.....!

رأيتني جالساً في مسرحٍ هزليٍّ بمدينة اسكندرية ، كما يجلسُ القاضي
في جريمةٍ يحملُ أهلها بين يديه آثامهم وأعمالهم ، ويحملُ هو عقله وحُكمه .
وقد ذهبتُ لأرى كيف يتسَخَفُ أهلُ هذه الصناعة ؛ فكان حكمي أن
السخافةُ عندنا سخيقةٌ جداً . . .

رأيتهم هناك يتقَدُّون العيوبَ بما يُنشئُ عيوباً جديدةً ، ويسَبِّحون
بأيديهم سباحةً ماهرةً ؛ ولكن على الأرضِ لا في البحرِ ، وتسكاد نظرتهم إلى
الحقيقةِ الهزليةِ تكونُ عَمَى ظاهراً عما هي به حقيقةٌ هزليةٌ ؛ ولا غايةَ لهم من
هذا التمثيلِ إلا الرِّقَاقَةُ والإسفافُ والخطأُ والهديانُ ، إذ كان هذا هو الأَشْبَهُ
بجمهورهم الذي يحضُّرهم ، وكان هو الأقربُ إلى تلكِ الطبائعِ العالميةِ البليدةِ التي
اعتادت من تكلفِ الهزلِ ما جعلها هي في ذاتِ نفسها هزلاً يُسَخَّرُ منه .

ولا أسخفَ من تكلفِ النكتةِ الباردةِ قد خلتْ من المعنى ، إلا تكلفُ
الضحكِ المصنوعِ يأتي في عَقِبها كالبرهانِ على أن في هذه النكتةِ معنى .
فالنُفْسُ المضحكةُ عند هؤلاء ، إنما هو السخفُ الذي يوافقون به الروحَ

العامة الضئيلة الكاذبة المكذوب عليها ، التي يبلغ من بلاقتها أحياناً أن تضحك
للكفة قبل إلقاءها ، لفرط خفتها ورعوتها ، وطول ما تكلفت واعتادت .
فما ذلك الفن إلا ما ترى من التخليط في الألفاظ ، والتضريب بين المعاني ،
وإيقاع الغلط في المعقولات ؛ ثم لا ثم بعد هذا . فلا دقة في التأليف ، ولا عمق
في الفكرة ، ولا سياسة في جمع النقائض ، ولا نفاذ في أسرار النفس ، ولا جد
يؤخذ من هزلية الحياة ، ولا عظمة تستخرج من صغائرها ، ولا فلسفة تعرف
من حماقتها .

والفرق بعيد بين ضحك هو صناعة ذهن لتحريك النفس ، وشحن الطبع ،
وتصوير الحقيقة صورة أخرى ، وبين ضحك هو صناعة البلاء للهو والعبث ،
والمجانة لا غير .

وكان معي قريب من أذكاء الطلبة المتخصصين للآداب الإنجليزية ،
فلم نلبث إلا يسيراً حتى جاء ثلاثة من ضباط الأسطول الإنجليزي ، جلسوا
بجائنا صفاً تلوح عليهم مخيل الظفر ، ولهم وقار البطولة ، وفيهم أرواح الحرب ؛
وهم يبدون في ثيابهم البيض المطرأة^(١) كأنهم ثلاثة نُسور هبطت من الغمام
إلى الأرض ، فلا عينها نظرات تدور هنا وهناك تنكّر وتعرف .

وأعجبني أن أراهم في هذا المكان الهزلي الممتلئ بالضعفاء ، كأنهم ثلاث
حقائق بين الأغلاط ، أو ثلاث أغلاط كبيرة . . . وكان أبداع ما أراه على
هيئة وجوههم وأسرته ، تواضع هذا الاستعداد الحربي وتحوُّله إلى استعداد
للسخرية . . .

(١) أى المكوية ؛ والكلمة العربية التي استعملت قديماً في معنى (المكوي) هي :
المطري (بتشديد الراء) .

ثم تأملتُهم طويلاً ؛ فإذا صرامةٌ وشهامةٌ ، وسَكينةٌ ووداعةٌ ، وحُسنٌ
سَمْتٍ وحلاوةٌ هيئةٌ في جَلِسةٍ رزينة متوقرةٌ ، لا يُشبهها في حَسِّ النفس التي تعرف
معاني القوة إلا وضعُ ثلاثةٍ مدافعٍ مُصَوِّبةٍ .

وجعلتُ أَلْقَبَ عينيَّ في الناس الموجودين وملاحمهم وهيئاتهم ، ثم أرجعُ
البصرَ إلى هؤلاء الثلاثة ، فأرى المصريَّ كالمقنَّع بأنه محدودٌ بمدينةٍ أو قريةٍ
لا يعرفُ لنفسه مكاناً في غيرها ، فهو من ثم لا يرحل ولا يغامرُ ، ولا تتقاذفه
الدنيا ؛ وأرى الإنجليزيَّ كالمقنَّع بأن كلَّ مكانٍ في العالم ينتظر الإنجليزيَّ . . .
وخَيَّلَ إلىَّ والله أن رجلاً من هؤلاء الإنجليزيِّ الأقوياء المعتدِّين بأنفسهم
لا يُهاجر من بلاده إلا ومعه نفسه واستقلاله ، وتاريخه وروح دولته ، وطبيعته
أرضه ؛ فهو مستيقنٌ أن الله لا يرزقه رزقاً أَىَّ الرزقِ كان على ما يتفق ،
بل رزقاً إنجليزيّاً ؛ أى فيه كفايته .

ورأيت شيئاً عجيباً من الفرق بين طابع السِّلْم على وجوه ، وبين طابع
الحرب على وجوهٍ أخرى ؛ ففي تلك معاني السهولة والملاينة والحرصِ على مادة
الحياة ، وفي هذه معاني العزم والمقاومة والحرصِ على مجد الحياة لا على مادتها .
وتبينتُ أسلوبيين من الأساليب الاجتماعية : أحدهما في فردٍ قد بنى أمره
على أن أُمَّةً تحمله ، فهو يعيش بأضعف ما فيه ؛ والآخر في فردٍ قد وضع الأمر
على أنه هو يحمل أُمَّةً فلا يدعُ في نفسه قوةً إلا ضاعفها .

وعرفتُ وجهين من وجوه التربية السياسية : أحدهما بالطنطنة ، والتهويل ،
والشراخ ، واستعارةِ أَلْفَاظٍ غيرِ الواقع للواقع ، وتحميلِ الألفاظِ غيرِ ما تحمل ؛
والآخر بالهدوء الذي يَقْهَرُ الحوادث ، والصبر الذي يغلب الزمن ، والعقيدة التي
تفرض أعمالها العظيمة على صاحبها وتجعلُ أعظمَ أجره عليها أن يقومَ بها .
وميزتُ بين أثرين من آثار الأرض في أهلها : أحدهما في المصري السَّمَحِ

التي
التي
التي

إلداعِ الألوفِ الحَيِّ الذي هو كَرَمُ الطبيعة ، والآخِر في الإنجليزى العِسرِ
المغامِرِ النَّفُورِ الملحِّ على الدنيا كأنه تَطْفُلُ الطبيعة

وَأَلقى ابنُ العَمِ الذي كان معي سَمْعَهُ إلى هؤلاء الضباط ، وهم من فلاسفةِ الرأى
على ما يَظْهَرُ من حديثهم ، ثم نقل إلىَّ عنهم ، فقال كبيرُهم : لقد فرغتُ من
بَحْثِ الذي وضعته في فلسفةِ خُمُولِ الشرقيين ، وأفضيتُ منه إلى حقائقٍ عجيبَةٍ ،
أَظْهَرُها وأخفاها معاً أن أُمَّةً من هذه الأُمَمِ لا يُمَكِّنُ للأجنبي فيها ، ولا تَتَقَلُّ
وَطْأَتَهُ عليهم ، ولا يَطُولُ ثَوَاؤُهُ في أرضهم ، ولا يَحْتَاطُها من يطمع فيها ، مالم يكن
سَادَتُها وأَمَراؤها وكِبراًؤها كأنهم فيها دولةٌ محتلة .

وهؤلاء الكبراء هم آفةُ الشرق ؛ فمن أعظم واجباتنا أن نزيدَ في تعظيمهم ،
وأن نَمَدَّ لهم في المال والجاه ، ونَبْسُطَ لهم اليَمِينَ والشمال ، ونُوهِمَهُم أن عَظَمَتَهُم
هكذا وُلِدَتْ فيهم وهكذا وُلِدوا بها من أمهاتهم كما ولدوا بأيديهم وأرجلهم ...
وخاصَّةً عَظَاءُ رجال الأديانِ المَفتونين بالدنيا ؛ فإننا نَصنعُ بغرورِ الجميع وسخافاتِهِم
وحرصِهِم وطَمَعِهِم أشياء اجتماعيةً ذاتَ خَطَرٍ لا يصنعُ لنا مثاها إلا الشياطين ، ومن
لنا بالحكم على الشياطين ؟ وهذا ما تنبَّه له (غاندى) ذلك المهزولُ الهندي الذي
تَقَوَّمَ دنياه بأربعة شلنات ، ولا يَزُنُ أكثرَ من بضعة أرطال من الجِلْدِ والعَظْمِ ،
ولا بَطْشَ عنده ولا قوَّةَ فيه ، وهو مع ذلك جَبَّارٌ سَماوِيٌّ في يده البرقُ والرعدُ
يُرى ويُسمَعُ في أرجاء الدنيا .

فال ضابطُ اليمين : و بصناعةِ الكبرياء هذه الصناعة يكونُ رجلُ الشعبِ
من هؤلاء الشرقيين رجلَ تقليدٍ بالطبيعة ، ورجلٌ ذلِّ بالحالة ، ورجلٌ خضوعٍ
بالجملة ؛ فليس في نفسه أنه سيدٌ نفسه ولا سيدٌ غيره ، بل أكبرُ معانيه أن غيره
سَيِّدٌ عليه فيكون معه دائماً خيالُ استعباده .

وتكلم ضابط اليسار : ولكن المترجم لم يميز أقواله ، لأن ثلاث عشرة امرأة كنَّ يصرخنَ في الرواية الهزلية بلحنٍ طويل يقطن في أوله : « علوزين رجالة تدلّعنا » وكانت الموسيقى تصرخُ معهن وتؤلّول كأنها هي أيضاً امرأة محرومة . . .

ثم أرهف المترجم أذنه فقال كبيرهم : إن لهؤلاء الشرقيين ستّ حواس : الجنسُ المعروفة ، وحاسة الخول الذي خدعتهم عنه الطبيعة البليدة فسّمّوه الترف والهزل واللهو ؛ والأمة الأوربية التي تحتلّ بلاداً شرقية تجد فيها لصغائر الحياة جيشاً أقوى من جيشها ؛ فعشرة آلاف جندي بعتادهم وآلاتهم ، لا يصنعون شيئاً إلا الاستفزاز والتحدّي وإثبات أنهم غاصبون ؛ ولكن ما أنت قائلٌ في عشرة آلاف مكان كهذا المسرح براقصاته ومومساته وخموره ورواياته ، وبهؤلاء الرجال الخنثين الهزليين الرثقاء الذين هم وحدهم مُعاهدةٌ سياسية ناجحةٌ بيننا وبين شباب الأمة . . . ؟

قال ضابط اليمين : نعم إن فنّ الاحتلال فنٌّ عسكريٌّ في الأول ، ولكنه فنٌّ أخلاقي في الآخر ؛ ولهذا يجب تعيينُ نقطة اتجاّه للشباب تكون مضيئةً لامعةً جذابةً مغريةً ، ولكنها في ذات الوقت مُحركة أيضاً ، وهذه هي صناعةُ إهلاك الشباب بالضوء الجميل ، وما على السياسي الخاذق في الشرق إلا أن يحمي الرذيلة ، فإن الرذيلة ستعرف له صنيعه وتحميه . . .

فتكلم ضابط اليسار ، ولكن صوته ذهب في عشرين صوتاً من رجال المسرح ونسائه يصيحون جميعاً : « يا حلوة يا خفافي ، يا مجنّنة الشبان . . . »

ولما أَلَمْتُ بحوار الضباط الثلاثة قلتُ لصاحبي : استأذن لي عليهم أكلهم .

ففعل وعرفني إليهم ، وترجم لهم مقالة (يا شباب العرب) وكان يحملها . فكأنما رماهم منها بالجيش والأسطول .

ثم قلت لكبيرهم : لست أنكر أن الانجليزى لو دخل جهنم لدخلها انجليزيا ولا أجد أن له في الحياة مثل هداية الحيوان ، لأنه رجل على : دليل منفعة أنها منفعة وحسب ، ثم لا دليل غير هذا ولا يقبل إلا هذا . فإذا قال الشرق : حق ، وقال الانجليزى : منفعتى ، بطلت الأدلة كلها ، ورأى الشرق أنه مع الانجليزى كالذى يحاول أن يقنع الذئب بقانون الفضيلة والرحمة . وقد عرفنا أن في السياسة عجائب ، منها ما يشبه أن يلقى إنسان إنساناً فيقول له : يا سيدى العزيز ، بكل احترام أرجو أن تتلقى منى هذه الصفحة وفي السياسة مواعيد عجيبة ، منها ما يشبه غرس شجرة للفقراء والمساكين ، والتوكيد لهم بالآيمان أنها ستثمر رغباناً مخبوزة ثم بعد ذلك تطعم فتثمر الرغبان المخبوزة حشوها اللحم والإدام .

وفي السياسة محاربة المساجد بالمراقص ، ومحاربة الزوجات بالمومسات ، ومحاربة العقائد بأساتذة حرية الفكر ، ومحاربة فنون القوة بفنون اللذة . ولكن لو فهم الشباب أن أما كن اللهو في كل معانيها ليست إلا غدراً بالوطن في كل معانيه !

ولو عرف الشباب أن محاربة اللهو هي أول المعركة السياسية الفاصلة ! ولو أدرك الشباب أن أول حق الوطن عليه أن يحمل في نفسه معنى الشعب لا معنى نفسه !

ولو رجع الدين الإسلامى كما هو في طبيعته آلة حربية تصنع من الشباب رجال القوة !

ولو علم الشباب أن روحَ هذا الدين ليست : اعتقد ولا تعتقد . ولكن
افعل ولا تفعل !

ولو أيقن الشباب أن فرائض هذا الدين ليست إلا وسائلَ عمليةً لا متلاء
النفس بمعاني التقديس !

ولو فهم الشباب أن ليس في الكون إلا هذه المعاني تجعل النفس فوق
المادة وفوق الخوف وفوق الذل وفوق الموت نفسه !

ولو بحث الشباب النفسَ الإنجليزيةَ القويةَ ليعرفَ بالبرهان أنها نصفُ
مسلمة فكيف بها لو كانت مسلمة ؟ . . .

وكان المترجم ينقل إليهم كلامي ، فما بلغتُ إلى حيث بلغتُ ، حتى شدَّ الضابط
على يدي وهزَّها ؛ فنظرتُ ، فإذا أنا قد كنتُ نائماً بعد سهرة طويلة في ذلك
المسرح ، وإذا يدُ المترجم نفسه هي التي تهزني لأتنبه . . .

أيها المسلمون !

نهضت فلسطين تحلّ العقدة التي عُقدت لها بين السيف ، والمكر ،
والذهب .

عقدة سياسية خبيثة ، فيها لذلك الشعب الحرّ قتلٌ ، وتخريبٌ ، وفقْر .
عقدة الحكم الذي يحكم بثلاثة أساليب : الوعد الكذب ، والفناء البطيء ،
ومطامع اليهود المتوحشة .

أيها المسلمون ! ليست هذه محنة فلسطين ، ولكنها محنة الإسلام ؛ يريدون
ألاّ يثبت شخصيته العزيزة الحرة .
كلّ قرش يدفع الآن لفلسطين ، يذهبُ إلى هناك ليجاهد هو أيضاً .

أولئك إخواننا المجاهدون ؛ ومعنى ذلك أن أخلاقنا هي حلفاؤهم في
هذا الجهاد .

أولئك إخواننا المنكوبون ؛ ومعنى ذلك أنهم في نكبتهم امتحانٌ لضميرنا
نحن المسلمين جميعاً .

أولئك إخواننا المضطهدون ؛ ومعنى ذلك أن السياسة التي أذلتهم تسألنا
نحن : هل عندنا إقرارٌ للذل ؟

ماذا تكون نكبة الآخر إلا أن تكون اسماً آخرَ لمروءة سائر إخوته
أو مدلتهم ؟

أيها المسلمون ! كل قرش يدفع لفلسطين ، يذهب إلى هناك ليفرض على السياسة احترام الشعور الإسلامي .

إِبتَلَوْهُم بِالْيَهُودِ يَحْمِلُونَ فِي دِمَائِهِمْ حَقِيقَتَيْنِ ثَابِتَتَيْنِ : مِنْ ذَلِّ الْمَاضِي وَتَشْرِيدِ الْحَاضِرِ .

وَيَحْمِلُونَ فِي قُلُوبِهِمْ نَقْمَتَيْنِ طَاقِمَتَيْنِ : إِحْدَاهُمَا مِنْ ذَهَبِهِمْ ، وَالْأُخْرَى مِنْ رِذَائِلِهِمْ .

وَيَحْبِسُونَ فِي أَدْمَعَتِهِمْ فِكْرَتَيْنِ خَبِيثَتَيْنِ : أَنْ يَكُونَ الْعَرَبُ أَقَلِّيَّةً ، ثُمَّ أَنْ يَكُونُوا بَعْدَ ذَلِكَ خَدَمَ الْيَهُودِ .

فِي أَنْفُسِهِمُ الْحَقْدَ ، وَفِي خَيَالِهِمُ الْجَنُونَ ، وَفِي عَقُولِهِمُ الْمَكْرَ ، وَفِي أَيْدِيهِمُ الذَّهَبَ الَّذِي أَصْبَحَ لَيْئَامًا لِأَنَّهُ فِي أَيْدِيهِمْ .

أيها المسلمون ! كل قرش يدفع لفلسطين ، يذهب إلى هناك ليتكلم كلمة ترد إلى هؤلاء العقل .

إِبتَلَوْهُم بِالْيَهُودِ يَمْرُونَ بَيْنَهُمْ مَرُورَ الدَّانِيرِ بِالرَّبَا الْفَاحِشِ فِي أَيْدِي الْفُقَرَاءِ .
كُلُّ مَائَةِ يَهُودِيٍّ عَلَى مَذْهَبِ الْقَوْمِ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ فِي سَنَةِ وَاحِدَةٍ مَائَةً وَسَبْعِينَ . . .

حَسَابٌ خَبِيثٌ يَبْدَأُ بِشَيْءٍ مِنَ الْعَقْلِ ، وَلَا يَنْتَهِي أَبَدًا وَفِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْعَقْلِ .
وَالسِّيَاسَةُ وَرَاءَ الْيَهُودِ ، وَالْيَهُودُ وَرَاءَ خَيَالِهِمُ الدِّينِي ، وَخَيَالُهُمُ الدِّينِيُّ هُوَ طَرْدُ الْحَقِيقَةِ الْمَسَامَةِ .

أيها المسلمون ! كل قرش يدفع لفلسطين ، يذهب إلى هناك ليثبت الحقيقة التي يريدون طردها .

يقول اليهود : إنهم شعبٌ مضطهدٌ في جميع بلاد العالم .
ويزعمون : أن من حقهم أن يعيشوا أحراراً في فلسطين ، كأنها ليست من
جميع بلاد العالم ...

وقد صنعوا للإنجليز أسطولا عظيما لا يسبح في البحار ، ولكن في
الخزائن ...

وأراد الإنجليز أن يطمئنوا في فلسطين إلى شعبٍ لم يتعود قط أن
يقول : أنا .

ولكن لماذا كنستكم كلُّ أمةٍ من أرضها بمكنسةٍ أيها اليهود ؟

أجهلتم الإسلام ؟ الإسلامُ قوةٌ كتلك التي توجدُ الأنبياءَ والمُخالبَ في
كل أسد .

قوةٌ تُخرجُ سلاحها بنفسها ، لأن مخلوقها عزيزٌ لم يوجد ليؤكل ، ولم
يُخلق ليذل .

قوةٌ تجعل الصوتَ نفسه حين يزجر ، كأنه يُعلنُ الأسيديَّةَ العزيزةَ إلى
الجهاتِ الأربع .

قوةٌ وراءها قلبٌ مشتعِلٌ كالبركان ، تتحولُ فيه كلُّ قطرةٍ دمٍ إلى
شرارةٍ دم .

ولئن كانت الحوافرُ تهبُّ بمخلوقاتِها ليركبها الراكب ، إن المُخالبَ والأنبياءَ
تهبُّ بمخلوقاتِها لمعنى آخر .

لو سُئِلَتْ ما الإسلامُ في معناه الاجتماعي ؟ لَسَأَلْتُ : كم عددُ المسلمين ؟
فإن قيل : ثلثمائة مليون . قلتُ : فالإسلامُ هو الفكرةُ التي يجب أن يكونَ
لها ثلثمائة مليون قوة .

أيجوع إخوانكم أيها المسلمون وتشبعون ؟ إن هذا الشَّبَعُ ذنبٌ يعاقبُ
اللهُ عليه .

والغنى اليومَ في الأغنياء المُسْكِينِ عن إخوانهم ، هو وصفُ الأغنياءِ
باللُّوم لا بالغنى .

كل ما يبذله المسلمون لفلسطين ، يدلُّ دَلالاتٍ كثيرة ، أقلها سياسةُ المقاومة .

كان أسلافكم أيها المسلمون يفتحون الممالك ، فافتحوا أتم أيديكم . . .
كانوا يرمون بأنفسهم في سبيل الله غيرَ مكترِثين ، فارمُوا أتم في سبيل
الحق بالدنانير والدرهم .

لماذا كانت القِبلةُ في الإسلام إلا لتعتادَ الوجوه كلها أن تتحولَ إلى الجهةِ
الواحدة ؟

لماذا ارتفعت المآذنُ إلا ليعتادَ المسلمون رفعَ الصوتِ في الحق ؟
أيها المسلمون ! كونوا هناك . كونوا هناك مع إخوانكم بمعنى من المعاني .

لو صام العالم الإسلامي كله يوماً واحداً وبذل نفقاتِ هذا اليوم الواحد
لفلسطين ، لأغناها .

لو صام المسلمون كلهم يوماً واحداً لإعانة فلسطين ، لقال النبيُّ مفاخرًا الأنبياء :
هذه أمتي !

لو صام المسلمون جميعاً يوماً واحداً لفلسطين ، لقال اليهودُ اليومَ ما قاله آبائهم
من قبل : إن فيها قوماً جبَّارين . . .

أيها المسلمون ! هذا موطنٌ يزيد فيه معنى المالِ المبدولِ فيكون شيئاً سماوياً .
كل قرش يبذله المسلم لفلسطين ، يتكلم يومَ الحساب يقول : ياربِّ ، أنا
إيمانُ فلان !

قصة الأيدى المتوضئة ...

قال راوى الخبر: ذهبتُ إلى المسجد لصلاة الجمعة؛ والمسجدُ يجمعُ الناسَ بقلوبهم ليُخرجَ كلَّ إنسانٍ من دنياه، فلا يفكرُ أحدٌ أنه أسمى من أحد؛ ولقد يكونُ إلى جانبك الصانعُ أو الأجيرُ أو الفقيرُ أو الجاهلُ، وأنتَ الرئيسُ أو العظيمُ أو الغنى أو العالمُ، فننظرُ إليه وإلى نفسك فتحسُّ كأنَّ خواطرك متوضئةٌ متطهرةٌ، وترى كلمةَ الكبرياءِ قد فقدتَ روحها، وكلمةَ التواضعِ قد وجدتَ روحها؛ وتشعرُ بالنفسِ المجمعَةِ قد نصبتَ الحربَ للنفسِ المنفردة؛ ولو خطر لك شيءٌ بخلاف ذلك رأيتَ الفقيرَ إلى جانبك توبيخاً لك، ونظرتَ إليه ساكناً وهو يتكلمُ في قلبك، وشعرتَ بالله من فوقكما، واستعلنتَ لك روحُ المسجدِ كأنها تهتمُّ بطردك منه، وخيلَ إليك أن الأرضَ ستاظمُ وجهك إذا سجدتَ عليها، وأيقنتَ من ذاتِ نفسك أن لستَ هناك في دنياك وليس صاحبك في دنياه، وإنما أتما هناك في إنسانيةٍ ميزانها بيد الله وحده؛ فلا تدري أيكما الذى يَخِفُّ وأيكما الذى يثقلُ^(١).

قال: والعجيبُ أن هذا الذى لا يجهله أحدٌ من أهل الدين، يعرفه بعضُ علماء الدين على وجهٍ آخر، فتراه في المسجد يمشى مختلاً، قد تحلى بحليته، وتكلفَ لزَهْوِهِ، فلبسَ الجبةَ تسعُ أثنين، وتطاولَ كأنه المئذنة، وتصدَّرَ كأنه القبلة، وانتفخَ كأنه ممتلئٌ بالفروقِ بينه وبين الناس؛ وهو بعد كل هذا لو كشفَ الله تمويهه لَانكشفَ عن تاجرٍ علمٍ بعضُ شروطه على الفضيلة أن يأكلَ بها،

(١) استوفينا الكلام عن فلسفة المسجد في مقالات كثيرة.

فلا يجدُ دنياه إلا في المسجد ، فهو نوعٌ من كذب العالم الدينيِّ على دينه .

قال الراوى : وصعد الخطيبُ المنبرَ وفي يده سيفُهُ الخشبيُّ يتوكأ عليه ؛
فما استقر في الذروة حتى خُيلَ إلى أن الرجلَ قد دخل في سِر هذه الخشبة ،
فهو يبدو كالمریض تُقيمه عصاه ، وكالهرمٍ يمسكه ما يتوكأ عليه ؛ ونظرتُ فإذا
هو كاذبٌ صريحٌ على الإسلام والمسلمين ، كهيئة سيفه الخشبيِّ في كذبها على
السيوف ومعدنها وأعمالها .

وتالله ما أدرى كيف يستحلُّ عالم من علماء الدين الإسلاميِّ في هذا العصر ،
أن يخطبَ المسلمين خطبةً مُجمعتهم وفي يده هذا السيفُ علامة الذل والضعفِ
والتراجُع والانقلاب والإدبار والهزل والسخرية والفضيحة والإحْثاك ؛ ومتى
كان الإسلامُ يأمرُ بِنَجْرِ السيوفِ من الخشب ونَحْثِهَا وتَسْوِيتِهَا وإِرْهَافِ
حِدها الذى لا يقطع شيئاً ، ثم وضعها في أيدي العلماء يَعتَلُون بها ذُؤَابَةَ كل
منبر ، لتتعلق بها العيونُ ، وتشهد فيها الرمز والعلامة ، وتستوحى منها
المعنوية الدينية التي يجب أن تتجسَّم لُتْرى ؟
أفى سيفٍ من الخشب معنويةٌ غيرُ معنى الهزل والسخافة ، وبلاهة العقل
وذلة الحياة ، ومُسَخَّر التاريخِ الفاتحِ المنتصر ، والرمزِ لخضوع الكلمة
وصبائية الإرادة ؟

قال : وكان تمام الهزءُ بهذا السيفِ الخشبيِّ الذى صنعته وزارة أوقاف
المسلمين ، أنه في طول صَمَامَةِ عمرو بن معديكرب الزُّيَدي فارس الجاهلية
والإسلام^(١) ، فكان إلى صدر الخطيب ، ولولا أنه في يده لظهر مَقْبِضُهُ في صدر
الرجل كأنه وسامٌ من الخشب ...

(١) كان طول الصمصامة سبعة أشبار وافية وعرضها شبر .

قال : وكان الخطيب إذا تكلف وتصنّع وظهر منه أنه قد حمى وثار
ثأرُه ، ارتجّ وغفل عن يده ، فتضطرب فيها قبضة السيف فتلكزّه في صدره
كأنما تذكره أن في يده خشبة لا تصلح لهذه الحماسة ... !^(١)

قال : وخطب العالم على الناس ، وكان سيفه الخشبى يُخطبُ خطبةً أخرى :
فأما الأولى فهي محفوظةٌ معروفةٌ ولا تنتهى حتى ينتهى أثرُها ، إذ هي
كالقراءة لإقامة الصلاة ؛ وكانت في عهدها الأول كالدرس لإقامة شأن من
شئون الاجتماع والسياسة ، فبينها وبين حقيقتها الإسلامية مثل ما بين هذا
السيف من الخشب وبين حقيقته الأولى . وأما الخطبة الثانية فقد عقلتها أنا عن
تلك الخشبة وكتبتها ، وهذه هي عبارتها :

ويحكم أيها المسلمون ! لو كنتُ بقيةً من خشب سفينة نوح التى أنقذ فيها
الجنس البشرى ، لما كان لكم أن تضعوني هذا الموضع ؛ وما جعلكم الله حيث
أنتم إلا بعد أن جعلتموني حيث أنا ، تكاد شرارةٌ تذهب بى وبكم معاً ، لأن
فى وفيكم المادة الخشبية والمادة المتخشبة .

ويحكم ! لو أنه كان خطيبكم شئ من الكلام النارى المضطرم ، لما بقيت
الخشبة فى يده خشبة . وكيف يمتلئ الرجلُ إيماناً بإيمانه ، وكيف يصعد المنبرَ
ليقول كلمة الدين من الحق الغالب ، وكلمة الحياة من الحق الواجب — وهو كما
ترونها قد انتهى من النذل إلى أن فقد السيف روحه فى يده ؟

أيها المسلمون ! لن تفلحوا وهذا خطيبكم المتكلم فيكم ، إلا إذا أفلحتم وأنا

(١) القاعدة الشرعية : أن البلد الذى يفتح بالسيف يخطب فيه بالسيف . ولما ضعف
المسلمون أنف السيف منهم وأطاعهم الخشب ... !

سيفكم المدافع عنكم . أيها المسلمون ، غيِّروه وغيِّروني .

قال راوى الخبر : ولما قُضِيَت الصلاةُ ماج الناسُ إذ انبعث فيهم جماعةٌ من الشبان يصيحون بهم يستوقفونهم ليخطبواهم ؛ ثم قام أحدُهم فخطب ، فذكر فلسطين وما نزل بها ، وتغيَّر أحوال أهلها ، ونكبتهم وجهادهم واختلال أمرهم ، ثم استنجد واستعان ، ودعا المؤسِّر والمُخِفَّ إلى البذل والتبرع وإقراض الله تعالى ؛ وتقدم أصحابه بصناديق محتومة ، فطافوا بها على الناس يحمِّعون فيها القليل والأقلَّ من دراهمهم هي في هذه الحال دراهمُ أصحابها وضامرهم .

قال : وكان إلى جانبى رجلٌ قرَّوىٌّ من هؤلاء الفلاحين الذين تعرفُ الخير في وجوههم ، والصبر في أجسامهم ، والقناعة في نفوسهم ، والفضل في سجاياهم ؛ إذ امتزجت بهم روح الطبيعة الخصبية فتخرجُ من أرضهم زروعاً ومن أنفسهم زروعاً أخرى — فقال لرجل كان معه : إن هذا الخطيبَ خطيبَ المسجد قد غشنا وهؤلاء الشبان قد فضحوه ؛ فما ينبغي أن تكون خطبةُ المسلمين إلا في أخصِّ أحوال المسلمين .

قال : ونبَّهنى هذا الرجلُ الساذجُ إلى معنى دقيقٍ في حكمة هذه المنابر الإسلامية ؛ فما يريد الإسلام إلا أن تكون كمحطات الإذاعة ، يلتقط كلُّ منبرٍ أخبارَ الجهات الأخرى ويُذيعها في صيغة الخطاب إلى الروح والعقل والقلب ، فتكون خطبةُ الجمعة هي الكلمة الأسبوعية في سياسة الأسبوع أو مسألة الأسبوع ؛ وبهذا لا يحىء الكلامُ على المنابر إلا حيًّا بحياة الوقت ، فيصبحُ الخطيبُ ينتظره الناسُ في كل جمعة انتظارَ الشيء الجديد ؛ ومن ثمَّ يستطيع المنبرُ أن يكونَ بينه وبين الحياة عمل .

قال : وخيَّلَ إلىَّ بعد هذا المعنى أن كلَّ خطيب في هذه المساجد ناقصٌ

إلى النصف ، لأن السياسة تُكرهه أن يخلفَ إسلاميته الواسعة قبل صعوده المنبر ، وألا يصعدَ إلا في إسلاميته الضيقة المحدودة بمحدود الوعظ الذي هو مع ذلك نصفُ وعظ ... فالخطبة في الحقيقة نصفُ خطبة ، أو كأنها أثرُ خطبة معها أثرُ سيف ...

قال : وأخرج القروى كيسه فغزلَ منه دراهم وقال : هذه لطعامٌ أتبلغُ به ولأُوتى إلى البلد ، ثم أفرغ الباقي في صناديق الجماعة ؛ واقتديتُ أنا به فلم أخرج من المسجد حتى وضعتُ في صناديقهم كلَّ ما معي ؛ ولقد حسبتُ أنه لو بقى لى درهم واحد لمضى يَسْبُنى ما دام معي إلى أن يخرجَ عني .

قال الراوى : ثم دخلتُ إلى ضريح صاحب المسجد أزوره وأقرأ فيه ما تيسر من القرآن ، فإذا هناك رجالٌ من علماء المسلمين ، اثنان أو ثلاثة (الشاكُّ في ثالثهم لأنه حليقُ اللحية) . ثم تَوَافَى إليهم آخرون فتَمَوَّا سبعة ؛ ورأيتُهم قد خلطوا بأنفسهم صاحبَ (اللحية) ، فعلمتُ أنه منهم على المذهبِ الشائعِ في بعض العصرين من العلماء والقضاة الشرعيين ، أحسبُهم يحتجُّون بقوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسانَ في أحسن تقويم » ؛ وكلُّ امرئٍ فإنما تُبَصِّرُهُ مرآته كيف يظهر في أحسن تقويم ، أبلحية أم بلاحية ... ؟

وأدرتُ عيني في وجوههم ، فإذا وقارٌ وسمتٌ ونورٌ لم أر منها شيئاً في وجه صاحب (اللحية) ؛ وأنا فما أبصرتُ قط لحية رجل عالم أو عابدٍ أو فيلسوفٍ أو شاعرٍ أو كاتبٍ أو ذى فن عظيم ، إلا ذكرتُ هذا المعنى الشعريَّ البديع الذى ورد في بعض الأخبار ، من أن لله (تعالى) ملائكةً يُقَسِّمون : والذى زينَ بنى آدم باللَّحَى .

وكان من السبعة رجلٌ تركَ لحيته عافيةً على طبيعتها ؛ فامتدتْ وعظمتْ

حتى نَشَرَتْ حَوْلَهَا جَوًّا رُوحَانِيًّا مِنْ الْهَيْبَةِ تَشْعُرُ النَّفْسُ الرَّقِيقَةَ بِتَيَّارِهِ عَلَى بَعْدٍ ،
فَكَانَ هَذَا أَبْلَغَ رَدٍّ عَلَى ذَلِكَ .

قال : وَأُنصِتَ الشُّيُوخُ جَمِيعًا إِلَى خُطْبِ الشَّبَانِ ، وَكَانَتْ أَصْوَاتُ هَؤُلَاءِ
جَافِيَةً صُلْبَةً حَتَّى كَأَنَّهَا صَخْبُ مَعْرَكَةٍ لَا فَنَّ خُطَابَةٍ ، وَعَلَى قَدَرِ ضَعْفِ الْمَعْنَى
فِي كَلَامِهِمْ قَوَى الصَّوْتُ ؛ فَهَمَّ يَصْرُخُونَ كَمَا يَصْرُخُ الْمُسْتَقِثُّ فِي صَيِّحَاتٍ
هَارِبَةٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .

فَقَالَ أَحَدُ الشُّيُوخِ الْفُضَّلَاءِ : لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ! جَاءَ فِي الْخَبَرِ :
« تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ ، تَعَسَّ عَبْدُ الدَّرْهِمِ . » ، وَوَاللَّهِ مَا تَعَسَّ الْمُسْلِمُونَ إِلَّا مِنْذَ تَعَبَّدُوا
لِهَذَيْنِ حِرْصًا وَشُحًّا ؛ « وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » ، وَلَوْ تَعَارَفْتُ
أَمْوَالُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْحَوَادِثِ لَمَا أَنْكَرْتَهُمُ الْحَوَادِثُ .

فَقَالَ آخَرُ : وَفِي الْحَدِيثِ : « إِنْ اللَّهُ يَحِبُّ إِغَاثَةَ اللَّهْفَانِ . » ، وَلَكِنْ مَا بَالُ
هَؤُلَاءِ الشَّبَانِ لَا يُورِدُونَ فِي خُطْبِهِمْ أَحَادِيثَ مَعَ أَنَّهَا هِيَ كَلِمَاتُ الْقُلُوبِ ؟
فَلَوْ أَنَّهُمْ شَرَحُوا لِلْعَامَةِ هَذَا الْحَدِيثَ : « إِنْ اللَّهُ يَحِبُّ إِغَاثَةَ اللَّهْفَانِ . » لَأَسْرَعَ
الْعَامَةُ إِلَى مَا يَحِبُّهُ اللَّهُ .

قال الثالث : وَلَكِنْ جَاءَنَا الْأَثَرُ فِي وَصْفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ : « إِنَّهَا فِي أَوَّلِ الزَّمَانِ
يَتَعَلَّمُ صَغَارُهَا مِنْ كِبَارِهَا ، فَإِذَا كَانَ آخِرُ الزَّمَانِ تَعَلَّمَ كِبَارُهُمْ مِنْ صَغَارِهِمْ . »
فَنَحْنُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ ، وَقَدْ سَلَّطَ الصَّغَارُ عَلَى الْكِبَارِ يَرِيدُونَ أَنْ يَنْقُلُوهُمْ عَنْ
طَبَاعِهِمْ إِلَى صَبِيَانِيَّةٍ جَدِيدَةٍ .

قال الراوى : فَقُلْتُ لِصَدِيقٍ مَعِيَ : قُلْ لِهَذَا الشَّيْخِ : لَيْسَ مَعْنَى الْأَثَرِ مَا فَهِمْتُ ،
بَلْ تَأْوِيلُهُ أَنَّ آخِرَ الزَّمَانِ سَيَكُونُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ زَمَنُ جِهَادٍ وَاقْتِحَامٍ ، وَعِزِّيمَةٍ
وَمُغَالِبَةٍ عَلَى اسْتِقْلَالِ الْحَيَاةِ ؛ فَلَا يَصْلَحُ لِقَايَةِ الْأُمَّةِ إِلَّا شَبَابُهَا الْمُتَعَلِّمُ الْقَوِيُّ الْجَرِيءُ

كما نرى في أيامنا هذه ، فينزلون من الكبار تلك المنزلة ؛ إذ تكون الخامسة ممتمة لقوة العلم . وفي الحديث : « أمتي كالمطر : لا يدرى أوله خيرٌ أم آخره . »

قال الراوى : ولم يكد الصديق يحفظ عنى هذا الكلام ويهمُّ بتبليغه ، حتى وقعت الصيحة في المكان ؛ فجاء أحدُ الخطباء ووقف يفعل ما يفعله الرعد : لا يكرر إلا زجرةً واحدة ؛ وكان الشيوخ الأجلّاء قد سمعوا كلَّ ما قيل ، فأطرقوا يسمعونَه مرةً رابعة أو خامسة ؛ وفرغ الشباب من هديره فتحول إليهم وجلس بين أيديهم متأدباً متخشعاً ووضع الصندوق المختوم .

فقال أحدُ الشيوخ : ممن أنت يا بنى ؟ قال : من جماعة الإخوان المسلمين . قال الشيخ : لم يخفَ علينا مكانك ، وقد بذلتَ ما استعظم ؛ فبارك الله فيك وفي أصحابك .

وسكت الشاب ، وسكت الشيوخ ، وسكت الصندوق أيضاً . . . ثم تحرّكت النفسُ بوحي الحالة ؛ فمدَّ أولهم يده إلى جيبه ، ثم دسها فيه ، ثم عيَّثَ فيه قليلاً^(١) ؛ ثم . . . ثم أخرج الساعة ينظر فيها . وانتقلت العدوى إلى الباقين ، فأخرج أحدهم منديله يتمخّط فيه ، وظهرت في يد الثالث سُبحةٌ طويلة ، وأخرج الرابع سِواكاً فَرَّبه على أسنانه ، وجرَّ الخامس كُرَاسَةً كانت في قبائه ، ومدَّ صاحبُ اللحية العريضة أصابعه إلى لحيته يُخلِّلُها ؛ أما السابعُ صاحبُ (اللاحية) ، فنبتت يده في جيبه ولم تخرج ، كأن فيها شيئاً يستحى إذا هو أظهره ، أو يخشى إذا هو أظهره من تخجيل الجماعة .

وسكت الشاب ، وسكت الشيوخ ، وسكت الصندوق أيضاً . . .

(١) أى بحث بأصابعه .

قال الراوى : ونظرتُ فإذا وجوههم قد لبستُ للشاب هيئةَ المدرّس الذى
يقرر لتلميذه قاعدةً قررها من قبلُ ألفَ مرةَ لألفَ تلميذٍ ؛ فنجّل الشاب وحملَ
صندوقه ومضى ...

أقول أنا : فلما انتهى الراوى من (قصة الأيدى المتوضئة) ، قلت له :
لعلك أيها الراوى استيقظتَ من الحلم قبل أن يملأَ الشيوخُ الأجلاءَ هذا
الصندوق ، وما ختمَ عقلُك هذه الروايةَ بهذا الفصل إلا بما كدّدتَ فيه ذهنك
من فلسفةٍ تحوّل السيفَ إلى خشبةٍ ؛ ولو قد امتد بك النومُ لسمعتَ أحدهم
يقول لسائرهم : بمن ينهضُ إخواننا المجاهدون وبمن يصلون ؟ لهذا قال رسول الله
(صلى الله عليه وسلم) : « جاهلٌ سخّيٌّ أحبُّ إلى الله من عالمٍ بخيلٍ . » ؛
ثم يملئون الصندوق ...

نجوى التمثال^(١)

أيُّها المفترشُ الصخرةَ يَشُدُّ ذراعيه أقوى الشدِّ كأنما يريد أن يقتلع
الصخرةَ فيهما ،

مُتَنَاهِضًا بصدره ليدلُّ على أنه وإن رَبَضَ فَإِنَّ الوَثْبَةَ في يديه ،
مُتَمَطِّيًا بِصُلْبِهِ لِيُشِيرَ من جسمه الهادئِ إلى معانيه المفترسة ،
مُقْعِيًا على ذَنْبِهِ ومتحفِّزًا بسائرِهِ كأنه قوةٌ اندفاعٌ تَهْمُ أن تَنْفِلَتَ من
جاذبيةِ الأرضِ .

وأنتِ أيتها الهيفاءُ تَمَثِّلُ الإنسانيةَ المتمدنةَ في نَحَاقَتِها وهي كهذه الإنسانيةِ
ضاربةٌ بِذِرَاعَيْ أُسَدٍ في غِلْظِ مِدْفَعِينَ . . .

حكيمَةٌ في النظرِ كأنما تَمُدُّ في سرائِرِ الأُمِّ نظرةَ المتأملِ ، ولكنَّ يَدَها
كيدِ الحَكَمَةِ السِّياسِيَةِ على تَرْكِيبِ عَقْلِ تَحْتَهُ الخُطَّابِ . . .

ساكنَةٌ كأنها تَمَثِّلُ السَّلامَ ، على أَنَّها في جِوارِ الأُسَدِ كالسَّلامِ بين
الشُّعُوبِ : تَلَمَّحُ فيه إنسانُ العالمِ ووحشُ العالمِ . . .

يا أبا الهولِ .

أأنتِ جوابٌ عن ذلك اللغزِ القديمِ الذي هو كلامٌ لا يتكلمُ وسكوتٌ
لا يسكتُ ،

والذي أشارَ برأسِ الإنسانِ على جسمِ اللَّيْثِ أنه قوةٌ عَمِيَاءُ كالضَّرورةِ
ولكنها مُبْصِرَةٌ كالاخْتِيَارِ ،

(١) تمثال نهضة مصر الذي صنعه المثال مختار رمزاً لهذه النهضة ، وهو أبو الهول متحفزاً
تقف إلى جانبه امرأة .

والذى أخرج من فني الغريزة والعقل فثا نالاً لا يزال في الأرض ينتظرُ
المرأة التي تلد إنساناً عظامه من الحجر ؟

وأنت يا مصر :

أواقفة ثمة للشرح والتفسير ، تقولين للمصرى : إن أجدادك يسألونك
من آلاف السنين بهذا الرمز : ألا معجزة من القوة تمطّ عضلات الحجر ؟
ألا بسطة من العلم تجعلك أيها المصرى وكأنك رأس لجسم الطبيعة ؟
ألا فنٌ جديدٌ ترفع به أبا الهول في الجو فتزيده على قوة الوحش وذكاء
الإنسان خفة الطير ؟

أم تقولين للمصرى : إن أجدادك يوصونك بهذا الرمز أن تكون كالظهر
الأسدى لا يركب مطاه ، وكالرأس الانساني لا تقيد حريته ، وكالربضة
الجبليّة لا تسهل إزاحتها ، وكالابهام المركب من غامضين لا يتيسر به عبث
العابث ، وكالصراحة المجتمعة من عنصر واحد لا يغط في حقيقتها أحد ؟
أم تقولين يا مصر : إن تفسير أبي الهول الأول أن النهضة المصرية إنما
تكون يوم تخرج البلاد من يصنع أبا الهول الثاني ؟

تمثال النهضة أم صفحة من الحجر قد صوّر الشعب فكره عليها ، ودوّن
فيها إحساسه بتاريخه ، ووصف بها إدراكه حياة المعاني السامية ؟
أم هو كتابة فصل من التاريخ بقلم الحياة وعلى طريقة من بلاغتها ،
خشيت عليه الفناء فدوّنته في أسلوب من أساليب البقاء الحجري الصلد ؟
أم ذاك يوم من أيام الأمة أحاله الفن من زمن إلى مادة ؛ ومن معنى إلى
حسن ، ومن خبر إلى منظر ، وكانوا يتكلمون عنه فجعله الفن يتكلم عن نفسه ؟
أم هو تعبير عن تلك المعاني التي خلقتها نفوس هذا الجيل تخاطب به

النفوس الآتية لتتم عليها ، وتُضيف فيه إلى المعنى سرَّ المعنى ، وتضع الكلمة الإنسانية على لسان الطبيعة تشكلم بالتمثال كما تشكلم بالجِيل ؟
أم تركيبٌ سياسىُّ إذا فسرتَه اللغةُ كان معناه أن الثابت إذا احتاج إلى من يثبتهُ . . . فلن يحوهُ من ينكرهُ ، وأن الظاهرَ إن احتاج إلى من يدكُ عليه . . . فلن يُخفِيه من لا يراه ؟

بل أراك لا هولَ فيك يا أبا الهول الجديد .
أفذاك من رقةٍ داخلتك ورحمةٍ جاءتك من مَسِّ يدِ المرأة . . . ؟
أم الهولُ اليوم قد أصبح في العقل والعاطفة ومدَّ العينِ النسائية إلى بعيد . . . ؟
أم لا يتم في هذه المدينة رأسُ رجلٍ وجسمٌ سمِعَ إلا . . . إلا بأناملِ امرأة ؟
ألا من يُعلمنى أهذه المرأة منك هى تهذيبٌ للإنسان والوحش أم
تسكلمةٌ عليهما ؟
ألا من يأتينى بالحكمة فيك من وضع الرجلِ القوى رأساً ولا جسم ،
والأسدِ المفترسِ جسماً ولا رأس ، ثم لا يكمل دونهما إلا المرأة وحدها .
إنما كنت يا أبا الهول لغزَ الصمت ، فلما أضيفت المرأة إليك أصبحت
لغزَ النطق . . . فيا للهول !

(١) فاتح الجو المصرى

يا طيرَ المثل الأعلى !

لقد انفلتت من رذيلة الخوف وتركتها في التراب موطئ القدم ، وقلت لها : ويحك ، لقد آن للشباب المصرى ؛ فهو مُغامِسٌ في ماء الصواعق (٢) ، مُتَطَوِّحٌ في اللجة الأزلية التي تغوص فيها السكواكب (٣) ، يطيرُ بروح الشرارة ، ويهبطُ بروح الغيث ، ويلجئُ الجوَّ ويسرجُه ، ويتعلم كيف يشوى عدوه في عين الشمس .

وكنت بطلاً مُغامراً فخطوت في طريق الملائكة بهذه الفضيلة وحملت الجو ؛ ولو أنك خفتَ وكنت على جناحي جبريل لا على طيارة ، لخاف جبريلُ على جناحيه من حطمة هذا المعنى الترابي الطاغية الذي يحكم على الأحياء بالموت بلا موت ، لأنه الذلُّ والخضوع والرذيلة .

وحملك الجوُّ إلى قبة السماء ، وهناك نظرَ العالمُ فرأى لمصر الناهضة علمها الإنسانى يتنفسُ تحت السكواكب .

وحملك الجوُّ إلينا ، فلما رفعنا رؤوسنا لتراك ، رفعناها في الوقت بين شعوب الأرض .

وضربت يا جنّاح مصرَ في الهواء ، وأعنانُ السماء (٤) مملوءة بالزعزع

(١) كتبت في أول طيار مصرى قدم إلى مصر من أوروبا على طيارته ، في شهر فبراير سنة ١٩٣٠ ، وهو الطيار صديق وطيارته فائزة ، وكان مقدمه يوماً مشهوداً .

(٢) كناية عن السحاب . (٣) كناية عن أجواز الفضاء .

(٤) نواحيها ، جمع عنان (بالفتح) .

والهوجاء والعاصف ، والسماء في فصلها المكفهر الذي تخلع فيه كل ساعة وتلبس وتمزق^(١) وتطوى ، فزدت بجرائتك في براهين القضية المصرية برهان قوة المخاطرة ، وأضفت إلى منطقها وضعا جديداً مفهماً من روح التضحية .

وطرت بين حياة وموت فجعلتهما يستويان في اعتقادك ؛ إذ وصلت فكرة الموت بسر الإيمان ، والحياة بسر العزيمة .

وكنت رجل أمتك بإنكار ذات نفسك من أجلها .
واتسعت للتاريخ بوضعك عمرك المحدود على الطيارة ، وقذفت بها وبه في مسبح الأجل .

وتجردت للأبدية لتعطى بلادك : إما شهيداً مجيداً في الآخرة ، وإما شهادة فخر في الدنيا .

وكنت على طيارتك الصغيرة المتطاردة تحت الريح ، وحولك روح الهرم الأكبر القائم بإرادة مصر وكأنه مسمار مدقوق في كرة الأرض بين القطب والقطب .

وأنت يا « فائزة » ، يا هذه الصغيرة الخارجة من مال صاحبها وجهه وعزمته كما تخرج القوة من ضعف ، أعلمت إذ أنت ترتفعين وتهبطين بين الشحب كما تتواشب الفراشة على النوار في روضة مزهرة ،

وإذ أنت تفتقين وتحوين في ملاءة السحاب كأنك بمحرك النوار تنسجين في السماء مغزل ،

وإذ أنت بين صفق الرياح الهوج^(٢) ، تحت السماء المدججة^(٣) ،

(١) كناية عن طبيعة الشتاء ، من الغيم والصحو وما بينهما .

(٢) اضطراب الرياح المتقلبة . (٣) المتغمة .

في كَبَّةِ الشتاء^(١) ، كأَنَّكَ مناظرةٌ تجري بين العزيمَةِ في الإنسان والعزيمَةِ في الطبيعة ،

وإذ أنتِ بين ذنابِ الأعاصيرِ ، ونُموِرِ السحابِ^(٢) ، وسباعِ الغيمِ ذواتِ اللَّبْدَةِ الكثيفةِ المُتَشَعِّثَةِ ، كأَنَّكَ بصوتِكَ وأزيرِكَ تُطلقين على وحوشِ الجوِ مدفعاً رشاشاً يتركها صرعى ،

وإذ تراكِ الريحُ فتقولُ عنكِ : ريحٌ صنعها الإنسان . ويراكِ النجمُ فيقول : نجمٌ أَفَلَتَ من النظامِ الأرضي . وتراكِ الملائكةُ فتقول : ويحك يا ابنَ آدَمَ ، كأَنَّكَ بما خَلَقَهُ العقلُ تطمعُ منا في سَجْدَةٍ أُخْرَى كالتي سجدناها لآدَمَ يومَ خَلَقَهُ اللهُ .

... أعلمتِ إذ أنتِ كذلكِ يا « فائزة » ، أن التاريخَ المصريَّ سيحوِّلكِ من طيارةٍ إلى آيةٍ كآيةِ بَدْءِ الخَلْقِ ، لأن فيكِ بَدْءَ الطيرَانِ في مصر ؟

سلاماً يا فاتحَ الجوِ المصري . لقد أَجالتِ الأيامُ قِداحَها فخرجتُ القرعَةُ عليك ، وأوحى إليك الواجبُ آيةَ : بِسْمِ اللهِ مَصْعَدُهَا وَمَجْرَاهَا .

وطرتَ فإذا أنتِ بها عابرةٌ فوق الحاضرِ لتجيئنا من جانبِ المستقبلِ . وهبطتَ علينا كأَنَّكَ في بَرِيدِ السماءِ كتابٌ مَجْدٌ حَيٌّ للوطنيةِ الظافرةِ . بل كتابٌ قصةٌ رائعةٌ أَلَفَتْها العواصفُ من فَنَيْنِ : ثورةِ الجوِ وثورةِ نفسِكَ المصريةِ . وَحَكَمَتْها في صوتين : زَفِيفِ الطيارةِ وَصَرَخَةِ ضَمِيرِكَ الوطني . وجعلتها

(١) كبة الشتاء : شدته ودفعته .

(٢) يقال : ريحٌ متذبذبةٌ ؛ إذا كانت تحيىء من هنا مرة ومن هنا مرة كما يساور الذئب ، فوضعنا من هنا كلمة ذناب الرياح . والنمر من السحاب : قطع صغار متدان بعضها من بعض ، تشبيهاً بجلد النمر ، فوضعنا منها نموِرِ السحاب .

فصليين : أنت والجهول . ألا حسبك مجدداً أن يحيا الشعب كله بضعة أيام
في قصتك !

فعلى مهدِ الجو ، وفي حرير الشعاع ، وتحت كَلَّةِ السحاب — وُلِدَ لمصر
يومٌ تاريخي .

وخرجت التهانى التى طال احتباسُها فى القلوب المصرية لا يُفرجُ عنها لأن
سجّانها ظلمُ السياسة .

واتجهتْ أفراحُ شعبٍ كامل إلى الفتى الجريء الذى رَمَتْ به همته فوق
هاوية الموت فتخطاها .

وتلقى شعورُ الأمة رسوله المقدام الذى لم يكن له ماجاً فى خطاره إلا شعوره
بهذه الأمة .

وارتج الوادى كله كأنه غمدٌ يتقلقل حين يُسلُّ منه السيف .
ثم أُهديت كلمة مصر لابنها الذى كتب فى جوها الكلمة السماوية الأولى ،
وكانت ساعةُ تلاشى عندها الزمنُ فارتفعت منه أربعة آلاف سنة وهتف معنا
الفراعة : بوركت يا « صدق » !

لله درك أيما ابن عزيمة ! كأنما كشفت أهاويل الوحى وهبطت فى سحابة
مُجَلِّجَةٍ إن لم تحمل كتاباً مُنزلاً فكانما حملت شخصاً منزلاً .

ولعلك رسولُ الغيم العابس لهذا الجو المصرى الذى يضحك دائماً ضحكة
الفيلسوف الساخر فى حين أصبحت الحياةُ قوةً لا فلسفة . . .

ولعلك مبعوثُ البرق والرعد لهذا السكونِ النائم الذى يطوى كلَّ يوم فى
طى النسيان ما حدث فى اليوم الذى قبله . . .

ولعلك نبئ الجديّة والمرارة لهذه الخلاوة النيلية المُفْرِطَة التي كاد منها
 الشعب أن يكون سُكْرَ أخلاقٍ يُذابُ ويُشْرَبُ . . .
 ولعلك تفسّرُ مصحّحُ لعقيدتنا المغلوطة في القضاء والقدر ، أن القضاء أن
 تتقدّم بلا خوف ، وأن القدر أن تشقّ بلا مبالاة .
 أما والله لقد غمرت الشعب بموجه هواء جديدة جئت بها في جناحيك ،
 ونفتحت روح طيارتك الجميدة في القلوب فجعلتها كلّها ترفرف كأن لك في
 ضلوع كل مصريّ طيارة .

أجنحة المدافع المصرية^(١)

استجّجني^(٢) يا مدافع مصر وطيري ، إن المجد يطلبُ منا إنسانه البرقيّ .
 لقد مدّت لغة القوة في هذا العصر مدّها حتى أصبح الطيّرانُ بعض
 معاني المشي ، ولم يعد العالمُ يدرى كيف تكون الصورة الأخيرة التي يستقرّ
 فيها معنى إنسانه .

فلتتمجّد مصرُ بإنسانها البرقيّ الذي تخرجُ النارُ بيده من أعراضِ
 السحاب ، وتفرّقُ في أصابعه هزّات الرعد ، ويجعلُ في قبة السماء صلصلةً
 وجّجلةً ، ويحملُ الاسمَ المصريّ إلى مُعلّقِ النجم ، فيضعُ له هناك التعريف
 الناريّ الذي وضعته الدول العظمى لأسمائها .

(١) كتبت في احتراق أول طيارة حربية مصرية في قدومها إلى مصر من أوروبا ، وقد

احترق فيها الشهيدان : (حجاج ودوس) ، وذلك في شهر ديسمبر سنة ١٩٢٣

(٢) أي اتخذ الأجنحة ، ولم تأت الكلمة في اللغة بهذا المعنى ، ولكننا استعملناها فيه

قياساً على كلامهم .

ولتتمجد مصرُ بإنسانها البرقِّ الذي يُشعرها حقيقةَ العلوِّ العالى ، والعمقِ العميقِ ، والسَّعةِ التى لا تُحدُّ ؛ ويزيدُ فى معانى أحيائنا معنىً جديداً لأحياءِ الشَّعبِ ، وفى معانى أمواتنا معنىً جديداً لموتى الكواكب .

إنسانُ برقِّ يتمُّ بشجاعته فى السماءِ بطولَةِ فلاحِنا الإنسانِ الشمسىِّ فى الأرضِ ، ويعلو بكبرياءِ مصرَ فى ذِرْوَةِ العالمِ ، فتظهر طيَّاراتُها العظيمةُ قدرةً فى الجوّ كما ظهرت آثارُها العظيمةُ قدرةً فى الثرى .

إنها مصرُ ، مصرُ القادرةُ التى سَحَرَتِ القِدَمَ بقوتها وفنِّها ، فَبَقِيَ فيها على حاله وجلالته ، وانهزم الدهرُ عنه كأنه قوةٌ على قوةِ الزمنِ نفسها . فاستجَنَحِى يا مدافعَ مصرِ وطيرى . إن المجدَ يطلبُ منا إنسانَه البرقى .

ولما فُتِحَ السَّجَلُ ذاتَ صباحٍ لتكتبَ مصرُ أسماءَ الفوجِ الأولِ من نُسُورها الحربيين ، صاحَ مجدها الخالدُ من أعماقِ التاريخِ :

« أَضْرِمِ الشَّعْلَةَ الأَدَمِيَّةَ الأولى يا مصرُ ، وافتحى القبرَ الجوىَّ الأولُ ، وألحدى فيه من عنصرَيْك المسامين والأقباط ، وضعى الحياةَ فى أساسِ الحياةِ ، واستقبلى عصرَكَ الجديدَ بأذانِ المسجدِ ودقِّ الناقوسِ لِمِبارِكِهِ اللهُ ، وليتلقَ الشعبُ أولَ طيَّاريه بقلوبٍ فيها رُوحُ المعركةِ ، وأكبادٍ عرفتَ مَسَّ النارِ ؛ ولا ينظرنَّ إلى طياراته الأوَّلِ إلا بعد أن ينظرَ النعشينَ فيرى مجدَ الموتِ فى سبيلِ الوطنِ ، فتسطعَ نظراتُهُ ببريقِ الكبرياءِ ، ولَمعةِ العزيمةِ ، وشُعاعِ الإيمانِ ؛ ويأتلقَ فيها النورُ السماوىُّ الذى يجعلُ الناسَ فى بعضِ ساعاتهم كواكبَ ، نورَ صلاةِ الشعبِ على موتاه الشهداء . »

واستجابَ القَدْرُ لصوتِ المجدِ ، فالتَّجَّ الظلامُ فى وَضَحِ الصبحِ ، وانطفأَ سِرَاجُ النهارِ فى قبةِ الفلكِ ، وأطبقتْ نواحى الجوِّ إطباقَ لَيْلَةٍ تَسَاقَطَتْ أركانُها ،

وأقبل الضبابُ يَعْتَرِضُ اعْتِرَاضَ جَبَلٍ عَائِمٍ يَتَدَبَّدَبُ في بحرٍ ، واستأرَضَ السحابُ فَتَخَلَّى عن طبيعته السماوية الرقيقة ، وتذامرت العناصرُ على القتالِ يُحْضُ بعضها بعضاً ، وتغشَّت السماءُ بوجه الموتِ : كَلَحَ فَارِبْدٌ وانتفَخَ ، وتكسَّرتُ فيه الغُضُونُ كُلُّ غُضْنٍ كِسْفَةً ظلامٍ ، وعاد أوسعُ شَيْءٍ أَضْيَقُ شَيْءٍ ، فكان الفضاءُ كصدر المحتَضِرِ : ليس معه إلاَّ عُمْرُ ساعةٍ وأنفاسُها .

وابتَدَرَتْ إلى مجد الموت الطيارةُ المصريةُ الأولى ، وكان فيها إنكليزيان يقودانها فأبأها الموتُ ، فذهبت فانتحرتُ أسفاً وتردَّتْ متحطمةً ، وانسلَّ الرجلان من مخالب الردى ، وكانا في الطيارة كورقتين من النبت في فَمِ جَرَادَةٍ هَمَّتْ تَقْضِيَهُمَا ...

وتَسَبَّقُ الثانيةُ فإذا فيها ودِيعَةُ الكرم من عُصْرَى مصرَ : « حَجَّاجٌ ودوس » ^(١) وكان سرّاً من أسرار مصر اجتماعهما في مَدَاحِضِ الغَمامِ ومزاقِهِ ، ليكونا هدية مصر الأولى إلى مجدها الحربى ، ثم ليكونا هدية الجِدِّ إلى إحساس هذا الشعب يُحِسُّ منهما العالمَ المنطَوِيَّ له في مستقبل النصر .

واعْتَسَفَتْ طيارة الشهيدين طريقَ الفناءِ ومَتَاهَةَ الحياة ، فذهبت عنها مَعَارِفُ الأرض ، وعُمِّيتَ عليها معالمُ السماء ، وخرجت من تصريف أيدي البطلين إلى تصريف أجلها ، وأصبحت كأنها تطير في الأَنْفَاسِ الباقية لهما ؛ فما تتقدم ولا تتأخر ؛ ولم تكن طيارةً تحملهما ، بل جناحاً ممدوداً لهما من رحمة الله .

ثم اجتَرَّها الموتُ إلى غَوْرٍ ، فانحطَّت من الهواءِ جانحةٌ كالطائر يطلبُ

(١) هما فؤاد حجاج ، وشهدى دوس ؛ وكان في الطيارة الأخرى التي تحطمت المستر

بليت ، والمستر سميث .

ملجأ في العاصفة ، ثم انتهت واثبةً ، وتمطرت منقلبةً ، فاشتعلت فاستعرت
فأنضجت راكبيها ، رحمهما الله !

وكثيراً ما يكون منظرُ الحزن في الحياة هو انهماك الحياة في عمل جديد
تبدع منه السرور والقوة . احترق البطالان لتسلم مصر في نعيهما رماداً لن يُبني
تاريخ الغزة الوطنية إلا به .

فاستجنى يا مدافع مصر وطيرى . إن المجد يطالب منا إنسانه البرق .

صنعت النارُ الآدميةُ الحقيقة ، ووضعت لنا الاسمَ البديعَ الذي نُطلقه على
طيارينا الأبطال ، فلا تسموهم نُسورُ الجو ، ولكن سموهم « جِراتِ الجو »
صنعت نارُنا الحقيقة ، وأوحت إلينا أن نستبدل من أنفسنا حالةً بحالةٍ ،
وأن نفاجئ شعورنا الحالم فنصدمه بالأم اليقظة المرة ، وأن نغير قاعدة الحياة في
التربية المصرية فلا تكون : العيش العيش ، ولكن القوة القوة .

صنعت النارُ الحقيقة ، وأثبتت لنا إن الحياة إن هي إلا أداة للحى ، وليس
الحى أداة للحياة ، فليصرف بها على قوانين الروح وآملها فيسمو وتسمو ،
ولا يدعها تنصرف على مذاهب أقدار المادة وتصاريفها فيذلها وتذل . وفي
قانون الروح : لا قيمة لعالم الأشياء إلا كما تصلح لنا ؛ وفي قانون المادة وضغطة
الحياة : كما تصلح لنا وكما تصلح لها

بلى ، قد صنعت النارُ الآدميةُ الحقيقة ، وأعطتنا قصة الحرية كاملة في معنى
واحد : وهو أن هذه الحرية لعاشقها كأجل الجميلات المتنافسين عليها : جاهلاً
متوحش ، وخلاعتها مُفترسة ، وظرفها سفاكٌ للدم .

فاستجنى يا مدافع مصر وطيرى . إن المجد يطالب منا إنسانه البرق .

وإلى السماء يا « جمراتِ الجو » ، فإذا استويتم على السحاب ، فليست
الطيارة ثمَّ طيارةً ، بل حقيقةً حيةً عاملةً للمجد ، فلتحمل معناها المصرى من
بطلها المصرى .

وإذا سبحتم في مهبِّ القدر ، فليس الطيارُ ثمَّ طياراً ، بل حياةً عبقريةً
أرسلتها مصرُ تستنزل للحياة أقداراً سعيدة .

وإذا خضتم في المعركِ الضنكِ تتبعثرُ فيه الآجالُ على الرياح ، فليس الجسمُ
المصرى هناك من لحم ودم ، بل ناموساً طبيعياً ماضياً إلى غاية .

وإذا تقاذفتم في بحر الشمس ، فأتم هناك على شباكٍ طرحتموها لصيدِ أيامٍ
مضيئةٍ تلتمعُ في تاريخ مصر .

وإذا نفذتم من أقطار السماوات ، فانظروها بأعينكم معالي مصر ، وافهموها
بقلوبكم ذاتيةً الوطن المصرى تعلو وتعلو ولا تزال أبداً تعلو .

إنما الطيارةُ وسلاحُها وطيارُها تأليفٌ من الإنسانية والعناصر ، معناه في
العزيمة « لا بدَّ » . ومتى هدرت الطيارة هديرها فإنما تقول للبطل منكم : هلمَّ
من عالٍ إلى أعلى ، إلى أكثرَ علوًّا ، إلى أقصى حدودِ الواجب على النفس حين
يأخذ الواجبُ الكلَّ وحين تعطى النفسُ الكلَّ .

فاستجنى يا مدافع مصر وطيرى . إن المجد يطلب منا إنسانه البرقى .

الطماطم السياسى . . .

كان (م) باشا رحمه الله داهيةً من دهاةِ السياسةِ المصرية ، يلتوى مرةً في يدها التواءَ الحبل ، ويستوى في يدها مرةً استواءَ السيف ، ولا يرى أبداً إلا منكشاً مُتَحَرِّراً كأن له عدواً لا يدرى أين هو ولا متى يقتحمُ عليه ، ولكنه كغيره من الرؤساء الذين كانوا آلاتٍ للكذب بين طالبِ الحق وغاصبِ الحق — يعرف أن عدوه كامنٌ في أعماله .

وكان ذكياً أريباً ، غير أن مُلَابَسَتَه للسياسةِ الدائرة على مَحْوَرِها ، جعلت نصفَ ذكائه من الذكاء ونصفه من المكر ؛ فكان في مُراوغته كأن له ثلاثةَ عقول : أحدها مصرى ، والآخرُ إنجليزى ، والثالثُ خارجٌ من الحالين . وبهذا تقدّم وعاش أثيراً عند الرؤساء من الإنجليز ، واستمرت مجاريه مُطَرَّدَةً لديهم حتى بلغوا به إلى الوزارة ، إذ كان حَسَنَ الفهم عنهم ، سريعَ الاستجابة إليهم ؛ يفهمُ معنى ألفاظهم ، ومعنى النيةِ التى تكون وراءَ ألفاظهم ، ومعنى آخرَ يتبرعُ هو به لألفاظهم فكان هو وأمثاله فى رأى تلك السياسةِ القديمة ، رجالاً كالأفكار : يوضع أحدهم فى مكانه من الحكم كما توضعُ صيغَةُ الشكِّ لإفساد اليقين ، أو صيغَةُ الوهم لتوليد الخيال ، أو صيغَةُ الهوى لإيجاد الفتنة .

وكان صديقى (فلان) رحمه الله صاحبَ سرِّه (السكرتير) ، وقد وثقَ به

الباشا حتى إنه كان يُعَالِنُه بما في نفسه ، ويُبَيِّثُه همومه وأحزانه ، ويرى فيه دنيا حرّة يخرجُ إليها كلما ضاقت به دنيا وظيفته ، ويستعيرُ منه اليقينَ أحياناً بأنه لا يزال مصرياً لم يتمَّ بعدُ تحويلُه في الكرسي . . .

فحدثني الصديقُ بعد موت هذا الباشا قال : إنه دعاه يوماً لِيُفَاتِحَه الرأى في أمر من أموره ، ثم قال له : إن الرئيس الإنجليزي غيرُ مطمئن إليك لأن حقيقةً من الحقائق الصريحة ظاهرةً على وجهك ، فأنت تنظر إليه وكأنك تقول له بعينيك إنك مصريّ مستقل .

قال صاحب السر : لئن كان ذلك ما يغضبه إن الخطبَ لهيّن ، فلست أنظر إليه بعد اليوم إلا من وراء نظارة سوداء . . .

فضحك الباشا وقال : يا بنيّ ، هذا الإنجليزي عندنا كالشيطان : « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا تَرَوْنَهُمْ » ، ووالله يا بنيّ إني لأشدُّ أنفةً منك ، وإن صدرى لشجىٍّ مما أنا فيه من هذا الكرب ، ولكننا نحن الشرقيين قد ضَعُنا منذ فقداننا الشخصية الاجتماعية .

أترأى تفهم شيئاً لو قلتُ لك : رجلٌ ، أسدٌ ، جبلٌ ، مدينةٌ ، أسطولٌ ؟ إن تركيبنا الاجتماعيَّ شيء كهذا الكلام : فيه من ضخامة اللفظ بقدر ما فيه من انحلالِ المعنى واضمحلاله . ولكل كلمةٍ إذا أُفردتْ معنى صحيحٌ يقوم بها وتقومُ به ، غيرَ أنه يتحول في الجملة إلى معنى كَلَامٍ .

أصبح الشرقيُّ يعيشُ في أمته على قاعدةٍ أنه منفردٌ لا صلة بينه وبين الأطرافِ لا في الزمان ولا في المكان ، ونسى معنى الحديث الشريف : « اعملْ لَدُنْيَاكَ كأنك تعيشُ أبداً . » فإذا كان يريد أعظمُ المصالحين الاجتماعيين من قوله : « كأنك تعيشُ أبداً » ؟ إلا أن يقرّرَ لأُمته أن الفردَ ينبوعُ الأجيالِ المقبلةِ كلّها ، فإيعملْ لها ولنفسه كأنها موقوفةٌ عليه وكأنه مستمرٌّ فيها .

هذه حكمة إسلامية دقيقة ، عندنا نحن لفظها واسننا نعرف معناها ، وعند الإنجليز معناها ولا يعرفون لفظها . أ هم المسلمون أم نحن ؟

وعلى قاعدة الانفراد انفراد كل شيء ؛ فآثر الشرق حياته على وطنه ، وقدم لذته على واجبه ، وتعامل بالمال في مواضع المعاملة بالأخلاق ؛ وكان طبيعياً مع هذا أن يختصر الدين اختصاراً يجعله مقداراً بين مقدارين ، فلا هو دين ولا هو غير دين ؛ وبذلك يناسب فرديته ويقعد تحت حكمه وهو خارج عليه ؛ فترى الرجل من هذه الملايين يؤمن بالله وهو يحلف به كذباً على درهم ، ويصلي ويفجر في يوم واحد ، ويتعبد في نفسه ويخون سواه في وقت معاً .

ومتى كانت الحالة النفسية للأمة هي هذه الفردية ومصلحتها ودواعيها ، كان الكذب أظهر خلال هذه الأمة ، إذ هو انفراد الكاذب بحظه ومصلحته وداعيته ؛ ولا يكذب عليك إلا من يرجو أن تكون مغفلاً ، أو من قدر في نفسه أن المعاملة العامة في الأمة هي على قاعدة المغفلين . . . ويكذبون في هذا أيضاً فيسمونه حذافاً وبراعة (وشطارة) .

وإذا عم الكذب فشا منه الهزل ؛ فكل كاذب هازل ، وهل يحذ الكاذب وهو يكذب إلا إذا كان مجنوناً ؟ ومن الهزل ضرب هو المباشطة بالكذب ، ومنه ضرب من كذب الحقائق ، ومنه من كذب الخيال ، وكيفما دارت الحال لا تجده إلا كذباً .

ومتى صار الكذب أصلاً يعمل عليه ، تقرر عند الناس أن الكلام إنما يقال ليقال فقط . أفست ترى الرجائين إذا أخبر أحدهما صاحبه بالخبر فيه شيء من الغرابة أو البعد ، لا يكلمه الآخر أول ما يتكلم إلا أن يسأله : صحيح ؟ صدق ؟

ولا أضرب على الأمة من هذه العقيدة — عقيدة أن الكلام يقال ليقال

فقط — فإنها هي طابعُ الهزل على أخلاقِ الأمة ، وعلى كل أحوالها ، وعلى حكومتها أيضاً .

ومن الهزل والكذب ترانا مبالغين في كل شيء ، حتى ليكون لنا الواحد كالأحادي في غيرنا فنجعلُه مائةً بصفرين ، ونجىء بأحدهما من اعتيادنا الكذب على الحقيقة ، ونجىء بالآخر من حقيقةِ إفلاسنا .

هذه مبالغةٌ خطيرة ، وأخطرُ ما فيها أننا نريدُ بها المبالغةَ في الدلالة على الأشياء ، فتنقلب مبالغةٌ في الدلالة علينا نحن ، وعلى كذبِ طباعنا ، وعلى فوضى العقل فيما . نعم وحتى تُثبت أننا لا عنم لنا ، من كونها مبالغةٌ لا تدقيقَ في معناها ؛ وأن لا صبرَ لنا ، من أنها لا ثباتَ لحقيقتها المهزومة ؛ وأن لا شدةَ لنا في طلب الحق ، لأننا بها من أهل الغفلةِ في وصف الحق ؛ وأننا لا نتمثلُ العواقبَ إذ نُرسل الكلامَ إرسالاً ولا نخشى ما يكونُ من عاقبته .

وأيسرُ ما يفهم من هذه المبالغات التي أصبحت طريقةً من طرق الشعب في التعبير ، أن هذا الشعب لا يصلح في شيء إلا بالحكومة ، فهو نفسه كالمبالغة ، والحكومةُ له كالتصحيح ؛ وهذه هي العلةُ في أن الشعبَ الكذوبَ يلجأ إلى حكومته في كل كبيرة وصغيرة في العمل ، كما أنها هي العلةُ في أن حكومته تكذبُ عليه بكل صغيرة وكبيرة في السياسة .

ومن أثر الكذب الشعبي والمبالغة الشعبية ، ما نراه من اهتمام كل فرد بما يقول الناس عن أعماله ، فيديرُها على ذلك وإن قالت منفعتها ، وإن فسدت حقيقتها ، وإن جلبت عليه من الضرر في ماله ونفسه ما هي جالبة ؛ فقاعدتهم هي هذه : ليس الشأنُ في الحياة للعمل في نفسه ، ولكن فيما يقالُ عنه ؛ فإن لم يُقل شيء فلا تعمل شيئاً . . .

هذه يا بنى أمة لا يكون حكامها إلا مبالغات أيضاً . . .

قال صاحب السر : وارتفع من الطريق صوتٌ بائعٍ ينادى على سلعته :
أحسن من التفاح يا طهاطم . . .

فضحك الباشا وقال : هكذا يقولون لنا عن الطهاطم السياسى العفن : إنه
ليس تفاحاً وحسب ، بل هو أحسن من التفاح . . .

إن الأمة لن تكون فى موضعها إلا إذا وضعت الكلمة فى موضعها ،
وإن أول ما يدك على صحة الأخلاق فى أمة كلمة الصدق فيها ، والأمة التى
لا يحكمها الصدق لا تكون معها كل مظاهر الحكم إلا كذباً وهزلاً ومبالغة .

البك والباشا

وحدثنى صاحب سرّ (م) باشا قال : جاء يوماً إلى زيارة الباشا رجلٌ
دخل على متهللاً مُشرق الوجه كأنه مُضياء من داخله بشمعة . . . وبترنج عطفاه
كأنما تهزّه أسرارُ عظمتِهِ ؛ ويمشى متخاضاً كالمرأة الجميلة التى أثقلها حمُها
وأثقلتها المعانى الكثيرة من أعين الناظرين إليها ، وعلى شفثيه خيالٌ من فكرة
هؤلاء الكبراء المغرورين الذين لا يأمرُ أحدهم رجلاً صغيراً إلا ليعلمه أنه هو
كبير ، فيكون فى الأمر شيئان : الأمر واللوم ؛ وأقبل على هيئة شاحخة لو
نطقت لقلت : سمّج اسم ربك الأعلى . سمّج الله الذى خلق فى الأسد شعرة
جبّارة خرج منها الأسد كله

سُبْحَانَ اللَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . هذا (فلان باشا) الذى قرأتُ فى الصحف
أَمْسَ أَنَهُمْ أَنَعَمُوا عَلَيْهِ بِرَبَّةِ الْبَاشَوِيَّةِ ؛ خَلَقَهُ اللَّهُ مِنْ تَرَابٍ وَحَوَّاتِ الرِّبَّةِ هَذَا
التَّرَابِ الَّذِى فِيهِ إِلَى ذَهَبٍ خَالِصٍ ... يَنْظُرُ إِلَى وَرْغِهِ أَنْ تَقِفَ عَيْنَاهُ عَلَى
وَعَلَى الْخَائِطِ ؛ وَلَا تَجِدُ نَفْسَهُ الْمَرْهُوَّةَ سَبِيلًا إِلَى التَّعْبِيرِ عَنِ الرِّبَّةِ إِلَّا هَذَا الْإِزْدِرَاءَ
الْمُنْبَعِثَ مِنْ شَخْصِهِ الْعَظِيمِ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ كَشَخْصِهِ . مَا بَيْنَ أَمْسٍ وَالْيَوْمِ زَادَ هَذِهِ
الزِّيَادَةَ الْآدَمِيَّةَ ، أَوْ كَأَنَّهَا كَانَتْ صَوْرَتُهُ خَطُوطًا فَقَطْ فَوُضِعَتْ فِيهَا الْأَلْوَانُ ...
(باشا) ! هَذِهِ الْبَاءُ وَهَذِهِ الْأَلْفُ وَهَذِهِ الشَّيْنُ الْمَمْدُودَةُ لَيْسَتْ حُرُوفًا
خَارِجَةً مِنَ الْأَبْجَدِيَّةِ الْعَامَةِ ؛ فَإِنَّ الْأَبْجَدِيَّةَ قَدْ تَجَمَّلُ الْبَاءُ فِي بَلِيدٍ مِثْلًا ، وَالْأَلْفُ
فِي أَبْلَةٍ ، وَالشَّيْنُ الْمَمْدُودَةُ فِي شَاهِدٍ زُورٍ مِثْلًا مِثْلًا ... بَلْ تِلْكَ حُرُوفٌ مِنْ
حُرُوفِ الدَّوْلَةِ ، مَنْتَرَعَةٌ مِنْ قُوَّةٍ قَادِرَةٍ عَلَى أَنْ تَجْمَلَ لِحَيَاةِ صَاحِبِهَا مِنَ الشَّكْلِ
مَا يُسَبِّغُهُ الْفَنُّ عَلَى الْحَجَرِ مِنْ شَكْلِ تَمَثُّلٍ يُنْصَبُ لِلتَّعْظِيمِ .
قَالَ : وَكَانَتْ أَعْرَفُ هَذَا الرَّجُلَ ، وَهُوَ رَجُلٌ أُمِّيٌّ لَا يُحْسِنُ إِلَّا كِتَابَةَ اسْمِهِ
كَمَا تَكْتُبُ الدَّجَاجَةُ فِي الْأَرْضِ ... فَكَانَتْ الرِّبَّةُ عَلَيْهِ كَأَنَّهَا لَفْظُ الْحَدِيقَةِ
عَلَى صَخْرَةٍ مِنَ الصَّخُورِ الصَّلْدَةِ ؛ وَهَذَا مِمَّا يَحْتَمِلُهُ الْجَزَازُ بِعِلَاقَةٍ مَا ؛ وَلَكِنَّ الَّذِى
لَا يَسُوعُ فِي الْجَزَازِ ، وَلَا فِي مِبَالِغَاتِ الْإِسْتِعَارَةِ ، وَلَا فِي خُرَافَاتِ الْمُسْتَحِيلِ ،
أَنْ تَزْعَمَ الصَّخْرَةُ لِلنَّاسِ أَنَّ لَفْظَ الْحَدِيقَةِ الَّذِى أُطْلِقَ عَلَيْهَا قَدْ أَنْبَتَ فِيهَا
أَشْجَارَ الْحَدِيقَةِ ...

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ : وَاسْتَأْذَنْتُ لَهُ عَلَى الْبَاشَا فَسَهَّلَ لَهُ الْإِذْنَ وَقَالَ : هَذَا
رَجُلٌ أَصْبَحَ كَالْوَرَقَةِ الْمَبْصُومَةِ بِخَاتَمِ الدَّوْلَةِ ، فَلَتَكُنْ مَا هِيَ كَائِنَةٌ فَإِنَّ لَهَا اعْتِبَارَهَا .
ثُمَّ تَلَقَّاهُ تَلَقَّى الْهَازِلِ الْمُتَهَكِّمِ وَقَالَ لَهُ : أَهْنَيْتُكَ بِالْمَنْجَوِي ... مُبَارَكُونَ يَا بَاشَا ...
وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ وَبَسَطَ لَهُ وَجْهَهُ .

وكان في الباشا دُعاةٌ ظريفةٌ يُعرفُ بها ، وهو كثيرُ النوادر والمُلح ، وله خَصِيصَةٌ عجيبةٌ ، فيكونُ بين يديه كُدْسٌ من الأوراق التي تُعرض عليه ينظرُ فيها ويقرأها ويتدبَّرُها ، وهو في ذلك يستمعُ إلى محدثه ويُراجعُه ويردُّ عليه ، فيُصرفُ الناسَ والأوراقَ في وقتٍ واحدٍ ، ويستعملُ ناحيتين من فكره استعمالاً واحداً لا يُخلُ بالإصابه في شيء من هذه ولا من تلك .

ثم قال للباشا الحديث وعينه إلى ما بين يديه : هذه أوراقُ سرقةِ ثورٍ عظيم ، فكُم يساوي الثورُ العظيم الآن . . . ؟

قال صاحبنا الذكي الفطن : إذا كان من الثيران التي تُعرضُ في المعارض وتمال المداليات الذهبية فقد يَبْعُدُ سعرُه ويُغَالَى به .

قال الباشا : نعم نعم ؛ إن من الثيرانِ ثيراناً يُنْعَمُ عليها بالأوسمة ، ولكن هذا الثور الذي سألتك عنه يا باشا هو ثورٌ محراث لا ثورٌ معرض . . .

قال الآخر : إذا كان ثورَ محراث فثله كثيرٌ فلا يكون ثوراً عظيماً كما قلتَ وليست له إلا قيمةٌ مثله .

قال الباشا : أراني أخطأت ، ولعن الله العَجَلَةَ ، فهذه أوراقُ سرقةِ حمار !

قال صاحبُ السر : وانصرفتُ عنهما بأوراق ، وقد رأيتُ يدَ الباشا مملوءةً لصاحبنا بتحيّيات كُلِّها صفعات ؛ فلم يكن إلا يسيرٌ حتى خرج مبتهجاً يَمِيدُ السرورُ بعطفيه . ثم دعاني الباشا ودفع إليَّ بطاقةً بالحاجة التي جاء فيها الرجل ، ثم قال :

يا ليت لنا في ألقاب الدولة لقبَ (رحمه الله) . . . يُنْعَمُ به على مثل هذا . أتدرى يا بني أن هذه الرتب وهذه الألقاب لم تكن في القديم إلا كوضع علامةٍ

الشرّ على أهل الشر ليهايمهم الناس ، حتى كأنما يُكْتَب على أحدهم من لقب بك أو باشا : مُلْحَق بالدولة . . .

وكان الشعب أُميًّا جاهلاً لا يستطيع الإدراك ولا يُحسن التمييز ، فكانت الألقاب كالقوانين الشخصية . الموضوع في صيغة موجزة مفهومة متعمّنة الدلالة ، وكان كلُّ من يحمل لقباً من الحكومة يستطيع أن يقول للناس : لقد وضعت الحكومة كلمة الأمر في شفتي

وكان اللقب إعلان من الحكومة المستبدّة لشعبها الجاهل : إن هذا البك والباشا ممن يحقُّ له أن يُحترم .

من الهزل أن يُشترى اسمُ النصر الحربيّ أو يُوهَب أو يُعار ؛ وأقبح منه في باب الهزل أن يُنعم على مثل هذا الأُمّيّ بلقب باشا . وأنا أعرف أنه قد بذل في سبيله ما بذل ، وأضاع ما أضاع ، فكان الذين منحوه إياه لم يفعلوا شيئاً إلا وضع توقيعهم على أخذِ الثمن . . .

ولقد أصبح الرجل تحت تأثير الكلمة العظيمة مخبولاً بسحرها الوهمي ، غسب ذلك إدخالاً له في وظيفة كل حاكم ، وإشراكه في الحكم متى اقتضته مجارى أموره وأحواله ، أو حاجات أسبابه وأتباعه ؛ وها هو ذا قد جاء يطالبُ حقّه ، فإن مثله لا يفهم من لقب (باشا) إلا أن الحكومة قد سوّغت سلطته الظهور والعمل ، فدّت بآعته وقوّت أمره ونوّهت باسمه لمصالحها وعمّالها ؛ فهو عند نفسه قد التّخّم منذ اليوم بالنسب الحكومى ، وفي كلمة واحدة ، هو قد وُلِد من بطن الحكومة . . .

ألا ترى أن الشعب لو استردّ سلطته الكاملة ، وأن الناس لو أيقنوا أن الألقاب ألقاظ فارغة من الأمر والنهى والوسيلة والشفاعة ، لما بقي من يعبأ بها ، وإن كان حاملها هو أول من يسخر منها ؟

فهى إذن شَعْبَدَة^(١) من الحكومة وتضليلُ في مثل هذا الرجل الأعمى ،
وهى ضربٌ من التهويل والمبالغة فى سواء من الكبراء والعظماء ، كأن الوزير
الذى يلقب بالبasha ، يجعلُ فيه لقبه وزيرين ، وكأن مثل هذا الأعمى المغفل ،
يجعلُ فيه لقبه شخصاً آخر غير الأعمى المغفل ...

أنا قلما رأيتُ رجلاً يحتاج إلى ألقابٍ يتعظم بها إلا وهو لا يستحقها ؛ وقلما
رأيتُ رجلاً يستحقها إلا وهو لا يحتاج إليها ؛ فأين يكونُ موضعُ هذه الرتبِ
والألقاب ؟

ساكنو الشباب ...

قال صاحبُ سرِّ (م) باشا : وجاءنى يوماً اثنان من شيوخ الدين من
ذوى هَيْئَاتِهِمْ وأصحابِ المنزلةِ فيهم ، كلاهما هامةٌ وقامةٌ ، وجبةٌ وعمامةٌ ،
ودرجةٌ من الإمامة ؛ ولهما نسيمٌ ينفخُ عِطْراً حَسْبُهُ من ترويح أجنحة
الملائكة ؛ وعليهما من الوقار كظل الشجرة الخضراء فى لهبِ الشمس تقي به
يمنةٌ ويسرةٌ . فتوجهتُ إليهما بنظري ، وأقبلتُ عليهما بنفسى ، ووضعتُ
حواشى كلِّهما فى خدمتهما ؛ وقلتُ : هؤلاء هم رجالُ القانونِ الذى مادتهُ
الأولى القلب .

ما أسخفَ الحياةَ لولا أنها تدلُّ على شرفها وقدرها ببعض الأحياء الذين
نراهم فى عالم الترابِ كأن مادتهم من الشُّب ، فيها لغيرهم الظلُّ والماء والنسيم ،
وفىها لأنفسهم الطهارة والعلوُّ والجمال ؛ يُثبتون للضعفاء أن غير الممكن ممكنٌ

(١) الشعبذة والشعوذة بمعنى واحد .

بالفعل ، إذ لا يرى الناسُ في تركيب طباعهم إلا الاخلاصَ وإن كان حرماناً ،
وإلا المروءةَ وإن كانت مَشَقَّةً ، وإلا محبةَ الإنسانية وإن كانت أُلماً ،
وإلا الجِدَّةَ وإن كان عَناءً ، وإلا القناعةَ وإن كانت فقرًا .

هؤلاء قومٌ يؤلّفون بيدِ القدرة ، فهم كالكتب قد انطوت على حقائقها
وختمت كما وُضِعَتْ ، لا تستطيع أن تُخْرِجَ للناس من حقيقة نصف حقيقة
ولا شبه حقيقة ولا تزويراً على حقيقة .

وما أعجب أمرَ هذه الحياةِ الإنسانيةِ القائمةِ على النواميس الاقتصادية !
فالسماءُ نفسها تحتاج فيها إلى سمسرةٍ لعرض الجنةِ على الناس بالثمن الذي يملكه
كلُّ إنسان وهو العملُ الطيب .

قال : ونظرتُ إلى الشيخين على اعتبار أنهما من بقية النبوةِ العاملةِ فيها
شريعةُ نفسها ، تلك الشريعةُ التي لا تتغير ولا تتبدلُ كيلا يتغيرَ الناسُ
ولا يتبدلوا . ثم سألتهما عن حاجتهما ، فإذا أحدهما قد عملَ أحياناً من الشعر جاء
يمدح بها الباشا ليزدلفَ إليه ؛ فقلت في نفسي : « ما أشبه حَجَلَ الجبالِ ^(١) بألوانِ
صخرها ! » هذا عالمٌ دنيا يحُدُّها من الشرق الرغيفُ ، ومن الغرب الدينار ،
ومن الشمال الجاه ، ومن الجنوب الشيطان . . .

ثم نشر ورقةً في يده وأخذ يَسْرُدُ عَلَيَّ القصيدة ، وهي على رَوِيِّ الهاء ،
تنتهي أبياتها : ها . ها . ها . فكان يقرأها شعراً — أو كما يسميه هو شعراً —
وكنت أسمعها أنا قهقهةً من الشيطان الذي رَكِبَ أكتافَ هذا العالمِ الديني :
ها . ها . ها . ها . . .

(١) هذا مثل عربي ، والحجل : الطائر المعروف ، يكون في الجبل من لون صخره للعلّة
المقررة في التاريخ الطبيعي .

قال صاحبُ السر : وأدخلتهما على الباشا ، فوقف المدّاح يدحُ بقصيدته ، وأخذتُ لحيتيه الوافرة تهتزّ في إنشاده كأنها منقّضةٌ ينفضُّ بها المللُ عن عواطف الباشا وكان للآخر صمتٌ عاملٌ في نفسه كصمت الطبيعة حين تنفطرُ البذرةُ في داخلها ، إذ كانت الحاجةُ حاجته هو ، وإنما جاء بصاحبه رافداً وظهيراً يحملُ الشمسَ والقمرَ والليثَ والغيثَ ، لتتقلبَ الأشياءُ حول الممدوح فيأخذه السحرُ ، فيكونَ جوابُ الشمسِ على هذه اللغة أن تضيء يومَ الشيخ ، وجوابُ القمر أن يملأَ ظلامه ، وجوابُ الليث أن يفترسَ عدوّه ، وجوابُ الغيث أن يهطلَ على أرضه .

والباشا لا يدعُ ظرفه ودُعابته ، وكان قد لمح في أشواقِ العالم المتشاعِر أسناناً صناعية ، فلما فرغ من نظمه الركيك قال له : يا أستاذ ، أحسبني لا أكونُ إلا كاذباً إذا قلت لك : لا فضّ فوق
ثم ذكر الآخر حاجته : وهي رجاؤه أن يكونَ عمدة القرية من ذوى قرابته لا من ذوى عدواته . فقال له الباشا : ولقريتكم أيضاً أبو جهل . . . ؟

ولما انصرفا قال لى الباشا : لأمرٍ ما جعل هؤلاء القومُ لأنفسهم زِيناً خاصاً يميزون به في الناس ، كأَن الدينَ بابٌ من التحرُّفِ والتعصُّفِ ، بعضُ آلتِه في ثيابه ؛ فهؤلاء يسكنون الجُنبَ والقفاطينَ وكأنها دواوينهم لا ثيابهم

قد أفهمُ لهذا معنىً صحيحاً إذا كان كلُّ رجلٍ منهم محصوراً في واجباتِ عمله كالجنديّ في معاني سلاحه ، فيكون التعظيمُ والتوقيرُ لثوب العالم الدينيّ كأداء التحية للثوب العسكري : معناه أن في هذا الثوب عملاً سامياً أوّلُه بيعُ الروح وبذلُ النفس وتركُ الدنيا في سبيل المجتمع ؛ هذا ثوبُ الموتِ يُفرضُ

على الحياة أن تعظمه وتجلّه ، وثوبُ الدفاع تجب له الطاعة والانقياد ، وثوبُ القوة ليس له إلا المهابة والإعزاز في الوطن .

ولكن ماذا تصنع الجبة اليوم ؟ إنها تطعم صاحبها . . .

أثرُ الجيش معروفٌ في دفاع الأمم العدوّة عن البلاد ، فأين أثرُ جيش العلماء في دفاع المعاني العدوّة عن أهل البلاد ، وقد احتات هذه المعاني وضربت وتمسكت وتركت هذا العالم الديني في ثوبه كالجندي المنهزم : يحمل من هزيمته فضيحةً ومن ثوبه فضيحة أخرى ؟

أنت يا بني قد رأيت (الشيخ محمد عبده) وعرفته ؛ فرحم الله هذا الرجل ، ما كان أعجب شأنه ! لكانه والله سحابة مطوية على صاعقة . ولوقلت إنه قد كان بين قلبه ورأسه طريق لبعض اللائكة . لأشبه أن يكون هذا قولاً . كان يزورني أحياناً فأراني مُرغماً على أن أقدم له مجلسين أحدهما قلمي . وكان له وجه يأمرُ أمراً ، إذ لا تراه إلا شعرت به يرفعك إلى حقيقة سامية ^(١) . رجلٌ نبت على أعراقٍ فيها إبداعُ المبدع العظيم الذي هياه لرسالته ، فعواطفه كالعطر في شجرة العطر الشديّة ، وشمائله كجمال السماء في زُرقة السماء الصافية ، وعظمتُه كروعة البحر في منظر البحر الصاحب . وكثيراً ما كان يتعجب من هذا أستاذه (السيد جمال الدين الأفغاني) فيسأله مندهشاً : بالله قل لي : ابنُ أيِّ ملكٍ أنت ؟

لم يكن ابن ملكٍ ولا ابن أمير ، ولكنه ابن القوَّات الروحية العاملة في هذا الكون ؛ فهي أعدته ، وهي ألهمته ، وهي أنطقته ، وهي أخرجته في قومه إعلاناً غيرِ كتمان ، ومُصارحةٍ غيرِ مخادعة ، وهي جعلت فيه أسديّة الأسد ،

(١) وصفنا الشيخ (رحمه الله) في كتابنا (السحاب الأحمر) واستلهمنا روحه فصلاطويلا

وهي ألقت في كلامه تلك الشهوة الروحية التي تذاق وتُحَبُّ ، كالحلاوة في الحلو .

هذا هو العالم الديني ؛ لا بد أن يكون ابن القوّات الروحية ، لا ابن الكتب وحدها ، ولا بد أن يخرج بعمله إلى الدنيا ، لا أن يُدْخَلَ الدنيا تحت سقف الجامع

وأنا فما ينقضى عجب من هؤلاء العلماء الذين هم بقايا تتضاءل بجانب الأصل ؛ يبحثون في سنن النبي (صلى الله عليه وسلم) : كيف كن يأكلُ ويشربُ ويلبسُ ويمشي ويتحدّث ؛ كأنهم من الدنيا في قانون المائدة ، وآداب الولائم ، ورُسوم المجتمعات ؛ أما تلك الحقيقة الكبرى ، وهي كيف كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يقاتل ويُحارب لهداية الخلق ، وكيف كان يسمو على الدنيا وشهواتها ؛ وكيف كان بطباعه القوية الصريحة تعديلاً فعلاً في هذه الإنسانية للنواميس الجائرة ؟ وكيف كان يحمل الفقر ليكسّر به شرّة النواميس الاقتصادية التي تقضى بجعل الأخلاق أثراً من آثار السّعة والضيق ، فتخرج من الغنى متعفّفاً ومن الفقر لَصّاً ؟ وكيف استطاع (صلى الله عليه وسلم) بفقره السامى أن يُحوّل معنى الغنى في نفوس أصحابه ، فيجعله ما استغنى عنه الإنسان من شهوات الدنيا وتركه ، لا مانع منها وجمع ؟ أما هذا ونحوه من حقائق النبوة العاملة في تنظيم الحياة ، فقد أهملوه ، إذ هو لا يوجد في الكتب وشروحها وحواشيها ، ولكن في الحياة وأثقالها وأكدارها ؛ وبذلك أصبح شيوخنا من الأمة في مواضع لم يضعهم فيها الدين ولكن وضعهم فيها الوظيفة

ألا ليتهم يكتبون على أبواب الأزهر هذه الحكمة : سئل بعض العرب :
بِمَ ساد فلان فيكم ؟ قالوا : احتجنا إلى علمه واستغنى عن ديننا

الأخلاقُ المحاربة

وحدثني صاحب سرّ (م) باشا بهذا الحديث قال : كنا في ثورة سنة ١٩١٩ سنة الهزّاهز والفتن ، وقد تفاقمت الثورة ، وأخذ الشبابُ يعملُ ، ويفكرُ فيما يستطيع أن يعملَ ، وما يجب أن يعملَ ؛ وكان السخطُ العامُّ هو ميراثُ الوقت ، فكانت قلوبُ الشعب تلهّمُ واجباتها إلهاماً ، إذ لم يكن في هذه القلوبِ كلّها إلا لدعةُ الدم تعيّن اتجاهَ أعمالها وتحدّده .

كانت الثورة زلزلةً وقعت في التاريخ ، فجاءت تحت زمنٍ راكدٍ لا يتغير إلا بأن يُنسَف ، ولا ينسِفُه إلا مادةُ إلهيةٌ كالحركة الكونية التي تخرُجُ اليومَ الجديد من اليوم القديم ؛ فكان القدرُ يعمل بأيدى الإنجليز عملاً مصرياً ، ويعملُ بأيدى المصريين عملاً آخر .

وتعلّمَ الشعبُ من دفنِ شهدائه كيف يَسْتَنْبِتُ الدّمَ فيُنْبِتُ به الحرية ، وكيف يزرعُ الدمعَ فيُخرِجُ منه العزمَ ، وكيف يستثمرُ الحزنَ فيثمرَ له الجِد .
وكان رصاصُ الإنجليز يُصيبُ هدفين معاً : فيصرعُ شهداءنا ، ويقتلُ الموت السياسي الذي احتلَّ معهم هذه البلاد . وقد أنعموا على الشعب بالصدمة الأولى ، فنشبت المعركة التي تُقاتلُ فيها الأخلاقُ القومية لتنتصر ؛ وشعرت مصرُ في جهادها بأنها مصرُ ، فالتمس رُوحها التاريخي رمزَه العظيم في الأمة ليظهر فيه عاتياً جبّاراً ؛ فكان هذا الرمزُ الجليلُ العظيم هو سعد زغلول .

قال صاحب السر : وكان الطلبة قد غدّوا من أول النهار يتظاهرون ، وقد

جعلتهم الثورة كالأرواح تخلصت من الموت بالموت فلا تخشاه ولا تباييه ، واستقلت عن العقل بتحولها إلى شعورٍ محض ، وخرجت عن القوانين كلها إلا القانون الخفي الذي لا يعلم ما هو .

كانوا في معاني قلوبهم لا في غيرها ، فلست تراهم إلا عطاء في عظمة المبدأ الذي ينتصرون له ، أقوىاء في قوة الإيمان الذي يعملون به ، أجلاء في جلال الوطن الذي يحيون ويموتون في سبيله .

وكانوا في الشعب هم خيال الأمة العامل المدرك ، وشعورها الحي المتوثب ، وقواها البارزة من أعماقها ، وأملها الزاحف ليقهر الصعوبة .

يفادون بأنفسهم الغالية ويؤثرون عليها ، وليس في أحدٍ منهم ذاته ولا أغراض شخصيه . فما أجل وما أعظم ! وما أروع وما أسمى ! أيتها الحياة ! هل فيك أشرف من هذه الحقيقة إلا حقيقة النبوة ؟

قال : وكان أخى هو زعيم هؤلاء الطلبة في مدينتنا ؛ قوى على الزعامة وفي بها ؛ يحمل قلباً كالجرة المتهبة ، وله صوت بعيد تحسب الرعد يقع به . إذا مشى في جهاده كان كل ما على الأرض تراباً تحت قدميه ، فلا يمشي إلا محتقراً هذه الدنيا وما فيها ، غير مقدس منها إلا دينه ووطنه ؛ وسلاحه أن كل شيء فيه هو سلاح على الظلم وضد الظلم .

وكان في ذلك اليوم يقود « المظاهرة » ، وحوله جماعة من خالصته وصفوة إخوانه ، يمشون في الطليعة تحت جو متقد كأن فيه غضب الشباب ، عنيف كأنما امتزج به السخط الذي يفورون به ، رهيب كأنه متهيب لينفجر ؛ فلما بلغوا موضعاً من الطريق ينعطفون عنده انصب عليهم المدفع الرشاش . . .

قال : فإني لجالس بعد ذلك في الديوان إذ دخل على أخى هذا ينتفض

غضباً كأن المعانى تنبعث من جسده لتقاتل ، ورأيت له عينيّن ينظر الناظرُ
فيهما إلى النار التى فى قلبه ؛ فخشيتُ أن يكون القومُ أطلقوا عليهم الجنون
والرصاصَ معاً .

واستنبأته خبرَ أصحابه فقال : إن الذين كانوا حوله وقعوا يتشعّطون فى
دمائهم ، فوقف هو شاخصاً إليهم كأنه ميتٌ معهم ، وقد أحسَّ كأنما خلَعَ عن
جسمه نواميسَ الطبيعة ، فلا يعرف ما هى الحياةُ ولا ما هو الموت ؛ وكان الرصاصُ
يتطاير من حوله كأن أرواحَ الشهداء تتلقاه وتبعثره لا يناله بسوء . قال :
وما أنسَ لا أنسَ ما رأيته فى تلك الساعة بين الدنيا والآخرة ؛ فلقد رأيتُ
بعينى رأسى الدمِ المصرىَّ يسلم على الدمِ المصرىَّ ، ويسعى إليه فيعانقه
عناق الأحاب .

ثم قال : أين هذا الباشا ؟ وما باله لم يصنع شيئاً فى الاحتياط لهذه الفورة ؟
يكادُ الحزىُ واللهِ يكونُ فى هذه الوظائف على مقدار المرتب . . .

قال صاحب السرِّ : ولم يُتمَّ كلمته حتى خرج علينا الباشا متكسّر الوجه
من الحزن قد تغرغرت عيناه ، فأخذ بيد أخى إلى غرفته وتبعتهما ، ثم قال :
هوّنًا ما يا بنى ، إن العلةَ فيكم أنتم يا شباب الأمة ، فكلُّ ما ابتلينا أو نبئنا به
هو مما يستدعيه خمولكم وتستوجبه أخلاقكم المتخاذلة ؛ إننا من غيركم كالدافع
الفارغة من ذخيرتها : لا تصلح إلا شكلاً ، وبهذه العلة كان عندنا شكلُ
الحكومة لا الحكومة .

أندرى يا فتى ما هى الحكومةُ الصحيحةُ فى مثل حالتنا ؟ هى أن تحكموا
أنتم فى الشعب حكومةً أخلاقيةً نافذة القانون ، فتضبطوا أخلاق النساء والرجال ،

وتردوها كلها أخلاقاً محاربة لا تعرف إلا الجِدَّ والكرامة وصرامة الحق ؛
وإلا فكما تكونون يؤلى عليكم . . .

هذا وحده هو الذى يُعيد الأجانب إلى رشدكم وإلى الحقيقة ، فما أراهم
يعاملوننا إلا كأننا ثيابٌ معلقة ليس فيها لا بسوها . . .

كيف يتصعلك المصرى للأجنبى لو أن فى المصرى حقيقة القوة النفسية ؟
أترى بارجة حربية تتصعلك لزورق صيدٍ جاء يرتزق ؟

إن فى بلادنا المسكينة الأجانب ، وأموال الأجانب ، وخطرة الأجانب ؛
لأن فى الاحتلال ، كلا ، بل لأن فيها ضعف أهلها ، وغفلة أهلها ، وكرم
أهلها بعض هذا يا بنى شبيه ببعض ، وإلما هو كرم الشاة الضعيفة
إلا لذة لحمها . . . ؟

نريد لهذا الشعب طبيعةً جدية صارمة ، ينظر من خلالها إلى الحياة فيستشعر
ذاته التاريخية الجيدة فيعمل فى الحياة بقوانينها ؛ وهذا شعور لا تحدته إلا طبيعة
الأخلاق الاجتماعية القوية التى لا تتساهل من ضعف ، ولا تسمح من كذب ،
ولا تترخص من غفلة . والحقيقة فى الحياة كالحقيقة فى المنطق : إذا لم يصدق
البرهان على كل حالاتها ، لم يصدق على حالة من حالاتها ؛ فإذا كنا ضعفاء
كرماء ، أعزاء ، سادة على التاريخ القديم ، فنحن ضعفاء فقط . . .

إن الكبراء فى الشرق كله لا يصلحون إلا للرأى ، فلا تسومهم غير
هذا ، فهم قد تلقوا الدرس من أغلاطهم الكثيرة ، وبهذا لن تفلح حكومة
سياسية فى الشرق الناهض ما لم يكن شبابها حكومة أخلاقية يمدّها من نفسه
ومن الشعب فى كل حادثة بالأخلاق المحاربة .

يا بنى ، إن القوى لو اتفق مع الضعيف على كلمة واحدة لا تتغير ، لكان

معناها للأقوى أكثر مما هو للأضعف ؛ فإن هذا القوي الذي يعمل مع الضعيف يكون فيه دائماً شخص آخر مختلف ، هو القوي الذي يعمل مع نفسه .
هكذا هي السياسة ؛ أما في الإنسانية فلا ، إذ يكون الحق دائماً بين الاثنين أقوى من الاثنين .

خَضَعُ يَخْضَعُ . . .

وقال صاحب سر (م) باشا فيما حدثني به : جاء ذات يوم قنصل (الدولة الفلانية) من هذه الدول الصغيرة ؛ التي لو علم الذباب في بلادها أن في مصر امتيازات أجنبية ، لطمعت كل ذبابة أن يكون لها في بلادنا اسم الطيارة الحربية . . .

ورأيت أنه قد دخل على شاحناً باذخاً متجبراً ، كأنه قبل أن يجرى إلى هذا الديوان لمقابلة الحاكم المصري — قد تكلم في (التلفون) مع إسرافيل يأمره أن يكون مستعداً للنفخ في الصور . . .

حتى صعلوك من رعايا دولته على مصري ، فأخذ كما يؤخذ أمثاله ، وقفى ساعة أو ساعتين بين أيدي المحققين يسألونه الأسئلة الهينة الينة التي تُحيط بتعريفه من ظاهره ، ولا يُشبهها في سخافة المعنى إلا أن يسألوه عن ثيابه من أي مصنع هي في أوروبا . . . فزعم القنصل أنه كان يجب أن يكون حاضراً يشهد التحقيق ، لأن جناية أجنبي على مصري تقع أجنبية . . . فلهذا شأن ورعاية وامتياز ؛ وادعى أن المحققين ضايقوا المجرم وعاسروه وتجهّموه بالكلام ، ولهذا جاء يحتج .

ورأيته جلس متوقفاً كأنما يشعر في نفسه أنه أثقل من مدفع ضخم ، لأن في نفسه وهم القوة ؛ وخيل إلى أنه يرى موضعه بين السقف والأرض ؛ إذ يحمل في رأسه فكرة أنه الأعلى ، وكانت له هيئة صريحة في أن الأجنبي المقيم هنا ليس هو كل الأجنبي ، بل لا تزال منه بقية تتممها دولته ، وفي الجملة كان الرجل كلمة واضحة مفسرة تنطق بأن للقانون المصري قانوناً يحكمه في بلاده !

وأنا قد درست القانون الدولي ، وعرفت ما هي الامتيازات وما أصلها ، وهي لا تعدو كرم الأرنب التي زعموا أنها كلت تملك حماراً تركبه وترتقب به ، فسألتها أرنب أخرى أن تردفها خلفها ، فلما اندفع بهما الحمار استوطأته ، فقالت لصاحبه : يا أختي ، ما أفره حمارك ! ثم سكنت مدة وأعجبها الحمار فقالت : يا أختي ، ما أفره حمارنا . . .

وكنا نحن الشرقيين من الضعف والغفلة ؛ بحيث لم نبغ مبلغ الأرنب في حكمها وتديرها وحذرنا ، فإنها أسرع ودفعت صاحبها وقالت لها : انزلي — ويلاك — قبل أن تقولي : ما أفره حمارى .

قال : غير أنى في تلك الساعة نسيت القانون الدولي وكنت في إلهام مصري وحدها ، فظهر لى ظهوراً بيناً أن لا شيء اسمه القانون الحق في هذه الدنيا ؛ ولكن هناك اتفاقاً بين كل خضوع وكل تسلط ، هو قانون هاتين الحالتين بخصوصهما .

وأسرعت إلى الباشا فأنبأته ، وأسرع الباشا فغير وجهه ، وتبسّط ، وتهلل ، وتهيم بهذا لاستقبال القادم العزيز ، كأنه أخص محبيه يتطالع إلى مؤانسته ، وقد جاء بزوره في داره . ثم دخل القنصل ، ولم أسمع مما دار بينهما إلا الكلمة

الأولى ، وهى قول الباشا : لنبدأ ياسيدى من الآخر . . .

وكانت فى الباشا موهبةٌ عجيبةٌ فى اختلاب الأجنب خاصة ، يُديرهم بلباقَةٍ كالخاتم فى إصبعه ؛ حتى قال لى أحدهم : إن لهذا الباشا حاسَّةً زائدةً ، لو سُمِّيت حاسَّةُ الإرضاء لكان هذا اسمها الطبيعى ، وإنه يعمل بها كما يعمل المفكر بتفكيره ؛ فهو يبتكر الأساليب الغريبة التى يصعدُ ويهبطُ بها ميزانُ الحرارة النفسية ، وإن جلسه يكاد يشعر من مهارته فى التمثيل أن فى جوِّ المكان سِتاراً يُرفع وستاراً يُسدَّل بين الفصول .

فما ليثَ القنصل أن خرج بغير الوجه الذى دخل به ، ولكنه عبَس فى وجهى أنا وتكرَّره لى كأنه أصغرَ شأنى ، فازدرتنى عينه ، فوثبتُ إلى رأسه فكرةُ الامتيازات .

وهذه القوةُ الظالمةُ (الامتيازات) ؛ لو أنها كانت قوَّةً قاهرةً نافذةً ، وأعينَ بها طفيلٌ ليقترحمَ دُورَ الناسِ آمناً مطمئناً — لاستحى هذا الطفيلُ أن يأكلَ بها ؛ إذ تجمع عليه التطفلُ والمقتَ معاً ، ولو قيل لحُسامٍ بنَّار : إن لك امتيازاً على بعض السيوف ألاَّ تقارعَكَ ، وإنك محمىٌّ أن تنالَكَ سطوتُها إذا قارعتها — لأنفَ أن يسمَّى سيفاً بهذا أو بمثلِ هذا ، فإن القوةَ الظالمةَ التى يُعيرُونه إياها ، ليست إلا مهانةٌ لشرفِ القوةِ العادلةِ التى هى فيه .

قال صاحب السر : ووصفتُ للباشا هيئةَ القنصل التى انصرف بها ، وتقطيعه فى وجهى ، وقلت له : إن الذبابة وقعت فى صحفتى أنا من هذه الولية . . . فضحك بملء فيه ، ثم قال :

ستبطل هذه الامتيازات ، وليس بيننا وبين نهايتها إلا أن ينتهى الشعب

إلى حقيقته القومية ، فما تركها في مكاتها إلا نزول الشعب عن مكانته ،
وثالله لكان هؤلاء الأجانب يسألوننا بهذه الامتيازات : أين مكانكم في
بلادكم . . . ؟

أتدري ما قاله هذا القنصل حين تجاذبنا الحديث فيها ، بعد أن وضعتُ
نفسى منه في موضع الحامى الذى يخذله الدليل ، فيحاول أن يستنزل كرم
القضاة بعرضِ بؤس المتهم على شفقتهم ، ليستعطف القانون الذى فى أيديهم
بالقانون الذى فى أنفسهم ؟

إنه قال : لا يلومَنَّ الشرقيون إلا أنفسهم ، فهم علموا الأجانب أن تنف
ريش الطير أول أكله . . . وهذه الامتيازات إن هى إلا معاملة بيننا وبين
طبيعة الخضوع فى الشعب . نعم إنها مضرّة ومعرّة ، وظلم وقسوة ؛ ولكنها
على ذلك طبيعِيّة فى الطبيعة ؛ فما دام هذا الشعب أئِن المأخذ ، فإن هذا يوجدُ
له من يأخذه ؛ وما دامت الكلمة الأولى فى مُعْجَم لغته السياسية هى مادة
(خَضَعَ يَخْضَع) ، فهذه الكلمة تحمل فى معناها الواحد ألف معنى ، منها :
ظلم يظلم ، وركب يركب ، وملاك يملك ، واستبدّ يستبدّ ، ودجل يدجل ،
وخدع يخدع ؛ فهل يكثر أن يكون منها للأجانب امتياز يمتاز ؟

قال صاحب السر : ثم زَمَّ الباشا فَمَه وسكت ؛ ففهمتُ الكلمات التى
انطبق فُمه عليها وإن لم يتكلم بها ، ثم غلبه الضحك فقال : والله يا بنى لو أن
بُرْغوثًا طَمَرَ من ثوب صُعلوكِ أجنبيّ ، فوقع فى ثوب صعلوكِ وطني ، فتقاتلا ،
فقبض عليهما ، فأخذا — لما رضى بُرْغوثُ الأجنبيّ أن يحاكم إلا فى المحاكم
المتخلطة . . .

ثم سكت الباشا مرة أخرى كأنه يقول كلاما آخر لا يجوز نشره ، ثم قال :

يا بنى ، إن الأجانب لا يضعون الحبل إلا على من يحمل ؛ فإذا نحن توخينا مرادهم أرادوا لأنفسهم لا لنا ؛ وإذا وافقنا لهم غرضاً جعلوه كالدينار فيه مائة قرش ، وأبوا إلا أن نصارِفهم عليه بمائة . هم — ويحك — يمتازون فى معاملتنا لا فى سطور القوانين والمعاهدات ، فلنبطل هذه المعاملة يَبْطُلُ هذا الامتياز .

إن الحق يا بنى استحقاقٌ لا دَعْوَى ؛ وهذا التنازعُ على الحياة يجعلُ وسائله الطبيعية الانزعاع والمطالبة والتجرد له والدأب فيه والإصرار عليه . وكل الأقوياء يعلمون أن موضع الاعتدال بين غَضَبِ الحق وبين استرداده موضعٌ لا مكان له فى الطبيعة ؛ والأجنبيُّ يعتمد علينا نحن فى جعله أكبر منا وأوفر حرمة ؛ فإذا أسقط الشعبُ هذه الامتيازات من فكره وروحه وأعصابه ، وثارَتْ فيه كبرياء الوطنية فاستنكف من الاستخذاء ، ونفر من الاختضاع ، وأبى إلا أن يُعلن كرامته ، وصرفَ اهتمامه إلى حقوق هذه الكرامة ، وأصرَّ ألا يعاملَ أجنبيًّا يرى لنفسه امتيازاً على وطني ، وقرر ذلك فى نفسه ، ومكَّنه فى رُوعه ، وأجمع عليه إجماعه على الدين — إذا جاءت (إذا) هذه بشرطها من الشعب ، جاء جوابُ الشرط من الأجانب بنزولهم عن الامتيازات وانحلت المشكلة . إننا يا بنى لا نملك ضغطَ السياسة ، ولكننا نملك ما هو أقوى ؛ نملك ضغطَ الحياة .

لهم الامتياز بأنهم أجانبُ عنا ، فليكن لنا الامتيازُ الآخرُ بأننا أجانبُ عنهم فى المعاملة ، مثلاً بمثل ، وما يفلُ الحديد إلا الحديد .

يقولون : النظام الاقتصادى والمال الأجنبي . ولكن أرأيتَ المال فى يد الأجنبي إلا مالاً وتدبيراً وسلطة وسيادة ، من أنه فى يد الوطنى دينٌ وإسراف ورقٌ وذُل ؟

لم يظهر لى إلا الساعة أن من حكمةِ تحريم الربا فى شريعتنا الإسلامية ، وقايةُ الأمة كلها فى ثروتها وضياعها ومُستغلاتها ، وحمايةُ الشعبِ وملكه من

الإسرافِ والتخْرِيقِ والكُرمِ الكاذبِ ، وردَّ الاستعمار الاقتصادي ، وشلَّ النفوذَ الأجنبي .

أما لو أننا كتبنا من الأول على أبواب « البنك العقاري » وأبواب ذريته : « يَمَحِّقُ اللهُ الرِّبَا . » فهل كانت تُقرأ هذه الكلماتُ الثلاثُ على أبواب تلك البنوك الأجنبية إلا هكذا : « محالٌ خاليةٌ للأيجار » ... ؟

فلنتعصب ... !

وقال صاحب سر (م) باشا : جاءني يوما صحفيٌّ إنجليزي من هؤلاء الكتاب المتعصبين الذين تطلقهم إنجلترا كما تطلق مدافعها ؛ غير أن هذه للبارود والرصاص والقنابل ، وأولئك للكذب والتهم والمغالطات .

وهو أذن وعينٌ ولسانٌ وقلمٌ لجريدة إنجليزية كبيرة ، معروفةٌ بثقلِ وطأتها على الشرق والإسلام ؛ تُصلحُ بافساد ، وتداوي الحمى بالطاعون ، وتعملُ في نهضة الشرقيين واستقلالهم ما يُشبهه قطعُ ثدي الأم وهو في شفتي رضيعها المسكين .

ودخل على هذا الكاتبُ في الساعة التي خرج فيها من غرفتي صاحبُ جريدة أسبوعية في مدينتنا ؛ كان قد نفخ الضفدع ليجعلها ثوراً ، فحوَّلَ صحيفته إلى جريدة يومية ، وهو لا يجدُ مادتها ولا يستطيعُ أسبابها ، إلا أنه كدأب الناس عندنا كان يحسبُ الكذبَ في العمل سهلاً مَهْلاً^(١) كالكذبِ في

(١) هذا الاستعمال مما وضعناه نحن وليس في اللغة ، وهو من باب الإتياع كقولهم :

حسن بسن ، وشيطان ليطان الخ .

القول ، فلم يَتَعَاظَمَهُ الأَمْرُ العَظِيمُ ، واقترض لعمله كُلَّ أَلْفَاظِ النِّجَاحِ
من اللُّغَةِ

وظَنَّ عِنْدَ نَفْسِهِ أَنَّهُ سَيُخَوِّفُ بِجَرِيدَتِهِ الكِبَرَاءَ والأَعْيَانَ وَالْمَيَاسِيرَ حَتَّى
يَغْلِبَ عَلَى جَمِيعِهِمْ ، وَيُشْرِكَ أَصَابِعَهُ مَعَ أَصَابِعِهِمْ فِي اسْتِخْرَاجِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ
مِنْ جَيُوبِهِمْ ؛ فلم تَعَشْ جَرِيدَتُهُ إِلَّا أَيَّامًا وَأَتْلَفَ مَا جَمَعَ ، وَرَهَنَ فِيهَا دَارَهُ الَّتِي
لَا يَمْلِكُ غَيْرَهَا ؛ وَعَلِمَ آخِرًا أَنَّ الَّذِي يَكْذِبُ فَيُسَمَّى الْخُرُوفَ جَمَلًا ، لَا يَقْبَلُ مِنْهُ أَنَّ
يَكْذِبَ عَلَى الْكُذْبِ نَفْسِهِ ، فَيَزْعَمُ أَنَّ النَّاقَةَ هِيَ الَّتِي نَتَجَتْ هَذَا الْخُرُوفَ
وَلَمَّا انْقَلَبَتْ هَذِهِ الْجَرِيدَةُ يَوْمِيَّةً كَانَ الْبَاشَا هُوَ مُلْبِجًا الرَّجُلَ وَوَزَرَهُ ، وَكَانَ
لِكُلِّ يَوْمٍ فِي الْجَرِيدَةِ أَخْبَارٌ عَنِ الْبَاشَا لَا تَقَعُ فِي الدُّنْيَا وَلَا تُجْمَعُ مِنَ الْحَوَادِثِ ،
وَلَكِنْ تَقَعُ فِي ذَهْنِ الْكَاتِبِ ، وَتُجْمَعُ مِنْ صُنَادِيقِ الْخُرُوفِ ؛ حَتَّى قَالَ لِي
الْبَاشَا مَرَّةً : إِنْ اسْمِي قَدْ أَصْبَحَ مُوظَّفًا فِي هَذِهِ الْجَرِيدَةِ لِمَجْمَعِ الْإِشْتِرَاكِ
وَتَحَرَّيْتُ هَذَا الصَّحْفِيَّ أَنْ يَسْتَأْذِنَ يَوْمًا عَلَى الْبَاشَا فِي مَجْلِسِهِ حَشْدٍ عَظِيمٍ
مِنَ السَّرَّاءِ والأَعْيَانِ وَالْعُمَدِ ، وَكَانَ جَمْعُهُمْ لِأَمْرٍ ، فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ دَخَلَ الصَّحْفِيَّ
حَتَّى ابْتَدَرَهُ الْبَاشَا بِهَذَا السُّؤَالِ : يَا أَسْتَاذَ ، مَا هِيَ تَلَفَرَاتُ أَوْرَبَا عَنِ الْحَوَادِثِ
الَّتِي سَتَقَعُ غَدًا ؟

فَضَجَّ الْمَجْلِسُ بِالضَّحْكِ ، وَفَقَدَ الْمَسْكِينُ بِهِذِهِ النِّكْمَةَ أَرْبَعِينَ دِينَارًا كَانَ
يُؤْمَلُ أَنْ يُخْرَجَ بِهَا ، وَأَعْلَنَ الْبَاشَا فِي أَظْرَفِ إِعْلَانٍ وَأَبْلَغِهِ كَذِبَ الرَّجُلِ وَنِفَاقَهُ
وَإِسْفَافَهُ ، وَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ الصَّحَافَةِ الْمُدَوَّرَةِ تَدْوِيرَ الرِّغْفِ . . .

قَالَ : وَنَظَرْتُ إِلَى الصَّحْفِيِّ الْإِنْجِلِيزِيِّ نَظْرَةً أَكْشَفَتْهُ بِهَا ، فَإِذَا أَوَّلُ الْفَرْقِ
بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَمْثَالِهِ عِنْدَنَا — شَعُورُهُ أَنَّ بِلَادَهُ قَدْ رُبَّتْهُ (لَاخْرَاجُ) ، فَهُوَ عِنْدَ نَفْسِهِ
كَأَنَّهُ إِنْجِلِيزِيٌّ مَرَّتَيْنِ ؛ وَيَأْتِي مِنْ ذَلِكَ إِحْسَاسُهُ بِعِزَّةِ الْمَالِكِ وَقُوَّةِ الْمُسْتَعْمِرِ ،

فلا يكونُ حيث يكونُ إلا في صراحةِ الأمرِ النافذِ ، أو غموضِ الحيلةِ المبهمةِ ؛
ويستحكم بهذا وذاك طبعه العمليُّ ، فهو بغريزته مُقاتِلٌ من مقاتِلَةِ الفكرِ ، يلتمسُ
ميدانه بين القوى المتضاربةِ لا يبالي أن يكونَ فيه الموتُ ما دام فيه العملُ ؛
وبهذا كلّ تراه نافذَ البصيرةِ قائماً على سواءِ الطريقِ ، لأن الإنجليزىَّ الباطنَ
فيه يُوجّه الإنجليزىَّ الظاهرَ منه ويُسألهُ ؛ وفي أعماقِ الاثنين تجد انجلترا ،
وليس غير انجلترا .

ثم تقرّستُ في الرجل أريد كنهه وحقيقته ، فإذا له نفسٌ مفتوحةٌ مَقْفلةٌ
معاً ، كغرفِ الدار : الواحدة يفتح بعضها لما فيه كيما يرى ، ويقفلُ بعضها
على ما فيه كيلا يرى .

وله وجهٌ عمليٌّ يكاد يحاسبُك على نظراتك إليه ؛ تدورُ في هذا الوجه عينانِ
قد اعتادتَا وزنَ الأشياءِ والمعاني ؛ يتلأأ في هاتين العينين شعاعُ النفسِ القويةِ
المرتبّةِ ، قد نفّتِ الثقةَ بها نصفَ همومِ الحياة عن صاحبها ، تمدُّ هذه النفسُ طبيعةً
مؤمنةً بأن أ كبر سرورها في أعمالها ، فواجبُها في الحياة أن تعملَ كلَّ ما يحسنُ
بها وكل ما يحسنُ منها .

لقد خُيلَ إليّ ، وأنا أنظر إلى نفسية هذا الإنجليزى أن كلمة الخيبةَ عند
هؤلاء الإنجليز غيرُ كلمة الخيبة عندنا نحن الشرقيين ، فإن خيبةَ النفس لا تتم
معانيها أبداً في النفسِ العاملةِ الدائبةِ ، التي يُشعرها الواجبُ أنه شيء إلهي
لا يخيب ، وأن ما يُرفضُ على هذه الأرض من العمل الطيّب لا يُرفض
في السماء .

وكان الرجل قد أدرك غرضي بملأ كتفه الصحافية الدقيقة ، فأجابني عن
السؤال الذي لم أسأله ، وقال لي مبتدئاً : إن أساسنا الشخصية وحاسة الواجب ؛
وإن فيكم أنتم كلّ شيء إلا هذين ؛ فأخلاقنا تظهر دائماً في العمل ، وأخلاقكم

تَظْهَرُ دَائِمًا فِي الْكَلَامِ الْفَارِغِ ؛ وَنَحْنُ نَطْلُبُ الْحَقِيقَةَ ، وَأَنْتُمْ تَطْلُبُونَ الْأَلْفَاظَ ،
حَتَّى إِنَّهُ لَوْ خَسِرَ الْمَصْرِيُّ أَلْفَ دِينَارٍ ، ثُمَّ أَعْلَنَ أَنَّهَا مِائَةٌ فَقَطْ ، وَصَدَّقَ النَّاسُ
أَنَّهَا مِائَةٌ ؛ لَكَانَ عِنْدَ نَفْسِهِ كَأَنَّهُ رَجَحَ تِسْعَ مِائَةٍ

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ : وَاسْتَأْذَنْتُ لَهُ عَلَى الْبَاشَا فَسَهَّلَ وَرَحَّبَ ؛ ثُمَّ هَمَمْتُ
بِالْإِنْصِرَافِ عَنْهُمَا ، وَلَكِنِ الْإِنْجِلِيزِيُّ قَالَ : يَا بَاشَا ! إِنَّهُ قَدْ تِمَكَّنَ فِي رُوعِي أَنَّ
صَاحِبَ سَرِّكَ هَذَا مُتَعَصِّبٌ دِينِي ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ ابْنُ فَلَانِ الْقَاضِي الشَّرْعِيِّ ،
فَطَرَبُوشُهُ ابْنُ الْعِمَامَةِ ؛ وَلَقَدْ كَانَ يَنْظُرُ إِلَيَّ ، وَكَأَنَّهُ يَتَأَمَّلُ مِنْ أَيْنَ يَذْبَحُنِي . . .
فَضَحِكَ الْبَاشَا وَقَالَ لِي : يَا فَلَانُ ! إِنْ هَذَا الْكَاتِبُ مِنْ تَلَامِيذِ بَرْنَارْدَشُو ،
فَهُوَ كَأَسْتَاذِهِ يُجْعَلُ لِكُلِّ حَقِيقَةٍ ذَنْبًا كَذِيلِ الْهَرَّةِ ، ثُمَّ يَمْسِكُهَا مِنْهُ فَإِذَا هِيَ
تَعَضُّ وَتَقْلَوِي . . .

وَالْتَفَتَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْإِنْجِلِيزِيِّ ثُمَّ قَالَ لَهُ : جَاءَنِي كِتَابُكَ فَإِذَا كُنْتُ
تَرِيدُ رَأْيِي فِيمَا تَسْمِيهِ التَّعَصُّبَ الدِّينِيَّ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ ، فَعَجِيبٌ أَنْ تَضَعُوا أُنْتُمْ
الْغُلَاطَةَ ثُمَّ تَسْأَلُونَا نَحْنُ فِيهَا ! إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنَّ هَذَا التَّعَصُّبَ الْكَذِبَ الَّذِي أَكْثَرْتُمْ
الْكَلَامَ فِيهِ ، إِنَّمَا هُوَ لَفْظٌ مِنْ أَلْفَاظِ السِّيَاسَةِ الْأَوْرَبِيَّةِ ، أُرْسِلَتْ مَوْهَ إِلَيْنَا لِيُقَاتَلَ
لَفْظَ التَّعَصُّبِ الْحَقِيقِيِّ ؛ وَمَنْ قَبْلَ هَذَا اخْتَرَعَتْ لَفْظَةَ (الْأَقْلِيَّاتِ) ، وَأَجْرِيَتْ مَوْهَا
فِي لُغَتِكُمُ السِّيَاسِيَّةِ ، لَتَجْعَلُوا بِهَا لَتُعَصِّبُنَا الْوُطْئِيَّ شُكْلًا آخَرَ غَيْرَ شُكْلِهِ فَتُفْسِدُوهُ
عَلَيْنَا بِهَذِهِ الْمَادَّةِ الْمُفْسِدَةِ ؛ وَبِذَلِكَ تَضْرِبُونَ الْيَدَ الْيَمْنِيَّةَ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَمْسُوهَا ،
إِذَا تَضْرِبُونَهَا بِشَلِّ الْيَدِ الْيَسْرَى .

إِنَّ الْإِسْلَامَ فِي نَفْسِهِ عَدُوٌّ شَدِيدٌ عَلَى التَّعَصُّبِ الَّذِي تَفْهَمُونَهُ ، فَهُوَ يَقُولُ
لِأَهْلِهِ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ : « كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ
أَوْ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ » .

فإذا كان العدلُ في هذا الدين عدلاً صارماً ، وحقاً محضاً لا يميّز بشيء البتة ، لا ذاتَ النفس التي فيها اشتهاه الدم ، ولا أصلها من الأبوين اللذين جاءت منهما وِراثةُ الدم ، ولا أطرافها من الأقربين الذين يلتفون حول نسب الدم — إذا كان هذا ، فأين في هذا العدل محلُّ الظلم ؟

لعلك تشير إلى هذه الرُّعونة التي تعرفها في الأغمار والأغفال من العامة ، فهذه ليست من أثرِ الدين ، بل هي أثرُ الجهلِ بالدين ؛ إن هذا ليس تعصبا ، بل هو معنى من معاني الحَمِيَّةِ النفسية الخرقاء لم تجدوا أتم له لفظا ، وكان أقرب الألفاظ إليه عندكم هو التعصبُ ، فأطلقتموه عليه المعنى الذي في نفسه والمعنى الذي في أنفسكم . ألا فاعلم أن إسلامَ العامة اليوم هو كالدعوى المقبولة شكلاً والمرفوضة بعد ذلك .

قال الإنجليزى : ولكنَّ هؤلاء العامة علماء دينيين يُدبرونهم من ورائهم ، وهم عندكم ورثةُ النبي (ص) أى منبعُ الفكرة وقوتها .

قال الباشا : غيرَ أن هؤلاء قد أصبحوا كلُّهم أو أكثرهم لا يندسُ فيهم عرقٌ من تلك الوراثة ، وذلك هو الذى بلغ بنا ما ترى ؛ فالقوم إلا قليلاً منهم كالأسلاك الكهربية المعطلة : لا فيها سائبٌ ولا إيجاب ؛ ولو أن هؤلاء العلماء كانت فيهم كهرباء النبوة ، لكهربوا الأمم الإسلامية في أقطارها المختلفة . إذن لقام في وجه الاستعمار الأوروبى أربعائة مليون مسلمٍ جَلَدٍ صارمٍ شديدٍ ، متظاهرين متعاونين ، قد أعدوا كل ما استطاعوا من قوة العلم ، وقوة النفس ، وهم لو قذف كلُّ منهم بحجرين لردموا البحر . . .

أتريد معنى التعصب في الإسلام ؟ إنه بعينه كتعصب كل إنجليزى للأسطول ؛ فهو تشابُّكُ المسلمين في أرجاء الأرض قاطبةً ، وأخذهم بأسباب القوة إلى آخر الاستطاعة ، لدفع ظلمِ القوة بآخر ما في الاستطاعة .

وهو بذلك يعمل عملين : استكمال الوجود الإسلامي ، والدفاع عن كماله .
وإذا أنت ترجمتَ هذا إلى معناه السياسي ، كان معناه إصرارَ جميع المسلمين
على نوع الحياة وكرامتها ، لا على استمرار الحياة ووجودها فقط . وذلك هو
مبدؤكم أنتم أيها الإنجليز : لا تقبلون إلا حياة السيادة والحكم والحرية ، فأنتم
مسلمون في هذا المبدأ لو عدّ أنتم .

أليس من البلاء أن المسلمين اليوم لا يدرُسُ بعضهم بلادَ بعض إلا على
الخريطة مع أن الحجَّ لم يُشرعْ في دينهم إلا لتعويدهم دراسة الأرض
في الأرض نفسها لا في الورق ، ثم ليكون من مبادئهم العملية أن العالم
مفتوحٌ لا مقفل ؟

إن التعصبَ في حقيقته هو إعلانُ الأمة أنها في طاعة الشريعة الكاملة ،
وأن لها الروحَ الحادة لا البليدة ، وأن أسامها في السياسة الاحترامَ الذاتيَّ
لا تقبلَ غيره ، وأن أفكارها الاجتماعية حقائقٌ ثابتةٌ لا أشكالٌ نظرية ، وأن
مبدأها هو الحقُّ ولا شيءٌ غير الحقِّ ، وأن قاعدتها « لا يضرُّكم من ضلَّ إذا
اهتديتم . » فالهداية أولاً والهداية آخرًا : الهداية في القوة ، والهداية في السياسة ،
والهداية في الاجتماع . فقل لي بحياتك وحياة إنجلترا : أيعابُ ذلك على المسلمين
إلا بالألفاظ التي يعيب اللصُّ بها أهلَ الدار لأنهم يُحكَمون في وجهه إقفال
الباب . . . ؟

قال : فوجَّه الإنجليزُ حتى ذهل عن نفسه وصاح :

إذا كان هذا فلننتعصب ، فلننتعصب .

وزن الماضي

وقال صاحب سر (م) باشا : إني لجالس ذات يوم في يدي كتاب لبعض المتفلسفة من ملاحدة أوربا الذين يريدون أن يفهموا ما لا يفهم ؛ وكان الباشا قد رأى مرة أنظر فيه وأتدبر مسائله الغامضة ، فقال لي : يا بني ، إن أحد الكلاب كان شاعراً فيلسوفاً ، فنظر ليلة في النجوم فراعته وحيرته ؛ فآلى أن يفهمها بعقله وتفرغ لدرسها مدة طويلة ، ثم وضع فيها كتاباً نفيساً ضخماً ، كان أعظم كتب الفلسفة وأشدّها غموضاً عند الكلاب ، وكان اسمه :
العظام المبعثرة فوقنا ... (١)

قال : فأنا جالس أقرأ هذا الكلام الذي لا صحيح فيه إلا أنه غير صحيح ... إذ دخل علي كاتب متفلسف ملحد من هؤلاء المدخولين في عقولهم ، المفتونين بأوربا ومذاهبها وعقوباتها وسفلياتها ... وهو يكتب في الصحف ، ويؤلف الرسائل ، وقد جاء يستصريح الباشا على فلاح شاركه في زراعة أرضه ، فزرعه الفلاح فيها وحصده ، ودّاهه بكيده ، وابتلاه بغلظته ، وتهدده بالقمعة .

وكان هذا الفلاح الساذج الغرير قد سبقه إلى وعرفته لي تعريفاً قاموسياً محيطاً من مادة كفر يكفر ... ثم قال بعد ذلك : إنه (بياع كلام) يصدق ويكذب حسب الطلب ... والذمة نفسها ليست عنده إلا (عملية حسابية) ؛ وهو في أقوى جهاته لا ينفع الدنيا بما تنفعها به البهيمة من أضعف جهاتها .

(١) لا ريب أن المؤلف ... قد بحث في كتاب (الوسائل العملية) للانتفاع بهذه العظام المبعثرة ...

أما الكاتبُ فيقول عن هذا الفلاح : إنه لا يدري أهو يُسمُّ بهائمَهُ أم بهائمُهُ هي التي تُسمُّهُ ، وإن الذي يرفعُ القضيةَ على مثل هذا الخلق إلى الحكمة لا يكون إلا كالذي يُعَقِّعُ بالعصا على جُرْحٍ فيه الحيَّةُ السامةُ .

ورأى المتفلسفُ الكتابَ على يدي ، فتهلَّل واستبشر وقال لي : هذا نَسَبٌ بيننا . . . فأدركتُ من كلمته هذه جملته وتفصيله ، وخيَّل إلى أني أرى فيه نفسه الشرقيةَ كالمرأةِ المطلقة . . . فقلت له : أنا اشتريتُ هذا الكتاب من أوربا ، ولكني لم أشتَر منها دماغى . . .

وكلمته أَسْتَخْرِجُ ما عنده ؛ فإذا هو في قومه وتاريخِ قومه كالسائح في بلادٍ أجنبية : يفتحُ لها عينه ولا يفتح لها قلبه .

وكان جريئاً في كلامه مع الباشا ؛ يطرُدُ القولَ حيث شاء حقاً وباطلاً ، ثم لا سِنَادَ لرأيه ولا تثبيتَ لحجته إلا قولُ فلان ورأى فلان ، كأن في رأسه عقلاً شجاذاً . . . ثم ذكر آخرَ الأمر ما جاء له ، فحجَّله الباشا وقال : هذه مسألة ككل مسائلك : تحتاج إلى رأى فيلسوف أوربى . . . وأعرض عنه ولم يدخلُ في شيء من أمره .

ولما انصرف قال الباشا : يحسبُ هذا نفسه عالماً ، وهو ضُلوكٌ عُلَى . . . وإنما يكون دماغه وأدمغة أمثاله عند الفلاسفة والعلماء الذين يذكرونهم كما تكون سلةُ المهملاتِ عند الصحافيين .

إن هذا الرجل يتم ضعفَ عقله في الرأى بقوةِ عناده فيه ، ليجعلَ له ثباتَ الحقيقةِ فيُظنَّ حقيقةً ، كأن خَضْخَضَةَ الماء باليد في وعاءٍ صغير ينقلُ إلى هذا الوعاءِ طبيعةَ الموج ؛ وعند أمثال هذا المفتون من الصعاليك العلميين ، أنك إذا تناولتَ مسألةً فأخطأتَ فيها خطأً جريئاً ، فقد جعلتها بخطئك الجريء مسألةً

من العلم . . . وأنت إذا عانت فثبت الخطأ في وجه الناقدين سنة ، كان حقيقة مدة سنة . . .

هم مفتونون زائغون ، ومن فتنتهم أنهم يرون البعد بينهم وبين أهل الفضائل الشرقية ، كالبعد بين العالم والجاهل ؛ ولو حققوا الرؤى بعداً في الغرائز لافى العقل ، أى كالبعد بين الفجور وما أشبهه الفجور ، وبين التقوى وما أشبهه التقوى .

زعم الأحق أن خصمه الفلاح رجل راسخ في الماضي ، كأنه باق في أمس لم ينتقل منه ؛ مع أن أمس قد انقطع من الزمن ، ثم خرج من ذلك إلى أن الأمة يجب أن تنبذ ماضيها ، ثم ادعى أن الإسلام يتعصب الماضي . هذه ثلاث كلمات تخرج منها الرابعة التي سكنت عنها . . . (١)

وأنا لو شئت أن أسخر من مثل هذا الضعولك العلمي ، لما وجدت في أساليب السخرية أبلغ من أن أبعث إليه بقارورة فارغة وأقول له : املاها لي من آراء الفلاسفة . . .

يغفل هذا وأمثاله عن أن الدين الإسلامي لا يعرف الماضي بمعنى ما مضى على إطلاقه ؛ بل هو يشترط فيه ألا يخالف العقل ولا العلم ، وألا يناقض الهداية ؛ « قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا . أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ؟ » وفي الآية الأخرى : « قالوا : حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا . أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ؟ » وفي الثالثة : « قالوا : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا . أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ؟ » وفي الرابعة : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قال : أو لو جئكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ »

(١) الرابعة التي يستلزمها هذا السياق المنطقي : هي تجرد الأمة من الدين ، وذلك ما يعمل له بعض الصعاليك العلميين .

فانظر كيف صَوَّرَ ما نسميه اليوم بالجوود في قوله : (حسبنا) ، وكيف صور ما نسميه بالرجعية في قوله : (نتبع) ، وتأمل كيف رفض الجوود والرجعية معاً في العلم والعقل والهداية ، أى في آثارها من العلوم والمخترعات والفضائل الإنسانية ، وكيف أبطل في تلك الثلاث الاحتجاج بالماضى بهذا الأسلوب الدقيق العالى ، وهو قوله في كل آية : أَوَّلُ ، أَوَّلُ . لم يغيرها ؛ بل كررها بلفظها أربع مرات .

فالمعجز هنا مجيء الآيات بهذه الصورة المنطقية لإسقاط حججهم ، ونفى معنى التقديس عن الماضى فيهن ؛ إذ كان العلم دائماً التغير ، وكان العقل دائماً التجديد والإبداع ، وكانت الهداية شديدة على الطبيعة الحيوانية التى هى ماضى النفس ؛ فكأنها جديدة على النفس عند كل شهوة .

إن الإنسان بماضيه وحاضره كأنه مقسوم قسمين ، يقول أحدهما : أريد أن أكون . ويقول الآخر : أنا قد كنت . فالإسلام بهذه الآيات قد أوجب وزن الكلمتين في كل زمن بما هو الأصح ، وبما هو الأنفع ، وبما هو الأهدى ؛ وباشرطه الهداية في جميعها أشار إلى أن السكال النفسى للفرد يجب أن يكون مرتبطاً بالسكال الإنسانى للجنس .

وهذا معنى عجيب ، وأعجب منه ما ترى من أن الإسلام قد أصلح فكرة الماضى ؛ فنقلها من معنى الآباء والأجداد للناس ، إلى المعانى التى هى كالآباء والأجداد لإنسانية الناس . والأخذ (بالأهدى) فى اجتماع أمة من الأمم ، إنما هو بعينه ناموس الترقى والتطور .

ومن أدق الأسرار قوله : « إنا وجدنا آباءنا على أمة . » فكلمة (أمة) هذه لم يعرفها أحد على حقيقتها ، ولم تفسرها إلا علوم هذا الزمن ، فهى المشاعر النفسية التى يتكوّن منها مزاج الشعب ، وفيها يستقر الماضى ؛ كأن

الآية قد عبّرت بأخر ما انتهى إليه علماء النفس : من أن الإنسان ابنُ أبويه وابنُ شعبه أيضاً .

فالتعصبُ في الإسلام هو للعلم النافع ، وللهجد الصحيح ، وللهداية الباعثة على الكمال ؛ وتعصبُ الجيلِ لمثلِ هذا في ماضيه ، هو في اسمه تعصب ، غير أنه في معناه إنما هو العملُ لتسليمِ مجدِ الأمة إلى الجيلِ التالي .

المعجم السياسي

وحدثني صاحبُ سر (م) باشا قال : كنا في سنة ١٩٢٠ ، وهي بنت سنة ١٩١٩^(١) ؛ وقد اجتمعت الأمة على مقاطعة لجنة (ملنر) لا تكلمها ، فجعلت السكوت ثورة ، وأعلن الشعبُ أن كلمته في لسان الوفد ينطق الوفدُ بها نطق النبي بما يُوحى إليه ، فما يكون لأحدٍ غيره أن يقولها ، ولا أن يقول أُوحي إلي . وأبى اللورد ملنر أن يصدّق أن المصريين إجماعاً يُعتدُّ به ، وأنهم دخلوا في السياسة دخولاً ثابتاً فرسخوا فيها ، وأنهم أصبحوا مع الإنجليز كالإنجليز الذين يقولون عن أنفسهم في مثلهم السائر : ينبغي أن نكون أحراراً مثل أعمالنا .

وزعم اللورد لنفسه ، أن هذه الأحزاب المصرية لا يتفق منها اثنان أبداً إلا كان بينهما ثالثٌ يختلفان عليه ، وهو الطمعُ في مناصب الحكم ؛ واستخرج من ذلك أن المصريَّ والمصريَّ كشيئِ المقرض : لا يتحركان في عملٍ إلا على تمزيق

(١) سنة الثورة المصرية ، وقد مر وصفها في مقالة (الأخلاق الحاربة) .

شئ بينهما ؛ فإن لم يكن بينهما (الشئ) لم يكن منهما شئ .
 وذهب الرجلُ يَتَخَنَّنُ وَيَحْدِسُ على ما يُخَيِّلُ له الظن ، وقد حسب أن
 إنجلترا يحقُّ لها أن تقولَ في المصريين ما يقولُ الله في خلقه كما ورد في الأثر :
 « إنما يتقلبون في قبضتي . » وكما تقول اليوم لأهل فلسطين من العرب : « إن
 يشأ يُذهِبْكم ويأتِ بِخَلْقٍ جديدٍ » وكان اللورد هذا رجلاً ممارساً
 لمشاكل السياسة ، دخلاً فيها ، داهيةً من دهاة القوم ، له في قلبه عينان وأذنان
 غير ما في وجهه كخذاق السياسيين ؛ وهو يعرف أن سياسة قومه لا تدخل في
 شئ إلا دخول الإبرة بخيطها في الثوب ، إن خرجت هي تركت الخيط وقد
 جمع وشد فأراد أن يمتحن مذهب المصريين في إجماعهم على الاستقلال ،
 وقدّر أنه واجدٌ من الفلاحين عوناً له ومادةً لمكره السياسي ، وحسب الوفد
 صورةً جديدةً من طبقة (الباشوات) القديمة ، ينزلون من الشعب منزلة اليد
 التي تُمسِكُ القيد ، من الرجل التي فيها القيد ، ويضعون معنى كلمة الحاجة في كلمة
 السياسة ، ويقولون الوطن وهم يريدون الجاه ، ويقيمون الشعب كالسُّلم ينتصب
 قائماً بأيديهم ليحمل أرجلهم الصاعدة عليه .

فجاء اللورد إلى مصر ، فوجد الأمة كلها قد حذرت منه وتيقظت له ، حتى
 نصحه رشدي باشا بأنه لن يجد في مصر هرّة تفاوضه ؛ ولكنه كان مستيقظاً
 أن أذن السياسة الإنجليزية (كالرديو) لصوتين : صوت الدنانير وصوت
 الجماهير ، فمرّ في البلاد يرسم على الهواء علامات استفهام ، وانصتق عنه الناس
 وأهملوه ، وكان يسير في دائرة الصمت التي مركزها أبو الهول ، فبدأ وظلَّ يبدأ
 حتى انتهى وما زال يبدأ وساح في البلاد سياحةً طويلة ، وكأنه لم يسافر
 إلا من شفة أبي الهول السفلى إلى شفته العليا .

قال صاحب السر : وجاء اللورد لمقابلة الباشا ، فرَّ على مرور كتاب مقفل : لا أعرفُ منه إلا العنوان ؛ غير أنه رجلٌ بمقدار الرجل الذي يخالف أمةً كاملة تنكاد تحسبه مطوياً على زوبعة ، وترى له قوتين تحسُّ من أثرهما الرهبة والإعجاب ، وإذا تأملتَه قلت إن اللطف والظرف أضعفُ شمائله ، وإن الذكاء والحيلة أقوى مواهبه .

فلما لقيتُ الباشا من الغد ، سألتني : كيف رأيت اللورد مانر ؟ فقلت : والله يا باشا إنه كالضرورة : ما يمتناها أحدٌ ولكنها تجيء . . .

فضحك الباشا وقال : يا ليت لنا نحن الشرقيين كل يوم ضرورة تصنع ما صنع اللورد ؛ إنه كشف لنا في ذاتِ أنفسنا عن حقيقة من أسمى الحقائق السياسية : وهي أن الشعب الذي يُصرُّ ولا يزال يُصرُّ ، يجعل الإغراء لا يغري والخوف لا يخيف .

ويا ليت الأمم الشرقية تتعلم هذا الصمت السياسي عن مجاوبة الكلمة الاستعمارية أحياناً ؛ فإن صمت الأمة المصرية عن جواب (مانر) ، كان معناه أن قدرة الأمة هي المتكلمة كلامها بهذا الصمت ، تعلن للعالم أن الواجب الشعبي قد وضع قفله على كل فم .

وقد فسر اللورد هذا السكوت بتفسيره السياسي ، فأدرك منه أن في الشعب أنفةً وحميةً وقوة ، وأن حساب الضمير الوطني أصبح لهذه الأفئدة كالحساب الإلهي للنفوس المؤمنة : كلاهما مُستعلنٌ يخافُ ويتَّقَى ، وكلاهما له كلمة محرمة . أية معجزة هذه التي جعلت كلمة الأجنبي تتخذُ في أذهان أمةٍ كاملة شكل قائلها ، فاجتمعت لها البلادُ على معنى الرفض ، وأصبح كلُّ فرد يعرف محله من الكل ، وخضعت الطبايعُ بحملتها لقانون العزة القومية ، الذي يلزمها ألا تخضع للأجنبي ؟

إن الأمم بعضُ مسائلَ نفسيةٍ كهذه المسئلة ؛ فلو أن لنا خمسةَ دروسٍ سياسيةٍ مختلفةٍ كدرس (ملتر) ، لكانت لنا في الإيمان الوطني كالمصولات الخمس .
والآن تعلمت الأمة أن الشعبَ العزيزَ هو الذي ينظر في فضِّ مشاكِله إلى الحلِّ وإلى طريقة الحل أيضاً ، وقد كان (ملتر) هو أولُ أساتذتنا في تعليمنا الطريقة .

وهذا الدرسُ يجب أن يكون درساً للشرق كله ، فإن السياسة الاستعمارية قائمةٌ فيه على خداع الطريقة في حل مشاكِله ، فيحلونها ويعقدونها في نصٍّ واحد ؛ ويُثبت الكلامُ الذي يتفقون عليه أن المراد منه زوالُ الخلاف ، ويثبت العملُ بعد ذلك أن المراد كان زوالُ المقاومة .

وفي السياسة الأوربية موافقاتٌ دميمةٌ كالنساء المشوّهات ، فإذا عرضوا واحدة منها على من يريدون أن يزوجه . . . فأباها وفتح لها عينيه بكل ما فيهما من قوة الإبصار ، أعفوه منها وقالوا له : سنأتيك بالجميلة ، ثم يذهبون بها إلى معهد التجميل اللغوي ، فيصقلونها ويصبغونها ، ويضعون لها أحمر السياسة وأبيضها ، ثم يعرضونها جديدةً على صاحبهم ذاك ، وما صنعوا ما به صارت الدميمة غير دميمة ، ولكن ما به رجع غيرُ الأعمى كالأعمى .

ولهم عقولٌ عجيبة في اختراع الألفاظ ، حتى لتكون شدةُ الوضوح في عبارة ، هي بعينها الطريقة لإخفاء الغموض في عبارة أخرى . وكثيراً ما يأتون بألفاظٍ منتفخةٍ تحسبُ جزلةً بادنةً قد ملأها معناها ، وهي في السياسة ألفاظٌ حُبالي ، تستكملُ حملها مدةً ثم تلد . . .

ولهم من بعض الكلمات السياسية ، كما لهم من بعض الرجال السياسيين ؛ فيكون الرجلُ من دُهاتهم رجلاً كالناس ، وهو عندهم مِسْمَارٌ دَقَّوه في أرض كذا أو مملكة كذا ، ويكون اللفظُ لفظاً كاللغة ، وهو مِسْمَارٌ دَقَّوه في وثيقة أو معاهدة .

ثم ضحك الباشا وقال : إن أرضنا تُخرج القطن ، وسياستنّا تخرج ألفاظاً كالقطن : لا توضع في المغزل إلا مدّت وتحولت . وإذا ذهبنا لفهمهم في التأويل والتفسير ، لم نجد عندنا المعجم السياسي الذي يُملّي النص . أتدرى يا بني ما هو المعجم السياسي ؟

أما إنه لو كان كتاباً يتألف من مليون كلمة ، لذهبت كلها عبثاً وباطلاً وهُراء ، ولكنه ذلك المعجم الحَيّ ، ذلك المعجم الذي يتألف من مليون جندي

اللسان المرقع ...

وقال صاحب سر (م) باشا : جاء « حضرة صاحب السعادة » فلان لزيارة الباشا ؛ وهو رجل مصريٌّ وُلِدَ في بعض القرى ، ما نعلم أن الله (تعالى) ميزه بجوهر غير الجوهر ، ولا طبع غير الطبع ، ولا تركيب غير التركيب ، ولا زاد في دمه نقطة زهوٍ ، ولا وضعه موضع الوسط بين فنّين من الخليقة . غير أنه زار فرنسا ، وطاف بالبحر، وساح في إيطاليا ، وعاج على ألمانيا ، ولوّّن نفسه ألواناً ، فهو مصريٌّ ملوّّن . ومن ثم كان لا يرى في بلاده وقومه إلا الفروق بين ما هنا وبين ما هناك ، فما يظهر له دين قومه إلا مقابلاً لشهوات أحباها وغامر فيها ، ولا لغة قومه إلا مقرونة بلغة أخرى ودّ لو كان من أهلها ، ولا تاريخ قومه إلا مغمى عليه ... كلّيت بين تواريخ الأمم .

هو كغيره من هؤلاء المترفين المنعمين : مصريٌّ المال فقط ، إذ كانت أسبابهم ومستغلاتهم في مصر ؛ عربيٌّ الاسم لا غير ، إذ كانت أسماءهم من

جناية أهلهم بالطبيعة ؛ مُسلمٌ ما مضى دون ما هو حاضر ، إذ كان لا حيلة في أنسابهم التي انحدروا منها .

هو كغيره من هؤلاء المترفين المنعمين المفتونين بالمدنية : لكل منهم جنسه المصرى وفكره جنس آخر .

قال : وكان حضرة صاحب السعادة يكلم الباشا بالعربية التي تلغها العربية ، مرتفعاً بها عن لغة الفصيح ارتفاعاً منحطاً نازلاً بها عن لغة الشوقة نزولاً عالياً . . . فكان يرتضخ لسكنة أعجمية ، بينما هي في بعض الألفاظ جرس عال يطن ، إذا هي في لفظ آخر صوت مريض يئن ، إذا هي في كلمة ثالثة نغم موسيقى يرن . ورأيتُه يتكلف نسيان بعض الجمل العربية ليلوى لسانه بغيرها من الفرنسية ، لا تظرفاً ولا تملحاً ولا إظهاراً لقدرة أو علم ، ولكن استجابة للشعور الأجنبي الخفي المتمكن في نفسه . فكانت وطنية عقله تأتي إلا أن تكذب وطنية لسانه ، وهو بإحداها زائفٌ على قومه ، وبالأخرى زائفٌ على غير قومه .

فلما انصرف الرجل قال الباشا : أفٍ لهذا وأمثال هذا ! أفٍ لهم ولما يصنعون ! إن هذا الكبير يلقبونه « حضرة صاحب السعادة » ، ولأشرفٍ منه والله رجلٌ قرؤى ساذج يكون لقبه « حضرة صاحب الجاموسة » نعم إن الفلاح عندنا جاهلٌ علم ، ولكن هذا أقبح منه جهلاً ، فإنه جاهلٌ وطنية . ثم إن الجاموسة وصاحبها عاملان دائبان مخلصان للوطن ؛ فما هو عمل حضرة (صاحب اللسان المرقع) هذا ؟ إن عمله أن يعلن برطانتة الأجنبية أن لغة وطنه ذليلة مهينة ، وأنه مُتجرد من الروح السياسى للغة قومه ؛ إذ لا يظهر الروح السياسى للغة ما ، إلا في الحرص عليها وتقديمها على سواها .

الصفحة

النقد اللغوي

كان الواجب على مثل هذا ألا يتكلم في بلاده إلا بلغته ، وكان الذى هو
أوجب أن يتعصب لها على كل لغة تزاوجها فى أرضها ، فترك هذا وهذا وكان
هو المزاحم بنفسه : فهو على أنه « حضرة صاحب سعادة » ، لا ينزل نفسه من
اللغة القومية إلا منزلة خادم أجنبى فى حانة .

أتدرى ما هو سر هؤلاء الكبراء وهؤلاء السّرة الذين يطمطمون إذا
تسكّموا فيما بينهم ؟ إنهم عندنا طبقات :

أما واحدة ، فإنهم يصنعون هذا الصنيع منجذبين إلى أصل راسخ فى طباعهم ،
مما تركه الظلم والاستبداد والحق فى زمن الحكم التركى ؛ فهم يُبدون جوهر
نفوسهم لأعينهم وأعين الناس ، كأن اللغة الأجنبية فيما بينهم علامة الحكم
والسلطة واحتقار الشعب واستمرار ذلك الحق فى الدم وهم بها يتنبّلون .

وأما طبقة ، فإنهم يتكلمون هذا مما فى نفوسهم من طباع أحدثها النفاق
والخضوع والذلّ السياسى فى عهد الاحتلال الانجليزى ؛ فاللغة الأجنبية بينهم
تشرىف واعتبار ، كأنهم بها من غير الشعب المحكوم الذى فقد السلطة ، وهم
بها يتجددون .

وأما جماعة ، فإنهم يتعمدون هذا يريدون به عيب اللغة العربية وتهجينها ،
إذ اتخذوا من عداوة هذه اللغة طريقة انتحلوها ومذهباً انتسبوا إليه ؛ وفيهم
العالم بعلوم أوربا ، والأديب بأدب أوربا ؛ وذلك من عداوتهم للدين الإسلامى ،
إذ جعل هذه اللغة حكومةً باقيةً فى بلادهم مع كل حكومة وفوق كل حكومة ؛
وهم يزدرون هذا الدين ويستقطن عن أنفسهم كلّ واجباته . وهؤلاء قد خاطوا
عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، إذ يغلون فى مصريتهم غلوّاً قبيحاً ينتهى بهم إلى سفه
الآراء ، وخفة الأحلام ، وطيش النزعات ، فيما يتصل بالدين الإسلامى وآدابه ولغته .
وما أرى الواحد منهم إلا قد غطى وصفه من حيث هو رقيق ، على وصفه من

حيث هو عالم أو أديب أو ما شاء . إن هذا لمقت « كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا » .

ومن أثر تلك الفئات الثلاث نشأت فئة رابعة ، تحول فيهم ذلك الخلط من الكلام إلى طريقة نفسية في النفس ؛ فهم يُقحمون في كتابتهم وحديثهم الكلمات الأجنبية ، ويحسون عملهم هذا نظراً ومباشرةً ومجوراً ، على أنه هو الذي يظهر لعين البصير مواضع القطع التاريخي في نفوسهم ، وأما كبر الفساد القومي في طبيعتهم ، وجهات التحلل الديني في اعتقادهم . هؤلاء يكتب أحدهم : (الترفزة) وهو قادر أن يقول الغضب ، (والفليز) وهو مستطيع أن يجعل في مكانها المغازلة ، (وللكالنس) وهو يعرف لفظة أنواع وألوان ، وهكذا وهكذا ؛ ولا والله أن تكون المسافة بين اللفظين إلا المسافة بعينها بين قلوبهم ورشد قلوبهم .

وما برح التقليدُ السخيف لا يعرف له باباً يلج منه إلى السخفاء إلا باب التهاون والتسامح ؛ ونحن قومٌ ابتلينا بتزوير العيوب على أنفسنا وعدّها في المحاسن والفضائل ، من قلة ما فينا من الفضائل والمحاسن . وبهذه الطبيعة المعكوسة نحاول أن نقبس من مزايا الأوربيين ، فلا نأخذ أكثر ما نأخذ إلا عيوبهم ، إذ كانت هي الأسهل علينا ، وهي الأشكلُ بطبعنا الضعيف المتسامح المتهاون .

ومن هذا تجد مشاكلنا الاجتماعية — على أنها أهون وأيسرُ من مشاكل الأوربيين ، وعلى أن في ديننا وآدابنا لكل مشكلة حلها — تجدها هي علينا أصعب وأشدّ ، لأننا ضعفاء ومتخاذلون ومقلدون ومفتونون ، وكل ذلك من شيء واحد : وهو أن أكثر كبرائنا هم أكبر بلائنا .

قال صاحب السر : ثم ضحك الباشا ضحكته الساخرة وقال : كيف تصنع أمة يكون أكثر العاملين هم أكبر العاطلين ، إذ يعملون ولكن بروح غير عاملة ...

سر القبعة

وحدثني صاحب سر (م) باشا ، قال : نَجَمَتْ في مصر حركةٌ بِعِقب أيام البدعة التركية ، حين لم تبق لشيء هناك قاعدةٌ إلا القاعدة الواحدة التي تقررها المشانق . . . فمن أبي أن يخلع العمامة عن رأسه خلعوا رأسه ؛ ومن قال (لا) انقلبت (م) هذه مشنقةٌ فُعِلَّقَ فيها .

وكانت فكرة اتخاذ القبعة في تركيا غطاءً للرأس ، قد جاءت بعد نزعاتٍ من مثلها كما يجيء الحذاء في آخر ما يلبس اللابس ، فلم يشك أحدٌ أنها ليست قبعةً على الرأس أكثر مما هي طريقةٌ لتربية الرأس المسلم تربيةً جديدةً ، ليس فيها ركعةٌ ولا سجدةٌ ؛ وإلا فمحن نرى هذه القبعة على رأس الزنجي والمهجمي ، وعلى رأس الأبله والمجنون ، فما رأيناها جعلت الأسود أبيض ، ولا عرفناها نقلت همجياً عن طبعه ، ولا زعم أحدٌ أنها أكمات العقل الناقص أو ردّت العقل الذاهب ، أو انقلبت آلةٌ لحل مشكلات الرأس البليد ، أو غصبت الطبيعة شيئاً وقالت : هذا الحاملي دون حامل الطربوش والعمامة .

وقد احتجوا يومئذ لصاحب تلك البدعة أنه لا يرى الوجه إلا المدنية ، ولا يعرف المدنية إلا مدينة أوربا ، فهو يمتثلها كما هي في حسناتها وسيئاتها ، وما يحل وما يحرم ، وما يكون في حاجة إليه وما يكون في غنى عنه ؛ حتى لو أن الأوربيين كانوا عوراً بالطبيعة ، لجعل هو قومهم عوراً بالصناعة ليشبهوا الأوربيين نعم إنها حجةٌ تامةٌ لولا نقص قليل في البرهان ، يمكن تلافيه بإخراج طبعة جديدة من كتب الفتوح العثمانية ، يظهر فيها الخلفاء العظام

والأبطال المغاوير الذين قهروا الأوربيين لاسين قبعات، ليشبهوا الأوربيين ...

قال صاحب السر : وتهوّر في هذه الضلالة رهط من قومنا ، وأخذوا يدعون إلى التقيّع في مصر احتذاءً لتركيا ، وذهب بعضهم إلى سعد باشا (رحمه الله) يطلب رأيه ، فكان رأيه (لا) بمدّ الألف ... وعهد إلى بعضهم أن أسأل الباشا ، فقال :

ويُتهم ! ألاّ ينجحون أن نكون نحن المصريين مقلّدين للتقليد نفسه ؟ إن هذه بدعة تمحط عندنا درجةً عن الأصل ، فكأنها بدعتان^(١) . ثم ضحك الباشا وقال : كان في القديم رجل سمع أن البصل بالخل نافع للصفا ، فذهب إلى بستان يملكه وقال لوكيله : ازرع لى بصلاً بخل هكذا يريدون من القبعات : أن تُخرج لهم تُركا بأوربيين .

ليست هذه القبعة في تركيا هي القبعة ، بل هي كلمة سبّ للعرب وردّ على الإسلام ، ضاقت بها كلُّ الأساليب أن تُظهرها واضحةً بيّنةً ، فلم يَفِ بها إلا هذا الأسلوب وحده ، وهي إعلانٌ سياسيٌّ بالمناوأة والخالفّة والانحراف عنا واطراحنا ، فإن الذي يخرج من أمته لا يخرج منها وهو في ثيابها وشعارها ؛ فبهذا انفتح لهم بابُ الخروج في القبعة دون غيرها مما يجري فيه التقليد أو يُبدعه الابتكار ؛ وإلاّ فأى سرٍّ في هذه القبعات ، ومتى كانت الأمم تقاس بمقاييس الخياطين ؟

ههنا سيفٌ أراد أن يكون مقصّاً ، فعمل أولاً ما يعمل الحسام البتّار ، فأجاد وأبدع وأكبره الناس وأعظموه ؛ ثم صنع ما يصنع المِقْصُّ ، فمادّا عساه يأتي به إلا ما ينكره الأبطال والخياطون جميعاً ؟

(١) الأصل تقليد تركيا لأوربا ، وهذه بدعة ؛ فتقليدنا لتركيا بدعة أسخف من الأولى .

أَكْتَبَ عَلَيْنَا أَنْ نَظْلَّ دَهْرَنَا نَبْحَثَ فِي التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى ، وَأَلَّا يَحْيَا الشَّرْقُ
إِلَّا مُسْتَعْبِدًا يَنْتَظِرُ فِي كُلِّ أَمْرِهِ مَنْ يَقُولُ لَهُ : اشْرَعْ لِي ... ؟ إِنْ بِحِشْنَا فَلْنَبْحَثْ
فِي زِيٍّ جَدِيدٍ نَتَمَيَّزُ بِهِ ، فَتَكُونُ الْقُوَى السَّامِنَةُ فِينَا وَفِي طَبِيعَةِ أَرْضِنَا وَجَوْنَانَا هِيَ
الَّتِي اخْتَرَعَتْ لظَاهِرِهَا مَا يَجْعَلُهُ ظَاهِرًا ، كَمَا يُخْرِجُ زَوْرُ الْأَسَدِ لِبَدَّةِ الْأَسَدِ ،
غَايَةً فِي الْمَنْفَعَةِ وَالْجَمَالِ وَالْمُلَاءَمَةِ .

أَنَا أَلْبَسُ مَا شِئْتُ ، وَلَكِنِّي عِنْدَ الْقَبْعَةِ أَجِدُ حَدًّا تَقِفُ إِلَيْهِ ذَاتِي
الْفَرْدِيَّةُ ، فَلَا أَرَى ثَمَّةَ مَوْضِعٍ انْفِرَادٍ وَلَكِنْ مَوْضِعَ مَشَاكِلَةٍ ، وَلَا أَعْرِفُ
صِفَةً مَنفَعَةً لِي بَلْ صِفَةً حَقِيقَةً مِنِّي ، وَيَعْتَرِضُنِي مِنْ هُنَاكَ الْمَعْنَى الَّتِي يَصِيرُ بِهِ
النَّوْعُ إِلَى الْجِنْسِ ، وَالوَاحِدُ إِلَى الْجَمَاعَةِ . وَمَا دَهَتْ مُسَلِّمًا أَصْلِي وَأَرْكَعَ وَأَسْجَدَ ،
فَالْقَبْعَةُ نَفْسُهَا تَقُولُ لِي : دَعْنِي فَلَسْتُ لَكَ .

وهؤلاء الرجال الذين لبسوها في مصر ، إنما اشتقوها من المصدر نفس المصدر
الذي يخرج منه التَهْتِكُ فِي النِّسَاءِ ، وَكَلَامُهَا مَنْزَعٌ مِنَ الْخَالْفَةِ ، وَكَلَامُهَا ضِدٌّ مِنْ
صِفَةِ اجْتِمَاعِيَّةٍ تَقُومُ بِهَا فَضِيلَةُ شَرْقِيَّةٍ عَامَةٍ . وَلَيْسَ يَعدَمُ قَائِلٌ وَجْهًا مِنَ الْقَوْلِ
فِي تَزْيِينِ الْقَبْعَةِ ، وَلَا مَذْهَبًا مِنَ الرَّأْيِ فِي الْاِحْتِجَاجِ لَهَا ، غَيْرَ أَنَّ الْمَذَاهِبَ
الْفَلَسَفِيَّةَ لَا يُعْجِزُهَا أَنْ تَقِيْمَ لَكَ الْبَرْهَانَ جَدَلًا مُحْضًا عَلَى أَنَّ حَيَاءَ الْمَرْأَةِ وَعَقْفَهَا
إِنَّهَا إِلَّا رَذِيلَتَانِ فِي الْفَنِّ ... وَإِنَّهَا إِلَّا مَرَضٌ وَضَعْفٌ ، وَإِنَّهَا إِلَّا كَيْتٌ
وَكَيْتٌ ، ثُمَّ تَنْتَهِي الْفَلَسَفَةُ إِلَى عَدِّهَا مِنَ الْبَلَاهَةِ وَالْغَفْلَةِ ، وَمَا الْغَفْلَةُ وَالْبَلَاهَةُ
إِلَّا أَنْ تَرِيدَ فِلَسَفَةً مِنْ فِلَسَفَاتِ الدُّنْيَا أَنْ تُقَحِّمَ فِي كِتَابِ الصَّلَاةِ مِثْلًا فَضْلًا
فِي ... فِي ... فِي الدَّعَارَةِ .

لَا يَهْوُلَنَّكَ مَا أَقْرَرْتُ لَكَ : مِنْ أَنَّ الْقَبْعَةَ الْأُورُبِيَّةَ عَلَى رَأْسِ الْمُسْلِمِ الْمِصْرِيِّ ،
تَهْتِكُ أَخْلَاقًا أَوْ سِيَاسِيًّا أَوْ دِينِيًّا أَوْ مِنْ هَذِهِ كُلِّهَا مَعًا ، فَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنَّ الَّذِينَ
لَبَسُوهَا لَمْ يَلْبَسُوهَا إِلَّا مِنْذَ قَرِيبٍ ، بَعْدَ أَنْ تَهْتَكْتَ الْأَخْلَاقَ الشَّرْقِيَّةَ الْكَرِيمَةَ

وتحلل أكثر عُقَدِها ، وبعد أن قاربت الحريةُ العصريةُ بينَ النقائضِ حتى كادت تحتلط الحدودُ اللغويةُ ؛ حرية المنفعة مثلاً تجعل الصادق والكاذب بمعنى واحد ، فلا يقال : إلا أنه وجد منفعته فصدق ، ووجد منفعته فكذب ؛ وعند الحرية العصرية أنه ما فرّق بين اللفظين وجعل لكل منهما حدوداً إلا جهلُ القدماء ، وفضيلةُ القدماء ، ودينُ القدماء . وهذه الثلاثة : الجهل والفضيلة والدين ، هي أيضاً في المعجم اللغوي الفلسفي الجديد مترادفاتٌ لمعنى واحد ، هو الاستعباد أو الوهم أو الخرافة .

ومتى أزبلت الحدودُ بين المعاني ، كان طبيعياً أن يلتبسَ شيءٌ بشيءٍ ، وأن يحلَّ معنى في موضع معنًى غيره ، وأصبح الباطلُ باطلاً بسببٍ وحقاً بسببٍ آخر ، فلا يحكم الناسَ إلا مجموعةٌ من الأخلاق المتنافرة ، تجعل كلَّ حقيقة في الأرض شبهةً مزورةً عند من لا تكون من أهوائه ونزعاته ، فيحتاج الناس بالضرورة إلى قوة تفصل بينهم فصلاً مسلحاً ، فيكسبون القانونَ بمدنيّتهم قوةً همجيةً تضطره أن يُعَدَّ للوحشية الإنسانية ، وتدفعُ هذه الوحشية أن تُعَدَّ له .

ومن اختلاط الحدود تجيء القُبعةُ على رأس المسلم ، وما هي إلا حدٌّ يطمسُ حداً ، وفكرةٌ تهزم فكرةً ، ورذيلةٌ تقول لفضيلة : هاندي قد جئتُ فاذهي .

ما هو الأكبر من شيئين لا حدَّ بينهما لتعيين الصَّغر ؟ وما هو الأصغرُ من شيئين لا حدَّ بينهما لتعيين الكبير ؟ إنها الفوضى كما ترى ما دام الحدُّ لا موضع له في التمييز ولا مقرٌّ له في العُرف ولا فصلٌ به في العادة ؛ ومن هنا كان الدينُ عند أقوامٍ أكبرَ كلمات الإنسانية في عامة لغاتها وأملاًها بالمعنى ، وكان عند آخرين أصغرَها وأفرغَها من المعنى ؛ وما كبر عند أولئك إلا من أنه يسع الاجتماعَ الإنساني وهو محدود بغاياته العليا ، وما صغر عند هؤلاء إلا بأن الاجتماع لا يسعه فلا حدَّ له ، وكأنه معنى مُتَوَهَّم لا وجود له إلا في أحرف كلمته .

فجماعة القبعة لا يرون لأنفسهم حداً يحدونها به من أخلاقنا أو ديننا
أو شرفيتنا ، وقد مَرَقُوا من كل ذلك وأصبحوا لا يرون في زينا الوطنى ما فيه
من قوة السر الخفى الذى يلهمنا ما أودعه التاريخ من قوميتنا ومعانى أسلافنا .

وأنا أعرف أن منا قوماً يرى أحدهم في ظن نفسه أنه قانون من قوانين
التطور ؛ فهو فيما يلبسُه لا ينظر إلى أنه واحد من الناس ، بل واحد من
النواميس ... ومن هنا الثقلُ والدعوى الفارغة ، وما هو أكبر من الثقل وفراغ
الدعوى . وإنه لحقُّ أن يكون بعضُ الناس أنبياء ، ولكن أقبح ما فى الباطل
أن يظن كلُّ إنسان نفسه نبياً .

واعلم أن كثيراً مما يزينونه للشرق من رذائل المدنية الأوربية ، إن هو
إلا منطقُ شهوات فى جملته ، ولقد تسمعُ الجائع يتكلم عن الطعام ، فترى كلاماً
تحتة معانٍ ومعانٍ لا يعدها غيرُ الجائع إلا حماقةً ساعتها ...

كأن يتواضع ، فيُحس كأن شيئاً غير طبيعي يتصل منه بشيء طبيعي ، فينتشٍ
ويثبُّ في وجوده الروحي وثبةً عاليةً تكون فرحاً أو طرباً أو إعجاباً أو خشوعاً
أو كلها معاً . غير أن الرجل من الحكماء إذا تأمل وجهه سعد وهو يضحك ضحكته
المطمئنة المتمكنة من معناها المقرِّ أو المنكِر أو الساخر أو أئى المعانى — حسب
نفسه يرى شكلاً من القول لا من الضحك ، وظهرت له تلك الابتسامة الفلسفية
متكلمةً ، كأنها مرةً تقول : هذا حقيقى . ومرة تقول : هذا غير حقيقى .

إن سعداً العظيم كان رجلاً ما نظر إليه وطنى إلا بعين فيها دلائل أحلامها ،
كأنما هو شخصُ فكرة لا شخصُ إنسان ؛ فإذا أنت رأيتَه كان في فكرك
قبل أن يكون في نظرك ؛ فأنت تشهدُ بنظرين : أحدهما هذا الذى تبصُرُه ،
والآخر ذاك الذى تؤمنُ به .

عبرى كالجرة الملتهبة لا تحسبه يعيش بل يحترق ويحرق ؛ تأثر كالزلزلة
فهو أبداً يرتجُّ وهو أبداً يَرُجُّ ما حوله ؛ صريحٌ كصراحة الرُّسل ، تلك التى
معناها أن الأخلاق تقول كلمتها .

رجلُ الشعب الذى يُحسُّ كلُّ مصرى أنه يملك فيه ملكاً من المجد . وقد
بلغ فى بعض مواقفه مبلغَ الشريعة ، فاستطاع أن يقول للناس : ضعوا هذا المعنى
فى الحياة ، وانزعوا هذا المعنى من الحياة .

قال صاحب السر : وانقضت الزيارة وخرج سعد والباشا إلى يساره ، فلما
رجع من وداعه قال لى : والله يا بنى لكانما زاد هذا الرجل فى ألقاب الدولة
لقباً جديداً ، ثم ضحك وقال : أتدرى ما هو هذا اللقب ؟ قالت : فما هو يا باشا ؟
قال : والله يا بنى ما من (باشا) فى هذه الدولة يكون إلى جانب سعد ، إلا
وهو يشعر أن رتبته (نصف باشا)

هذا رجل قد بلغ من العظمة مبلغاً تصاغر معه الكبير ، وتضاءل العظيم ،
وتقاصر الشامخ ؛ نعم وحتى ترك أقواماً من خصومه العطاء ، كفلان وفلان ،
وإن الواحد منهم ليلوئح للشعب من فراغه وضعفه وتطرّحه ، كأنه ظلُّ
رجلٍ لا رجل .

وقد أصبح قوةً عاملةً لا بد من فعلها في كلِّ حيٍّ تحت هذا الأفق ، حتى
كأن معاني نفسه الكبيرة تنتشر في الهواء على الناس ، فهو قوة مرسلّة
لا تمسك ، ماضية لا تردّ ، مقدورة لا يُحتال لها بحيلة .

هذا وضعُ إلهي خاص لا يشبهه أحدٌ في هذه الأمة ، كميدان الحرب
لا تشبهه الأمكنة الأخرى ؛ فقد غامر سعدٌ في الثورة العربية وخرج منها ،
ولسكنها هي لم تخرج منه ؛ بل بقيت فيه ؛ بقيت فيه تتعلم القانون والسياسة ،
وتُصلح أغلاطها ، ثم ظهرت منه في شكلها القانوني الدقيق . وبهذا تراه يَغُمر
الرجال مهماً كانوا أذكىء ؛ لأن فيه ما ليس فيهم ، وتراهم يظهرون إلى جانبه
أشياء ثابتة في معانيها ، أما هو فتراه من جميع نواحيه يتلاطم كالأمواج العاتية .
وتلك الثورة هي التي تتكلم في فمه أحياناً فتجعل لبعض كلماته قوةً كقوة
النصر ، وشهرةً كشهرة موقعة حربية مذكورة .

ولما كان هو المختار ليكون أباً للثورة — حرّمته القدرة الإلهية النسل ،
وصرفت نزعة الأبوة فيه إلى أعماله التاريخية ، ففيها عنايته وقلبه وهمومه ،
وهي نسلٌ حيٌّ من روحه العظيمة ، ويكاد معها يكون أسداً يزارُ حول أشباله .
ولن يُذكر السياسيون المصريون مع سعد ، ولن يذكر سعد نفسه إذا
انقلب سياسياً ، فإن المكان الخالي في الطبيعة الآن هو مكان رجل المقاومة
لا رجل السياسة ، وهذا هو السبب في أن سعداً يُشعر الأمة بوجوده لذّة كذبة
الفوز والانتصار ، وإن لم يفز بشيء ولم ينتصر على شيء ؛ فاطمئنان الشعب إلى

زعيم المقاومة ، هو بطبيعته كاطمئنان حامل السلاح إلى سلاحه .
وسعد وحده هو الذى أفلح فى أن يكون أستاذ المقاومة لهذه الأمة ؛
فمنسح قوانين ، وأوجد قوانين ، وحمل الشعب على الإعجاب بأعماله العظيمة ،
فمبته فيه قوة الإحساس بالعظمة فجعله عظيما ، وصرفه بالمعانى الكبيرة عن الصغائر ،
فدفعه إلى طريق مستقبله يُبدع إبداعه فيه .
إن هذا الشرق لا يحيا بالسياسة ولكن بالمقاومة ما دام ذلك الغرب
بإزائه ، والفريسة لا تتخلص من الحلق الوحشى إلا باعتراض عظامها الصلبة
القوية فى هذا الحلق .

وكم فى الشرق من سياسى كبير يجعلونه وزيرا ، فتكون الوظيفة هى الوزير
لا نفس الوزير ، حتى لو خلعوا ثيابه على خشبة ونصبوها فى كرسيه ، لكانت
أكثر نفعاً منه للأمة ، بأنها أقل شراً منه . . .
يا بنى ، كل الناس يرضون أن يتمتعوا بالمال والجاه والسيادة والحكم ، فليست
هذه هى مسئلة الشرق ، ولكن المسئلة : من هو النبي السياسى الذى يرضى
أن يصلب . . . ؟

حماسة الشعب

وحدثني صاحبُ سر (م) باشا قال : لما رجع سعد باشا من أوربا في سنة ١٩٢١ ، كانت الأمةُ في استقباله كأنها طائر مدَّ جناحيه ، لا خلافَ شيءٍ منه على شيءٍ منه ، بل كله هو كله ؛ وكانت المعارضةُ في الاستحالة يومئذٍ كاستحالة وجود رُقعةٍ في ريش الطائر .

على أن ثوبَ السياسة المصرية كثيرُ الرقع دائماً بالجديد والخلق ، فرقة من المعارضين ، وأخرى من المتعنتين ، وثالثة من المتخاذلين ، ورابعة من المعادين ، وخامسة وسادسة وسابعة من الحاسدين والمنافسين والمختلفين لشهوة الخلاف ؛ ورقاعٌ بعد ذلك مما نعلم ومالا نعلم ، فإن من العجيب أن هذا الجو الذي لا يتقلب إلا بطيئاً ، يتقلب أهله بسرعة ؛ وهذه الطبيعة التي لا تكاد تختلف ، لا يكاد أهلها يتفقون .

ولكن سعداً (رحمه الله) رجع من أوربا رجعةً السكرامة لأمة كاملة ، فغاز بأنه لم يخسر شيئاً من الحق ، وانتصر بأنه لم يهزم ، ودل على ثباته بأنه لم يتزعزع ، وذهب صولةً ورجع صولةً وعزيمة ؛ فكان إيمانُ الشعب هو الذي يتلقاه ، وكانت الثورةُ هي التي تحتفل به ، وبطلت العللُ كلها فلم يجد الاعتراضُ شيئاً يعترض عليه ، واتفقت الأسبابُ فاجتمعت الكلمة ، وظهر سعد كأنه روحُ الأمة متمثلاً في قدرة ، حاكماً بقوة ، متسلطاً بيقين .

نعم لم ينتصر البطلُ ، ولكن الأمة احتفت به لأنه يمثل فيها كلاً من نوع آخر هو سرُّ الانتصار ؛ فكانت حماسة الشعب في ذلك اليوم حماسة المبدأ

المتمكن : يُظهر شجاعة الحياة ، وفورة العزائم ، وفضيلة الإخلاص ، وشدة الصولة ، وعناد التصميم ؛ ويثبت بقوة ظاهره قوة باطنه ، وكان فرح الأمة عناداً سياسياً يفرح بأنه لا يزال قويا لم يضعف ، وكان ابتهاجها مجداً يشعر بأنه لا يزال وافراً لم ينتقص ، وكان الإجماع رداً على اليأس ، وكانت الحماسة رداً على الضعف .

انبعثت صولة الحياة في الشعب كله ، وابتدأ المستقبل من يومئذ ، فلو نزلت الملائكة من السماء في سحابة مجلجلة يُسمع تسليحهم ليؤيدوا سعداً — لما زادوه شيئاً ؛ فقد كان محله من القلوب كأنه العقيدة ، وكان التصديق مبذولاً له كأنه الكلمة الأخيرة ، وكانت الطاعة موقوفة عليه كأنه الباعث الطبيعي ، وكان البطل في كل ذلك يشبه نبيا من قبل أن كلا منهما صورة كاملة للسمو في أفكار أمة .

قال صاحب السر : ورجع الباشا من القاهرة وقد رأى ما رأى من مساحة النفوس ، وصحة العهد ، واجتماع الكلمة ، وإعداد الشعب للإراس والمعانة ، فقال : تالله لقد أثبت (سعد) للدنيا كلها أن مصر الجبارة متى شاءت بنت الرجال على طريقة الهرم الأكبر في العظمة والشهرة والمنزلة والقوة . ولقد صنع هذا الرجل العظيم ما تصنع حربٌ كبيرة ، فجمع الأمة كلها على معنى واحد لا يتناقض ، ودفعها بروح قومية واحدة لا تختلف ، وجعل عرق السياسة يفور كما يفور العرق المجروح بالدم .

إن هذه الأمة بين شيئين لا ثالث بينهما : إما الحزم إلى الآخر وإما الإضاعة . ولا حزم إلا أن يبقى الشعب كما ظهر اليوم : طوفاناً حياً ، مُستوى الطبيعة ، منسدف الحركة ، غامراً كل ما يعترضه ، إلى أن يُقضى الأمر ويقول أعداؤنا : يا سماء أقلعي .

هكذا يعمل الوطن مع أهله كأنه شخصٌ حيٌّ بينهم ، حين يستوى الجميع في الثقة ، ويتآزر الجميع في الأمل ، ويشترك الجميع في العطف الروحي ، ولا يبقى لجماعة منهم حظٌّ في رغبة غير الرغبة الواحدة للجميع ؛ وهكذا يعمل الوطن بأهله حين يعمل مع أهله .

كان أعداؤنا يحسبوننا ذباباً سياسياً لا شأن له إلا بفضلات السياسة ، ولا عمل له في أزهارها وأثمارها وعطرها وحلواها ؛ فأسمعهم الشعب اليوم طنين النحل ، وأراهم إبرَ النحل ، ليعلموا أن الأزهار والأثمار والعطر والحلوى هي له بالطبيعة .

وكانوا يتخَرَّصون أن مذهبنا في الحياة لمصاحبة المعاش فقط ، وأن المصير حاكماً أو محكوماً لا يمدُّ آماله الوطنية إلى أبعد من مدة عمره سبعين أو ثمانين سنة ، فإذا أطلقوا أيدينا في حاضر الأمة أطلقنا أيديهم في مستقبلها . ومن ثم طمعوا أن يكون الحقُّ الناقصُ في نفسه حقاً تاماً في أنفسنا لهذه العلة ؛ وحسبوا أن السياسى المصرى لا يتجرأ أن يقول ما يقوله السياسى الأوروبى : من أنه لا يخشى الموتَ ولكنه يخشى العار . فإنه إذا مات مات وحده ، وإذا جاب العار جلبه على نفسه وعلى أمته وعلى تاريخ أمته ، بيد أن سعداً قالها ؛ وفي مثل هذا قد يكون قول (لا) معركة .

وها هى ذى معركة اليوم التاريخية ، فإن الذراتِ الحيةَ اتى تخاق من دماننا نحن المصريين قد ثارت في هذه الدماء ، في هذا النهار ، تعان أنها لا ترضى أن تولد مقيّدة بقيود .

أندرى ماذا عرضوا على سعد ؟ إنهم عرضوا عليه ما يشبه في السخرية طاحونة تامة الأدوات والآلات من آخر طراز ، ثم لا تقدّم لها إلا حبة قمح واحدة لتطحنها نتيجة تسخر من أسبابها ، وأسباب تهرأ بالنتيجة .

إن أوربا لا تحترم إلا من يحملها على احترامه ، فما أرى للسياسيين في هذا الشرق عملاً أفضل ولا أقوى ولا أَرَدَّ بالفائدة من إحياء الحماسة في كل شعب شرقي ، ثم حياطتها وحسن توجيهها ؛ فهذه الحماسة الشعبية الدائمة القوية البصيرة ، هي قوة الرفض لما يجب أن يُرفض ، وقوة التأييد لما يجب أن يُقبل ، وهي بعد ذلك وسيلة جمع الأمر ، وإحكام الشأن ، وإقرار العزيمة في الأخلاق ، وتربية الثقة بالنفس ، وبها يكون إذكاء الحس وتعويد إدراك الأعمال العظيمة ، والتحمس لها ، والبذل فيها .

وما علة العلل فينا إلا ضعف الحماسة الشعبية في الشرق ، وسوء تدبيرها ، وقبح سياستها ؛ وإنا لناخذ عن الأوربيين من نظامهم وأساليبهم وسياساتهم وعلومهم وفنونهم ؛ فنأخذ كل ذلك بروحنا الفاترة في خمول وإهمال وتواكل وتفرّد بالمصلحة واستبداد بالرأى ، فإذا دينارهم في أيدينا درهم ، وإذا نحن وإياهم في الشيء الواحد كالنحلة والذبابة على زهرة . . .

ليست لنا حماسة الحياة ، وبهذا تختلف أعمالنا وأعمالهم ؛ وذلك هو السر أيضاً في أن أكثر حماسنا كلامية مخضة ؛ إذ يكون الصراخ والصياخ والتشدق ونحوها من هذه المظاهر الفارغة — تنقيحاً للطبيعة الساكنة فينا ، وتنويعاً منها بغير أن نجهد في التنقيح والتنويع . ومن هذا كانت لنا أنواع من الكلام ينطلق اللسان فيها للخروج من الصمت لا غير . . . ومنه كثير من هذا الهراء السياسي الذي يدور في المجالس والأحزاب والصحف .

إن حماسة الشعب لا تكون على أعدائه فقط ؛ بل على معايبه أيضاً ، وعلى ضعفه بخاصة ، والشعب الفاتر في حماسه لو نال حقين مغصوبين لعاد فحسب أحدهما أو كليهما ؛ أما الشعب المتحمس القوي في حماسه ، فلو غُصِبَ حقين ونال أحدهما لعاد فابتر الآخر .

الجمهور

وقال صاحب سر (م) باشا : كان من بعض عملي في الحكومة سنة ١٩٢٢ أن أراقب الحركات والسكنات ، وأبثّ العيون والأرصاد ، وأعرف المضطرب والمنقلب في أيام الفتن ونوازل الحنة ، محافظة على الأمن ، ومبادرة لما يتوقع ؛ فكنت كالمُرصد المهيب بالآلاته لتدوين حركات الزلازل .

وانتهى إلينا يوماً أن راجفة من هذه الزلازل سترجف بفلان من أهل الرأي الحر ؛ الذي يستقل ولا يتابع ، وينتقد ولا يحابي ، ويصرح ولا يجمع ، وأن قوماً ثوروا عليه الغبار الآدمي من العامة وأشباه العامة ، وأهم يتحينون الوقت لتوجيه المكيدة له في شكها المفترس من هذا الجمهور الناقم .

أما فلان هذا فرجلٌ سياسي عنيد أضاع الحق كله لأنه لا يرضى بنصف الحق . . . وكمثته في السياسة كأنما تلقى على لسانه من الغيب ؛ فلا يتحول عنها ولا يملك أن يتكلم إلا بما يتكلم ؛ وقد ذهب بصوته أنه في قوم لا يسمعون إلا ما أرادوا ، فهو بينهم كالخلق المغلوب : لا يموت لأنه غير باطل ، ثم لا يحيا لأنه لا ينتصر . وقد كان رجلاً كالمصباح الوهاج فالتقوا عليه الغطاء ، فإذا هو في طبيعته ويبدو للناس بغير طبيعته ، وتركه رأيه الحر الصريح كالنبي المكذب يرد عليه صدقه ؛ لا لأنه غير صدق ، ولكن لأنه غير مستطاع ، أو غير ملائم .

ومن آفاتنا نحن الشرقيين أننا نستمرى العداوة ، وننقاد لأسبابها ، ونطاولع لها تطاولع الصغار بأنفسهم لما في أنفسهم ؛ كأن المستبدن الذين كانوا في تاريخنا قد انتقلوا إلى طبائعنا ؛ فردّ الفكر على الفكر في مناقشة

تَجْرَى بَيْنَنَا — لَا يَكُونُ مِنْ دَفْعِ الْحَقِيقَةِ لِلْحَقِيقَةِ ، وَلَكِنْ مِنْ رَدِّ الْاِسْتِبْدَادِ عَلَى الْاِسْتِبْدَادِ ، وَمِنْ تَوْثُبِ الطَّغْيَانِ عَلَى الطَّغْيَانِ ؛ فَهُوَ الثَّلْبُ وَالطَّعْنُ وَالتَّجْرِيجُ ، وَهُوَ الْجَفْوَةُ وَالْخُصُومَةُ وَاللَّدَدُ ، وَهُوَ الْمَنَازَعَةُ وَالْعِنْفُ وَالتَّحَامُلُ ؛ وَهُوَ بِهَذِهِ تِلْكَ شَرٌّ وَفَسَادٌ وَسَقُوطٌ . وَالْجِدَالُ بَيْنَ الْعُقَلَاءِ يَبْعَثُ الْفِكَرَ فَيَنْتَهَى إِلَى الْحَقِّ ، وَلَكِنَّهُ فِينَا نَحْنُ يَهْمِجُ الْخُلُقُ فَيَنْتَهَى إِلَى الشَّرِّ ، وَالرَّدُّ عَلَى عَظِيمٍ مِمَّا كَأَنَّهُ يَرُدُّ عَلَى مَنْزِلَتِهِ فِي النَّاسِ لَا عَلَى مَنْزِلَتِهِ فِي الرَّأْيِ ، وَكَشْفُ الْخَطَا عِنْدَنَا تَعْيِيرٌ بِالْخَطَا لَا تَبْصِيرٌ بِالصَّوَابِ ، وَاسْتِلابُ الْحُجَّةِ مِنْ صَاحِبِهَا وَإِفْسَادُهَا عَلَيْهِ كَاسْتِلابِ الْمَلِكِ مِنْ مَالِكِهِ وَطَرْدِهِ مِنْهُ

وَمِنْ ثَمَّ كَانَ الدِّفَاعُ بِالْمُسَاكَبَةِ أَصْلًا مِنْ أَصُولِ الطَّبِيعَةِ فِينَا ، وَكَانَ الْاضْطِهَادُ حُجَّةً لِلْحُجَّةِ الْعَاجِزَةِ ، وَكَانَ الْإِعْنَاتُ دَلِيلًا لِلدَّلِيلِ الَّذِي لَا يَنْهَضُ بِنَفْسِهِ ، وَمَتَى اعْتَبَرُ كُلُّ إِنْسَانٍ نَفْسَهُ أَمْبَرَاطُورًا عَلَى الْحَقِّ . . . فَلَا جَرَمَ لَا تَرُدُّ كَلِمَةً عَلَى كَلِمَةٍ إِلَّا بَحْرَبَ .

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ : وَكَبُرَ الْأَمْرُ عَلَى الْبَاشَا ، فَجَمَعَ رِئُوسَ الْمُؤْتَمِرِينَ بِذَلِكَ الرَّجُلِ الْحَرِّ ، وَأَخَذَ يَقْلِبُهُمْ تَقْلِيلًا بَيْنَ التَّوَدُّدِ وَالْمَلَاظِمَةِ ، وَقَالَ لَهُمْ فِيمَا قَالَ : إِنْ فَضِيلَةُ الْجُمْهُورِ هِيَ الَّتِي تَضُمُّنُ تَرْبِيَةَ الْفَضِيلَةِ وَحِفْظَهَا وَغَلَبَتِهَا عَلَى الرِّذَائِلِ ، وَإِنْ كُلٌّ صَحِيحٌ يَكُونُ فَاسِدًا إِذَا لَمْ يَكُنِ الْجُمْهُورُ صَحِيحًا ، وَإِنْ غَيْرَ الْعُقَلَاءِ هُمُ الَّذِينَ يَقْبَلُونَ الْحَقِيقَةَ فِي يَوْمٍ ثَمَّ يَرْفُضُونَهَا هِيَ ذَاتَهَا فِي يَوْمٍ آخَرَ ، فَإِنْ ذَهَبَتْ تَجَادُلُهُمْ وَتَحْتَجُّ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ قَبَلُوهَا — قَالُوا : هَذَا كَانَ أَمْسٌ . . . فَيَكُنَّا نَمَّا الْفَاصِلُ بَيْنَ زَمَنَيْنِ يَجْعَلُ الشَّيْءَ الْوَاحِدَ ضِدَّيْنِ .

ثُمَّ سَأَلَهُمْ : مَا هُوَ ذَنْبُ الرَّجُلِ ؟ فَقَالَ مِنْهُمْ قَائِلٌ : إِنَّهُ خَارِجٌ عَلَيْنَا فِي الرَّأْيِ . فَقَالَ الْبَاشَا : إِنْ الْمَعْنَى فِي أَنَّهُ يَخَالِفُكُمْ هُوَ أَنَّكُمْ أَتَمْتُمْ تَخَالِفُونَهُ ؛ فَقَدْ تَسْكَفَاتُ

الناحيتان ، وخلاف بخلاف ؛ فما الذى جعل لكم حقّ رده عن الرأى دون أن يكون له مثلُ هذا الحق في ردكم أتم ؟

قالوا : إننا الكثرة . قال الباشا : يا أصدقائى ، إن خوفَ الكثرة من رأى فرد أو أفراد هو أسوأُ المعنيتين في تفسير رأياها هي ؛ وعشرةُ جنهيات لا تعباً بالجنهيه الواحد ، فإنها تستغرقه ؛ بيدَ أن هذه ليست حالَ عشرة قروش يا أصدقائى

نعم إن قطعَ الخلاف ضرورةً من ضرورات الوطنية ، ولكن إذا كان الأمر في ظاهره وباطنه كاخلاف في أيهما أطول : العصا أو المِئذنة . . . ؟ فذلك جدال محسومٌ من نفسه بلا جدال .

إن أساسَ انخذا لنا نحن الشرقيين في قلوبنا ، إذ لا نعتبر المعانى العامة إلا من جهة أنها قائمةٌ بالرجال ، ثم لا نعتبر الرجال إلا من ناحية ما في أنفسهم منهم ، ثم لا نعتبر أنفسنا إلا من جهة ما يُرضينا أو يغضبنا ، وقد لا يغضبنا إلا الحق والجُذ ، وقد لا يرضينا إلا الباطلُ والتهافت ، ولسكننا لا نبالى إلا ما نرضى وما نغضب .

لستم أحراراً في أن تجعلوا غيركم غيرَ حر ، فإن يكن الرأى الذى يعارضكم رأياً حقاً وتركتم مُنابذته فقد نصرتم الحق ؛ وإن يكن باطلاً فإظهاره باطلاً هو برهانُ الحق الذى أتم عليه ؛ ولن تجردوا أحداً من اختيار الرأى إلا إذا تجردتم أتم من اختيار العدل ، فإن فعلتم فهذه كبرياء ظالمة ، تدعى أنها الحق ، ثم تدعى لنفسها حكمه ، فقد كذبت مرتين .

اسمعوا أيها السادة : قامت بين اثنين من فلاسفة الرأى مناظرة في صحيفة من الصحف ، وتساجلا في مقالاتٍ عدّة ، فلما عجز أضعفهما حجةً وكعمه الجدال ، كتب مقالته الأخيرة فجاءت سقيمةً ، فلم ترضه فبيّتها ونام عنها على أن يرسلها

من الغداة بعد أن يُردد نظره فيها ويصحح آراءه بالحجج التي يُفتح بها عليه .
قالوا : فلما نام تمثّلت له المقالة في أحلامه جسماً حياً موهوناً مترضاً ، مخلوعاً
من هنا مكسوراً من هناك ، مجروحاً مما بينهما ؛ ثم كلمته فقالت له : ويحك
أيها الأبله ! إن أردت أن تغلب صاحبك وتُسكّته عنك ، فاحملْ مقالتك إلى
رأسه في العصا لا في الجريدة . . .

قال صاحب السر : وضحك القومُ جميعاً ، وأذعنوا وانصرفوا مقتنعين ، قد
خَلَصَتْ دِخْلَتُهُمْ لذلك الرجل الحر ، وتنصّلوا من جريمة كانت في أيديهم ،
وما جاء الباشا بمُعْجَزٍ من القول ، ولكنَّ تصوّره للمسألة كان حلاً لها في
نفوسهم . فلما أدبروا تنفّس الباشا كأنما خرج من البحر وكان يتعاطى إنقاذ
غريقٍ ويُعاني فيه حتى نجا ؛ ثم قال لي : إن هذا كان جواباً عن شيء في أنفسهم ،
ولكنه هو سؤال عن شيء في أنفسنا : ما الذي يجعل الناس عندنا يخشون
المعارضة في الرأي الوطني حتى إنهم ليجازون عليها بهذه العقوبة الشعبية المنكرة ؟
وما بالهم لا يعطون الرأي حكمه وحقيقته ، بل يعطونه من حكم أنفسهم وحقائقها
وشهواتها المتقلبة ، حتى لترجعُ الفروقُ الضعيفة المتجانسة في أبناء الوطن الواحد
وكأنها من الخلافِ والمباينةِ فروقٌ جنسيةٌ كالتي تكون بين إنسانٍ من أمة ،
وإنسانٍ من أمة أخرى تعاديها ؟
قلت : إن رأي السكثرة قانون يا باشا .

قال : هذا صحيح ، ولكن بشرطين لا بشرط واحد : الأولُ ألا يخرج
الرأي على القانون ، والثاني ألا تكون الحقيقة في الرأي الذي يناقِضه ؛ ومحاولة
إكراه المعارضة نقضٌ للشترطين معاً ؛ ثم إن أساس الوطنية سلامة القلوب
وصفاء النيات ، واستواء الموافق والمخالف في هذا الحكم ، ومتى وقع الخلاف

بين اثنين وكانت النية صادقةً مُخْلِصةً ، لم يكن اختلافهما إلا من تنوع الرأي ،
وانتهيا إلى الاتفاق بغلبة أقوى الرايين ، ما من ذلك بد .

الحقيقة يا بني أن الجماهير الشرقية ليست في تربيتها من الجماهير السياسية
التي يُعْتَدُّ بها ، إذ لا تزال في أول عمرها السياسي ، وبهذا السبب وحده كان
اختلافُ الكبراء في السياسة لا يشبهه إلا نزاعُ الخصمين بغير شهود ولا قاضٍ
نافذِ الحكم ، فهو نزاع قوة تفوز بوسائلها ، لا نزاع حقٍّ يَسْتَعْلِي بأدلتِهِ .

وهذه المجالسُ النيابية الشرقية كلها صُورٌ ممثلة جافّة ، منقطعة النماء من
أسبابها ، كالفرع المقتطوع من الشجرة ، وإنما يتنضّرُ الفرعُ ويُسِرُّ أثماره إذا قام
بشجرته لا بنفسه ، وما شجرةُ الفرع السياسيّ إلا الجمهورُ السياسي .

فسبيلُ الإصلاح في كل مملكة شرقية أن ينهض أهلُ الرأي من كل مدينة
فيها بين عالم وأديب ومحام وسرّي ، ومن كان بسبيلٍ من هؤلاء ، فيجعلوا
لمدينتهم دارَ ندوة للاجتماع والبحث والمشورة ، وقول (نعم) بالحجة وقول (لا)
بالحجة . ثم يعلنون ذلك في جمهورهم وينزلون منه منزلة الأستاذ والأب والصديق
في تعليمه وهدايته وإرشاده ؛ وتصل هذه الدورُ في كل مملكة بعضها ببعض ،
وتنتهي بالمجالس النيابية . وبغير ذلك لا يملأ الفراغُ الذي نراه خاوياً بين الشعب
والحكومة ، وبين الكبراء والجماهير ، وإنما أكثرُ مصائبنا من هذا الفراغ ؛
فهو الذي يَضِيع فيه ما يَضِيع فيه ، ويختفي ما يختفي .

منا قومٌ موظفون في الحكومة ؛ ولكن أين القومُ الذين تكون الحكومةُ
نفسُها موظفةً عندهم ؟

(اعتذار) : بهذا المقال انتهت أحاديث الباشا ؛ فقد أنبأنا صاحب

السر أنه سيكتبكم السر

المجننون

جاء يمشى هادئاً يتخيلُ في مشيته ، يَرَجُفُ بين الخطوة والخطوة كأنه من كبره يُشْعِرُك أن الأرض مُدْرِكة أنه يمشى فوقها . . . ولا ينقلُ قدمه إذا خطاً حتى ينهضَ برأسه يُجَرِّكه إلى أعلى ، فما تدرى أهو يريد أن يطمئن إلى أن رأسه معه . . . أم يُحَيِّلُ إليه أن هذا الرأس العظيم قد وُضع على جسمه في موضع راية الدولة ، فهو يهزُّه هزَّ الراية . . .

وأخذته عيني وليس بيني وبينه إلا طولُ غرفةٍ وعرضُها -- فإذا هو زائغُ البصر كأنما وقع في صحراءٍ يقلِّبُ عينه في جهاتها متحيراً متردداً ، ثم كأنما رُفِعَ له في أقصاها جبلٌ فأخذ إلى ناحيته . . .

ورحبتُ به ، وأجلسته إلى جانبي ، فأخذ يَسْتَعْرِفُ إلىَّ بذكر اسمه وجماعته وبلده ، لا يزيد على ذلك شيئاً ، كأنه عنترَةُ بنِ عَبَسٍ : لأرضه من طبيعتها جغرافيا ، ومن اسمه جغرافيا على حدة . . . فلما رآني لا أثبتُهُ مَعْرِفَةً قال : إن بك نسياناً .

قلت : وكثيراً ما أنسى ، غير أن اسمك ليس من هذه الأسماء التي تذكر بتاريخ .

قال : هذه غلطةُ الجرائد . . . ومهما تنسَ من شيء فلا تنسَ أنك أستاذُ « نابعة القرن العشرين ^(١) » . . .

فسرَّحتُ فيه نظري ، فإذا أنا بمجنونٍ ظريفٍ أُمردٍ أهيفٍ ، يكاد

(١) هذا الشاب المجنون من الأذكاء ، وكان قد انتهى إلى مدرسة المعلمين الأولية ، ثم خولط في عقله فتركها ؛ وكل ما يمر في هذا المقال بين قوسين فهو بنصه من كلامه .

برخاوته وتفككه لا يكون رجلاً ، ويكاد يبدو امرأةً بجمال عينيه وفتورها .
وتوسمتُ فإذا وجههُ ساكنٌ منبسّطُ الأساريرِ ممسوحُ المعاني ، يُنبئُ
بانقطاع صاحبه مما حوله ، كأن دنياه ليست دنيا الناس ، ولكنها دنيا رأسه ..
وتأملتُ فإذا طفولةٌ متبلّدةٌ قد ثبتتْ في هذا الوجه لتُخرجَ من بين الرجلِ
والطفلِ مجنوناً لا هو طفلٌ ولا رجل .

وتفرّستُ فإذا آتارُ معركةٍ باديةٍ في هذه الصّفحة ، قتلاها أفكارُ
المسكينِ وعواطفه .

وتبيّنتُ فإذا رجلٌ مُستريحٌ ، مُتفَتِّرُ البدنِ ، خائرُ النفس ، كأنه قائمٌ
لِتَوّهِ من النوم فلا تزال في عينه سِنَةٌ ، وكأنه يتكلم من بقايا حلمٍ كان يراه ...
وحُيِّلَ إلى من هذا الخمولِ في هذا الشاب ، أن عليه جِوًّا من تشاؤبه ،
وأن المكانَ كله يتشاءبُ ، فتشاءبت ...

فلما رأى ذلك منى ضحك وقال : إن « نابعة القرب العشرين » رجل
مغناطيسيٌّ عظيم ؛ فهاهو ذا قد ألقى عليك النوم ... وحسبك فخراً أن تكون
أستاذَه وأخاه وثيقته ، « فليس على ظهرها اليوم أديبٌ غيّرٌ وغيرك ... »
قلتُ في نفسي : إنا لله ، ما يعتقد الرجلُ أن على ظهرها مجنوناً غيره وغيري ،
وكانما أَلَمْ بذلك فقال : لستُ مجنوناً ؛ ولكني كنتُ في المستشفى ...

قلت : أهو المستشفى الذي يسمّى مستشفى المجاذيب ؟
قال : لا ؛ إن هذا الذي تسميه أنت ، هو هو مستشفى المجاذيب ؛ أما الذي
سميته أنا فهو مستشفى فقط ...

وذكرتُ عندئذٍ أن من الجانين قوماً ظرفاء يدخلُهم الفسادُ في عقولهم من
ناحيةٍ فكريةٍ ملازمةٍ لا تَبْرَحُ ، فلا يكون جنونهم جنوناً إلا من هذا الوجه ،

وسائر أحوالهم كأحوال العقلاء ، غير أنهم بذلك طيَّاشون متقلبون ، إذا ازدُهِىَ أحدهم لم يُطِقْهُ الناسُ من زهوه وكبريائه وتنطَّعه ، كأنه واحد الدنيا في هذه الفكرة ، وكأن بينه وبين الله أسراراً ؛ ويظن عند نفسه أنه أعقل الناس في أرق طبقات عقله ، وما جنونه إلا في هذه الطبقة وحدها .

ومثل هذا لا بدَّ له من يستجيب لهذيانه كيما يحرك فيه خفته وطيشه وزهوه ، وليكون عنده الشاهد على هذا الوجود الخيالي المبدع الذي لا يوجد إلا في عقله المختل . فإذا هو ظفر بمن يُحاسِنُه ، أو يصانِعُه ، أو يجاريه ، حسبه مُدْعِئاً مؤمناً مصدقاً ، فلا يدَّعه من بعدها ويتعلق به أشدَّ التعلق ، ويراه كأنه في ملكه فيتخذُه صفيّاً وهو يعتقد أنه رقيق ؛ وقد يزعمُه أستاذه ليُفهِمَه من ذلك بحساب عقله أنه تلميذه .

وخشيت أن يكون (نابغة القرن العشرين) لم يُسمنى أستاذه إلا بحساب من هذا الحساب ، فهو سيُعْطى الأستاذية حقها ، ولكن كما هو حقها في لغة جنونه . . . فأصبح في رأيه تلميذه وصنيعته ، ومحدث هذيانه ، وثقته وملاجئه ، والمحامي من ورائه .

قلت في نفسي : إذا أنا تركته جالساً كان هذا المجلس مثابته من بعد ، فلا يعرف له محلا غيره ، ويصبح كما يقال في تعبير القانون « محله المختار » ، فيَتَطَرَّأُ إلى سبب ولغير سبب ، ويقع في أوقاتي وقوع السهو لا حساب عليه ، ويَضِيعُ فيه ما يضيع . فأجمعت أن أصرفه راضياً باليأس ؛ وقد انتهت نفسه من معرفتي ، وانتهى عقله إلى الرأي أنني لا أصلح له أستاذاً ، لا بحسابه هو ولا بحساب الناس .

فقلت له : ظنى بك أنك أستاذ نفسك ، ولا يحسنُ بنابغة القرن العشرين أن يكون له في القرن العشرين أستاذ ؛ وأراك قد فرغت للأدب ، أما أنا

فمشغول بأعمال وظيفتي ، وقد جاء من العمل ما تراه ، وتكاد لا تفي به الساعات
الباقية من الوقت و ...

فقطع على وقال : إن الوقت ليس في الساعة ؛ والدليل أني أعطتهما فيتعطل
الوقت ، ولا يكون فيها يومٌ ولا ساعة ولا ثانية ولا دقيقة .

فقلت : ولكنك إذا عطلتها لم تتعطل الشمس التي تعين منازل النهار ،
فسيمرُّ الظهر ويحينُ العصر و ...

قال : ويأتي غد ، وإنما أنا معك اليوم فقط ... ويجب أن تغتبط بأنك
أستاذ (نابغة القرن العشرين) ، فقد قرأت الكثير في الأدب وقرأتك ، فما
كان لي رأي إلا رأيته لك ... ولا صحت عندي نظرية إلا رأيته قد أبديتها ،
وأنا لا أعتقد أدباً في مصر إلا ما توافقنا عليه معاً « ولا أسلم جدلاً ، ولا جدلاً
أسلم أن في مصر أدباء ينالون مني شيئاً ، فهو أنا وأنا هو » ^(١) ، ولئن لم يذعنوا
(لنابغة القرن العشرين) فليعلمن أنهم « وقعوا مني موقع نملة على صخرة ...
هذا من جهة ، ومن جهة أريد سجاناً وليس معي ثمنها » ...

فهللت واستبشرت ، وقلت له : هذا قرش فهل فاشتر به دخانك ، وفي
رعاية الله . ثم استويت للقيام ، ولكنه لم يقم ؛ بل تمكن في مجلسه ...

وكرهت أن أغير له وما أشك أنه في هذا صحيح التمييز ؛ فما أسرع ما قال :
إن « نابغة القرن العشرين » فتى قوى الإرادة ؛ فإذا هو لم يصبر عن التدخين
ساعاتٍ فما هو بصبور ... وإذا لم يُثبت لك هذا الأمر عن معاناة ...
فما أعطيته حقه .

(١) ما بين القوسين هو كلامه بنصبه كما نهينا إلى ذلك ، والباقي ترجمناه نحن عن معانيه ،
وأكثر ما يأتي فهذه سبيله .

فقلت في نفسي : لقد غرست الرجل من حيث أردت أقتلعه ،
وأيقنت أنه من عقلاء المجانين الذين تتغير فيهم العاطفة أحياناً فتلهمهم آيات
من الذكاء لا يتفق مثلها إلا لنوابغ المنطق ؛ وذكرت (بهلول) المجنون الذي
حكوا عنه أن ابراهيم الشيباني مرَّ به وهو يأكل خبيصاً^(١) فقال له : أطمعني .
قال : ليس هو لي ، إنما هو لعاتكة بنت الخليفة بعثته إلى لا كله لها

وقالوا : إنه مر بسوق البزازين فرأى قومًا مجتمعين على باب وكان قد
نقب ، فنظر فيه وقال : أتعلمون من عمل هذا ؟ قالوا : لا . قال : فأنا أعلم .
فقالوا : هذا مجنون يراهم بالليل ولا يتحاشونه ، فألطفوا به لعله يخبركم . ثم
قالوا : أخبرنا . قال : أنا جائع . فجاءوه بطعام سني وحلواء ؛ فلما شبع قام فنظر
في النقب وقال : هذا عمل اللصوص

وكانت مجلة (الرسالة) في يد (نابغة القرن العشرين) ، فوصل الكلام بها
وقال : إنه يقرأ كل مقالاتي ، وإنه وإنه ، وإنها وإنها . قالت : فما استحسننت
منها ؟ قال : (مقالة السيام)

فقلت : متى كان آخر عهدك برؤية السيام ؟ قال : أمس .
قلت : فأنا لم أكتب مقالاً عن السيام ، ولكنك أعجبت بما رأيت أمس
فتحوّل ما رأيته حلماً في مقالة .

فأعجبه هذا التأويل وقال : بمثل هذا أنا (نابغة القرن العشرين) ، فأقرأ
مقالتي في الغيب من قبل أن تكتبها

قلت : إنك تكثر أن تقول عن نفسك (نابغة القرن العشرين) ، وهذا
يخصّر نبوغك في قرن بعينه ؛ فلو قطعت الكلمة وقالت : (نابغة القرن) ، لصح
أن تكون نابغة القرن التاسع عشر والثامن عشر ، وما قبلهما وما بعدهما .

(١) طعام كانوا يتخذونه من التمر والسمن .

فَرَأَيْتُ بِهِ شِدْهَةً كَأَنَّهُ يَفْكُرُ فِي جَنُونِهِ ، ثُمَّ أَفَاقَ وَقَالَ : لَا . لَا . : وَإِنْ هَاهُنَا مَوْضِعٌ نَظَرٌ ، فَلَوْ رَضِيتُ بِنَابِغَةِ الْقَرْنِ فَقَطْ ، لَجَاءَ مِنْ يَقُولُ : إِنِّي نَابِغَةُ قَرْنِ خُرُوفٍ . . .

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : حَمَاءُ مُدَّتْ بَمَاءِ ^(١) ، وَإِنْ هَذِهِ الْوَسَاوِسَ لَا تَنفَكُّ تَعْرِوْ هَذَا الْمُسْكِينَ مَا وَجَدَ مِنْ يَكْلَمِهِ ؛ وَالْأَفْكَارُ فِي ذَهْنِهِ مَجْتَمِعَةٌ مَخْطِطَةٌ مُسْتَرَسَلَةٌ كَأَنَّهَا ثَوْرَةٌ مِنَ الْكَلَامِ لَا نِظَامَ لَهَا ، فَلَأَسْكُتُ عَنْهُ وَلَا تُشَاغِلْ بِمَا بَيْنَ يَدَيَّ .
وَسَكُتٌ وَأَعْرَضْتُ عَنْهُ ؛ فَجَعَلَ طَائِفُهُ يَعْتَرِيهِ ، وَكَأَنَّ السَّكُوتَ قَدْ سَاطَ أَفْكَارُهُ عَلَيْهِ ، وَكَأَنَّهَا أَخَذَتْ تَصِيحُ بِهِ فِي رَأْسِهِ كَمَا يَصِيحُ غُلَامَانُ الطَّرِيقَ بِالْجُنُونِ ، لَا يَزَالُونَ بِهِ حَتَّى يُحْرِدُوهُ وَيُقْطِعُوهُ الْبَقِيَّةَ مِنْ صَبْرِهِ وَعَقْلِهِ مَعًا . فَغَضِبَ (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ) وَنَقَلَ الْغَضَبُ إِلَى حَالَةٍ زَمْهَرَتْ فِيهَا عَيْنَاهُ ^(٢) ، وَكَلَّحَ وَجْهَهُ حَتَّى خَفَتْ أَنْ يَثْوَرَ بِهِ الْجُنُونُ ، فَأَقْبَلْتُ عَلَيْهِ وَتَعَلَّاتُ بِسْؤَالِهِ : أَلَاكَ إِخْوَةٌ ؟ أَلَمْ يَنْبَغُ فِيهِمْ نَابِغَةٌ . . . ؟

قَالَ : إِنْ لَهُ أَخًا يَعْذِبُهُ ، وَيُوقِعُ بِهِ ضَرْبًا ، وَيَعْلَلُهُ بِالسَّلَاسِلِ ، وَيَشْدُوهُ « بِأَمْرَاسٍ كَتَّانٍ إِلَى صُمٍّ جَنْدَلٍ » ، وَأَنَّهُ أَنْزَلَ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ مَا لَوْ أَنْزَلَهُ بِحَجَرٍ لَتَأَلَّمَ .

قُلْتُ : فَأَنْتَ فِي حَاجَةٍ إِلَى رَاحَةٍ ، وَيَحْسَنُ بِكَ أَنْ تَأْوِيَ إِلَى مَكَانٍ تَمْتَدُّ فِيهِ .

قَالَ : إِنِّي مَنْصَرَفٌ وَسَاجِسٌ فِي نَدِيٍّ كَذَا ^(٣) « هَذَا مِنْ جِهَةٍ ، وَمِنْ جِهَةٍ لَيْسَ مَعِيَ ثَمَنُ الْقَهْوَةِ . »

(١) هَذَا مِثْلُ فِي مَعْنَى زَادَ الطَّيْنَ بَلَّةً ، وَالْحَمَاءُ إِذَا مَدَّهَا الْمَاءُ زَادَتْ وَاتَسَعَتْ .

(٢) أَيْ لَعَبَتْ غَضَبًا .

(٣) نَحْنُ نَسْتَعْمَلُ النَّدَى لِمَكَانِ الْقَهْوَةِ .

قلت : فهذا قرش تدفعه ثمنًا لها ، فاذهبْ فاستمتعْ بها وبالتدخين وبالراحة في ذلك الندي ، فلمكانْ هاهنا كثير الضجيج والحركة . واستوفزتُ للقيام ؛ ولكنه لم يتَحَلَّجْ من مجلسه .

ثم قال : أراك الآن مُسْتَبْصِرًا أني (نابغة القرن العشرين) بعينه .

قلت : بل بعينه البني واليسرى معًا . . .

قال : لا . لا ؛ إنك نسيت أن العرب تقول في التوكيد : عينه ونفسه وذاته . « أي أنا نابغة القرن العشرين بعينه ونفسه وذاته ، فليس غيري نابغة القرن العشرين . »

وكادت نفسي تخرج غيظًا ، ولكنني رأيتُ الحِلْمَ على مثل هذا يجري مجرى الصدقة ؛ وقلت : إن أدباء المجانين كثيرًا ما يتفق لهم الإبداعُ الطريفُ إذا علَّوا شيئًا ، كذلك القاصُّ الذي كان يقصُّ على العامة سيرة يوسف عليه السلام ، فقال لهم فيما قال : إن الذئب الذي أكل يوسف كان اسمه كذا ، فردوا عليه : إن يوسف لم يأكله الذئب . قال : فهذا هو اسمُ الذئب الذي لم يأكل يوسف . فقلت للمجنون : فما العلةُ عندك في أن العرب لم يقولوا في التوكيد : عينه وأذنه وأنفه وفمه ويده ورجله ؟

فنظر نظرةً في الغضاء ثم قال : ليسوا مجانين فيخِلُّوا هذا الخاط ، وإلا وجب أن يقولوا مع ذلك : وعمامته وثوبه ونعله وبعيره وشاته ودراهمه . « هذا من جهة ، ومن جهة ليس معي أجرة السيارة إلى بلدي وهي قرشان . » قلت : هذه هي أجرة السيارة وصحبتك السلامة ، ونهضتُ واقفًا ؛ ولكنه لم يتحرك .

ثم قال : إنك لم تعرف بعدُ « أنى أقول الشعر فى الغزل والنسيب والمدح والهجاء والفخر ؛ وأنى فى الخطابة قُسُّ بن ساعدة أو أكرم بن صيفى ، وأنى صخر لا ينفجر ... يابس لا ينعصر ، لست كاللجَّاج بل كعمر . »
قلت : هذا شيء يطولُ بيننا ولا حاجة لك بهذه البراهين كلها ، فقد آمنتُ أنك نابغة القرن العشرين فى الأدب والشعر والخطابة والترسل .
قال : والفلسفة ؟

قلت : والفلسفة وكلَّ معقول ومنقول ؛ وقد اتهمينا على ذلك .
قال : ولكنك تحسبني مجنوناً أو ممروراً « كما حسبتني الجرائد التى زعمت أن اختفأتى فى بیمارستان كان الجنونى الفكرى أولد كائى الطبيعى وهو الأصح ... فبين هذه الجرائد أنى خرجت ، وأنى سأطبع الأدب بطابع جديد . »
قلت : ولكنى لستُ مراسل جرائد . قال : « فاجعائى رسالةً وراسلها عنى أو أكتبُ لك أنا ما ترسله ، وما جئتُك إلا لهذا ؛ ويجب أن تلاحقنى بجريدة كبيرة ، وهذه الجرائد تعرفنى كلها ، وقد تناولتنى من جميع النواحي الأدبية ؛ فضلا عن أنى كاتب فذ ، وخطيب فذ ، وشاعر فذ ؛ وهذا قليل من كثير ، فهل أعوّل عليك فى صلتى بالجرائد أولا ؟ »

قلت : إنك تعرفهم ويعرفونك ، وقد بلّوهم وبلّوكَ منك ؛ فلست فى حاجة إلى عندهم .

قال : « إنهم يخشون بأسى ، وقد حسبونى مجنوناً استهوته الشياطين ؛ وما علموا أن شيطان الشعر هو الذى استهوانى ، كما أن شيطان الحب هو الذى استهواك ... هذا من جهة ، ومن جهة ليس معى ثمن الغداء ، ولا أكلُك شيئا ... »

قلت : فهذا قرش للغداء فى مطعم الشعب . وهم الآن يتغذّون ويوشِكُ إذا

أبطأت أن تُوافِقهم وقد استنفدوا الطعام ، وأنت لا تجهل أن القرش في مطعم
الشعب هو قرشان في القيمة .

قال : صدقت ؛ يُوشِك أن أوافِقهم وقد فرغوا من طعامهم وغسلوا الأنية .
فلا بَقِ هذا للعشاء وسأطوى إلى الليل ...

قلت : فمعك الآن ثمن الدخان ، والقهوة ، والغداء ، وأجرة السيارة إلى
بلدك . وقد كان نابغة القرن الثالث للهجرة واسمه (طاق البصل)^(١) يغني
بقيراط ولا يسكت إلا بدانق . هذا من جهة ، ومن جهة فخذ هذا القرش ثمنا
لسكوتك وانصرف .

فشق ذلك عليه وقام مُغَضَّباً ، وتنفست بعده الصُّعداء الطويلة
وفتحتُ النافذة واستقبلتُ الهواء النقي وأخذتُ في رياضة التنفس العميق ، ثم
زاغت عيني إلى الباب ؛ فإذا (نابغة القرن العشرين) مقبلٌ مع نابغة
قرنٍ آخر

(١) هذا مجنون من مجانين الكوفة في القرن الثالث .

المجننون

٢

ورأيتُ المجنونين يدخلان معاً ، فكأنما سدَّ البابَ وسوَّياه بالبناء ، وتركَا
الغُرْفَةَ حائطاً مُصَمَّماً لا بابَ فيه ، مما اعترانى من الضيق والحرج ؛ وقلتُ في
نفسى : إنه لا مذهبَ للعقل بين هذين إلا أن يُعَيَّنَ كلاهما على صاحبه ، فأرى
أن أدعَهما وأكونَ أنا أُصرِّفُهما ؛ ويا ربما جاء من النوادر فى اجتماع مجنونين
ما لا يأتى مثله من عقليْن يجتمعان على ابتكاره ؛ غير أنى خشيتُ أن أكونَ
أنا المجنونَ بينهما ، ثم لا آمنُ أن يثبَّ أحدهما بالآخر إذا خطرتُ به الخطرَةُ
من شيطانه ، فرأيتُ أن يكونَ لى ظهيرٌ عليهما ، إن لم يحقَّ به العَوْنُ فلا أقلَّ
من أن يطولَ به الصبر . . . وكان إلى قريبٍ منى الصديقُ (ا . ش) فأرسلتُ
فى طلبه .

أما هذا المجنونُ الثانى الذى جاء به (نابغة القرن العشرين) فقد رأيتُه من
قبل ، وهو كالكتاب الذى خُلِّطتْ صُحُفُه بعضها فى بعض فتداخلتْ وفسد
ترتيبُها ، وانقلبَ بذلك العلمُ الذى كان فيها جهلاً وتخليطاً ، يثبُّ الكلام بعد
كل صفحة إلى صفحة غريبة لا صلةَ لها بما قبلها ولا ما بعدها .

وهو طالبٌ أزهى كان أكبرهم أن يصير حافظاً كالحفاظ الأقدمين
من الرواة والفقهاء ، فجعل يستظهرُ كتاباً بعد كتاب ومتناً بعد متن ؛ وكانت له
أُذُنٌ واعيةٌ ، فكل ما أُفرغَ فيها من درسٍ أو حديثٍ أو خبر ، نزلَ منها
كالنقر على آلةٍ كاتبة ، فينطبعُ فى ذهنه انطباعُ الكتابة : لا تُمحى ولا تُنسى .

ثم التأت هذه اللوثة وهو يحفظ متناً في فقه الشافعي (رضي الله عنه) ،
فغير سنين يتحفظه ، كلما انتهى إلى آخره نسيه من أوله ؛ فيعود في حفظه وربما
أثبت منه الشيء بعد الشيء ، ولكنه إذا بلغ الآخر لم يجد معه الأول ؛ فلا
يزال هذا دأبه لا يمل ولا يجد لهذا العناء معنى ، ولا يزال مقبلاً على الكتاب
يجمعه ، ثم لا يزال الكتاب يتبدد في ذاكرته .

وترك المعهد الذي هو فيه وتخلّى في داره للحفظ ، وأجمع ألا يدع هذا
المتن أو يحفظه ، كأن فيه الموضع الذي فارقه عقله عنده ، وبذلك رجع المسكين
آلة حفظ ليس لها مساك ؛ وأصبح كالذي يرفع الماء من البحر ، ثم ياقيه في
البحر ، لينزح البحر ...

وجاء (ا. ش) فقلت له ، وأومأت إلى المجنون الأول : هذا نابغة القرن
العشرين .

قال : وهل انتهى القرن العشرون فيعرف من نابغة ؟
فقلت للمجنون : أحبه أنت . فسأله : وهل بدأ القرن الواحد والعشرون ؟
قال : لا .

قال : فإن هذا الذي إلى جانبي نابغة القرن الواحد والعشرين ... فكما
جاز أن يكون هو نابغة قرن لم يبدأ ، جاز أن أكون أنا نابغة قرن لم ينته .
قلت : ولكنك زدت المشكلة تعقيداً من حيث توهمت حلها ؛ فكيف
يكون معك في آن وبينك وبينه خمس وستون سنة ؟

فنظر نظرة في الفضاء ، وهو كلما أراد شيئاً عسيراً نظر إلى الأشياء ...
ثم قال : هذه الأمور لا تشبهه إلا على غير العاقل ... وكيف لا يكون بيني

وبينه خمس وستون سنة وأنا أتقدمه في النبوغ بأكثر من علم العلماء في خمس وستين سنة . . . ؟

قلت للآخر : أ كذلك ؟

قال : مما حفظناه عن الحسن : أدركنا قوماً لو رأيتموهم لقلتم : مجانين . ولو أدركوكم لقالوا : شياطين . . .

فضحك الأول وقال : إنه تلميذى .

قال الثانى : لقد صدق فهو أستاذى ، ولكنه حين ينسى لا يذكره

غيرى

قلت : لا غرور ؛ « فما حفظناه » عن الزهرى : إذا أنكرت عقلك فاقدحه بعقل . . .

فغضب نابغة القرن العشرين وقال : ويح لهذا الجاهل ، الأحق ، الجاحد للفضل ، مع جنونه وخبله . أيد كرنى وهو منذ كذا وكذا سنة يحفظ متناً واحداً لا يمسكه عقله إلا كما يمسك الماء الغرائيل ؟ صدق والله من قال : عدو عاقل خير ؛ خير ؛ خير . فقال الثانى : خير من صديق جاهل ، هأنذا قد ذكرت من نسيان ، وهأنت ذا رأيت .

فضحك النابغة وقال : ولكنى لم أرد أن أقول هذا ، بل أريد أن أولف كلاماً آخر عدو عاقل خير ، خير ، خير ؛ خير من مجنون جاهل

ورأيت أن فى التقاء مجنونين شيئاً طريفاً غير جنونهما ، وصح عندى أن المجنون الواحد هو المجنون ؛ أما الاثنان فقد يكون من اجتماعهما وتجاوزهما فن ظريف من التمثيل ، إذا وجدا من يصرّفهما فى الحديث ، ويستخرج ما عندهما ،

ويستكشفُ منهما قصتهما العقلية

ولم أكن أعرف أن (نابغة القرن العشرين) من المجانين الذين لهم أذنٌ في غير الأذن ، وعينٌ في غير العين ، وأنفٌ بغير الأنف ؛ إذ تتلقى أدمغتهم أصواتاً وأشباحاً وروائحَ من ذات نفسها لا من الوجود ، وتدرِكُها بالتوهم لا بالحاسة ، فتتَخَلَّقُ هواجسُهم خَلْقاً بعد خَلْق ، وتخطر الكلمة من الكلام في ذهنٍ أحدهم فيخرج منها معناها يتكلم في دماغه أو يمشی أو يلاطفه أو يؤذيه بفعلٍ أفعلاً أخرى .

وبينا أنا أديرُ الرأى في إخراج فصلٍ تمثيليٍّ من الحوار بين هذين المجنونين^(١) ، إذ قال (نابغة القرن العشرين) : صه ، إن جرس «التلفون» يدق . قال (أ. ش) : لا أسمع صوتاً ، وليس ههنا «تلفون» .

فاغتاط المجنون الآخر وقال : إنك تتكلم على النوابع ولست من قدرهم ، وما عملك إلا أن تنكر ؛ والإنكار ، ويليكَ ، أيسرُ شيء على المجانين وأشبه المجانين ، والعامية وأشباه العامة ؛ وقد أنكرت نبوغه آنفاً ، وأراك الآن تنكر «تلفونه»

قال (أ. ش) : وأين «التلفون» وهذه هي الغرفة بأعيننا ؟ فضحك (نابغة القرن العشرين) وقال : صه ويحك لقد خاطت على ؛ إن الجرس يدق مرة أخرى ، وأنا لا أريد أن أكلها حتى يطول انتظارها ، وحتى تدق ثلاث مرات ، وأخشى أن تكون قد دقت الثالثة وذهب رنينها في صوتك ولغطك

قال المجنون الآخر : هي صاحبتُه التي يهواها وتهواه ؛ وقد استهأها وتيمها وحيرها وخبلها ، حتى لا صبر لها عنه ، فوضعت له تلفوناً في رأسه

(١) سيأتى هذا الفصل التمثيلي في مقال آخر .

قال « النابغة » : وهذا التلفون لا يُسمِعنى صوتها فقط ، بل هو يُنشِئ عطرَها أيضاً . وقد تكلمنى فيه الملائكة أحياناً ، وأنا ساخط على هذه الحبيبة فإنها غيورٌ تُخشى سَطَوَاتُها على اللأى تغارُ منهن ، ولولا ذلك لكلمتني في هذا التلفون إحدى الحُورِ العِينِ

قلنا : أو تغارُ منها الحُورُ العِين ؟

قال المجنون الثانى : بل الأمرُ فوق ذلك ، فإن الحورِ العِينِ يشتمُنها ويلعنُها ؛ « فما حفظناه » هذا الحديث : لا تؤذى امرأةٌ زوجها فى الدنيا إلا قالت زوجها من الحورِ العِينِ : لا تؤذيه قاتلكِ الله ؛ فإنما هو عندك دَخيلٌ يُوشِكُ أن يفارقَكَ إلينا .

قال (نابغة القرن العشرين) : ويئلى على المجنون ! إنه يريد أن يخلو له موضعى فهو يتمنى هلاكى وانتقالى وشيكاً من هذه الدنيا . وهو يقولُ بغير علم لأنه أحقُّ ليس له عُقدةٌ من العقل ، فيزعم أنها تؤذيني ، ولو هى آذنتى لغضبت قبل ذلك ، ولو غضبت لرفعت التلفون . صه ! إن الجرس يدق .

قال ا . ش : إن للنوابغ لشأناً عجيباً ، ففي مديرية الشرقية رجلٌ نابغةٌ ماتت زوجته وتركت له غلاماً ، فتزوج أخرى وهو يعيش فى دار أبيه . فلما كان عيدُ الأضحى سأل أباه مالاً يبتاع به الأضحية فلم يُعطه . وهو رجلٌ يحفظ القرآن ، فذكر قصة إبراهيم (عليه السلام) ورؤياه فى المنام أنه يذبح ابنه ، فخيّل إليه أن هذا بابٌ إلى النبوة ، وأن الله قد أوحى إليه ، فأخذ الغلامَ فى صبيحة العيد وهمَّ بذبحه ، ولولا أن صرخ الغلامُ فأدركه الناسُ فاستنقذوه ...

قال (نابغة القرن العشرين) : هذا مجنونٌ وليس بنابغة ؛ بل هذا من جهلاء المجانين ؛ بل هو مجنون على حدّته ، وقد رأيتُه فى الميارسُتان فى حين

كنت أنا في المستشفى ... فكان يزعم أنه أثمر في ذبح غلامه بإرادة الله . ولو كانت إرادة الله لنفذت بالذبح ، ولو كان الأمر وحياً لنزل عليه من السماء كبشٌ يذبحه ... وهكذا أنا في المنطق (نابغة القرن العشرين) .

ثم إنه أشار إلى المجنون الثاني وقال : وأنا أتقدم هذا في النبوغ بأكثر من علم العلماء في خمس وستين سنة كاملة .

قلت : ولكنك ذكرت هذا من قبل فلم عدت فيه الآن ؟

قال : إن السبب قد تغير فتغير معنى الكلام ؛ وقد بدا لي أنه يتنى هلاكه ليكون هو نابغة القرن العشرين . فعنى الكلام الآت : أنه لو عاش خمساً وستين سنة « يحفظ المتن » لما بلغ مبلغى من العلم . هذا رجل نصفه ميت جنوناً موتاً حقيقياً ، ونصفه الآخر ميت جهلاً بالموت المعنوى .

قال ا . ش : حسبه أن يقلدك تقليد العاصي لإمامه في الصلاة ؛ وعسى ألا تستكثر عليه هذا فإنه تلميذك .

قال المجنون الثانى « مما حفظناه » : لو صوّر العقل لأضاء معه الليل ، ولو صور الجهل لأظلم معه النهار ... ونابغة القرن العشرين هذا لا يعرف كيف يصلى ، فقد وقف منذ أيام يصلى بالشعر . . . ولما رأيت ناسياً فذكرته ونهيتُه أن الصلاة لا تجوز بالشعر ، التفت إلى وهو راكع فسبّنى وشتمنى وصرخ فى وقال : ما شأنك بى ؟ هل أنا أصلى لك أنت ... ؟

فغضب « النابغة » وقال : والله إن تحسبوننى إلا مجنوناً فتريدون أن يقلدنى هذا الأحمق الذى ليس له رأى يمسكه . ولولا ذلك لما اعتقدتم أن تقليدى من السهل الممكن ، ولعرفتم أن نابغة القرن العشرين نفسه لم يستطع تقليد نابغة القرن العشرين .

قلنا : هذا عجيب ، وكيف كان ذلك ؟

فضحك وقال : لا أعدكم من الأذكاء إلا إذا عقلتم كيف كان ذلك .
قال ا. ش : هذا لم يُعرف مثله فكيف نعرفه ؟ ولم يتوهمه أحد ،
فكيف نتوهمه ؟

وقلت أنا : لعلك رأيت نفسك في الرؤيا .

قال : لو لم تكن أستاذ نابغة القرن العشرين لما عرفتها ؛ وهذا نصف
الصواب ؛ وما دمت أستاذي ، فلو أننا اختلفنا في رأى لكان خلافاً لى صواباً
لأنه منك ، وكان خلافاً لك صواباً لأنه مني ؛ فأنت (غير خاطئ) وأنا مصيب ،
وإذا أسقطنا كلمة (غير) أظل أنا مصيباً وتكون أنت مخطئاً . . .

أنا لم أر (نابغة القرن العشرين) في الرؤيا ، ولكن رأيت في المرأة عند
الحلاق . . . ورأيت يقلدني في كل شيء ، حتى في الإشارة والقومة والقمعة ،
ولكن صرخت فيه وسببته ففتح فمه ، ثم خافني ولم يتكلم . . .

وأوماً إلى المجنون الآخر وقال : وأنا أتقدم هذا في النبوغ بأكثر من علم
العلماء في خمس وستين سنة .

قال ا. ش : لقد قلتها مرتين كلتاها بمعنى واحد ، فما معنك في هذه الثالثة ؟
قال : هذا الغر يزعم أني لا أعرف كيف أصلي ، ويستدل لذلك بأنني
صليت بالشعر وأنني شتمته وأنا راكم ؛ ولو كان عاقلاً لعلم أن شتمى إياه وأنا
راكم ثواب له . . . ولو كان نابغة لعلم أن الشعر كان في مدح دولة النحاس باشا
وأولى النهي .

قلنا : ولكن الشعر على كل حال لا تجوز به الصلاة ولو في مدح دولة
النحاس باشا .

قال : لم أصِلَّ به ، ولكن خطر لي وأنا أصلي أني نسيت القصيدة فأردت
أن أتحقق أني لم أنسها . . . فإذا أنا نابغة القرن العشرين في الحفظ ، وهي ستة

أبيات . لا كهذا المعتوه الذي صبر على المتن صبرَ الغريب على الغربة الطويلة ،
ومع ذلك لم يحفظه .

قال ا . ش : فأمل علينا هذا الشعر . فأمل عليه ^(١) .

يا حليف الشَّهْد قل لي أين مَنْ في الدهر خال
إن تكن تهوى غزالاً أكحلَّ العينين مال
أنا أهواها ولكن لا سبيل إلى الوصال
منذ ولت قلت مهلاً منذ غابت في خيال
أنا مجنونٌ بليلي ليل يا ليلي ! تعال

قلنا : ولكن ليس هذا مدحاً ، فضحك وقال : أردت أن تعرفوا أنني أقول
في الغزل ، أما المديح فهو :

شغف الوري بمناصب وأمانى وشغفت يا نحاس بالأوطان
حسبوا الحياة تفاخراً وتنعموا وحسببتُها لله والأطان
ثم أرتج عليه فسكت . قال المجنون الآخر : إنها ستة أبيات ، وقد نسيت
أربعة ، ولست أريد أن أذكرك :

فقال (النابعة) : أظنه قد حان وقت الصلاة وأريد أن أصلي . . . ونظر
إلى اللاشيء في الغضاء ، ثم قال . والبيت الأخير :

لا أبتغي في المدح غيرَ أولى الثهي أو صادقٍ ^(٢) أو شوقٍ أو مطران
ثم أمر ا . ش . أن يقرأ عليه الشعر فقرأه ، فقال : أحسنت ، انظر إلى
فوق . فنظر ، ثم قال : انظر إلى تحت . فنظر ثم سكت .

(١) هذا شعره بحروفه كما أملاه .

(٢) فسر (صادق) بأنه أستاذ نابعة القرن العشرين .

قال ا. ش : وبعد ؟ قال : وبعد فإن الناس ينظرون إما إلى فوق وإما إلى تحت ...

وكان الضجر قد نال مني ، فرجوت ا. ش . أن يلبثَ معهما وأذنتُ لناطقة القرن العشرين أن يلقاني في الندى وانصرفت .

قال ا. ش وهو يُنبئني : فما غبتَ عنا حتى أخذ المجنون يشكو ويتوجع . ويقول : لقد حاق بي الظلم ، وإن (الرافعي) رجل عسوفٌ ظالم ، لأنني أكتب له كل مقالاته التي ينشرها في (الرسالة) ... وأجمع نفسي لها ، وأجهدُ في بيانها ، وأذيب عقلي فيها ، وهو مستريحٌ وادعٌ ، وليس إلا أن ينتحلها ويضع توقيعه عليها ، ويبعثَ بها إلى المجلة ، ثم هو يقبض فيها الذهب وينال الشهرة ، ولا يدفع لي عن كل مقالة إلا قرشين^(١) ...

قال ا. ش : فما يمنعك أن ترسل أنت هذه المقالات إلى المجلة فتقبضَ فيها الذهب ؟ قال : إن هناك أسراراً أنا مُحَصِّنُها وكاتمُها ، ولا ينبغي أن يعلمها أحد فإنها أسرار ... قال له : فدع (الرافعي) واكتب لي أنا هذه المقالات ، وأنا أعطيك في كل مقالة ذهبين لا قرشين .

قال هذه أسرار ولا أستطيع أن أكتب إلا للرافعي ، لأن (ناطقة القرن العشرين) لا يجوز أن يدعى كلامه إلا أستاذُ ناطقة القرن العشرين ، ولو ادعاه غيره لكان هذا خطأً من قدر ناطقة القرن العشرين ، وهذا بعضُ الأسرار لا كل الأسرار ...

قلت : ثم جاء المجنونان في العشيّة إلى الندى .

(١) لا يزال هذا المسكين منذ تسعة أشهر يدعى أنه هو الذي يكتب لنا هذه المقالات ، غير أنه رفع القيمة أخيراً ؛ فجعلها عشرين قرشاً

المجنون

٣

وكنا في الندى ثلاثة : أنا ، وا . ش ، وس . ع ؛ وقد هيأت تدبيراً
توافقنا عليه لتحريك هذين المجنونين ، وتدوين ما يحىء منهما . فلما أقبلنا
تحفيئنا بهما وألطفناهما ، وقمنا ثلاثتنا ببسطهما وإكرامهما ، حتى حسبنا أن في
كلمة « مجنون » معنى كلمة أمير أو أميرة ورأيت في عيني « نابغة القرن
العشرين » — وهو أعين أنجل^(١) — ما لو ترجمته لما كانت العبارة عنه
إلا أنه يعتقد أن له نفساً أنثى أعشقها أنا فكان مُسدداً فكهِ اللسان ،
تستملح له النادرة ، وتستظرف منه الحركة .

ولما تمكن منه الغرور ، واحتاج المجنون كما يحتاج الجمال إلى كبريائه
إذا حاطته الأعين — أدار بصره في المكان ، ثم قال : أف لكم ولما
تصبرون عليه من هذا الندى في ضوضائه ورعايه وغوغائه . إن هؤلاء إلا
أخلاق وأوشاب وخثالة . هذا الجالس هناك . هذا الواقف هنالك . هذا
المستوفز . هذان المتقابلان . هؤلاء المتجمعون . هذا كله خيال حقيقة في رأسي .
ما هي ؟ ما هي ؟

هذا التصايح المنكر . هذا الضرب بحجارة الرد . هذه الرحمة التي انقسمنا
فيها . هذا المكان الهائج من حولنا . هذا كله خيال حقيقة في رأسي .
هي ، هي ، هي

(١) أي واسع العين أنجلها ، وقد مر وصفه في المقالة الأولى .

فانزعج المجنون الآخر ، ووقع في تهاويل خياله ، ونظر إلينا تدور عيناه ،
وتوجسَ شرًا ، ثم زاعج بصره إلى الباب ، واستوفزَ وجمع نفسه للقيام ؛ فلما
رأى صاحبه ما نزل به ، قهقهه وأمعن في الضحك وقال : إنما خوفته الصبيان
والضرب ليثبت لکم أنه مجنون ...

فحَرِدَ الآخرُ واغتاظ وجعل يُتمم بينه وبين نفسه .

قال « النابغة » : ما كلامُ تَطَنَّ به طنين الذبابة أيها الخبيث ؟
قال : « مما حفظناه » : أن من علامات الأحمق أنه إذا استنطق تجأف ،
وإذا بكى خار ، وإذا ضحك نهق ... كما فعلت أنت الساعة ، تقول : هاء ،
هوء ، هيء ...

فتغير وجه « النابغة » ، ونظر إليه نظرة منكرة ، وهم أن يقتحم عليه ،
وقال : أيها المجنون ، لماذا تضطرنى إلى أن أجيبك جواب مجنون ... لا نجوت
إن نجوت منى !

فأسرع الش ، وأمسك به ؛ واعترض من دونه س . ع ، وقال له : أنت
بدأته والبادئ أظلم .

قال : ولكن — ويحه — كيف قال هذا ؟ كيف لم يقل إلا هذا ؟ كيف
لم يجد إلا هذا يقوله ؟ أنابغة القرن العشرين أحمق ، وقد أوحده الله فى القرن
العشرين ؟ لهَمَمْتُ والله أن أكسر الذى فيه عيناه ؛ فما يقول إلا أنى أحمقُ
القرن العشرين ...

قلت : إن كان هذا هو الذى أغضبك منه ؛ ففي الحديث الشريف : « ليس
من أحد إلا وفيه حمقة ، فبها يعيش . » والحياة نفسها حماقة منظمة تنظيما عاقلا ؛
وما يقبل الإنسان على شيء من لذاتها إلا وهو مقبل على شيء من حماقاته ؛ وأمتع

اللذة ما طاش فيه العقلُ وخرج من قانونه ؛ ولولا هذا الحقُ في طبيعة الإنسان لما احتمل طبيعة الحياة ؛ أليس يُحْيِلُ إليك أن أكثرَ غائبٍ عن الدنيا وأقلَّك حاضرٌ فيها ، وأن يَقْظَتَكَ الحقيقةُ إنما هي في الحلمِ وما يُشبهه الحلمُ ، كأنك خُلِقْتَ في كوكبٍ وهبطتَ منه إلى كوكبنا هذا ، فما فيك للأرض ولا فيها لك إلا القليلُ يَلْتَمِمْ بعضُهُ ببعضه ، وأكثرُ كما مُتَنَافِرٌ أو مُتَنَاقِضٌ أو مُتَرَاجِعٌ ؟ قال : بلى .

قلتُ : فهذا القليلُ هو الحقيقةُ التي بها تعيش ، وهو أَرْضِيَّةُ الأرضِ فيك ؛ أما سماويةُ السماءِ فبعيدةٌ لا تحتلُّها طبيعةُ الأرضِ ؛ ولهذا يعيشُ أهلُ الحقيقةِ عيشَ الجنانين في رأى المغرورين الذين غرَّتهم الحياةُ الفانيةُ ، أو الخدوعين الذين خدعتهم الظواهرُ الكاذبةُ ؛ فكلما أتوا عملا من الأعمالِ الساميةِ انتهى إلى الحَقِّ معكوساً أو مُحَوَّلاً أو معدولاً به ؛ ولعل هذا أصحُّ تفسيرٍ للحديثِ الشريفِ : « أكثرُ أهلِ الجنةِ البُلهُ . »

قال الجنون الآخر : « مما حفظناه » : أكثرُ أهلِ الجنةِ البُلهُ .

فقال (النابعة) : المصيبةُ فيك أنك أنت هو أنت ؛ ألا فلتعلم أنك من بُلْهَاءِ البيمارستان لا من بُلْهَةِ الجنةِ ...

قلتُ : ثم إن الموتَ لا بدَّ آتٍ على الناسِ جميعاً ، فيسلِبُهُمُ كلَّ ما نالوه من الدنيا ، وَيُلْحِقُ من نال بمن لم ينل ؛ فمن ذا الذى يُسَرُّ بأن ينال ما لا يبقى له ، إلا أن يكونَ سروره من حماقة ؟ ومن ذا الذى يحزنُ على أن يفوته ما لا يبقى له ، إلا أن يكونَ حزنه حماقةً أخرى ؟ وأى شئٍ فى الحب بعد أن ينقضى الحبُّ إلا أنه كان حماقةً ضَرَبَتْ فى الحواسِّ كلها حتى ملأتِ النفسَ ؛ ثم ملأتِ النفسَ حتى فاضت على الزمن ؛ ثم فاضت على الزمن حتى خَبِلَتِ العاشقَ تخميلاً لذيذاً تصغرُ فيه الأشياءُ وتكبرُ ، ويجعلُ الواقعَ فى النفسِ غيرَ الواقعِ فى دنياها ؟ يُشَبِّهُ كلُّ

عاشق حبيبته بالقمر : فهب القمر سمع هذا وفهمه وعناه أن يجيب عنه ، فإذا
عساه يقول إلا أن يعجب من هذا الحق في هذا التشبيه ؟

فهذا (النابغة) وسكن غضبه وقال : صدقت ، ولهذا أنا لا أشبه
حبيبتى بالقمر .

قلت : فبماذا تشبهها ؟

قال : لا أقول لك حتى أعلم بماذا تشبه أنت حبيبتك . قلت : وأنا كذلك
لا أشبهها بالقمر .

قال : فبماذا تشبهها ؟ قلت : حتى أعلم بماذا تشبه أنت ...

قال : هذا لا يرضى منك وأنت أستاذ (نابغة القرن العشرين) ، ولك
حبائب كثيرات عدد كتبك ، وقد أعجبتني منهن تلك التي في (أوراق الورد) ،
وأظنك أحببتها في شهر مايو من سنة ... من سنة ...

قال الجنون الآخر : من سنة ١٩٣٥ ؛ هأنذا قد نهيتك .

قال : يا ويلك ! إن (أوراق الورد) ظهرت من بضع سنين ، إنما أنت من
بلهاء البيمارستان لا من بله أوراق الورد ... ماذا كنت أقول ؟

قال ا. ش : كنت تقول : هذا لا يرضى منك ولك حبائب كثيرات .

قال : نعم ، لأنك إذا شبت واحدة منهن بالقمر ، انتهى القمر وفرغ التشبيه
فيظل الآخرين بلا قمر ... ثم إن كلمة القمر لا تعجبني ، فلونها أدكن مُعَبَّرٌ (١)
يَضْرِبُ أحيانا إلى السواد ... فإذا عشقت زنجيةً فهل لنا محل التشبيه بالقمر ...
أما البيض الرعايب فتشبههن بالقمر من فساد الذوق .

قال س . ع : ولألفاظ ألوان عندك ؟

(١) الدكنة : لون بين الحمرة والسواد .

قال : لو كنت نابعةً لأبصرتَ في داخلك أخيلةً من الجنة ؛ ألم يقل أستاذنا
آنفاً عن (نابعة القرن العشرين) : إنه هبط من كوكب إلى كوكب ؟ ففي كوكبنا
الأول يكون لنا سمعٌ ملوّن ، وحسٌ ملوّن ؛ نسمع قرع الطبل أزرق ، ونفخ البوق
أحمر ، ورنين النغم الحلو أخضر ^(١) ، والوجود كله صوّر ملونةً ، سواءً منه ما يرى
وما يحس ، وما هو مُستخفٍ وما هو ظاهر .
ثم أوماً إلى الجنون الآخر وقال : واسمُ هذا الأبله كلفظِ الحبر : لا أسمعُه
إلا أسود ...

وسكت « النابعة » وسكتنا ؛ فقال له س . ع : مالك لا تتكلم ؟ قال : لأنني
أريد السكوت . قال : فلماذا تريد السكوت ؟ قال : لأنني لا أريد أن أتكلم ...
وتحرك في نفسه الغيظ من الجنون الآخر ، فرمى بعينه الفضاء ينظر اللاشيء
وقال : إذا أصبح كلُّ النساء ذواتٍ ليحى أصبح هذا عاقلاً ... فدق الآخر برجله
دقاتٍ معدودة ؛ فثار (النابعة) وقال : من هذا يشتُمني ؟
قال س . ع : لم يشتمك أحد ، هذا خفق رجل على الأرض .
قال : بل شتمني هذا الخبيث ، وسمعي لا يكذبني أبداً ، وأنا رجلٌ ظنونٌ ،
أسى الظن بكلِّ أحد ، وعلامةُ الحازم « العاقل » سوء ظنه بالناس . فهمه كما قالت
قد خفق بنعله ، أو خبط برجله ؛ فهو يعلم ما يعني من ذلك ، وأنا أسمع ما يعنيه .
لقد طفح الشعرُ على قلبي فلا بد لي من هجائه ، ولا بد لي أن أذبحه ولو بالكلام ،
فإني إذا هجوته رأيتُ دمه في كلماتي ، وأريد أن أجعله كالعنبر التي كانت
عندنا وذبحناها .

(١) هذا واقع وليس من الخيال ؛ فبعض الناس يسمعون الأصوات ويحسون الأشياء
ملونة ؛ وعلماء الأمراض العصبية يعرفون هذا ويعللونه بأنه صور ذهنية قد لبسها مؤثر من
المؤثرات فهو يصبغها بلونه .

ثم انتزع قلم س . ر . ع ، وقال : هذه هي السكّين . ولكن أسألك يا أستاذي أن تذبّحه أنت بكلمتين وتصف له جنونه ، فقد عذبَ عني الشعر . إن خفّة رَجَلٍ على الأرض تستطيرُ الأرانبَ فرعاً ؛ فيمنفرون إلى أبحارهنّ ويتهاربنّ ، وما كانت أبيات الشعر في ذهني إلا أرانب ...

أنتم لا تعرفون أن من كان حَصيفاً ثَبِيثاً مثلي ، كان دقيقَ الحسّ ؛ ومن كان فَدَمًا غَبِيًّا مثلَ هذا ، كان بليدَ الحسّ غليظاً كَثيفاً ؛ فإذا أنا استشعرتُ البردَ رأيتُني قد سافرتُ إلى القطبِ الشمالي ؛ أما هذا الجنونُ فهو إذا استشعر برداً سافر إلى عِباءته أو لحافه ... إذ هو لا يعرف جغرافيا ، ولا يدرى مَطَاحَها . قلت : هذا منك أظرفُ من نادرة أبي الحارث . قال : وما نادرة أبي الحارث ؟ وهل هو نابغة ؟

قلت : جلس يتغذى مع الرشيد وعيسى بن جعفر ، فأَتَى بِخِوَانٍ عليه ثلاثة أرغفة ، فأكل أبو الحارث رغيّفه قبلهما ، والرشيدُ ملكٌ عظيمٌ : لا يأكلُ أكلَ الجائع ، وإنما هو التّشعّيثُ من هنا وهناك ؛ فكان رغيّفه لا يزال باقياً ؛ فصاح أبو الحارث فجأةً : يا غلام ، فرّسي . ففزع الرشيد وقال : ويلك مالك ؟ قال : أريد أن أركب إلى هذا الرغيّف الذي بين يديك ...

قال (النابغة) : ولكنّ فرقاً بين أبي الحارث وبين (نابغة القرن العشرين) ، فإن من العجائب أني ربما نظرتُ إلى الرجل وهو يأكلُ فأجدُ الشَّبَع ، حتى كأنه يأكل ببطني لا ببطنه ، ولكن من العجائب أن هذا لا يتفق لي أبداً حين أكون جائعاً ...

أما هذا الجنونُ الذي أمامنا ، فربما أبصر الحمارَ على ظهره الحِمْلُ ، فيشعُرُ كأن الحملَ على ظهره هو لا على ظهر الحمار ...

قال الآخر : « مما حفظناه » : أنه سُرق لأعرابي حمار ، فقتل له : أُسْرِق

حمارك؟ قال : نعم وأحمد الله . فقيل له : على ماذا تحمده ؟ قال : على أنى لم أكن عليه حين سُرق ... فأنا إذا رأيتُ حماراً مثقلَ الظهر ، حمدتُ الله على أن الحمل لم يكن على ، لا كما يقول هذا . ثم دقَّ رجله دقات ...

فاستشاط (النابعة) وقال : أسمعتم كيف يقول إنى مجنون ، ثم لا يكتفى بهذا بل يقول إنى حمار على ظهره الحمل ؟

قلت : ينبغي أن تتكافأ ، وهذا لا يعيبك منه ولا يعيبه منك ، فإن من تواضع « النوابع » أن يشعروا ببؤس الحيوان ، فإذا شعروا ببؤسه دخلتهم الرقة له ، فإذا دخلتهم الرقة صار خيالُ الحملِ حملاً على قلوبهم الرقيقة ؛ وقد يصنعون أكثر من ذلك : حكى الجاحظ عن ثمامة قال : كان (نابعة) يأتى ساقيةً لنا سحراً ؛ فلا يزال يمشى مع دابتها ذاهباً وراجعاً فى شدة الحر أيام الحر ، وفى البرد أيام البرد ، فإذا أمسى تواضاً وقال : اللهم اجعل لنا من هذا الهم فرجاً ومخرجاً . فكان كذلك إلى أن مات !

قال المجنون الآخر : « مما حفظناه » : ثمرة الدنيا السرور ، ولا سرور للعقلاء ، فلو لم يكن هذا عقلُ العقلاء لما مُحِقَّ سروره فى الدنيا هذا المحق إلى أن مات غمماً ، رحمه الله !

قال س . ع : فاعفُ الآن عن صاحبك ولا تذبحه بالهجاء .

قال : لقد ذكرته نسيان ، وهذا المجنون يرى نسيانى من مرض عقلى ، وكان الوجه — لو تهذى إلى الحقيقة — أن يراه شذوذاً فى العقل ، أى نبوغاً عظيماً كنبوغ ذلك الفيلسوف الذى أراد أن يتثبت فى كم من الزمن تسلق البيضة ؛ فأخذ بيده الساعة وبيده الأخرى بيضة ، ثم نسي نسيان النبوغ ، فألقى الساعة فى الماء على النار ، وثبتت عينه على البيضة ينظر فيها على أنها هى

الساعة . ولو قد رآه هذا الأبله لزعمه مجنوناً كما يزعمنى ، فإن المجانين يرون العقلاء مرضى بمواهبهم وأعمالهم التى يعملونها .

وأنا فليس يهيجنى شئ ما تهيجنى كلمات ثلاث : أن يقال لى مجنون ، أو أبله ، أو أحمق . فمن رغب فى صحبتى فليتنجب هذه الثلاث كما يتجنب الكفر والكفر والكفر ...

قال ا. ش : فإذا قيل لك مثلاً . مثلاً . أى على التثنية : مغفل ...
حكك رأسه قليلاً وقال : لا ، هذه ليست من قدرى ^(١) ...

قلت : فبعض الكلمات إذا قطعت عندك غيرت الحقائق ، كذلك القرن الذى قطع فرد البقرة فرساً ؟

قال : وكيف كان ذلك ؟

قلت : زعموا أن أعرابياً خرج إخوته يشترون خيلاً ، فخرج معهم فجاء بعجل يقوده ؛ فقبل له : ما هذا ؟ قال : فرس اشتريته . قالوا : يا مائق هذه بقرة ، أما ترى قرنيها ؟

فرجع إلى منزله فقطع قرنيها ، ثم قادها إليهم وقال لهم : قد أعدتها فرساً كما تريدون ...

قال (النابعة) : هذا غير بعيد ، فقد رأيتنا حين ذبحنا العنز وكسرنا قرنيها أعدناها كلبه سوداء ، فتقدرتها وعفت لحمها ولم أطعم منها .

ثم أوماً إلى الآخر وقال : هذا لا يدرى ما طحأها ، وهو مثل العنز : تحسب قرنيها للقتال والنطاح ومنهما تمسك للذبح ؛ فقل فى هذا يا أستاذ (نابعة القرن العشرين .

(١) نص عبارته : « دى مش أدى » ...

قلت للآخر : أيرضيك أن أقول في المعنى لا فيك أنت ... ؟ قال : نعم .
فكتبت هذه الأبيات على ما يريد النابغة :

قل لعنز ناطحها لقتال ساعها
ما لها قد طرّحها في يدن ذبحها ؟

شيمة منى نحها عقل غرّ فلحها
ليس يدرى ما طحها بل يرى شمس نحها
حجرًا مثل رحاها ويرى الليل نحها
ظلمًا طالت إحها ...

وسرّ (النابغة) وازدهى ، وجعل يقول : طالت إحها ، طالت لحها . وما كان
هذا إلا السرور الأصغر ؛ أما سروره الأكبر فجنى ساعى (البريد المستعجل)
إلى الندى ، وفي يده رسالة عنوانها : نابغة القرن العشرين فلان ، بندى كذا .
وجعل الرجل يهتف بالعنوان يسأل عن صاحبه ؛ فطاولت أعناق الناس ،
ورفعوا أبصارهم ينظرون إلى (نابغة القرن العشرين) وقد مدّ يده يتناول
الرسالة وكأنه ملك من القدماء أسقط له كتاب بالفتح العظيم وبضم دولة
إلى دولته .

ثم ترك الرسالة بين أصابعه يقلبها ولا يفضّها ونحن في دهشة من أمره ؛
فنظر فيها المجنون الآخر وقال له : هذا عجيب يا أخى ، كيف هذا ؟ إن هذا
لا يُصدّق ؛ إنك لم تلقها في صندوق البريد إلا منذ ساعة

المجننون

٤

وضاق « نابغة القرن العشرين » بمحمق المجنون الآخر ؛ ورآه داهية دَوَاهٍ ،
كلما تعاقَلَ أو تحادَقَ لم يأتِ له ذلك إلا بأن يكشفَ عن جنونه هو ؛ فلا يبرَحُ
يُجرُّه الغيظَ مرةً بعد مرة ، ولا يزال كأنه يَسْتَبْه في عقله ؛ فأراد أن يحتالَ
لصرفه عن المجلس ، فدفع إليه الرسالة التي جاء بها (البريد المستعجل) وقال
له : خذ هذه فاذهبْ فآلقِها في دار البريد ، فسيجيء بها الساعي مرة أخرى ،
ثم تذهبُ الثانية فتلقِها ، ويعود هو فيجيء بها ، وتكون أنت تذهب ويكونُ
هو يجيء ، فنضحكُ منه ويضحكون

قال س . ع : ولكن كم يذهب هذا وكم يجيء ذاك ؟
فغمزه (النابغة) بعينه أن اسكتْ ؛ فتغافلَ س . ع ، وقال : كم تريد أن
يجيء الساعي ليهتِفَ بنابغة القرن العشرين ؟

قال المجنون الآخر : هذا هو الرأي ، فلستُ قائماً حتى أعرفَ كم مرةً
أذهب ؛ فإن الساعي لا يجيء إلا راكباً ، وأنا لا أذهبُ إلا راجلاً ، وإن لي
رجليَّ إنسان لا رجليَّ دابة ...

قال (النابغة) : سبحان الله ! بقليلٍ من الجنون يخرجُ من الإنسان مجنونٌ
كاملٌ مُسْتَلَبُ العقل . بيدَ أنه لا يأتي النابغة إلا من كثيرٍ وكثير ، ومن
النبوغ كله بجميع وسائله وأسبابه على تعدُّدها وتفرُّقها وصعوبة اجتماعها
لإنسانٍ واحد (كنبغة القرن العشرين) ، فهو الذي توافَتِ إليه كلُّ هذه

الأسباب ، وتوازنت فيه كلُّ تلك الخلال . إنه ليس الشأن في العلم ولا في التعليم ؛ ولكنما الشأن في الموهبة التي تُبدعُ الابتكار ، كوهبة (نابغة القرن العشرين) ؛ فيها تجيء أعماله منسجمة دالةً بنفسها على نفسها ؛ ومتميزة مع كونها منسجمة دالةً بنفسها على نفسها ؛ ومتلائمة مع كونها متميزة دالةً بنفسها على نفسها ...

هذا س . ع ، كان الأول بين خريجي مدرسة دار العلوم ، مدرسة الأدب والعربية ، والمنطق والتحدُّق ، وبلاغة اللسان وصحة النظر ؛ وهو يعرف أن الكتاب يُلقَى في البريد وعليه طابعٌ واحد ، فيصل إلى غايته بهذا الطابع ، ثم يرى بعيني رأسه أربعة طوابع على هذه الرسالة المَعنونة باسم (نابغة القرن العشرين) ، فلا يدرك بعقله أن معنى ذلك أن من حق هذه الرسالة أن تصل إلى أنا أربع مرات

فطرب المجنون الآخر ، واهتزَّ في مجلسه ، وضقَّ بيديه ، وقال : « مما حفظناه » هذا الحديث : « يُحاسبُ الله الناس على قدر عقولهم . » فلا تؤاخذُ س . ع ، فإن مدرسة دار العلوم تعلمهم : « فيها قولان » ، وفيها ثلاثة أقوال ، وفيها أربعة أوجه ، ولكنها لا تعلمهم فيها أربعة طوابع

ثم التفت إلى س . ع ، وقال له : لا عليك ، فأنا صاحبه وخليطه ، وحاملُ علمه وراويَةُ أدبه ، وأكبرُ دُعائِهِ وثِقَاتِهِ ، وما علمتُ هذه الحكمة منه إلا في هذه الساعة .

قال ا . ش : فإذا كان هذا ، فإن لقائل أن يقول : لماذا لم يضع على كتابه عشرةً من الطوابع ، فيجىء به الساعى عشر مرات .
قال (النابغة) : وهذا أيضاً ؟ ... ؟

« وما شرُّ الثلاثة أمَّ عمرو * بصاحبك الذي لا تصحِّبَن » ؛ إن الشمعة

في يد العاقل تكون للضوء فقط ، ولكنها في يد المجنون للضوء ولا إحراق
أصابعه ... كم الساعة الآن ؟

قلنا : هي التاسعة .

قال : ومتى ينصرف أهل هذا الندي ؟

قلنا : تمام الثانية عشرة .

قال : فإذا كان الساعى يتردد في كل ساعة مرة ، فهي أربع مرات
إلى أن ينفض المجتمعون هنا ، وبين ذلك ما يكون قد ذهب قومٌ عرفوا (نابغة
القرن العشرين) ، وجاء قومٌ غيرهم فيعرفونه . وأما بعد ذلك فلا يجد الساعى
هنا أحداً ، فلا تكون فائدة من مجيئه ...

فصقق المجنون الآخر وقال : هذا وأبيك هو التهدي إلى وجه الرأى
وسداده ، وهذا هو الكلام الرصين الذى يقوم على أصول الحساب والجغرافيا ...
« ومما حفظناه » هذا الحديث : « لا مال أعود من العقل . » فأربعة طوابع ،
لأربع مرات ، في أربع ساعات ؛ وما عدا هذا فإسرافٌ وتبذير ؛ ولا مال
أعود من العقل ...

ورضى (النابغة) عن صاحبه وقال له : لئن كانت فيك ضعة إن فيك
لبقية تعقل بها ... ثم أخذ منه الرسالة ودسها في ثوبه . قلنا : ولكن ألا تفحصها
لنعرف ما فيها ؟

فضحك وقال : أين جاريكم في باب المطايمة والنادرة ، وجاريت هذا
الأبله في باب جنونه ومحقه — تحسبون أن الأمر على ذلك ، وأن الرسالة
فارغة إلا من عنوانها ، وأن نابغة القرن العشرين هو أرسلها إلى نابغة القرن
العشرين ، كما قال سعد باشا : (جورج الخامس يفاوض جورج الخامس) ... ؟

لَحَقَّ وَاللَّهِ أَنْ الْعَقْلَ الْكَبِيرَ الَّذِي يَأْتِي الصَّغَائِرَ ، هُوَ الَّذِي تَأْتِي مِنْهُ الصَّغَائِرُ
أَحْيَانًا لَتُثْبِتَ أَنَّهُ عَقْلٌ كَبِيرٌ ، وَهَكَذَا تَسْخَرُ الْحَقِيقَةُ مِنْ كِبَارِ الْعُقُولِ (كُنَابِغَةُ
الْقُرْنِ الْعَشْرِينَ) ...

فَغَضِبَ الْمَجْنُونُ الْآخِرُ وَهُمْ أَنْ يَتَكَلَّمُوا ؛ فَقَالَ لَهُ (النَّابِغَةُ) : أَنْتَ كَاذِبٌ
فِيمَا سَتَقُولُهُ ...

قُلْنَا : وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقُلْ شَيْئًا بَعْدُ ، فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ كَاذِبًا يَجُوزُ أَنْ
يَكُونَ صَادِقًا .

قَالَ : وَسُيْخِطِي ، فِي رَأْيِهِ الَّذِي يُبْدِيهِ ...

قُلْنَا : وَلَمْ يُبْدِ شَيْئًا مِنْ رَأْيِهِ .

قَالَ : وَلَا يَعْرِفُ الْحَقِيقَةَ الَّتِي سَيَتَكَلَّمُ عَنْهَا .

قُلْنَا : وَيَحْكُ ، أَدَخَلْتَ فِي عَقْلِ الرَّجُلِ أَمْ تَعْلَمُ الْغَيْبَ ؟

قَالَ : لَا هَذَا وَلَا ذَاكَ ، وَلَكِنَّهُ قِيَاسٌ مِنْطَقِيٌّ يَتَوَهَّمُ اطْرَافُهُ . إِنَّهُ سَيَقُولُ :

إِنِّي مَجْنُونٌ ...

فَأَخْرَجَ الْآخِرَ لِسَانَهُ ... قَالَ (النَّابِغَةُ) : تَبَّ لَكَ ، لَقَدْ رَأَيْتُ الْكَلَامَةَ فِي لِسَانِكَ
كَأَنَّهَا مَكْتُوبَةٌ بِمَحْرُوفِ الْمَطْبَعَةِ . وَيَحْكُ يَا مَرْقَعَانُ ^(١) ، أَلَا تَعْرِفُ أَنَّ لَكَ دِمَاغًا
مَخْرُوقًا تَسْقُطُ مِنْهُ أَفْكَارُكَ قَبْلَ أَنْ تَتَكَلَّمَ بِهَا ، وَلَوْلَا أَنَّهُ مَخْرُوقٌ لَحَفِظْتَ الْمَتْنَ !
إِنْ كُلَّ تَخْطِئَةٍ لِي مِنْكَ هِيَ اعْتِرَافٌ لِي مِنْكَ بِصَوَابٍ .

فَنَظَرَ الْآخِرُ إِلَيْهِ نَظْرَةً كَانَتْ تَفْسِيرُهَا فِي حَوَاجِبِهِ ، إِذْ مَطَّ حَوَاجِبَهُ ^(٢)
وَرَقَصَهَا . فَقَالَ (النَّابِغَةُ) : وَنَظَرَاتُهُ خَمِيْشَةٌ مِلْحَةٌ الطَّعْمُ ، مَزْعُوقَةٌ كَلَاءِ الْبَحْرِ

(١) المرقعان والمرقع : الأحق الذي يتمزق عليه رأيه فلا يجتمع له .

(٢) هما حاجبان ، ولكن هذا الأسلوب هو الأفصح هنا ، وهو كثير في العربية .

المرء أخذ من البحر وأضيف إلى ملحه الطبيعي ملح ، أكاد أنهوَّع من هذه النظرة فأق .

الآن فهتُم معنى قولهم : « ملحَةٌ في عين الحسود . » فإن الملح لا يغلبه إلا الملح ، كالحديد بالحديد يُفْلَح . هاتوا كأساً من مُعْتَقَةِ الحُر ، ثم لينظر فيها الخبيثُ هذه النظرة ، فإن الحُر لا بد مستحيلٌ « شربة ملح إنجليزى » ... هذا الأبلهُ ثقيلُ الدم كأن دمه مأخوذ من مستنقع ... أهذا الذى لا يستطيع أن يقول شئاً في الدنيا : هولى ، إلا الفقرَ والجنونَ والخرافة — يكذب ما في الرسالة التى جاء بها البريد المستعجل ، ولا يُصدّق أنها مرسلّة إلى نابغة القرن العشرين من صاحب السمو الأمير ؟

هذا الذاهبُ العقل هو كالجبان المنقطع في وَحْشَةِ القفر ، في ظلام الليل : إذا توجَّس حركةً ضعيفةً انقلبت في وهمه قصة جريمة ملؤها الرعب وفيها القتلُ والذبح ؛ ولهذا يخشى ما في الرسالة التى جاءت من صديقي صاحب السمو . هاؤُم اقرءوا الرسالة .

وفضضنا الغلاف ، فإذا ورقتان ممهورتان بتوقيع أمير معروف ، إحداها صكٌّ بألف جنيه تدفع (لنابغة القرن العشرين) ، والثانية أمرٌ بالقبض على الجنون الآخر ... وإرساله إلى المارستان ...

وذهبتُ أصْلِحُ بينهما صلحاً فقلت : إن في الحديث الشريف : « بينما رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في أصحابه إذ مرَّ به رجلٌ ، فقال بعضُ القوم : هذا مجنون . فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : هذا مُصاب ؛ إنما المجنونُ المقيمُ على معصية الله . »

فقال صاحبُ المتن : « مما حفظناه » : إنما المجنونُ المقيمُ على معصية الله .

قلت : وليس فيكما مقيمٌ على معصية الله ...

قال المجنون : « مما حفظناه » : وليس فيكما مقيمٌ على معصية الله ...

قلت : هذا ليس من الحديث ولكنه من كلامي .

قال (النابغة) : أنبأتكم أن هذا الأبلهَ يَصِلُ في داره كما يضلُّ الأعرجُ في الصحراء ؛ وأن الأسطولَ الإنجليزي لو استقرَّ في ساقيةٍ يدورُ فيها ثور ، لكان ذلك أقربَ إلى التصديق من استقرارِ العقلِ في رأسِ هذا الأبله ؟ ...
فاختدَمَ الآخرَ وهمَّ أن يقول : « مما حفظناه » ، ولكنني أسكتُه وقات (للنابغة) : إنك دائماً في ذروة العالم ، فلا غرَوَ أن ترى المحيطَ الأعظمَ ساقية .
« والنوابغ » هم في أنفسهم نوابغ ، ولكنهم في رأى الناس مَرْضَى بمرضِ الصعودِ الخياليِّ إلى ذروة العالم . ومن هذا يكونُ المجانينُ هم المرضى بمرضِ النزولِ الحقيقيِّ إلى حَضِيضِ الآدمية ؛ فهناك يعملون فتسكونُ أفكارُهم من أعمالهم ، ثم تكونُ عقولُهم من أفكارهم ، فيكونُ هذا هو الجنون في عقولهم ؛ وذلك معنى الحديث : « إنما المجنونُ المقيمُ على معصية الله . »

قال (النابغة) : لعمري إن هذا هو الحق ؛ فنبوغُ العقلِ مَرَضٌ ومن أمراضِ السمومِ فيه ؛ فالشاعرُ العظيمُ مجنونٌ بالكونِ الذي يتخيله في فكره ، والعاشقُ مجنونٌ بكونِ آخر له عينان مكحولتان ؛ والفيلسوفُ مجنونٌ بالكونِ الذي يدَّأبُ في معرفته ؛ ونابغةُ القرنِ العشرينِ مجنون ... لا . لا . قد نسينا
١ . ش ، فهو مجنون ، وس . ع فهو مجنون .

وكلُّ الناسِ مجنونٌ بليلى وليلى لا تُقرُّ لهم بذلك

ومن حقِّ ليلى ألا تُقرَّ لهم ، إذ هي لا تقرُّ إلا لنابغةِ القرنِ العشرينِ وحده ؛ وما أعجبَ سِحْرَ المرأةِ في الكونِ النفسانيِّ للرجال ؛ أما في الكونِ الحقيقيِّ فهي أنثى كائناتِ البهائمِ ليس غير . وأعقلُ الرجالِ من كان كالخمار أو الثور أو غيرها

من ذكور البهائم . فالبحار لا يعرف الحجارة إلا أنها سمارة ، واثور لا يعرف البقرة إلا أنها بقرة ؛ ولا ينظمون شعراً ، ولا يكتبون « أوراق الورد » ... وإناث البهائم أمات^(١) لا غير ، ولكن العجيب أن ذكورتها ليست آباء ؛ فهذه الذكورة طفيلية في الدنيا ، والطفيلي لا يأكل إلا بحيلة يحتال بها ، فيكون صاحب نوادر وأضاحيك وأكاذيب . ولهذا كان عشق الرجال للنساء ضروباً من الخداع والأكاذيب والأضاحيك والحيل والغفلة والبلاهة ؛ وإذا نظرنا إليه من أوله فهو عشق ، أما آخره فهو آخر الحيلة والأكذوبة ، وهو قول الطفيلي : قد شبعْتُ وقد رويت ... ويحكم ، أين أول الكلام ؟

قلنا : أوله ما أعجب سحر المرأة في الكون النفساني للرجال .

قال : نعم هذا هو . إنه سحر لا أعجب منه في هذا الكون النفساني إلا سحر الذهب ؛ فلو مسخت المرأة الجميلة شيئاً من الأشياء لكانت سبيكة ذهبية تلمع ؛ ولهذا يوجد الذهب اللصوص في الدنيا ، وتوجد المرأة الجميلة لصوصاً آخرين ، فيجب أن يُصان الذهب وأن تُصان المرأة .

قلت : ولكن أليس من المال فضة ، وهي توجد اللصوص كالذهب ؟

قال : نعم ، وفي النساء كذلك فضة ، وفيهن النحاس ؛ ولو أنت أقيت ريالاً في الطريق لأحدثت معركة يختصم فيها رجلان ، ثم لا يذهب بالريال إلا الأقوى ، ولو تركت قرشاً لتضارب عليه طفلان ، ثم لا يفوز به إلا من عض الآخر ...

ولكن (فورد) الغني الأمريكي العظيم الذي يجمع يده على أربعمائة مليون جنيه ، لا يتكلم عن القرش ؛ (ونابغة القرن العشرين) الذي يملك (ليمي) ، لا يتكلم عن غيرها من قروش النساء ...

(١) يقال في غير العاقل : أمات ، وفي العاقل : أمهات .

قلت : فإنى أحسبك أعلمتنى أن اسمها فاطمة لاليلي .

قال : هل يستقيم الشعر إذا قلت : وكلُّ الناس مجنونٌ بفاطمة ، وفاطمة لا تقرُّ لهم ؟ قلت لا .

قال : إذن فهى (ليلي) ليستقيم الشعر ... أما حين أقول : أفاطمُ مهلاً بعد هذا التدلُّل ، فهى فاطمة ليصحَّ الوزن ...

قلت : يُشبهه والله ألا يكون اسمها ليلي ولا فاطمة ؛ وإنما هى تسمى حَسَبَ الوزن والبحر ، فاسمها فعولُنْ أو مُفاعِلَتُنْ ...

ثم قلنا له : فما رأيك فى الحب ، فإنه ليقال : إنك أعشقُ الناس وأغزلُ الناس ؟

قال : إن ذلك ليقال (وهو الأصح) ، ثم أطرق يفكر . وبدأ عليه أنه مدهوش ذاهبُ العقل ، كأنه من قلبه على مسافةٍ أبعدَ من المسافة التى بينه وبين عقله . وحَيَّلَ إلى أن النساء قد حُشِرْنَ جميعاً فى رأسه ، ومرَّت كلُّ واحدةٍ تعرّض مفاتيحها وغزَلها ، وتلائم هديانه بهذيان من جالها ، فهو يرى ويسمع ويعرِّض ويتخيَّر . ثم اضطرب كالذى يحاول أن يمسك بشيء أفلت منه ؛ فلم يذنبه إلا قولُ المجنون الآخر : « مما حفظناه » أن أعرايية سئلت عن العشق فقالت : إنه داءٌ وجنون ...

قال : اسكتْ يا ويلك لقد أطفأت الأنوارَ بكلمتك المجنونة . كان فى رأسى مرصُّ عظيم تسطع الأنوارُ فيه بين الأحمر والأخضر والأبيض ؛ وترقصُ فيه الجيالات من الطويلة والقصيرة والممشوقة والبادئة ، فجئت بالداءِ والجنونِ قبلك الله فأخرجتنى عنهن إليك . أحسبُ أنك لو انتحرتَ لصلحَ العالمُ أو صلحتُ أنا على الأقل فإذا أردتَ أن تشنقَ نفسك فأنا آتيك بالحبل الذى كنتُ

مقيّداً فيه أى الحبلى الذى عندى فى الدار ... على أن رأسك الفارغ مشنوق
فيك وأنت لا تدري .

قال الآخر : ما أنت مُنذُ اليوم إلا فى شنقى وتعذيبى أو فى شنقى عقلى (على
الأصح) . « ومما حفظناه » قولُ الأحنف بن قيس : إني لأجالسُ الأحقَّ ساعةً
فأتبَيِّنُ ذلك فى « عقلى » ...

فلم يرَ عُنّا إلا قيامُ المجنون مسلّحاً بحذائه فى يده ... وهو حذاء عتيقٌ غليظ
يقتلُ بضربةٍ واحدة ؛ فحللنا بينهما وأثبتناه فى مكانه . وقلنا : هذا رجلٌ قد
غلبَ على عقله فلا يدري ما يقول ؛ فإذا هو دلّ على أنه مجنون ، أفلا تدلُّ أنت
على أنك عاقل ؟ ما سألناك فى انتحاره وجنونه ، بل سألناك رأيك فى الحب ؛
وما نشكُّ أنك قد أطلتَ التفكيّرَ ليكونَ الجوابُ دقيقاً ، فإنك (نابغة القرن
العشرين) ، فانظر أن يكونَ الجوابُ كذلك .

قال : نعم إن العاقلَ إذا ورد عليه السؤالُ أطالَ الفكرَ فى الجواب . فاكتب
يا فلان (س . ع) :

(جلس نابغة القرن العشرين مجلسَ الإملاء مُرتجلاً فقال ^(١) : قصةُ الحب
هى قصةُ آدم ، خلقَ الله المرأةَ من ضلعه . فأولُ علاماتِ الحب أن يشعرَ الرجلُ
بالألم كأن المرأةَ التى أحبها كسرتَ له ضلعاً ... وكل قديم فى الحب هو قديمٌ
بمعنى غير معقول ، وكلُّ جديد فيه هو جديدٌ بمعنى غير مفهوم ؛ فغيرُ المعقولِ
وغيرُ المفهوم هو الحب .

والجمرَةُ الجراءُ إذا قيل إنها انطفأتْ وبقيتْ جمرَةً فذلك أقربُ إلى الصدق
من بقاء الحب حياً بمعناه الأول إذا انطفأ أو برَدَ .
والعاشقُ مجنون . وجنونه مجنونٌ أيضاً ، فهو كالذى يرى الجمرَةَ منطفئةً ،

(١) هذا نص عبارته حين يريد التخليط .

ويرى مع ذلك أنها لا تزالُ حمراء ، ثم يُعَيِّنُ في خياله فيراها وردة من الورد ...
وإذا سألتَه أن يصفَ الجمالَ الذي يهواه كان في ذلك أيضاً مجنونَ الجنونِ ،
كالذي يرى قمرَ السماء أنه قد تفتَّت وتناثر ووقع في الروضة ، فكان نِشارُهُ هو
الياسمينَ الأبيضَ الجميلَ الذي ...

والجنونُ يرى الدنيا بجنونه والعقلُ يراها بعقله ؛ ولكنَّ العاشقَ المجهولَ
لا ينظر من يهواه إلا ببقيةٍ من هذا وبقيةٍ من ذلك ، فلا يخلصُ مع حبيبهِ إلى
جنونٍ ولا عقل .

(والمجهولُ) إذا أراد أن يَظْهَرَ في دماغٍ بشريٍّ لم يسعه إلا أحدُ رأسين :
رأسِ المجنونِ ورأسِ العاشقِ ...

ولا صعوبةٌ في الحكم على شيء بأنه خيرٌ أو شرٌّ إلا حين يكونُ الخيرُ
والشرُّ امرأةً معشوقة . أما أوصافُ الشعراء والكتّاب للجمال والحب فهي كلها
تقليدٌ قد توسَّعوا فيه ؛ والأصلُ أن ثوراً أحب بقرةً فكان يقول لها : يا نجمة
القطب التي نزلت من السماء لتدورَ في الساقية كما دارت في الفلك ...

قال (النابعة) : هذا رأيي في حب العاشقين ؛ أما حي أنا (نابعة القرن
العشرين) فيجمعه قولك : قلّ ، ورد ، زهر ..

قلنا ما هذه الألغاز ؟ وهل للحب مَثَنٌ كقولهم : حروفُ القَلْقَلَةِ يجمعها
قولك (قُطْبُ جَدٍ) ، وحروفُ الزيادة يجمعها قولك (سَأَلْتُونِيهَا) ؟

فتضحكُ (النابعة) وقال : تكاثرتِ الظباءُ على خَرَّاش ، فلكيلاً ننسى ...
إن كل حرف هو بدء اسم ، الفاء فاطمة ، واللام ليلى ، والواو وردة ، والراء
رَبَاب ، والدال دلال ، والزاي زكية ، والهاء هند ، والراء رَبَاب ...

قلنا : رباب قد مضت في (ورد) .

قال : كننا تهاجرنا مدة ثم اصطالحنا بعد هند ...

قلت : هكذا « النوابع » فإن رجلاً أديباً كانت كنيته (أبا العباس) فلما « نبغ » صيرها (أبا العير)^(١) وفتق له نبوغه أن يجعلها تاريخاً يعرف منها عمره .
قالوا فكان يزيد فيها كل سنة حرفاً حتى مات وهي هكذا :
أبو العير طرد طيل طليري بك بك بك

المجنون

هـ

ثم إن (نابغة القرن العشرين) استخف الطرب لذكر صواحيه وجماليته من فاطمة إلى رباب ؛ ومن طبع المجنون أنه إذا كذب صدق نفسه ، فإن قوة الضبط في عقله إما معدومة وإما مختلة ؛ وكل وجه تخيل منه خيالا فهو وجه من وجوه العلم عنده ، إذ كان عالمه أكثره في داخله لا في العالم ، فإذا توهم أو أحس أو شعر ، فإنما يكون ذلك بطريقته هو لا بطريقة الناس العقلاء ؛ فليس يحتمل عقله إلا فكرة واحدة تمضي منفردة بنفسها مستقلة بمعناها كأنها قدر غالب على جميع أفكاره الأخرى ، فلا شأن لها بالواقع ، ولا شأن للواقع بها ، وإنما هي تحقق معناها كما تخطر له ، لا كما تتمثل فيما حوله .

فبين كل مجنون وبين ما حوله دماغه المتدجى بالغيوم العقلية ، لا تزال

(١) العير : الحمار وتكنى بعض الحقى (أبو البقر) قياساً على (أبو العير)

تَعْرِضُ لَهُ الْغَيْمَةُ بَعْدَ الْغَيْمَةِ مِنْ اخْتِلَالِ بَعْضِ الْمُرَاكِزِ الْعَصَبِيَّةِ فِيهِ ، وَفَسَادِ أَعْمَالِهَا بِهَذَا الْاِخْتِلَالِ ، وَقِيَامِ الطَّبِيعَةِ فِيهَا عَلَى هَذَا الْفَسَادِ .

وَمِنْ ذَلِكَ تَنْقَلِبُ الْكَلِمَةِ مِنَ الْكَلَامِ ، وَإِنِهَا لِحَادِثَةٌ تَامَةٌ فِي عَقْلِ الْجَنُونِ كَالْقِصَّةِ الْوَاقِعَةِ لَهَا زَمَانٌ وَمَكَانٌ ، وَبَدْءٌ وَنِهَآيَةٌ ، لَا يُخَاطِرُهُ فِيهَا الشَّكُّ ، وَلَا يَعْتَرِيهَا التَّكْذِيبُ ؛ وَكَيْفَ وَهِيَ قَائِمَةٌ فِي ذَهْنِهِ مِنْ وَرَاءِ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ قِيَامَ الْحَقِيقَةِ فِي الْأَبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ ؟

وَلِحَوَاسِّ الْجَنُونِ جِهَتَانِ فِي الْعَمَلِ ، لِأَنَّهَا بَيْنَ كَوْنَيْنِ ؛ أَحَدُهُمَا السَّكُونُ الْخَرِبُ الَّذِي فِي دِمَاغِهِ ؛ وَفِي هَذَا يَقُولُ (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ) : إِنْ فِي دَاخِلِ عَيْنَيْهِ مَنَظَرًا يَرَى بِهِ الْأَشْيَاءَ فِي غَيْرِ حَقَائِقِهَا ، أَى فِي حَقَائِقِهَا

وَحَدَّثَنَا الدَّكْتُورُ مُحَمَّدُ الرَّافِعِيُّ قَالَ : إِنْ فِي دَارِ الْجَانِينِ بِمَدِينَةِ لِيُونِ بِفَرَنْسَا نَابِغَةٌ كَنَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ ، ذَكَرَتْ أَمَامَهُ قَيْصَرَةٌ رُوسِيَا وَخَبِرَ مُقْتَلَاهَا ، فَأَحْفَظَهُ هَذَا وَأَرْمَضَهُ وَقَالَ يَا وَيْهُمْ ! كَذَبُوا عَلَيْهَا وَعَلَى . . . فَسَأَلَهُ الدَّكْتُورُ : وَكَيْفَ ذَلِكَ ؟

قَالَ : كَانَ مِنْ خَبَرِ الْقَيْصَرَةِ أَنَّهَا رَأَتْنِي فَأَحْبَبْتَنِي ، وَعَلِمَتْ مِنْ كُلِّ وَجْهِ يُمْكِنُ أَنْ يَعْلَمَ مِنْهُ قَلْبُهَا أَنَّي أَنَا رَجُلُهَا لَا الْقَيْصَرَ ؛ فَمَا زَالَتْ بَعْدَهَا تُنَادِي كَذِبَ الْقَيْصَرَ وَتَلْتَوِي عَلَيْهِ وَلَا تَصْلُحُ لَهُ فِي شَيْءٍ حَتَّى يَنْتَسِ مِنْهَا فَطَلَّقَهَا ، فَحَمَلَتْ كَنُوزَهَا وَحَلَّاهَا وَجَلَّتْ إِلَى حَبِيبِهَا ، ثُمَّ تَبِعَتْهَا نَفْسُ الْقَيْصَرَ وَلَمْ يُطَقِ الْعَيْشَ بَعْدَهَا فَانْتَحَرَتْ . . . ثُمَّ طَلَبَهَا الشِّيُوعِيُّونَ لَمَّا مَعَهَا مِنْ كَنُوزٍ ، فَأَخْفَاهَا هُوَ فِي مَكَانٍ خَرِيزٍ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُوَ ؛ ثُمَّ إِنَّهُ هُوَ لَا يَصِلُ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ الَّذِي أَحْرَزَهَا فِيهِ إِلَّا إِذَا نَامَ . . . كَيْلَا يَرَاهُ أَحَدٌ مِنَ الشِّيُوعِيِّينَ فَيَتَعَقَّبَهُ فَيَعْلَمَ مَقَرَّهَا ؛ وَلِهَذَا كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يَنْسَى الْمَكَانَ إِذَا اسْتَيْقِظَ . . . فَقَدْ يَزِلُّ مَرَّةً فَيُخْبِرُ بِهِ أَوْ يُغْلِبُهُ

الشوق مرة على « عقله » ... فيذهبُ إليه ؛ فعسى أن يراه من يَمِّمُ بذلك ،
فتفتضحُ الحبيبة وتؤخذُ منه .

قال : وإن القيصريةَ هي تحتاط أيضاً مثل ذلك فتُرسلُه كل يوم باللاسلكي
رسائلَ تقع من الجو في دماغه فيقرأها وحده ، وإن أخوف ما يخافه أن يغلبها
جنونُ الحب يوماً فتطيشَ طيشَ المرأة ، فتزوره في هذا المارستان ... فقد
تُقتلُ إذا رآها الشيوعيون .

قال الدكتور : وهالك (نابغة) آخر ثبت في ذهنه أن امرأةً من أجمل
النساء قد استهامت به وأنها مُبتلاةٌ في حبها إياه بجنون الغيرة ، وقد تناهت فيه
حتى إنها لتقتلُ نفسها إذا علمت أن لصاحبها هوًى في امرأةٍ أخرى . وخبلته
هذه الفكرة ، فاعتقد أن حبيبته من جنون غيرتها واقعةٌ بين السلامة والتلف ؛
ثم توهم ذات يوم أن واشياً قد أعلمها أن النساء افتنَّ به ؛ فطار صوابها ، فهي
آتيةٌ إليه في المارستان لتوبخه وتشفي غيظها منه ، ثم تنتحر أمام عينيه ...
وأدار (النابغة) الفكر في إقناعها لتعلم أنه لم يخُنْها بالغيب فلم يهتدِ إلى
مقنعٍ تستيقن به المرأة أن لا أربَ للنساء فيه إلا أن ففعل وجبَ خِصيتيه
بيده ليقدمَهما برهاناً أنه لها وحدها

قلنا : وطرب (نابغة القرن العشرين) لذكر صواحيبه وجميلائه ، فجعل
يترنم بهذا الشعر :

قالوا جُنُنْتُ مِن تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ مَا لَذَةُ الْعَيْشِ إِلَّا لِلْمَجَانِينِ

فقال المجنون الآخر : « مما حفظناه » : ما لذة « الخبز » إلا للمجانين

فضحك (النابغة) : وقال : ما أسخفَكَ مِنْ أَحْمَقٍ . إذا كان هذا هو المعنى

فقل ما لذة (الكعك) . ألم أقل لكم إن هذا الأبله لو تهججاً كلمة خبز لقال إنها

ل . ح . م . . ولوتهجأ كلمة لحم لقال ف . و . ل

إنه طفلُ عمره ثلاثون سنة وفيه دائماً غضبُ الطفل ونزقُه وحماقته ، وفيه كذلك سرورُ الطفل وطيشه وأحلامه ؛ غير أنه ليس فيه عقلُ الطفل . . . وهو من الضعف ، وشدة الحاجة إلى العناية في حياطته وسياسته والبر به كطفل صغير — بحيث يُخَيَّل إلى أحياناً أنني أمه

قلنا : وتنسى في هذه الحالة أنك رجل ؟

قال : وأنتم كذلك تتهمونني بالنسيان ، وهو شرعا جهةٌ مُزِمَّةٌ للحكم بالجنون . فما النسيانُ إلا الكلمةُ الأخرى لمعنى ضعفِ العقل ؛ وضعفُ العقل هو اللفظُ الآخرُ لمعنى جنوني ؛ وقد أعلمتكم ما أكره من الكلام .

قلتُ : لا ، النسيان لا يكون منك نسياناً بمعناه في المجانين ، بل بمعناه فيك أنت من تَوَائِبِ الأفكارِ النابغة وتزاحمها في تَوَارِدِها على العقل . فإذا تَوَائِبَتْ وتزاحمتْ كان أمرُها إلى أن يُنسى بعضها بعضاً ، فلا ينطلق منها إلا القوى النابغُ حقَّ نبوغه ، فيجىء كالمنقطع مما قبله ؛ فيُحَسَّبُ ذلك نسياناً وما هو به . وقد تصطلح الأفكارُ في هذه المعركة الذهنية إذا كان النابغة مسروراً مجبوراً يرقصُ طرباً فيكون أمرُها إلى أن تجىء كلها معاً على اختلافِ معانيها وتناقضها ؛ فيُحَسَّبُ ذلك ضرباً من الذهول عند من يجهلُ العلةَ « النبوغية » ؛ وعذره جهلُ هذه العلة ، وهي في دلالة العقل ليست نسياناً ولا ذهولاً .

قال : فأعلمني كيف نسيانُ المجانين ، فقد خفيَ عليَّ أن أدركَ هذا الأمرَ العجيبَ فيهم ، ولست أدري كيف يفوتهم ما استدنى لهم من الفكر بعد أن يكون قد استقرَّ وحصل في عقولهم ؟

قلت : لا يكون النسيان تهمّةً بالجنون إلا في أحوالٍ ثلاثٍ ، جاءت بكتّاهما
الروايةُ الصحيحةُ المحفوظةُ :

فأما الأولى : فما يُروى عن رجل كان سرّاً غنياً وعُمّر حتى أدركه الخرف ؛
فجاءه كاتبه يوماً يستعينه على تجهيز أمه وقد ماتت ، فدفع إلى غلامٍ له دنانيرَ
يشترى بها كفنّاً ، ودنانيرَ أخرى يتصدق بها على القبر ، ثم قال للغلام آخر :
إمض إلى صاحبنا وغاسلٍ موتانا فلان فادعُ يغسلها . قال الكاتب : فاستحييتُ
منه وقلت : يا سيدي ابعثْ خلف فلانة وهي جارةٌ لنا تغسلها . قال يا فلان :
ما تدعُ عقلك في حزنٍ ولا فرح . كيف ندخل عليها من لا نعرفه ؟

قال الكاتب : نعم تأذنُ بذلك . قال لا والله ما يغسلها إلا فلان .

فضاق الكاتب بهذا الحق وقال : يا سيدي كيف يغسل رجلُ امرأة ؟

قال : وإنما أمك امرأة ... ؟ والله لقد أنسيّت ...

وأما الحالةُ الثانية : فما يُروى عن رجل كان نائماً في ليلةٍ باردةٍ فخرجت
يدهُ من الفراش فبردتْ ، فأدناها إلى جسده وهو نائم فأحسَّ بردها فأيقظته ،
فانتبه فزِعاً فقبض عليها بيده الأخرى وصاح : اللصوص . اللصوص ... هذا
اللص قد قبضتُ عليه ، أدركوني لئلا تسكون في يده حديدةٌ يضربني بها ، فجاءوا
بالسراج فوجدوه قابضاً بيده على يده وقد نسي أنها يده ...

وأما الثالثةُ : فهي روايةٌ عن رجل قد ورثَ نصفَ دار ، ففكر طويلاً
كيف تخلّص الدارَ كلّها له ثم اهتدى إلى الوسيلة ؛ فذهب إلى رجل وقال له :
أريد أن أبيعك حصتي من الدار وأشتري بتمنها النصفَ الباقي لتصير الدارُ
كلّها لي ...

قال (النابعة) : لعمري إن هذا هو الجنون ، وما يُدْكَرُ مع هؤلاء مجنون
المتن ولا « غيره » ...

فقال الآخر : تالله لولا أن (نابعة القرن العشرين) يرفع نفسه عن الجنون
لجاء في الجنون بما يُذهِلُ « العقول » ...

ثم نظر فإذا النابعة يتحفّز له ... ؛ فأسرع يقول : « مما حفظناه » كنْ
حذراً كأنتك غيّرٌ ، وكن ذا كِرٍّ كأنتك ناسٍ . فهذا هو نسيانُ نابعة القرن
العشرين ، نسيانُ حكاء لا نسيانُ مجانين .

قال (النابعة) : ولكن قد فسد قولُ الشاعر : ما لذة العيش إلا للمجانين ؛
فما بقيت مع الجنون لذة .

قلت : إن الشاعر لا يريد المجانين الذين هم مجانين بالمرض ، وإنما يريد
العشاقَ المجانينَ بالجمال ؛ وجنونُ العاشق في هذا الباب كعيوب العطاء من أهل
الفن ، وهى عيوبٌ تُدافع عن نفسها بحسَنَاتِ العظْمَةِ ، فليست كغيرها
من العيوب .

قال : فيجب أن أصنع بيتاً آخرَ يفسّر ذلك الشعرَ ليستقيم لى التمثل
به ، ثم فكروهمهم ، ثم كتب في ورقة ثم طواها وقال : اصنع أنت أولُ ،
وسأتمنّ س . ع . على شعري ودفع إليه الورقة :

فنظرت وقلت : يجب أن يكون الشعر هكذا :

قالوا جُنِنْتَ بمن تهوى فقلتُ لهم ما لذة العيش إلا للمجانين
العقلُ إن حَكَمَ العشاقُ أثقلُ من فقرٍ تحكّم في رِزْقِ المساكين
ونشّرس . ع . الورقة فإذا فيها :

قالوا جُنِنْتَ بمن تهوى فقلتُ لهم ما لذة العيش إلا للمجانين
إن العيوبَ عن المجنون دافعةٌ بأنه « نابعٌ في القرن عشرين » ...

وضحكننا جميعاً ؛ فقال النابغة : أبعدك الله يا س . ع . إن من أتمن الجنون
على سرِّ وقال له اكتبه فكأتما قال له انشره . . .

ثم قال : وَدِدْتُ وَاللَّهِ أَنْ يَكُونَ س . ع . هذا « نابغة » ، ولكنى سأجعله
نابغة ، فقد صار له عَلَى حَقِّ الصديق وهو حَقٌّ لَا أُضِيعُهُ وَلَا أُخِلُّ بِهِ . فإذا
احتجت يا س . ع . إلى خطابِ رنان تلقيه في حَقْلٍ عَظِيمٍ ، أو قصيدة تمدح بها
وزير المعارف ، فالجأْ إِلَى فَنَانِي مَلْجَأُكَ . ومتى انتحلت شعري كنت عند
الناس المتنبى أو البحتري أو ابن الرومي ، فإن هؤلاء القُدَامَى لم ينفعهم إِلَّا أَنِّي
لم أَكُنْ فِيهِمْ ، ولما لم أَكُنْ فِيهِمْ أعجبوا الناسَ إِذْ أَنَّنِي لم أَكُنْ فِيهِمْ . . .
قلنا فما حكمت عليهم في الأدب ؟

قال : إِذَا حَكَمْتُ عَلَيْهِمْ فَقَدْ جَعَلْتُ نَفْسِي بَيْنَهُمْ ، فمن الطبعي ألا يعجبني
منهم أحد . إن « نابغة القرن العشرين » لا يقول لمعنى هذا أحسن ، فإنه هو
فوق الأحسن ، ولا يقول عن نابغة هذا أشهر ، فإنه هو فوق الأشهر .

قلت : كَأَنَّ الدُّنْيَا تَحْتَ قَدَمَيْكَ وَأَنْتَ فِيهَا الزَّاهِدُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا يَقُولُ
فِي حُسْنٍ هَذَا أَحْسَنُ لِأَنَّهُ فَوْقَ الشَّهْوَةِ ، وَلَا فِي نَعِيمٍ هَذَا أَطْيَبُ لِأَنَّهُ فَوْقَ
الطَّمَعِ ، وَلَا فِي مَالٍ هَذَا أَكْثَرُ لِأَنَّهُ فَوْقَ الْحَرَصِ . وَأَحْسَبُكَ لَوْ كُنْتَ تَرَعَى
غَنَاءَ لَكُنْتَ الْحَقِيقَ فِي عَصْرِنَا بِقَوْلِ تِلْكَ الرَّاعِيَةِ الزَّاهِدَةِ : أَصْلَحْتُ شَأْنِي بَيْنِي
وَبَيْنَهُ فَأَصْلَحَ بَيْنَ الذُّبِّ وَالْغَنَمِ .

قال : وكيف ذلك ؟

قلت : حكى عن بعض الصالحين أنه فكر ذات ليلة فقال في نفسه : يارب .
مَنْ زَوْجَتِي فِي الْجَنَّةِ ؟ فَأَرَى فِي مَنَامِهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ أَنَّهَا جَارِيَةٌ سُودَاءُ فِي أَرْضٍ
كَذَا . فجاء تلك الأرض فسأل عن الجارية ، فقال له رجلٌ ما هذا ؟ تسأل عن

جارية سوداء مجنونة كانت لى فأعتقتها ؟ قال وماذا رأيتم من جنونها ؟ قال : كانت تصوم النهار فإذا أعطيناها فطورها تصدقت به ، وكانت لا تهدأ الليل ولا تنام فضجرنا منها .

قال : فأين هى ؟ قال ترعى غنماً للقوم فى الصحراء :

فذهب إلى الصحراء فإذا هى قائمة فى صلاتها ، ونظر إلى الغنم فإذا ذئبٌ يدها على المرعى وذئبٌ يسوقها . فلما فرغت من صلاتها سلم عليها فأنبأته أنه زوجها فى الجنة وأنبأها أنه بُشِّر بها ؛ ثم سألها ما هذه الذئبُ مع الأغنام ؟ قالت : نعم أصلحتُ شأنى بينى وبينه فأصلح بين الذئب والغنم .

قال (النابغة) : هذا كذب لأنه عجيب ، وهو عجيب لأنه كذب .

قلت : وأى عجيب فى هذا ؟ إن الذئب والشاة ، والأسد والغزال ، والتعبان والعصفور ، وكلّ آكل ومأكول من الأحياء ، لو هى دخلت فى دائرة الصلاة الحقيقية لا تنظم كلها صفّاً واحداً يركع ويسجد . فهذه الجارية نشرت رُوح الصلاة والتقوى على كل ما حولها من قلبها الطاهر المطمئن بالإيمان فوقع الذئب منها فى دائرة مغناطيسية ، فسلب وحشيته ورجع مُسَخَّراً لفكرة الصلاح والخير إذ تجانسَتْ فيه الحياة بما حولها ، وانسجم النوع والنوع فى حركة متجاوبة انسجام الرجل المغناطيسى هو ومن ينوّمه فى إرادة واحدة وفكرة واحدة .

قال (النابغة) : فإذا دخل الذئب مسجداً يرتج بالمصائين ، أترأه يصفُ أربعته ويقفُ بينهم للصلاة ، أم يصلى صلاته الذئبية فى لحومهم ؟

قلت : وأين هم الذين يصلون بحقيقة الصلاة ، فيخرجون بها من النفس إلى السكون ، ومن الزمن إلى الأبد ، ومن الأسباب إلى مُسَبِّها ، ونما فى القلب إلى ما فوق القلب ؟ إن هؤلاء جميعاً يصلون بجوارحهم وبينهم وبين أرواحهم طول

الدنيا وعرضها ؛ وما منهم إلا من يتصل فكره بما يغلب عليه ، كما يتصل فكر اللص بيده ، وفكر العاشق بعينه ، وفكر الطقيلي بمعدته ... فاسمها عندهم الصلاة ، وحقيقتها عند الله كما ترى .

قال (النابغة) : ولكنه ذئب من طبيعته أن يأكل الشاة لا أن يراها ، فلا أفهم شيئاً .

وقال الآخر : « مما حفظناه » رتع الذئب في الغنم ، ولم يقولوا صلى الذئب في الغنم ، فلا أفهم شيئاً .

قلت : سأزيد كما عدّم فهم ... إن قلب تلك المرأة العظيمة الطاهرة متصل بالله ، وليس فيه شيء من طباعها الإنسانية ولا ظل من ظلال الدنيا ؛ وقد تجلّى فيه سر الحياة ، وهو السر الذي لا يطعم ولا يشرب ولا يلبس ولا يشتهي ولا يطعم في شيء ولا يحرز شيئاً ، وإنما طبيعته أشواقه الكونية ، واتصاله بنفحات القوة الأزلية المسخرة للوجود كله . فانتشرت هذه الموجة الكهربائية الأثيرية حول الجارية من قلبها ، وجاء الذئب فالتجّ فيها وغرته الروحانية الغالبة ، فإذا هو يفتح عينه على كون غريب قد تجلّى السلام عليه ، فليس فيه إلا قوة آمرة أمرها بائتلاف كل شيء مع كل شيء ، واجتماع المتنافرين في حالة معروفة لا في حالة إنكار . فصار الذئب مستيقظاً ، ولكنه في روح النوم ، وشلت فيه الذئبية الطبيعية ، فإذا هو يحمل الأنياب والأظافر وقد أنسى استعمالها ؛ وبقيت حركته الحيوانية ، ولكن تعطّات بواعثها فبطل معناها .

ومن كل ذلك اختفى الذئب الذي هو في الذئب ، وبقي الحيوان حياً ككل الأحياء ، فناسب الشاة وفزع إليها إذ لم تكن العلاقة بينهما علاقة

جسم الآكل بجسم الأكيلة ، بل علاقة الروح الحى بروح حى مثله^(١) .

قال (النابعة) : أما أنا فقد فهمت ولكن هذا المجنون لم يفهم . أكتب ياس . ع : جلس نابغة القرن العشرين مجلسه للفلسفة على غير إعداد ولا تمكّن ، وبدون كتب البتة ... وكان هذا أجمع رأيه وأذهن له وأدعى لأن يتوفّر على الإملاء بكل « مواهبه العقلية » ؛ ولما أن فكر النابغة وأعطى النظرة حقّه وجمع في عقله الفذّ جزالة الرأى إلى قوة التفنّن والابتكار ، قال مرتجلاً : إن فلسفة الذئب والشاة حين لم يأكلها ولم تنطجّه ، هى بالنص وبالخرف كما قال أستاذ نابغة القرن العشرين

(حاشية) وإن مجنون المتن لم يفهم هذه الفلسفة .

فامتعض الآخر وقال : « مما حفظناه » :

وبات يقدح طول الليل فكرته وفسّر الماء بعد الجهد بالماء

(١) روت الصحف فى هذه الأيام قصة حاكم انجليزى كان قد اقتنص ذئبا هنغاريا وشده فى سلسلة وجعله فى حديقة داره إلى أن يرى فيه رأيا ؛ وكان للحاكم طفل صغير أعجبه الذئب ومنظره الوحشى فتربص إلى الليل ، فلما استنقل أهله نوماً انسل من حجرته وهبط الحديقة وجاء إلى الذئب فوثب هذا يتحفز لافتراسه ؛ ولكن الطفل لم يدرك شيئاً من معنى هذه الوحشية ، ولم يكن فى نفسه إلا أن الذئب كالكلب فلم يضطرب ولم يخف ولم يداخله الشك ؛ ومضى إلى الوحش مسروراً مطمئناً فتناولوه من شعره وجعل يسحه بيديه الصغيرتين ويبعث به ، والذئب مدهوش ذاهل ، ثم سكن واستأنس إليه كأنه مع جرو من أجرائه لا مع طفل آدمى ؛ وجذبه الطفل من رقبته حتى أضجعه ثم اتخذه وسادة ووضع رأسه على ظهره ونام ... وافقدت الطفل مربيته فلم تجده فى فراشه ، فنبهت أهله وذهبوا يبحثون عنه فى غرف الدار ، ثم نزلوا إلى الحديقة فصرخوا به نائماً ورأسه على الذئب ، وخافوا لإزعاج الوحش فرموه بالرصاص فقتلوه وقام الطفل يبكى على صديقه الوفى ...

هذا هو أثر الروح المطمئنة الماضية على يقينها ، ولكن أين مثل هذا اليقين فى مثل هذه الحالة ؟ وكل مروضى الوحوش يعلمون أن أول وآخر ما يخيفونها به هو نزع الخوف من أنفسهم ، وأن هذا هو وحده سلاح النفس فى النفس .

فقال (الناطقة) : ويلك يا أبله ! أما والله لو كنت نَفْطَوِيَه أو سِيَمَوِيَه لما كنت عندي إلا جَحْشَوِيَه أو بَغَاوِيَه . . .

لقد كنتُ أرى الكلامَ في تلك الفلسفةِ طريقاً نَزْهاً جميلاً حَفَّتْهُ الأشجارُ والأزهارُ عن جانبيه ، واندفعتُ في سَوَائِهِ (تُمبيلاتُ) الأفكارِ خاطفةً كالبرق . فلما تكلمتُ أنتِ اتهمينا من سخافتك إلى طريقِ حَجَرِي نَقْعَمُ فيه عرباتُ النقلِ تجرُها البغالُ البطيئةُ .

فقال الآخر وهو يعتذرُ إليهِ : ما أردتُ والله مَسَاءَ تَكْ ولو أردتها لقلتُ وفسر الماءَ بعد الجهدِ بالسبرِ تو . . . فهذا هو الخطأ ، أما تفسيرُ الماءِ بعد الجهدِ بالماءِ فهو صحيح .

قال (الناطقة) : ولكنه تفسيرٌ مُفْرِطُ السقوطِ كتفسيرِ المجانين ، فهو يقولُ إني مجنون .

قلت : كلا ، إن تفسيرَ المجانين يكونُ على غيرِ هذا الوجه ، كالذي حكاه الجاحظُ قال : سمعتُ رجلاً يقولُ لآخر : ضربنا الساعةَ زنديقاً . قال الآخر : وأى شيءٍ الزنديقُ ؟ قال الذي يُقَطِّعُ المزيجاً . قال : وكيف علمتُ أنه يُقَطِّعُ المزيجاً ؟

قال : رأيته يأكلُ التينَ بالخل

المجننون

تتمّة

وطال المجلسُ بنا وبالمجنونين ، والكلامُ على أُنحائه يندفعُ من وجهٍ إلى وجه ، ويمرُّ في معنى إلى معنى ؛ فأردتُ أن أبلغَ به إلى الغاية التي جمعتُ من أجلها بين هذين المجنونين ، بعد ما انطلقا في القول وانفتح القفلُ الموضوع على عقل كل منهما .

وكان قد مرَّ في النديّ بائع روايات مترجمة « بوليسية وغرامية واصوصية ! » يحمل الرجلُ منها مَزَلةً أخلاقٍ أوربية كاملة لينفضّها في نفوس الأحداث من فتياننا وفتياتنا ، فقلت (لنابعة القرن العشرين) : أتقرأ الروايات ؟ قال : لا ، إلا مرةً واحدة ثم لم أعاودْ ، إذ جعلتني الروايةُ روايةً مثلها .

قلنا : هذا أعجبُ ما مرَّ بنا منذ اليوم ، فكيف صرتَ رواية ؟

قال : أنتم لا تعرفون طبيعة النوابيع ، إذ ليس لكم حِسُّهم المرهفُ ، ولا طبعُهم المستحكم ، ولا خصائصُهم الغيبية ، ولا خواطرُهم المتعلقة بما فوق الطبيعة .

قلت : نعم أعرف ذلك ؛ وما من (نابعة) إلا وهو بين عالمين على طرفٍ مانهنا وطرفٍ ممانهاك ، فهو خراجٌ ولّاج بين العالمين ؛ وله نفسٌ مركّبة تركيبها على نواميسٍ معروفةٍ وأخرى مجهولة ؛ فهي تأخذ من الظاهر والباطن معاً ، ويحصرها المكانُ مرةً ويفلّتها مرةً ، وتسكون أحياناً في زمانِ الأرض ، وأحياناً في زمن الكواكب من القمر فصاعداً ولكن

فقطع على وقال : أضف إلى ذلك أن هذه العقول التي تحصرُ من يسمونهم العقلاء في الزمان والمكان ، لا تُوجدُ أهلها إلا الهموم والأحزان ، والمطامع السافلة ، والأفعال الدنيئة ، فإنهم يعيشون فوق التراب .

قلت : نعم ، وإذا عاشوا فوق التراب فباضطرارٍ أن تكون معاني التراب فوقهم وتحتهم ومن حولهم وبين أيديهم ، فليسوا يقطعون على هذه الأرض إلا عمراً تريباً في كل معانيه ولكن ..

قال : وزد على ذلك أنهم مقيدون بقيود الجانين ، غير أن جبالهم وسلاسلهم عقليةٌ غيرُ منظورة ؛ وبتغلييلهم تغليل الجانين يسمون أنفسهم عقلاء ، وأعقلهم أثقلهم قيوداً ، وهذا من الغرابة كما ترى .

قلت : نعم ، أما العقلاء بحقيقة العقل ، فهم الذين يضحكون على هؤلاء ويسخرون منهم ، إذ كانوا في حالٍ كحال المنطلق من المقيّد ، وفي موضعٍ كموضع المعاني من المبتلى . ولكن ...

قال : وفوق هذا وذاك ، إنهم لا يملكون السعادة ، إذ ليس لهم العقل الضاحك الساخر العاثر الذي خُصَّ به النوابغ وكان الأوحُد فيه (نابغة القرن العشرين) .

قلت : نعم ، وإذا ملكوا السعادة لم يشعروا بها ؛ أما (النوابغ) فقد لا يملكونها ولكن لا يفوتهم الشعورُ بها أبداً فيجيشهم الفرح من أسبابه ومن غير أسبابه مادام لهم العقل الضاحك الساخر العاثر الذي دأبه أبداً أن ينسى ليضحك ، ولا قانون له إلا إرادة صاحبه ، على مشيئة صاحبه ، لمنفعة صاحبه . ولكن

قال : والذي هو أهمُّ من كل ما سبق ؛ أن أعظم خصائص هذا العقل الضاحك الساخر العاثر أن يطرد عن صاحبه ما لا يحب ويجنبه أن يخسر شيئاً

من نفسه ؛ فهو لذلك يجعل حسابَه مع الأشياء حساباً يهودياً لا بد فيه من ربح خمسين في المائة ...

قلت : نعم ، وهو دائماً كالطفل ؛ وما أظرفَ بلاهةَ الطفلِ وما أجداها عليه ، إذ يضع بلاهته دائماً في أرواح الأشياء وأسرارها فتخرجُ بلهاءً مثله ، وتنقلبُ له الدنيا كأنها أمُّ تُضاحِكُ ابنها وتلاعبه . ولكن ...

قال : ولكن هذا مبلغٌ لا تبلغه الإنسانية إلا شذوذاً في أفرادها من جبارة العقول (ك نابغة القرن العشرين) .

قلت : نعم (ولكن) كيف صار (نابغة القرن العشرين) روايةً حين قرأ الرواية !

قال : هذه نكتةُ النبوغ ؛ فلو أن مؤلفها كان نابغةً مثلنا يتلقى في نفسه وحى الأثير وإشاراتِ الروح الأعظم ؛ لعلم من الغيب أن (نابغة القرون العشرين) سيقراً روايته ، فكان يتحرّى معاني غيرَ معانيه ويتوخى بهذه القصة وضعاً آخر لا تكون فيه حبيبةً خائنة ، ولا لصُّ عارم ، ولا قاتلٌ سفاح ، ولا سجنٌ مظلم ، ولا محكمةٌ تقول حيث وحيث

قلت : وما عليك من حبيبة خائنة في الورق ، ولصٍّ بين الحروف المطبعية ، وقاتلٍ لا يقتل إلا كلاماً ، وسجنٍ ومحكمة على الصحيفة لا على الأرض ؟

قال : هذه نكتةُ النبوغ ، فما استوعبتُ القصةَ حتى عمرَ اتى أشخاصها ، وأقحمتُ منها على هَوْلٍ هائلٍ ، فخانتنى الخائنة لعنها الله ... ولولا خوفُ السجن والمحكمة لقتلتها أشنعَ قِتْلَةٍ ، ومثلتُ بها أقبحَ تمثيل . ويحُ الخائنة كيف استمالها ذلك الدميمُ الطويلُ العملاقُ المشبوحُ العظامُ المقتولُ العُضْلُ ؟ والكنى لستُ عملاقاً ولا مَبْنِيّاً بناءً الحائط ، ثم كان مجنوناً بشهواته جنونَ الفيل الهائج ،

وكنْتُ في شهواتي عاقلاً عقلَ الإنسان ، ثم كان غنياً غنيَّ الجهال ، وكنْتُ فقيراً فقراً العلماء . والنساء ؛ قبيح الله النساء . إنهن زينةٌ تطلبُ زينةً مثلهما . وإن المرأةَ لتمنحُ وجهها للقرد يقبّله إذا كان الذهبُ يتساقط من قبْلته . أما من كان مثلي ، أمواله الشبابُ والجمالُ والعقلُ والنبوغُ ، فهو مُفلس عندهن إفلاسُ القرد في الغابة ، فهو عندهن قردٌ لهذه المشابهة .

قلت : هذا ليس عجيباً فإن اللغويين يجرون على الشيء اسمَ ما يقاربه في المعنى .

قال المجنون الآخر : « مما حفظناه » أن اللغويين يجرون على الشيء اسمَ ما يقاربه في المعنى

فتربّد وجهُ (النابغة) غضباً وقال : أُنِي يلعبُ هذا المجنون ؟ إنه يزعم أن اللغويين يسمونني قرداً ، فهاتوا القواميس كلها وارجعوا إلى مادة (قرد) ومادة (نابغة) . . . سوأةٌ عليك أيها الصبيُّ المعمر . . . ألا فدعوني أُؤدبه أدبَ الصبيان فإن اللطمةَ القوية على وجه الطفل المكابر في حقيقة تلمسُه الحقيقة التي يكابر فيها إذ تدخلها إلى عقله من أقرب طريق . . .

قال ا. ش : أنت قلت ، لا هو . على أنك لست قرداً أبداً إلا عند امرأة جميلة فاتنة متخيّلة متماجنة ، قد تضع البرذعة على ظهر الأمير وتجعله حمارها ، فيعجبُ الأميرُ أن يكون حمارها . ولست قرداً مع قرّادٍ إلى جانب عزٍ وكلب . . . قال : الآن علمت السبب ، فإن الخائنة كانت متخيّلة مؤلفة كتب وروايات ، والمرأة التي تؤلف الكتب ، غيرُ بعيدٍ أن تؤلف الرجلَ أيضاً ، وتجعله قصةً هو فيها قرد . . . وهذا إن كانت جميلة كأمراء الرواية . أما إن كانت دميعةً مجموعةً من المتناقضات ، أو عجوزاً مجموعةً من السنين ؛ فهذه وهذه كلُّ أيامها

كيوم الأحد عند النصارى . . . يومٌ للعطلة لا يبيع فيه ولا شراء ولا مساومة .
هذه وهذه كلماتها تجعل الرجلَ كالماء فى سبيل التجمد . . . لا يشتعل ، فضلاً
عن أن يستعر ، فضلاً عن أن يحترق .

ومؤلفة الكتب لا يكون وجهها إلا إحدى وثيقتين : إما جميلة ، فوجهها
وثيقة بأن لها ديونا على الرجال ؛ وإما غير جميلة ، فوجهها (مخالصة) من
كل الديون

قلنا : هذا فى الخائنة . فكيف سرقة اللص ولست غنياً ؟

قال : هذه هى نكتة النبوغ ؛ وفى النبوغ أشياء لا ينكشف تفسيرها ،
وليس فى جهلها مضرّة على أحد ، وجهل لا يضرّ هو علم لا ينفع ، لكنه علم .
والبحث فى بعض أعمال (النابغة) هو كالمبحث عن سر الحياة فيه ، إذ يعمل
أعماله تلك بسرّ الحياة لا بسرّ العقل ، أى بالعقل النابغ الخاصّ به وحده لا بالعقل
الطبيعى المشترك بين الناس .

قلت : ومن عجائبك أنك لا تقرّ الروايات ، ولكنك مع ذلك تؤلفها . . .
قال : إن ذلك ليكون ، وإن لم أولفها أنا تألفت هى لى . فإذا تقدم الليل
ونام الناس جميعاً انتهت أنا وحدى لرواية العالم فأرى ما شئت أن أرى . وفى
ضوء النهار أجد الناس عقلاء ولكنى فى ظلمة الليل أبصرهم مجانين . فهذا الليل
برهان الطبيعة على جنون الناس وضعف عقولهم إذ هو يثبت حاجة هذه العقول
إلى ضرب من النسيان الأبله التام لولاه ما عقلت فى نهارها ولا استقام لها أمر .
يُضرعُ الناس فى الليل صرعة المجانين فيغمضون أعينهم ولا يرون شيئاً .
أما أنا فأرى العالم فى الليل مسرحاً هزلياً يضجُّ بالضحك من الإنسان الأحمق

الذى يقطع سَرَاةَ نهاره ، وهو معتقد أنه قابض على الوجود بالأعين والآذان والآناف ... أئن رأيت الأسد بعينك أيها الأحمق وسمعت في أذنيك زئيره ، ادعيت الدعوى العريضة ، وزعمت أنك ملكته وقبضت عليه ، ولا تدري في هذا أنك كالمعتوه إذا قبض على الظل بيده ، وصاح هاتوا الجبل لأقيده لا يفلت ... ؟

قلت : فإذا كان العالم كله روايتك فأخرج لنا فصلا من الرواية .

قال : أيما أحب إليكم ، أن أكتب أو أمثل ؟

قلنا : بل التمثيل أحب إلينا . فنظر إلى الجنون الآخر وقال : إن الجنون في طبيعته ينبوع من الأشخاص يفيض حالا بعد حال ، كينبوع الماء يسحّ الدفعة بعد الدفعة ، فهنا المسرح ، والرواية الآن رواية الطبيب والجنون ...

أنت ياس . ع . عمّ هذا الجنون . فإذا قال لك يا عم . قل له : أنا لست ولكني أخو أهلك ... لننظر أيتنبه على الفرق بين الصيغتين أم لا ؛ فإنه فرقٌ عقليٌّ دقيقٌ تمتحن به العقول ...

تعال أيها المريض فإني أرجو أن يكون شفاؤك على يدي ، وفي يدي هذه لمسة من لمسات المسيح ، لأن (نابغة القرن العشرين) هو الآن طبيب القرن العشرين

اتقوا أن تغضبوه أو تخيفوه ، وأقيموا له كل ما يحتاج إليه ، وتحرّوا مسرته دائما ، فإن إدخال بعض السرور إلى نفس الجنون هو إدخال بعض العقل إلى رأسه . متى أنكرت ياس . ع عقل ابن أخيك وما كان السبب ؟ وكيف غلب على عقله ؟ وهل ا . ش . هو خاله أو أخو أمه ... ؟

لَطَفَ اللهُ لَكَ أَيُّهَا الْمُسْكِينُ . قُلْ لِي : أَتَتَذَكَّرُ أَمْسٍ ؟ أَتَتَذَكَّرُ غَدًا ؟ ... إِنْ الْأَمْسَ وَالْغَدَ سَاقِطَانِ جَمِيعًا مِنْ حِسَابِ الْمَجَانِينِ ؛ وَمِنْ الرَّحْمَةِ بِهِمْ أَنْ الدُّنْيَا تَبْدَأُ لَهُمْ كُلَّ يَوْمٍ فَقَدْ اسْتَرَاخُوا مِنْ ثَلَاثِ هُمُومِ الزَّمَنِ فِي الْعُقْلَاءِ . وَهُمْ لَا يَصْلَحُونَ أَنْ يَنْفَعُوا النَّاسَ كَالْعُقْلَاءِ ، غَيْرَ أَنَّهُمْ صَالِحُونَ أَكْثَرَ مِنَ الْعُقْلَاءِ لِلانْتِفَاعِ بِأَنْفُسِهِمْ فِي الضَّحْكِ وَالْمَرَحِ وَالطَّرَبِ ، وَهَذَا حَسْبُهُمْ مِنَ النِّعْمَةِ عَلَيْهِمْ .

قُلْ لِي أَيُّهَا الْمَجْنُونُ : أَتَحْسِبُ أَنَّ الدُّنْيَا تَصْنَعُ لَكَ نَفْسَكَ ، أَمْ نَفْسُكَ هِيَ تَصْنَعُ لَكَ الدُّنْيَا ؟ إِنْ هَذِهِ مَسْئَلَةٌ يَحْلُلُهَا كُلُّ مُجَنُونٍ عَلَى طَرِيقَتِهِ الْخَاصَّةِ بِهِ ، فَمَا هِيَ طَرِيقَتُكَ فِي حَلِّهَا ؟

مَا لَكَ لَا تُجِيبُ أَيُّهَا الْأَبْلَهُ ؟ (هَذَا مِنْ جِهَةٍ وَمِنْ جِهَةٍ) أَعْطَوْهُ قَرَشًا لِيَنْطَلِقَ لِسَانُهُ ، وَآتَوْا الطَّبِيبَ أَجْرَهُ وَافِيًا وَهُوَ لَا يَقْبَلُ عَنْ قَرَشَيْنِ ...

ثُمَّ مَالَ (النَّابِغَةُ) عَلَى مُجَنُونِ الْمَتْنِ وَسَارَهُ بِشَيْءٍ . فَقُلْنَا مَا أَمْرُ الْمَالِ بِسِرٍّ ؛ هَذَا قَرَشٌ لِلْمَرِيضِ وَهَذَانِ قَرَشَانِ لِلطَّبِيبِ .

فَقَالَ الْمَجْنُونُ : « مِمَّا حَفِظْنَاهُ » كَفَى بِالسَّلَامَةِ دَاءً .

قَالَ « الطَّبِيبُ » : هَذَا مَرِيضٌ بِنَوْعٍ مِنَ الْجُنُونِ اسْمُهُ « مِمَّا حَفِظْنَاهُ » ، وَهُوَ جُنُونُ النِّسْيَانِ الَّذِي يَضَعُ فِي مَكَانِ الْعَقْلِ كَلِمَةً ثَابِتَةً لَا يَتَذَكَّرُ الْمَجْنُونُ إِلَّا بِهَا ؛ وَمِنْ أَعْرَاضِهِ جُنُونُ الشَّكِّ فَكُلُّ مَا حَوْلَ الْمَرِيضِ مَشْكُوكٌ فِيهِ ، وَقَدْ يَتَرَامَى إِلَى جُنُونِ اللَّمَسِ ، فَلَوْ لَمَسْتَهُ بِإِصْبَعِكَ تَوَهَّمَهَا عَقْرَبًا فَخَافَ مِنَ الْإِصْبَعِ تَلَمُّسُهُ خَوْفَهُ مِنَ الْعَقْرَبِ تَلَدُّغُهُ ، وَلَكِنْ بَقِيتُ أَشْيَاءَ لَا بَدَّ مِنَ التَّدْقِيقِ فِي فَصْحِهَا ، فَلَيْسَ هَذَا مِنْ مَجَانِينِ الْعَبْقَرِيَّةِ الَّتِي انْحَرَفَتْ عَنْ طَرِيقِهَا أَوْ شَدَّتْ فِي قُوَّتِهَا ؛ وَلَا هُوَ مِنْ يَتَجَنَّوْنَ وَيَتَحَامَقُونَ التَّمَاثِيلَ لِلرِّزْقِ وَالْعَيْشِ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ : حَمَاقَةٌ تَعُولُنِي خَيْرٌ مِنْ عَقْلٍ أَعُولُهُ .

فقال المجنون : « مما حفظناه » حماقة تعولنى ...

فضحك (النابغة) وقال : هو كما بينتُ لكم مصابُ مجنونٍ (مما حفظناه) وهو أقل الجنون وأهونه ، وعلاجه البَسْطُ والسرورُ والقرش ؛ والضربُ أحياناً .. فإذا ثابرَ عليه الداءُ تحوَّلَ إلى جنونٍ (مما ضربناه) ... فيعتدى المصابُ على كل من يراه أو يُوقِعُ به ضَرْباً ، وعلاجه حينئذ القميصُ المرقوم^(١) ؛ فإذا فدَحَتْ العلةُ انقلبَ المريضُ إلى جنونٍ (مما قتلناه) . وعلاجه يومئذ السلاسل والأغلال . والحق أقول لكم إن آخرَ ما انتهت إليه فلسفةُ الطب في القرن العشرين أن الناسَ جميعاً مجانينٌ ولكنَّ بعضهم أوفرُ قِسْطاً من بعض ، كأن سلبَ العقلِ هو أيضاً حظوظٌ كحظوظ موهبةِ العقل . وأهلُ المريحِ من أجل ذلك يسمون الأرضَ بيمارستانِ الفلَّك ...

ولكن بقيتُ أشياء لا بد من التدقيق في فحصها ؛ وعندى فى الدارِ عَاطُوس إذا أَشْمَمْتُهُ هذا المجنونَ عَطَسَ به عطسةً قوية فخرج جنونه من أنفه ... قل لى أيها المسكين : أتخاف إذا سرتَ وحدك فى ميدانٍ واسع كأن الميدانَ سيلتفُ عليك ؟ أتضطربُ إذا مشيتَ فى مَضِيقٍ كأن المكانَ سينطبقُ عليك ؟ وإذا كنتَ فى عربة القطارِ فهل يَخَيَّلُ إليك أن البيمارستانَ قد جره القطارُ وانطلق به هارباً ؟ وهل شعرتَ مرة أنه أوحى إليك أن تنتحر ؟

أرنى هذا القرش الذى فى يدك . فمد إليه المجنون يده بالقرش .

قال (النابغة) : انظر الآن هل تُحدثك نفسك أن تَغْصِبَنى هذا القرشَ أو تسْرِقَه منى ؟ قال : نعم .

(١) القميص المرقوم قيص السجن يلبسه المسجون ويرقم عليه العدد الذى يسمى اليوم (الفترة) وقد كان هذا معروفاً فى التمدن الإسلامى .

قال (النابغة) : إذن يجب أن أُحرزَه في جيبى . . . وأسرع فأخفاه
في جيبه .

فصاح الآخر وشغب ، وقال سلبتني ونهبتني . قلنا لا ينبغي أن يتصل بينكما
شرٌّ في تمثيل الرواية فهذا قرش آخر ، ولكن أفي الفلسفة عند (النابغة) إباحة
السرقه والغصب ؟

قال : فالرواية الآن هي رواية الفيلسوف العظيم أفلاطون وتلميذه أرسطو .
قل لي ويحك يا أرسطو . أعلمت أن في الجانين أغنياء يسرقون الشيء
القليل لا قيمة له وهم أغنياء وليست بهم حاجة إليه . فما علة ذلك عندك
وما وجهه في مقولة الجنون ؟

أعجزت عن الجواب ؟ إذن فاعلم يا أرسطو أن المصاب بهذا الضرب من
الجنون إذا اشترى هذا الشيء بدرهم كانت قيمته من الدرهم وحده ، وهو غنى
لا قيمة للدرهم في ماله فلا يحفل بالشراء بيد أنه إذا سرقه كانت قيمته عنده من
عقله وحيلته فيجيئه بلذة لا تشتريها كل أمواله ولا كل أموال الدنيا . فهذا
جنون باللذة لا بالسرقه ، وهو بذلك ضرب من العشق يجعل الشيء إذا لم
يسرق كأنه المرأة المعشوقة الممتنعة على عاشقها .

والجائع إذا سرقوا لياً كلوا ويمسكوا الرمق على أنفسهم ، لا يقال في لغة
الفلسفة إنهم سرقوا بل أخذوا فباضطراب جاعوا و باضطراب مثله أكلوا ،
والسارق هنا هو الغنى الذي منعهم الإحسان والمعونة . . .

فالدنيا معكوسة منقلبة أوضاعها يا أرسطو ، ولو استقامت هذه الأوضاع
لوجدت السعادة في الأرض لأهل الأرض جميعاً . وكيف لك بالسعادة والناس

مخلوقون بعيوبهم ؟ وباليتمهم مخلوقون بعيوبهم فقط ، ولكن الطائفة الكبرى أن عيوبهم تعمل دائماً على أن ترى في الآخرين عيوباً مثلها .

كلُّ حمارٍ فهو يريد أن يملأ جوفه تبناً وفولاً وشعيراً ، غير أنى لم أر حماراً قط يريد أن يملأ لنفسه الإصطبل ؛ فإذا وجدَ حمارٌ هذه همته وهذا عمله فاسمه إنسانٌ لا حمار

يأرسطو إن معضلة العضلات أن يحاول إنسانٌ حلَّ مشكلةٍ داخليةٍ محضَةٍ قائمةٍ في نفس حمارٍ أو ثابتةٍ في ذهنه الحِمَارِي . . . ومثلُ هذا أن يحاول حمارٌ حلَّ مشكلةٍ نفسيةٍ في ذهنِ إنسانٍ أو في قلبه ، فلا حلَّ لمشاكل العالم أبداً ما دام كلُّ إنسانٍ مع غيره كحمارٍ مع إنسان

والمعضلاتُ النفسيةُ من عمل الشياطين ، فكان ينبغي أن تجيء الملائكةُ لتحاربَ الشياطينَ بالبرق والرعدِ دفاعاً عن الإنسانية ؛ ولكن الله تعالى منعها ، وأرسل للإنسان ملائكةً أخرى إن شاء هذا الإنسانُ عمات ، وإن شاء عجرت ؛ وهى فضائلُ الأديانِ المنزلة . فإذا منحها الإنسانُ إرادته وقوته ، فعماتُ عماتها كان الإنسانُ هو المَلَكُ بل فوق المَلَك ، وإذا أضعفها ونحَّتها كان الإنسانُ هو الشيطان وأُسفلُ من الشيطان .

يأرسطو^(١) « هذا العالمُ عندي كتلةٌ من العدم اتفقت على الظهور وستختفي . والعالمُ عندي ضعفٌ ركَّب وقوةٌ ركبت . والعالمُ عندي لا شيء . والعالمُ بينَ بين . والعالمُ قسمان : منهم الفلاح الزراعى وذلك أفضلُ فلسفة طبيعية والعالمُ في حاجة إلى الموت والموتُ في حاجة إليه . والأدبُ هو

(١) هذه الأسطر التي وضعناها بين القوسين هي من كلام المجنون بالنص ، وكنا سألناه أن يكتب رأيه في العالم والحياة فكتب على البديهة مقالة كلها تخليط . وتندر فيها كلمات كأعمق ما تجيء به مذاهب الفلسفة .

الحياة ولا حياة بلا أدب . والأدب ضربان : أدبٌ نفساني وأدبٌ مكتسب .
وقد يكون طبيعياً كما هو عند نابغة القرن العشرين . ومن هو نابغة القرن
العشرين ؟ هو شخصٌ مات بلا موت ، ويحيا بلا حياة . »

أتريد يا أرسطو أن تعرفَ سرَّ تركيب العالم ؟ الأمر يسيرٌ غيرٌ عسير ،
فإن سرَّ تركيبه كسر تركيب القرش الذى فى يدك ، فدعنى أظهرُكَ على هذه
الحقيقة ومُدَّ يدك بالقرش لا يُبين لك سرَّ التركيب فيه

ولكن المجنون الآخر أسرع فغَيَّب القرش فى جيبه . فقال (النابغة) :
هذا سياسىٌّ داهية خبيث . والرواية الآن رواية سياسىِّ القرن العشرين .
ليس فى حقيقة السياسة إلا الرذُلُ من أفعال السياسيين . والألفاظُ
السياسية التى تحملُ أكثرَ من معنى هى التى لا تحملُ معنى . فليحذر الشرقُ
من كل لفظ سياسىٍّ يحتمل معنيين ، أو معنى ونصف معنى ، أو معنى وشبهه
معنى ؛ فإن قالوا لنا (أحمر) قلنا لهم اكتبوه بهذا اللفظ ؛ فإذا كتبوه قلنا لهم :
ارسموا إلى جانبه معناه باللون الأحمر لتشهد الطبيعة نفسها على أن معناه أحمر
لا غير وعلى هذه الطريقة يجب أن تُكتبَ المعاهداتُ السياسية بين
أوروبا والشرق .

إنهم يكتبون لنا جريدةً بأسماء الأطعمة ثم يقولون : أكلتم وشبعتم
ولقد رأيتُ (مظاهرات) كثيرة ولا كالمظاهرة التى أتمناها ؛ فما أتمنى إلا أن
يخرج كل المجانين فى مظاهرة

وهذا الأبله الذى أماننا ليس وطنياً ولا فيه ذرَّة من الوطنية ؛ فإن كان
وطنياً أو زعم أنه وطنى ، فليخرج القرش الذى فى جيبه ليكون

فألا حسناً لخروج جيش الاحتلال من مصر...

ولكن المجنون لم يخرج القرش وترك جيش الاحتلال في مكانه .
فقال (النابغة) : الرواية الآن رواية الشرطي والاص . وبحق من القانون
يكون للشرطي أن يفتش هذا الاص ليخرج القرش من جيبه

غير أن المجنون امتنع . فقال (النابغة) : كل ذلك لا يجدي مع هذا
الخبيث ، فالرواية الآن رواية هارون الرشيد مع البرامكة . ويجب أن ينكب
الرشيد هؤلاء البرامكة ليستصفي القرش ...

بيد أننا منعناه أن ينكب « البرامكة » فقال : الرواية الآن رواية العاشق
والمعشوقة ، ونظر طويلاً في المجنون وصعد فيه عينه وصوب فلم ير إلا ما يذكر
بأنه رجل ، فتهدى إلى رأي عجيب . فوقع على قدميه وتوهم امرأة في
حذاءها ... وجعل يناجي الحذاء بهذه المناجاة :

إن سخافات الحب هي أقوى الدليل عند أهله على أن الحب غير سخي ؛
فكل فكرة في الحب مهما كانت سخيّة ، عليها جلال الحب ؛ ولالحذاء في
قدميك يا حبيبتى جمال الصندوق المملوء ذهباً في نظر البخيل ، وكل شيء منك
أنت فيه سرّ جمالك أنت . والحذاء في قدميك ليس حذاءً ، ولكنه بعض
حدود جسمك الجميل ، فلا أكون كلّ العاشق حتى أحيط بكل حدودك
إلى الحذاء .

إن جسمك يا حبيبتى كالماء الجارى العذب ؛ في كل موضع منه روح

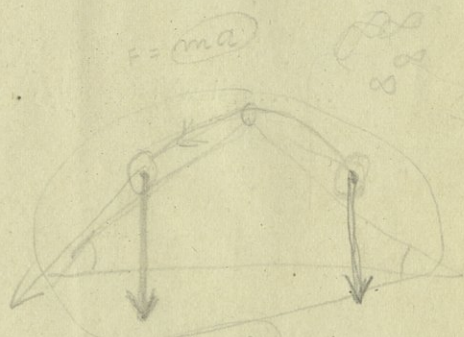
الماء كله ؛ وحيثما وَقَعَت القُبلة من جسمِكَ كان فيها روحُ شفَتِكَ الورديتين .
هذه قبلةٌ على قدميكِ يا حبيبتى ؛ وهذه قبلة على ساقِكَ ؛ وهذه قبلة على ثوبِكَ ،
وهذه قبلة على جَنِيكَ

وكادت يدُ (النابعة) تَخْرُجُ بالقرش ؛ فعضَّه الجنونُ في كَتِفِهِ عضَّةً
وحشيةً ، فجأه الخوفُ منها فطار صوابهُ ؛ فصرخ صرخةً عظيمةً دَوَّى لها المكان
وترددتْ كَصَرْصَرَةِ البازيِّ في الجو ، ثم اعتراه الطَّيفُ ، وأطبَقَ عليه الجنون
فاختلط وتخبَّطَ

(والروايةُ الآنُ) ... ؟ . رواية عربة الإسعاف

$$= (9m \times 1) - 9m \times 0.0$$

$$9m \times 1.0 = 9m (1.0 - 0.0)$$



$$F = ma$$

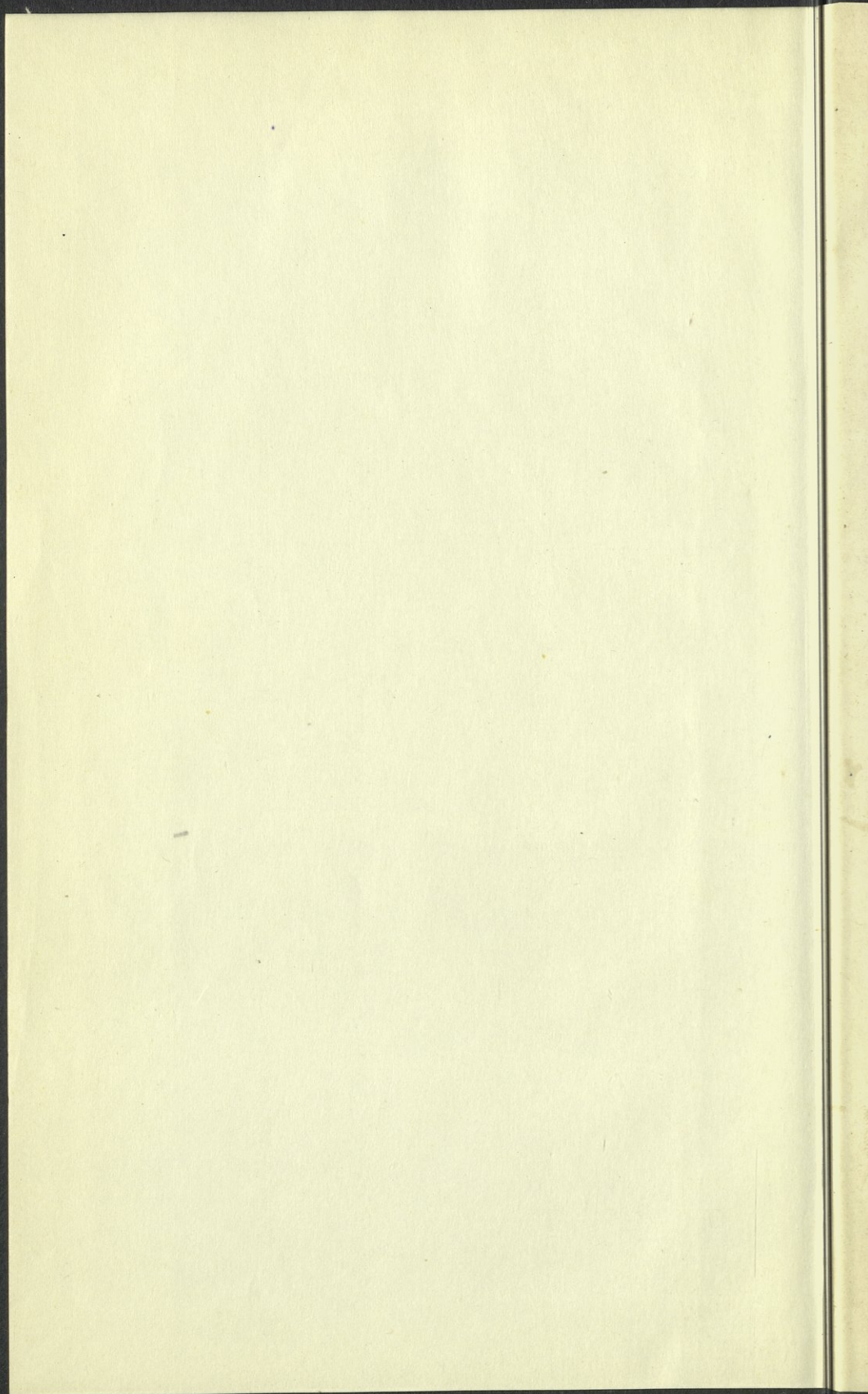
$$d = r$$

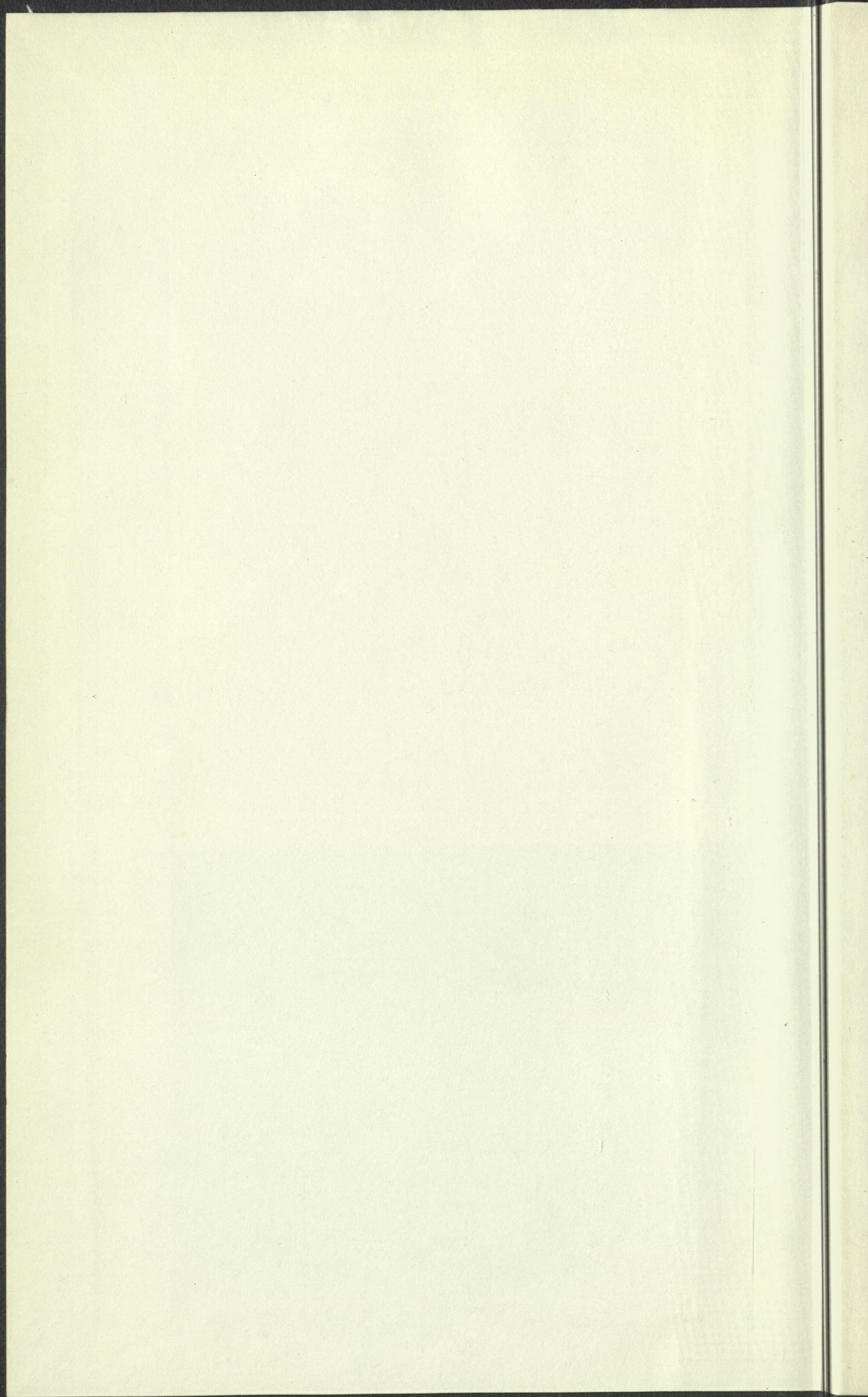
فهرست

الجزء الثانى من وحي القلم

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الانتحار (٥)	١٣٥	الإشراق الإلهى	٣٣ X
» (٦) تنمة	١٤٦	وفلسفة الإسلام	١١
وحى القبور	١٥٧	حقيقة المسلم	١٧
عروس تزف إلى قبرها	١٦٢	وحى الهجرة	٢٤
موت أم	١٦٨	فلسفة القصة	٣١
قصة أب	١٧٣	فوق الآدمية (الإسراء والمعراج)	٤٠ X X
السمة	١٨٠	الإنسانية العليا	٤٩
الزاهدان (٢)	١٩١	سمو الفقر (١)	٥٦
إبليس يعلم ... (٣)	١٩٨	» » (٢)	٦٣
الدينار والدرهم (٤)	٢٠٦	درس من النبوة	٧٢
دُعاة إبليس	٢١٤	شهر للثورة (فلسفة الصيام)	٨٠
الشیطان ...	٢٢٢	ثبات الأخلاق	٨٧ X
تاريخ يتكلم ...	٢٣٥	قلت لنفسى ... وقالت لى ...	٩٦
كفر الذبابة ...	٢٤٨	الانتحار (١)	١٠٧
يا شباب العرب !	٢٥٨	» (٢)	١١٧
لو ... !	٢٦٢	» (٣)	١٢٦
أيها المسلمون !	٢٦٩	» (٤)	

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٧٣	قصة الأيدى المتوضئة	٣٢٥	المعجم السياسى (٨)
٢٨١	نجوى التمثال	٣٢٩	اللسان المرقع (٩)
٢٨٤	فاتح الجو المصرى	٣٣٣	سر القبة (١٠)
٢٨٨	أجنحة المدافع المصرية	٣٣٨	سعد زغلول (١١)
	أهاريت الباشا	٣٤٢	حماسة الشعب (١٢)
٢٩٣	الطماطم السياسى ... (١)	٣٤٦	الجمهور (١٣)
٢٩٧	البك والباشا (٢)	٣٥١	الجنون (١)
٣٠١	ساكنو الثياب (٣)	٣٦٠	» (٢)
٣٠٦	الأخلاق المحاربة (٤)	٣٦٩	» (٣)
٣١٠	خضع يخضع ... (٥)	٣٧٨	» (٤)
٣١٥	فلتعصب ... ! (٦)	٣٨٨	» (٥)
٣٢١	وزن الماضى (٧)	٣٩٩	» (٦) تمّة





DATE DUE



3 APR 1987



892.74:R13wA:v.2:c.1

الرافعي، مصطفى، صادة،
وحى القلم

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01039150

A.U.

78
8wA